بحوث

فى الملل و النحل

الحنابلة

الجزالرابع

جعفر السبحانى التبريزى

بسم الله الرحمن الرحیم

بحوث فى الملل و النحل

كاتب:

جعفر سبحانى

نشرت فى الطباعة:

موسسة النشر الاسلامى

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

بحوث فى الملل و النحل – الجزء الرابع (يتناول حياة ابن تيمية)

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : بحوث فی الملل و النحل : دراسه موضوعیه مقارنه للمذاهب الاسلامیه تالیف جعفر السبحانی مشخصات نشر : قم اداره الحوزه العلمیه بقم الجماعه المدرسین فی الحوزه العلمیه بقم موسسه النشر الاسلامی ۱۴۱۴ق = - ۱۳۷۲.

فروست : (موسسه النشر الاسلامی جامعه المدرسین بقم ۷۲۰، ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۲۳، ۷۲۵: مرکز مدیریت حوزه علمیه قم ۱، ۲۶)

شابک : بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : ج ۱ (چاپ دوم ۱۳۷۱)؛ بها: ۱۸۰۰ ریال یادداشت : جلد اول و چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳؛ بها: ۴۰۰۰ ریال‌جلد پنجم (چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳)؛ بها: ۵۵۰۰ ریال (موسسه النشر الاسلامی جامعه مدرسین بقم)۷۲۴

یادداشت : جلد اول (چاپ چهارم ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴؛ بها: ۶۵۰۰ ریال یادداشت : ج ۴(چاپ پنجم ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵)؛ ۷۶۰۰ ریال یادداشت : ج ۷(چاپ اول ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۸(چاپ اول موسسه الامام الصادق ۱۴۱۸ق = ۱۳۷۶)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۱۴۱۲ ۵ق = ۲۵۰۰ :۱۳۷۱ ریال یادداشت : ج ۶ (چاپ چهارم ۱۴۲۴ق = ۱۳۸۲): ۳۴۰۰۰ ریال یادداشت : کتابنامه مندرجات : ج ۱. تاریخ عقائد اهل الحدیث و الحنابله و السلفیه .-- ج ۲. تاریخ الامام الاشعری و انصاره و عقائدهم .-- ج ۳. و یتناول تاریخ و عقائد الماتریدیه و المرجئه .-- ج ۴. حیاه ابن‌تیمیه و ابن‌عبدالوهاب و عقائدهما .-- ج ۶. تاریخ الشیعه نشاتهم عقائدهم و شخصیاتهم .-- ج ۷. یتناول شخصیه و حیاه الامام الثائر زیدبن علی و تاریخ الزیدیه و عقائدهه -- ج ۸. الاسماعیلیه و فرق الفطیحه ...--

موضوع : اسلام -- فرقه‌ها

شناسه افزوده : جامعه مدرسین حوزه علمیه قم دفتر انتشارات اسلامی شناسه افزوده : حوزه علمیه قم مرکز مدیریت رده بندی کنگره : BP۲۳۶/س۲ب۳ ۱۳۷۲

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۵

شماره کتابشناسی ملی : م۷۳-۲۱۵۵

مقدمة

مقدمة بسم اللّه الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على النبى الخاتم وعلى آله المصطفين الأخيار. أما بعد: فهذا هو الجزء الرابع من موسوعتنا الكلامية حول المذاهب الإسلامية، ونستعرض فيه دراسة المذهب الوهابى الّذى نشأ فى أوسط القرن الثانى عشر فى إقليم «نجد» وقد غاب نجمه يوم طلوعه، وصار خامل الذكر، ثم أعيد الى الساحة الإسلامية فى أواسط القرن الرابع عشر، بعد استيلاء العائلة السعودية على الحرمين الشريفين (مكة و المدينة)، وتبنّت الدعايات السياسية الزمنية ترويج ذلك المسلك بترغيب وإرهاب، وقامت الدوائر الإعلامية العالمية ـ عن طريق المجلات والصحف، والمؤلفين المأجورين الجدد ـ بنشر تعاليمه و تفاصيله. أسأل اللّه سبحانه أن يوفقنا فى هذا الجزء، ويعيننا فى هذه الدراسة، ويوصلنا إلى الحق الصواب إنه قريب مجيب. إنّ المذهب الوهابى المفروض على الشعب المسلم فى الجزيرة العربية وغيرها، قام على الأفكار الّتى ورثها مؤسّسها محمد بن عبدالوهاب (ت ۱۱۱۵ ـ م ۱۲۰۷) من أحمد بن

تيمية (ت ۶۶۱ ـ م ۷۲۸) الّذى بذر هذه الأفكار فى أواخر القرن السابع (۶۹۸) وأوائل القرن الثامن، وكانت بذرته الّتى بذرها مودوعة فى الكتب وزوايا المكتبات، إلى أن أحيى محمـد بن عبد الوهاب ما دثره الدهر، واتّخذ من عقائد شيخه فى المذهب ابن تيمية قاعدة (۶)

لمذهبه، وحذف منها ما يمتّ إلى مسألة التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والفوقية بصلة، واهتم بما يرجع من عقائده إلى مسألة التوحيد والشرك . ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة الأطراف، مترامية الجوانب، نشرع باذىء بدء دراسة حياة شيخه ابن تيمية أولا، ثم نعقبها بدراسة مجدّد مذهبه ومسلكه فى القرن الثانى عشر الهجرى، وإليك البحث عن حياة ابن تيمية وآراء معاصريه فى حقّه، وآرائه، مع تحليل ما اعتمد عليه من الأُصول لمذهبه، ولكن بعد تقديم مقدّمة تكشف عن الظروف العصيبة الّتى أُلقيت فيها هذه البذرة، ونشأ فيها هذا المذهب . قم ـ الحوزة العلمية جعفر السبحانى شوال المكرم / ۱۴۱۰ . (۷)

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة دعامتان للإسلام

بُنىّ الإسلام على كلمتين هما دعامتاه المبدئيتان: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة ;أمّا الأُولى فقد دعا إليها النبى الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ، بل الأنبياء والمرسلون قاطبة، ولم يكن لهم هدف سوى إرساء قاعدة التوحيد والقضاء على الوثنية، وما سوى ذلك من التعاليم من فروع تلك الشجرة الطيبة وأغصانها وثمارها، ولولا هذا الأصل لما قام للدين عمود ولا اخضرّ للإسلام عود. قال سبحانه: (و لقد بَعَثْنا فى كُلِّ أُمَّة رَسُولا أنِ اعبُدُوا اللّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .(۱) وأمّا الثانية فهى الدعامة الثانية لإرساء صرح الإسلام، بل هى الركن الركين لنشر تعاليمه وكبح جماح الجبابرة والطواغيت، ولولا وحدة الكلمة لكان الإسلام فى بدء طلوعه فريسة لمطامع الظالمين، وقد دعا إليها الذكر الحكيم فى غير مورد من آياته. قال سبحانه: (وَ اعتَصِموا بِحَبْلِ اللّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا واذكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُم إذْ كُنْتُم أعداءً فَأَلَّف بين قُلُوبِكُم فَأَصبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْواناً)(۲) . وقد قام النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى دار هجرته بتجسيد مفهوم الاخوّة بين أصحابه، قال سبحانه: (إنَّما المؤْمنونَ إخوةٌ فأَصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُم)(۳)، ________________

۱ . سورة النحل : الآية ۳۶ .

۲ . سورة آل عمران : الآية ۱۰۳ .

۳ . سورة الحجرات : الآية ۱۰ . (۸)

فآخى بين الأوس و الخزرج، وبين المهاجرين والأنصار، وآخى بين نفسه وصنوه وصهره علىّ صلوات اللّه عليه(۱) . ثمّ إنّ الرسول الأكرم ـ انطلاقاً من هذا المبدأ ـ شبّه المؤمنين مع كثرتهم ووفرتهم بالجسد الواحد وقال: «مثل المؤمنين فى توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد (الواحد) إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(۲) . ولقد كان النبى الأكرم يراقب أمر الأُمة، لا ـ يشقّ عصاها منازع جاهل أو عدوّ غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمة، وكلّما واجه خلافاً أو شقاقاً ونزاعاً بادر إلى ترميم صدعها بحزم عظيم وتدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف فى هذا المجال انتخبنا منها ما يلى: ۱- انتصر المسلمون على قبيلة بنى المصطلق وقتل من قتل من العدوّ وأُسر من أُسر منهم ;فبينما رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ على مائهم، نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصارى فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعها النبى، قال: دعوها فإنّها منتنة.. يعنى إنّها كلمة خبيثة، لأنّها من دعوى الجاهلية، واللّه سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيّرهم حزباً واحداً، فينبغى أن تكون الدعوة فى كل مكان وزمان لصالح الإسلام و المسلمين عامة، لا لصالح قوم ضدّ الآخرين، فمن دعا فى الإسلام بدعوى الجاهلية يُعزّر (۳). فالنبى الأكرم يصف كل دعوى تشقّ عصا المسلمين و تمزّق وحدتهم بأنّها دعوى منتنة، فكيف لا يكون كذلك وهى توجب انهدام الدعامة للكيان الإسلامى، وبالتالى انقضاض صرح الإسلام . ________________

۱ . راجع فی الوقوف علی مصادر الحدیث کتاب الغدیر. ج ۳ ص ۱۱۲ ـ ۱۲۴ .

۲ . مسند أحمد ج ۴ ص ۲۷۰ .

۳ . السیرهٔ النبویّهٔ، ج ۳ ص ۳۰۳ غزوهٔ بنی المصطلق، ولا حظ التعلیقهٔ للسهیلی، وراجع مجمع البیان، ج ۵ ص ۲۹۳ وغیره من التفاسیر (۹).

۲- نزل النبی الأـکرم دار هجرته والتفّت حوله القبیلتـان: الأـوس والخزرج، فمرّ شـأْس بن قیس ـ الّـذی کان شـیخاً عظیم الکفر شـدید الضـغن علی المسلمین، شدید الحسد لهم ـ علی نفر من أصحاب رسول اللّه من الأوس والخزرج فی مجلس قد جمعهم یتحدثون فیه، فغاظه ما رأی من أُلفتهم وجماعتهم، وصـلاح ذات بینهم علی الإسـلام، بعـد الّذی کان بینهم من العداوهٔ فی الجاهلیهٔ. فقال: قد اجتمع ملأُ بنی غیلـهٔ بهـذه البلاد، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهـم من قرار، فأمر فتیً شاباً من الیهود کان معهم فقال: اعمـد الیهم فاجلس معهم، ثم اذکر یوم بعـاث، یوم اقتتلت فیه الأـوس و الخزرج، وکـان الظفر فیه یومئـذ للأُـوس علی الخزرج، وکـان علی الأـوس یومئذ حضـیر بن سـماک الأشـهری، وعلی الخزرج عمرو بن النعمان البیاضـی، فقتلا جمیعاً . دخل الشاب الیهودی مجمتع القوم فأخـذ یذکر مقاتلتهم ومضاربتهم فی عصـر الجاهلیـهٔ، فأحیی فیهم حمیتها حتّی اسـتعدوا للنزاع والجـدال بحجـهٔ أنّهم قتل بعضـهم بعضاً فی العصـر الجـاهلی یوم بعاث، وأخـذ الشاب یُؤجّـج نار الفتنـهٔ ویصب الزیت علی النار حتّی تواثب رجلان من الحیّین فتقاولا . فبلغ ذلک رسول اللّـه فخرج، إلیهم فیمن معه من أصـحابه المهـاجرین، حـتّی جـاءهم فقـال: یـا معشـر المسـلمین! اللّه، اللّه، أبـدعوی الجاهلیـهٔ وأنـا بین أظهرکم، بعـد أن هـداکم اللّه بالإسـلام وأکرمکم به وقطع به عنکم أمر الجاهلیهٔ، واسـتنقذکم من الکفر وألّف به بین قلوبکم؟ کانت کلمهٔ النبی کالماء المصبوب علی النار بشدهٔ وقوهٔ، حیث عرف القوم أنّها نزعهٔ من الشیطان وکید من عدوهم، فبکوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضـهم بعضاً، ثم انصـرفوا مع رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ مـذعنین، متسالمین، مطیعین قد دفع اللّه عنهم کید عدو اللّه شأْس بن قیس، فأنزل اللّه تعالی فی شأس وما صنع (۱).. ـــــــــــــــــــــ

۱ . السیرهٔ النبویهٔ ج ۲ ص ۲۵۰ . (۱۰)

۳- کان لقضـیهٔ الإفک فی عصر الرسول دویّ بین أعدائه، فکان عدوّ اللّه «عبد اللّه بن أُبی» یشیع الفاحشهٔ ویؤذی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ، فقام رسول اللّه فی الناس یخطبهم، فحمد اللّه وأثنی علیه ـ ثم قال: «أیّها الناس ما بال رجال یؤذوننی فی أهلی ویقولون علیهم غیر الحق، واللّه مـا علمت منهم إلاّـ خیراً، ویقولون ذلـک الرجل، واللّه ما علمت منه إلاّ خیراً، وما یـدخل بیتاً من بیوتی إلاّ وهو معی ـ و کان کبر ذلک الإفک عند عبد اللّه بن أُبی بن سلول فی رجال من الخزرج . فلمّا قال رسول اللّه تلک المقالهٔ، قال «أسـید بن حضیر» وکان أوسیاً: یا رسول اللّه! إن یکونوا من الأوس نکفکهم، وإن یکونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرک، فواللّه إنّهم لأهل أن تضـرب أعناقهم، فقال سـعد بن عبادهٔ ـ وکان خزرجیاً ـ : کذبت لعمر اللّه لا تضرب أعناقهم، أما واللّه ما قلت هذه المقالهٔ إلاّ أنّک قـد عرفت أنّهم من الخزرج، ولو کانوا من قومک ما قلت هذا. فقال أسـید: ولکنّک منافق تجادل عن المنافقین. و عندئذ تساور الناس حتّی کاد أن یکون بین هذین الحیین من الأوس والخزرج شـرّ. وفی لفظ البخاری: فصار الحیّان الأوس والخزرج حتّی همُّوا أن یَقْتَتِلوا ورسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ قائم علی المنبر، فلم یزل یخفّضـهم حتّی سـکتوا وسکت(۱) . هـذه نماذج من مواقف النبی الأـعظم حیـال الخلافات الّتی کانت تنشب أحیاناً بین أُمّته وهو ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ کان یصـنع من الخلاف وئاماً ومن النزاع وفاقاً، ویدفع الشـر بقیادته الحکیمهٔ، وما هذا إلاّ لأنّ صـرح الإسـلام قائم علی کلمتین: کلمهٔ التوحید وتوحید الکلمهٔ . وهذا صنو النبی الأکرم ووصـیه وخلیفته ـ إذ حرم من حقّه المشـروع، وبـدلت الخلافـهٔ التنصیصـیهٔ إلی تداول الخلافهٔ بین تیم وعدی، ثم إلی أُمّیهٔ ـ قد

۱ . السیرهٔ النبویهٔ ج ۳ ص ۳۱۲ ـ ۳۱۳، و صحیح البخاری ج ۵ ص ۱۱۹ باب غزوهٔ بنی المصطلق . (۱۱)

بقی حلیف بیته وألیف کتـاب اللّه، وهو یری المفضول یمارس الخلافـهٔ مع وجود الفاضل، بل یری تراثه نهباً، ومع ذلک کله لم ینبس

ببنت شفة إلّا فی موارد خاصة، حفظاً للوفاق والوئام، وهو ـ علیه السَّلام ـ یشرح لنا تلک الواقعة بقوله: «فواللّه ما کان یُلْقَی فی رُوعی، وَ لا یَخْطُرُ ببالی، أنّ العَرَبَ تُزْعِجُ هَذَا الأَمرَ مِنْ بَعْدِهِ ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عَنْ أهْلِ بَیتِهِ، وَ لا أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنّی مِنْ بَعْدِهِ، فما رَاعَنی إلاّ انثیالُ الناسِ علی فُلان یُبَایِعُونَهُ فَأمْسَکْتُ یدی حتّی رأیتُ راجعة الناسِ قد رَجَعَتْ عن الإسلام یَدْعُونَ إلی مَحْقِ دینِ مُحَمّد فَخَشیتُ إن لَمْ أنْصُرِ الإسلامَ و أهلَهُ أن أرَی فیه ثَلْماً أو هَدْماً تَکُونُ المُصیبَةُ بِهِ علیَّ أعْظَمَ مِنْ فَوْتِ ولایَتِکُم، الّتی إنّما هِیَ مَتاعُ أیّام قَلائِلَ...»(۱). وعندما تسنّم سدّة الخلافة ورجع الحق إلی مداره، قام خطیباً فقال: «والزَمُوا السّوادَ الأعظَمَ، فإنَّ یدَ اللّهِ مَعَ الجماعَةِ و إیّاکُم و الفُرْقَةَ فإنّ الشّاذَّ مِنَ الناسِ للشیطانِ کَمّا أنّ الشّاذّ مِنَ الغَنَمِ للذِّئْبِ. ألا مَنْ دَعَا إلی هذا الشّعارِ فَاقْتُلُوهُ وَ لَوْ کَانَ تحتَ عِمَامَتی هَذَهِ»(۲) . هذه هی سیرة النبی الاکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وسیرة وصیّه وتلمیذه، وهما تعربان عن أنّ حفظ الوحدة من أهمّ الواجبات وأوجب الفرائض، ولکن یا للأسف لم تراع الأُمّة نصح النبی الأکرم عبر القرون والأجیال، وهذه مأساة سقیفة بنی ساعدة المسرحیة وما تمخّض عنها. واقرأها بدقة وإمعان تَرَ أنّ الجانبین المهاجرین والأنصار تشبّثوا بدعاوی منتنة تشبه دعوی الجاهلیة، فمندوب الأنصار یجرّ النار إلی قرصه بحجة أنّهم نصروا النبی الأکرم و آووه، کما أنّ المتکلم عن جانب المهاجرین (و لم یکن فی السقیفة منهم آنذاک إلاّ خمسة أشخاص) یراهم أحقّ بتداول الخلافة بحجة أنّهم عشیرة النبی الأکرم، وفی الوقت نفسه لم نجد فی کلامهما ما یشیر إلی ما یخدم صالح الإسلام والمسلمین، وأنّ المصالح الکبری تکمن ضمانتها فی تنصیب من توفّرت فیه شرائط وسمات وملامح القیادة الربّانیة دون سائر أفراد الأُمّة . ________

۱ . نهج البلاغة، الرسالة ۶۲ .

۲ . نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷ . (۱۲)

وقد توإلی الخلاف والشقّاق، ودارت الدوائر علی المسلمین بعد مقتل عثمان وانتخاب علی ـ علیه السَّلام ـ للزعامة باتفاق المهاجرین والأنصار، إلاّ من شذّ ولا یتجاوز عددهم خمسة، وعند ذلک ثقل علی الأُمّة عدل علیّ وسیرته، فثارت الضغائن البدریة ضدّه فوقع ما وقع، وتوالت الوقائع والأحداث، فجاءت وقعة الجمل الّتی أُریقت فیها دماء المسلمین، لأجل إزالة الإمام وتنحیته عن حقّه ومقامه. وبعد ما انتصر الإمام علی الناکثین وعاد الحق إلی مقره، نجم قرن آخر تمثل فی وقعة صفین الّتی ذهبت ضحیتها عشرات الآلاف من المسلمین، إلی أن انتهی الأمر إلی وقعة النهروان الّتی شغلت بال الإمام واستنفدت طاقات المسلمین، واستشهد الإمام، والمسلمون بعد لم یندمل جرحهم، وبویع ولده الإمام الحسن السبط للخلافة، وأخذ بزمام الأمر أشهراً قلائل، غیر أنّ ابن ابی سفیان شنّ الغارة علی العراق وشیعة الحسن ـ علیه السَّلام ـ ومبایعیه، فانجرّ الأمر إلی التصالح، وأُنیخ جمل الخلافة علی باب بنی أُمیّة یتداول کرتها واحد بعد واحد، حتّی انتکث علیهم فتلهم وأجهز علیهم عملهم بانتفاضة الأُمة ضدّهم، إلی أن استولی العباسیون فصاروا خلفاء الأُمة وقادتها، ولم یکونوا بأحسن من الأمویین . یا لیت جور بنی مروان دام لنا * ولیت عدل بنی العباس فی النار کان العباسیون یتوارثون الخلافة من الآباء إلی الأولاد، و کان للإسلام صولة وللمسلمین هیبة، ولم تکن تجترىء القوی الکافرة فی العالم عبر قرون علی غزو المسلمین، وإن کانت الفتن والحروب الداخلیة دائرة بینهم. غیر أنّ تلک الحروب وضعف القیادة الإسلامیة أتاحت فرصة صالحة للقوی الکافر ة المتربّصة بالمسلمین لشنّ الغارة علی الوطن الإسلامی وضرب الإسلام والمسلمین ضربة قاضیة فی أوائل القرن السادس، حیث أنشبت مخالبها فی جسد الإسلام والمسلمین، وانقضّت علیهما بالحملات الصلیبیة فی أوائل ذلک القرن، وکان منطلق شنّ تلک الحملات والغارات من جانب الغرب، عن طریق البحر تارة علی سواحل الشامات، وأُخری عن طریق البر عبر القسطنطنیة. کانت تلک الحروب لا تزال طاحنة ومشتعلة ینتصر فیها المسلمون علی (۱۳)

العدو فی فترة بعد فترة، إذ بدأت الحملات الأُخری من جانب الشرق علی ید التتار والمغول، فکان مختتم الحروب الصلیبیة مبدأ للحروب الوثنیة بایدی عبدة الشمس والکواکب، ولعلّ هذا یعرب عن اتفاق الصلیب والصنم، وبالتالی الصلیبیین والصنمیین علی تدمیر الحضارة الإسلامیة... ولسنا أول من تنبّه إلی اتفاق هاتین القوتین فی ذلک العصر المظلم، بل یظهر عن طریق الإمعان فی ثنایا التاریخ

أنّ ذلك كان أمراً مدبّراً، ولو لم يكن هناك اتفاق فى بدء الأمر لكن حصل الاتفاق بين الصليبى والوثنى فى أثناء تلك الحروب، وفى كلام ابن الأثير المعاصر لهذه الحروب إشارة إلى ذلك حيث يقول: «وقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأُمم. منها هؤلاء التتار ـ قبحهم اللّه ـ أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال الّتى يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الإفرنج ـ لعنهم اللّه ـ من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف اللّه تعالى ونصره عليهم»(۱) . ثم إنّ ابن الأثير يشير إلى ضعف القيادة الإسلامية فى تلك العصور، ويزيح النقاب عنها بقوله: «يسرّ اللّه للمسلمين و الإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه...»(۲) . ولأجل إيقاف القارىء على مدى الخسائر الفادحة الواردة على الإسلام والمسلمين، الناجمة عن هذه الحروب الصليبية والترية، نذكر لمحة خاطفة من هاتين الحربين كنموذج تمثيلى، ليعلم بذلك داء المسلمين فيه، ثم نبحث عن الدواء الّذى كان ينبغى لعلماء الإسلام أن يقدّموه إلى المجتمع الإسلامى، والمصل الناجع، ونقدّم الكلام عن الحروب الصليبية أوّلا، ثم عن الترية ثانياً، ثم تنامى رقعة الهجمات الصليبية فى الوطن الإسلامى بهجومهم على الأندلس ثالثاً، وقد استغرقت هذه الهجمات الصليبية والترية قرنين، من ــــــــــــــ

۱ . الكامل فى التاريخ ج ۱۲ ص ۳۶۰ .

۲ . الكامل فى التاريخ ج ۱۲ ص ۳۷۶ . (۱۴)

أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع أو أزيد. الحروب الصليبية (۴۹۱ ـ ۶۱۶)

كانت النصارى بالمرصاد للمسلمين، وكان من أُمنياتهم الاستيلاء على بيت المقدس و سلبه من أيدى المسلمين بحجّة أنّه قبلة الأُمم المسيحية ومثوى ومنتجع عواطفهم الدينية، فشنّوا الغارة على بلاد المسلمين حوالى سنة ۴۹۱ إلى أواخر القرن السابع، وكانت للحروب الصليبية مراحل ثمان أو تسع، فكانوا ينتصرون فى بعضها، كما تلحقهم الهزيمة فى بعضها الآخر، ومن المراحل التى انتصروا فيها على المسلمين المرحلة المعروفة التى: «ساروا فيها إلى بيت المقدس، فحاصروه ونصبوا عليه برجين، وملكوه من الجانب الشمالى، وسلّط على الناس السيف، ولبث الإفرنج فى البلد أُسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد ما يزيد على سبعين ألفاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء» (۱) . إنّ التواريخ الإسلامية تعرف السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (م ۵۸۹ هـ) الفاتح الكبير والقائد الفذّ، الّذى صمد فى وجه، الصليبيين حيث طرد الإفرنج عن الشامات، غير أنّه لم يقض فى فتوحاته على غائلة الحروب الصليبية بشكل نهائى، بل امتدت هذه الحروب فى الوطن الإسلامى بعده ايضاً. كيف وقد وقعت حرب ضروس فى سنة ۵۹۳ هـ بين الملك العادل ابى بكر بن ايوب وبين الإفرنج، فأنقذ مدينة يافا من الساحل الشامى من يد الإفرنج(۲) وقد ذكر ابن الأثير أيضاً فى حوادث سنة ۶۱۴: «أن الإفرنج اقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ۶۱۵ فساروا فى البحر إلى دمياط، فوصلوا فى صفر، فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل...»(۳) . زحف التتار إلى البلاد الإسلام

قد ذكر المؤرخون بعض الدوافع لاشتعال هذه الحرب فى أوائل القرن ــــــــــــــ

۱ . تاريخ مختصر الدول، للملطى المعروف بابن العبرى، المتوفى ۶۷۵ هـ .

۲ . الكامل ج ۱۲ ص ۱۲۶ .

۳ . الكامل ج ۱۲ ص ۳۲۳ . (۱۵)

السابع بين الوثنيين والمسلمين قالوا: إنّ ملك التتار المعروف بـ«جنكيز خان» قد سيّر جماعة من التجار ومعهم شىء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى ما وراء النهر، سمرقند وبخارى، ليشتروا به ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى «أوترار» وهى آخر ولاية «خوارزم شاه» وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، فقتلهم وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما

وصل إلى خوارزم شاه فرّقه على تجار بخارى و سمرقند، وأخذ ثمنه منهم، فبلغ الخبر إلى جنكيزخان فأرسل رسولا إلى خوارزم شاه يقول: «تقتلون أصحابى و تجارى وتأخذون مالى منهم، فاستعدوا للحرب فإنّى واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به» (۱) . ويظهر من بعض الآثار أنّ يد بعض الأساقفة كانت وراء تحريض ملك التتار على الزحف والحرب، يقول ابن العبرى: «عظم الأمر عند جنكيزخان وتأثر منه إلى الغاية وهجره النوم، وصار يحدث نفسه ويفكر فى ما يفعله، ففى الليلة الثالثة رأى فى منامه راهباً عليه السواد وبيده عكازة وهو قائم، فذكر رؤياه للأسقف فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا، ومن ذلك الوقت صار يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم، ومن هذه السنة (۶۱۶) قصد جنكيزخان البلاد الإسلامية»(۲). الداهية العظمى أو خروج التتار إلى بلاد الإسلام

إنّ عظمة الداهية بلغت حداً لا يستطيع القلم واللسان تبيينها وترسيمها ولا يستطيع المسلم أن يسمع ذكراً منها أو يقرأ فصلا من فصولها، حتّى أنّ ابن الأثير بقى عدة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فبقى يقدّم رجلا ويؤخّر أُخرى، ثم علّل إعراضه عن تحرير هذه الواقعة ــــــــــــــــــــ

۱ . الكامل ج ۱۲ ص ۳۶۱ ـ ۳۶۲ .

۲ . تاريخ مختصر الدول ص ۲۳۰ . (۱۶)

بقوله: «ومن ذا الّذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن ذا الّذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمّى لم تلدنى، ويا ليتنى متّ قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلاّ أنّه حثّنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رايت أنّ ترك ذلك لا يجدى نفعاً فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى الّتى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل إنّ العالم مذ خلق اللّه سبحانه وتعالى آدم و إلى الآن لم يبتلوا بمثله لكان صادقاً، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ـ ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، الّتى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإنّ أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لن يروا مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا، إلاّ يأجوج ومأجوج . وأمّا الدجال فإنّه يبقى على من اتّبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلى العظيم، ولهذه الحادثة الّتى استطار شررها، وعمّ ضررها، وصارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإنّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً، وتخريباً وقتلا، ثم يتجاوزونها إلى الرى، وهمدان، وبلد الجبل وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية يخربونها ويقتلون أكثر أهلها ومن ينجو إلاّ الشريد الفارّ (فعلوا كل ذلك) فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية صاروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه (۱۷)

ولم يسلم غير القلعة الّتى بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن فى ذلك الصقع من الأُمم المختلفة فأوسعوهم، قتلا، ونهباً، وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فى أسرع زمان، ولم يلبثوا إلاّ بمقدار مسيرهم لا غير. ومضت طائفة أُخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد. وهذا ما لم يطرق الأسماع مثله. فإنّ الإسكندر الّذى اتفق المؤرخون على أنّه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، إنّما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً. وإنّما رضى من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلا، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة فى نحو سنة، ولم يبق فى البلاد الّتى لم يطرقوها إلاّ وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه» (۱) . ثم إنّ ابن

الأثير تتبع مسير التتار وهجماتهم الوحشية، فذكر الحوادث المفجعة سنة بعد سنة، إلى أن وصول إلى حوادث (۶۲۸ هـ) وبعدها بقليل . و أظنّ أنّ فيما ذكره على وجه الإجمال غنى وكفاية، ولا يحتاج إلى سرد التفاصيل الّتى جاءت بعد هذا الإجمال، ولكنّه لم يدرك الهزيمة النكراء الّتى أصابت المسلمين عند سقوط بغداد، ولكن المؤرخين الذين جاءوا بعده ذكروا سقوط العاصمة فى أيدى أولئك الوحوش الضوارى، وقد ارتكبوا جرائم لا ـ تغسل عن ساحة الذاكرة الإنسانية بماء المحيط، فضلا عن البحر والنهر، ولاجل إيقاف القارىء على مدى الخسائر الفادحة الروحية والجسدية الواردة على المسلمين، نذكر من تلك الهجمات العديدة هجومهم على بغداد، فإنّه يوقفنا على حقيقة ما جرى فى غيرها، معتمدين فى ذلك على ما سطره ابن كثير فى تاريخه. ـــــــــــــــــــ

۱ . الكامل لابن الأثير ج ۱۲ ص ۳۵۸ ـ ۳۶۱ . (۱۸) سقوط الخلافة العباسية بأيدى وحوش التتار

لم تستهل هذه السنة إلّا وجنود التتار قد أحاطت ببغداد بصحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار، هولاكوخان، وقد جاءت إليهم أمداد صابح الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبّحهم اللّه تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة الّتى لا ترد من قدر اللّه سبحانه وتعالى شيئاً، كما ورد فى الأثر «لن يغنى حذر عن قدر» و كما قال تعالى: (إنَّ أجَلَ اللّهِ إذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ) (۱) وقال تعالى: (إنَّ اللّهَ لا يُغيِّرُ ما بِقَوم حتّى يُغيِّروا ما بأنفُسِهم وَإذا أرادَ اللّهُ بِقوم سُوءاً فَلاـ مَردَّ لَهُ وَمَا لَهم مِن دُونِهِ مِن وَال)(۲). وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتّى أُصيبت جارية تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياه، وكانت مولدة تسمى عرفة، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعاً شديداً، وأحضر السهم الّذى اصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: «إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقدره أذهب عن ذوى العقول عقولهم» فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، وكثرت الستائر على دار الخلافة وكان قدوم هولاكو خان بجنوده كلها ـ وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل ـ إلى بغداد فى ثانى عشر المحرم من هذه السنة. ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتّى استعطى كثير منهم فى الأسواق وعلى أبواب المساجد، و أنشد فيهم الشعراء قصائد يرثونهم ويحزنون على الإسلام وأهله . ولما فتحوا البلد، قتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة نوح: الآية ۴ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۱ . (۱۹)

والولدان والمشايخ والكهول والشبان، ودخل كثير من الناس فى الآبار و أماكن الحوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون فى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إمّا بالكسر و إمّا بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتّى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم... وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، وبذلوا عليه أموالا جزيلة حتّى سلموا وسلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها، كأنّها خراب ليس فيها إلّا القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة . وقد جرى على بنى إسرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد، كما قصّ اللّه تعالى، علينا ذلك فى كتابه العزيز، حيث يقول: (وَقَضَينا إلى بَنى إسرائيلَ فى الكتابَ لَتُفْسِدُنَّ فى الأرض مَرَّتَينِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً * فإذا جاءَ وَعدُ أولاهُما بَعَثْنا عَليكُم عَباداً لَنا أُولى بَأْس شَديد فَجاسُوا خِلالَ الدّيارِ وَكَانَ وَعْداً مَفعولا)(۱) . وقد قتل من بنى إسرائيل خلق من الصلحاء، وأسر جماعة من أولاد الأنبياء، وخرب بيت المقدس بعد ما كان معموراً بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء، فصار خاوياً على عروشه واهى البناء . وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة. فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفى ألف نفس، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون، ولاـ حول ولا قوة إلّا باللّه

العلىّ العظيم، وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً . ولما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على ـــــــــــــــ

۱ . سورة الإسراء: الآية ۴ـ۵ . (۲۰)

عروشها ليس بها أحد إلّا الشاذّ من الناس، القتلى فى الطرقات كأنّها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتّى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ;فمات خلق كثير من تغيّر الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والطعن والطاعون فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. ولما نودى ببغداد الأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنّهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الّذى يعلم السرّ وأخفى اللّه لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلّط هولاكوخان عن بغداد فى جمادى الأُولى من هذه السنة (۶۶۶ هـ) إلى مقر ملكه (۱) . ثم امتدّت الهجمات بعد سقوط بغداد حتّى وصل جيش العدو إلى عين جالوت وغزة فى فلسطين، وكانت الأُمنية الكبرى للعدو هى الاستيلاء على الشامات ثم مصر، ولكن الزحف توقف بتدبير الملك الظاهر بيبرس (۶۵۹ ـ ۶۷۶ هـ) ولكن العدو حاول الاستيلاء ثانياً على الشامات...(۲) . وهذا اليافعى يتتبع مسير التتار وهجومهم، فيقول فى حوادث عام ۷۰۰ هـ : «حصلت أراجيف بالتتار وجاء غازان بجيشه الفرات وقصد حلب فتشوشت الخواطر...» . ويقول فى حوادث عام ۷۰۲ هـ : «طرق غازان الشام ولكن انهزم عند سور دمشق وتفرّقت جيوشه، ثم جهّز غازان جيوشه فصاروا إلى مرج دمشق وتأخر المسلمون وبات أهل دمشق فى بكاء واستغاثة وخطب شديد، وقدم ـــــــــــــــ

۱ . البداية والنهاية، ج ۱۳، ص ۲۰۰ ـ ۲۱۳ .

۲ . فيليب حتى. تاريخ العرب المترجم إلى الفارسية، ج ۲ ص ۸۸۳، ۸۵۱، ۸۲۸ . (۲۱)

السلطان وانضمّت إليه جيوشه...»(۱) . هذا قليل من كثير مما جنت يد التتار على الإسلام والمسلمين، وقد امتدّ الدمار والهلاك بعد هذه السنة حتّى تجاوز القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن. فابتدأت الحروب التترية من عام ۶۰۳ هـ وانتهت عام ۸۰۷ هـ بموت تيمورلنك الّذى تظاهر هو بالإسلام وبعض من قبله، ولكن لمن تزل القلوب مضطربة باستيلاء هؤلاء على المناطق الإسلامية . * * *

إبادة المسلمين فى الأندلس

انتهت الحروب الصليبية والتترية فى مختتم القرن الثامن، ولكن نار الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت مشتعلة فى الوطن الإسلامى «الأندلس» عن طريق إبادة المسلمين وإجلائهم عن وطنهم والتنكيل بهم . إنّ المسلمين بفضل المجاهدين الإسلاميين وصلوا إلى تلك البلدة الخصبة عام ۹۲ هـ واستمرّوا فى الفتح إلى أن وصلوا إلى قلب فرنسا عند مدينتى «تور» و«بواتييه» عام ۱۱۲ هـ (۲) وهناك توقفت الفتوحات بسبب ضعف القيادة الإسلامية فى بغداد، وقطع صلة الحكام بالأندلس عنها، وعند ذلك طمع الصليبيون فى سلب تلك البلدة من أيدى المسلمين، فبدأوا بالحروب ضدهم، وكانت الأندلس فى نهاية القرن الخامس الهجرى قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة، عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه المنطقة»(۳) . إلى أن حلت الهزيمة بالمسلمين فى موقعة العقاب فى ۱۵ صفر ۶۰۹ هـ أى فى نفس الوقت الّذى كان التتار قد بدأوا بشنّ الغارة على المسلمين من الشرق إلى الغرب وبالتالى زال سلطان «الموحدين» وسقطت هذه البلاد فى يد ـــــــــــــــ

۱ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۳۴ ـ ۲۳۵ .

۲ . دائرة المعارف الإسلامية، مادة «أندلس» .

۳ . تاريخ الإسلام، تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ۴ ص ۵۳۷ . (۲۲)

«الإسبان» ولم يبق فى أيدى المسلمين سوى منطقة جبلية فى جنوب شرقى إسبانية حيث قامت مملكة «غرناطة» الإسلامية على أيدى

بنى نصر (بنى الأحمر) الذين بايعوا الخليفة الحفصى أقوى حكام المغرب فى ذلك الحين (۱) . ولكن العدو لم يرض بما اكتسب من الفتوح فشنّ الغارة عليهم حتّى أبادهم عام ۸۹۸ هـ فصار الأندلس كله للإسبان. ثم إنّ التاريخ يحكى لنا تعامل الإفرنج مع المسلمين معاملة سوء، حيث أجبروهم على التنصّر وعلى خروج النساء مكشوفات، فهرب المسلمون إلى الجبال فصاروا يطاردونهم كما تطارد الفرائس. وقد عدّ بعض المؤرخين عدد العرب المطرودين فى قرن واحد (أى من عام ۷۹۱ إلى عام ۸۹۸ هـ) نحواً من ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلماً . و أنت إذا قرأت التاريخ وقلبت صفحاته تقف على أنّ هذه القرون الأربعة أى من بداية ۵۰۰ إلى ۹۰۰ هـ شرّ القرون وأسوأها بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وضحايا لم يسجّل التاريخ لواحد من الأُمم مثلها، وإليك مبدأ هذه الحروب ومختتمها: ۱- الحروب الصليبية. بدأت من عام ۴۸۹ هـ واستمرت إلى عام ۶۶۰ هـ . ۲- الحروب التترية، ابتدأت من عام ۶۰۳ وانتهت عام ۸۰۷ هـ بموت تيمور لنك الّذى تظاهر بالإسلام . ۳- إبادة المسلمين فى الأندلس و إجلاؤهم بعد انحصار سلطانهم فى منطقة صغيرة فى غرناطة، ابتدأت من عام ۶۰۹ إلى ۸۹۸ هـ . حصيلة البحث

نحن نستنتج من هذا البحث الضافى أنّ الخلافة العباسية وملوكها وسلاطينها بلغوا من الفساد والانحلال إلى حدّ غاب عنهم معه ما كان يجرى ————

۱ . المصدر نفسه، ص ۳۱۸ . (۲۳)

خارج قصورهم، فقد كانت القوى الكافرة محيطة بدار الخلافة، والخليفة كان غافلا عمّا يجرى خارج القصر، وكانت تلعب بين يديه جاريته فلم يوقظه من الغفلة أو السكرة إلّا إصابة نبل الخصم لجاريته، فإذا كان هذا هو الإسلام وهذا خليفته، وهذا شعوره وإحساسه، فعلى الإسلام السلام، وعلى تلك الخلافة العفاء . وقد عرفت أنّ ابن الأثير كان من المشاهدين للقضايا عن كثب، ويعرف الخلفاء وسلاطينهم بأنّهم بلغوا من العقلية إلى درجة لا يهمّهم إلّا ما يهمّ البهيمة من إشباع بطنها و إرضاء فرجها (۱) . ومن المعلوم أنّ الفساد لم يكن مقتصراً على بلاط الخلفاء، بل الانحلال الخلقى والانحطاط المعنوى كان سائداً على الغالبية العظمى من المجتمع، إذ الناس على دين ملوكهم، ومن العجب أنّ المؤرخين الأباعد يحملون وزر سقوط الخلافة العباسية على عاتق الوزير الشيعى مؤيّد الدين ابن العلقمى، الّذى يصفه ابن الكثير بقوله: «وكان عنده فضيلة فى الإنشاء ولديه فضيلة فى الأدب» ويضيف أيضاً: «إنّه أشار على الخليفة بأن يبعث إلى هولاكو بهدايا سنية ليكون ذلك مدارة له عمّا يريده من قصد بلادهم، فخذّل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير «أيبك» وغيره، وقالوا إنّ الوزير إنّما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشىء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكوخان»(۲) . ومن الظلم إلقاء جريرة سقوط بغداد على عاتق هذا الوزير مع كون الخليفة على الحال الّتى سمعتها من ابن الكثير، وكون الملوك والسلاطين لا يهمّهم إلاّ بطنهم وشهوتهم، مع اشتعال نار الخلاف بين الرؤساء والقادة الشاغلين منصّة قيادة المجتمع الإسلامى، فلا تنتج تلك المقدمات إلاّ هذا الوضع الوبيل، إنّا للّه و إنّا إليه راجعون .

---

۱ . الكامل فى التاريخ ج ۱۲ ص ۳۷۵ .

۲ . البداية والنهاية ج ۱۳ ص ۲۱۴ . (۲۴) الحواضر الإسلامية آنذاك، دواؤها وذواوها

قد تعرّفت على الأوضاع المؤسفة السائدة فى الحواضر الإسلامية، وما آلت إليه من الدمار والهلاك والمذابح الفظيعة، والمجازر الرهيبة الّتى تعرّض لها سكانها الأبرياء، بسبب تلك الحملات العدوانية، وعندئذ نسأل كل مسلم حر الضمير عن دواء هذا الداء الّذى ألمّ بالمسلمين، وعلاج تلك المأساة الّتى وقع فيها الإسلام ؟ ولا أشك فى أنّ دواءها الوحيد كان هو إحياء التعاليم الإسلامية ـ آنذاك ـ فى مجال الجهاد والمقاومة، وإعادة الثقة إلى النفوس، والعمل على تقوية المعنويات ورفع المستوى العسكرى لدى المسلمين عملاً بقوله تعالى: (وَ أَعِدُّوا لهم مَا استَطَعْتُم مِن قُوَّة وَمِن رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَ عَدُوَّكُم)(۱) . ثم السعى فى توحيد ما تفرّق وتشتّت من صفوف المسلمين، وحثّهم على تعمير ما تهدم من حضارة الإسلام، وإحياء شتى مناحى الحياة الاجتماعية

والاقتصاديـة والسياسـيـة، ممّا انهارت تحت ضـربات الأعـداء من الشـرق والغرب . ولا يكون ذلك إلا بإعادة العلم الناجع إلى الساحة، وتناسى الخلافات الفرعية، والدعوة إلى التمسّك بمبادىء الوحدة، وتجسيد قوله سبحانه: (إنَّما المُؤمِنُونَ إخوةٌ)(۲) ورفض البحث عن الخلافات الّتى تثير النزاع، وتوجد الفرقة وتمزق الصفوف. هـذا ما يحكم به ضـمير كل إنسان حر، فلو وجـدنا فى مثل هذه الظروف العصيبة من يثير نار الخلافات الطائفيـة والمذهبية، وبالتالى يضـرب المسـلم بالمسلم ويشـغلهم بالبحث عن فروع ليس لها من الأهمية بالقيـاس إلى علاج الـدمار الرهيب الّذى حلّ بالمسـلمين ـ لو وجـدنا رجلا بهـذا الوصف والنعت ـ فلا نشك أنّ نعرته نعرة جاهليـة، وحركته حركة مشبوهة، ودعوته دعوة منتنة ـــــــــــــــــ

۱ . سورة الانفال: الآية ۶۰ .

۲ . سورة الحجرات: الآية ۱۰ . (۲۵)

حسب تعبير النبى، ومن الظلم والجنايـة على الإسـلام والمسـلمين تلقيب هـذا الداعى بـ «شـيخ الإسـلام» أو «محيى الشـريعة» أو «محيى السنة» أو غير ذلك من ألفاظ الثناء الوافر الّذى يوصف به هذا الرجل فى هذا القرن، بترغيب وترهيب من أصحاب الثراء والسلطة، بعد أن كـان معروفاً بغيرهـا فى القرون الغـابرة، كما سـتوافيك كلمات معاصـريه ومن جاء بعـدهم إلى هـذه الأعصار . إنّ طرح الخلافات الكلامية والفقهية ـ فى العصـر الّذى كانت القوارع تنصبّ فيه على رؤوس المسـلمين من الشـرق والغرب، وتهدم الديار وتقتل النفوس البريئـة، وتشقّ بطون النساء والأطفال، ويرفع الرجال على أعواد المشانق وتخضب الأراضـى بدماء المسـلمين ـ ما هو إلاّ من قبيل صـب الزيت على النـار، وتعميق الجرح غير المنـدمل . إنّ طرح المسائل على ضوء العقـل إذا كان لغايـة التعرّف على الحقائق أمر يستحسـنه العقل ويقبله الشـرع فى جميع الحالات ولكن طرح هذه المسائل على وجه يتضـمن تكفير الفرق الإسلامية واتهامهم بالشرك، وتجويز قتلهم وإهـدار دمائهم، فى الوقت الّذى غمس العدو يده فى دمائهم إلى مرفقه، وقتل منهم الملايين، لا يصحّ تفسيره إلاّ بأحد وجهين: إمّا أن يكون رجلا غبياً لا يعرف الداء ولا الدواء، أو رجلا مُعقّداً مغرماً بالشهرة وحبّ العظمة. وما هذا الرجل إلاّ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ۶۶۱ ـ م ۷۲۸ هـ) فقد ولد فى شر القرون وعاش فى أجوائها الصعبة على المسلمين، ومات فى ظروف الهزيمة الّتى حلت بالمسـلمين، لعلل تعرّفت عليها، فقـد أثار فى تلك الظروف العصـيبة مسائل خلافيـة لا تزيد فى الطين إلاّ بلّة ولا فى الجرح إلاّ تعميقاً، فهو بـدل أن يعيد إلى الساحة الإسـلامية الأخلاق والعمل بالإسـلام، ويعظ الملوك والساسة بالقيام بالوظائف وفتح معسـكرات لإعداد الشـباب وتـدريبهم، وإيجاد روح الكفاح، تجـده يرفع عقيرته بالمسائل الّتى لا تعود على المسـلمين فى تلك الظروف العصـيبة بشـىء سوى تعميق الخلاف وتعكير الصـفو، وتشديـد النزاعـات المذهبيـة والطائفيـة . ورؤوس المسائـل الّتى طرحهـا ابن تيميـة وأصـرّ عليها وخالف الرأى العام (۲۶)

للمسـلمين ـ ولأجل ذلك اعتقل ونفى إلى مصر ـ هى الأُمور التالية: ۱- يجب توصـيفه سبحانه بالصفات الخبرية بنفس المعانى اللغوية من دون تصـرّف، كالاسـتواء على العرش، و أن له يـداً ووجهاً، وأن له نزولا وصـعوداً. ۲- يحرم شـدّ الرحال إلى زيارة النبى وتعظيمه بحجّـة أنّها تؤدّى إلى الشـرك. ۳- يحرم التوسّـل بالأوليـاء والصالحين. ۴- تحرم الاسـتغاثة بالأوليـاء ودعوتهم. ۵- يحرم بنـاء القبور وتعميرها. ۶- لا يصـح أكثر الفضائل المنقولـة فى الصـحاح والسـنن فى حقّ علىّ وآله . إلى غير ذلك من المسائل الفرعيـة فى أبواب الطلاق وغيرها كما ستقف عليها عند عرض آرائه. هب أيّها القارىء لما أنّ تبنّاه من الآراء مسحة من الحق ـ وليست آراء ساقطة تضاد القرآن الكريم والسـنة النبوية وسيرة المسـلمين ـ هب أنها آراء صـحيحة ـ ولكنّها هل كانت مفيدة فى تلك الظروف، هل كانت دواءً لـداء الأُمـة الإسـلامية؟ أو كـانت أموراً غريبـة عمّـا يجب القيـام به، بـل كـانت مؤيـدة لمـا يتوخـاه العـدو من تشـتيت الشـمل وتمزيق الصـفوف؟!! إنّ من البداهة بمكان أنّ هذه المسائل لم تكن مما يخشاه العدو، فإنّ هذا النوع من المسائل الجدلية لا تفضح نوايا العدو ولا تعرقل خططه، لأنّها لا تعيد إلى المسـلمين روح الوثبة والمقاومة والاسـتبسال، بل من شأنها أن تسـتنفد طاقاتهم من دون جدوى، و تفنى قواهم من دون أثر يتّصل بالواقع . فلو كان ابن تيمية «شـيخ الإسـلام» حقاً لكان عليه أن يدع ما يلهى المسـلمين عن مصيرهم، بل

ما يعمّق محنتهم، ويتصدّى لمواجهة العدو بإعادة الروح الجهادية إلى نفوسهم، وبث المعنويات فى قلوبهم، وتوجيه همم (٢٧) المسلمين، إلى إعادة بناء كيانهم العسكرى والصناعى والعلوم الناجعة، حتّى يستعيدوا بذلك مجدهم المندثر الّذى تألق فى القرن الرابع الهجرى . ويا للأسف إنّه بدل القيام بوظائف شيخوخة الإسلام الحقيقية انصرف إلى مسائل اجتهادية ليست ناجعة فى ذلك العصر ولا بعده . ابن تيمية لم يكن سلفياً

إنّ الموالين لابن تيمية والمقتفين أثره يصفونه بالسلفية، ويتقولون فيه بأنّه محيي مذهب السلف. هب أنّ السلفية مسلك ومذهب، ولكن السلفى عبارة عمَّن لا ـ يتخطّى عمّا سلكه السلف الصالح طيلة قرون سبعة، ولكن أراءه وأفكاره على طرف النقيض من أراء السلف. إنّ المسلمين طيلة قرون كانوا يحترمون قبر النبى ويزورونه، ولم تقع الزيارة فى تلك العصور ولو مرة واحدة ذريعة إلى الشرك، بل كان الداعى إلى زيارته فى كل فترة من الفترات، كونه نبىّ الإسلام نبىّ التوحيد، ومكافح الشرك ومنابذه، فيجب احترامه وتكريمه وحفظ آثاره وقبره، وآثار أصحابه وزوجاته وأبنائه انطلاقاً من هذا المبدأ (أى كونه نبىّ التوحيد، مشيد بنائه الشامخ) ولكنّا نرى أنّ ابن تيمية يخالف هذه السيرة الموروثة من الصحابة إلى زمانه، ويحرّم شدّ الرحال إلى زيارته تمسكاً بحديث غير دال على ما يرتئيه، كما سيوافيك. إنّ المسلمين طيلة القرون الغابرة إلى ميلاد ابن تيمية كانوا يتبرّكون بالنبى وآثاره، ولا يرون ذلك شركاً ولا ذريعة إليه، حتّى أنّ الشيخين أوصيا بمواراتهما فى جوار النبى، لما استقرّ فى قرارة ضميرهما بأنّ للمكان شرافة ومكانة بالغين، وأنّ المواراة فى ساحة النبى لها كرامة، ولم ينبس أحد من الصحابة ببنت شفة بأنّ ذلك ذريعة إلى الشرك، إلى أن ألقى الشر بجرانه إلى الأرض بميلاد ابن تيمية وآرائه الساقطة، فجعل ينكر هذا العمل ويخالف السلف. إنّ السلف الصالح فى حياة النبى وبعده كانوا يستغيثون بالنبى لما له من كرامة عند اللّه، لما أمرهم اللّه سبحانه بالمجىء إليه وطلب الاستغفار منه، ولم يخطر ببال أحد أن الاستغاثة بالملخوق شرك أو ذريعة إلى الشرك، وكان هذا (٢٨)

ديدن السلف فى جميع القرون، فجاء ابن تيمية ينكر الاستغاثة والتوسل، ثم يصف نفسه سلفياً، فما معنى هذه السلفية؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل) . تقييم إنجازات ابن تيمية

إنّ قيمة كل امرىء بما يقدّمه إلى الأُمة من خدمات وخيرات، فإمّا أن يشيد بناء ثقافتهم ويضمن تقدمهم فى ميادين العلم والعمل، ويرفع من مستوى أخلاقهم وسلوكهم الإنسانى والإسلامى، وإمّا أن يرفع مستوى معيشتهم و يسعى فى ترفيههم بمشاريع البرّ و الإحسان، من بناء المدارس ومراكز التعليم والمستشفيات والمستوصفات، ودعم الكفاح بالتدريب العسكرى وغيره مما يرجع إلى دعم البنية المادية للمجتمع. هلم معى نطرح إنجازات ابن تيمية على طاولة النقاش والمحاسبة، فهل قام بأحد الأمرين؟ أمّا من جانب المعنى فلم نر أنّه قدم إلى المجتمع، دراسة نافعة فى الحقوق والسياسة والاقتصاد أو الاجتماع، أو ألف جامعاً حديثياً يكون هو المرجع للمسلمين كما قام بعض معاصريه بهذا الأمر، فلم يبق منه إلّا التركيز على المسائل الّتى قدمنا رؤوسها والّتى كفّر بها مخالفيه، وبالتالى كفّر جمهور المسلمين الذين عاشوا طيلة سبعة قرون . هب أنّه قدم إلى المسلمين دراسات توحيدية، ولكن ما كانت نتيجة تلك الدراسات، فغاية ما أنجز وأتى ـ بعد ما تصوب وتصعد ـ أنّه يجب توصيفه سبحانه بنفس الصفات الخبرية بمعناها اللغوى، فصار معناه هو التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة والفوقية للّه سبحانه، وقد فهم الكل هذا المعنى من دراساته. هب أنّه لم يقصد من إثبات هذه الصفات ما نسب إليه من الجسمية، ولكنّه صبّ ما رآه فى قوالب أذْعَنَ الكُلُّ ـ الدانى منهم والنائى ـ بأنّه مُجسّم مشبّه مُثْبت للّه سبحانه الجهة والفوقية، مع أنّه سبحانه ليس بجسم ولا جسمانى، و أنَّهُ ليس كمثله شىء . ما معنى هذه الدراسات العميقة الّتى لم تورث إلّا هذه الأفكار الباطلة، (٢٩)

وسوف يوافيك أنّ الرجل مجسّم وإن كان لا يتفوه به، ولكن جُمَلَهُ وألفاظه وعباراته وما أصرّ عليه لا تنتج إلّا ذلك. وقس عليه سائر إنجازاته من جانب المعنى، فقد منع شدّ الرحيل إلى زيارة النبى الأكرم، مع أنّ قبور الأنبياء لم تزار تزل من عصر النبى وقبله وبعده، وليست الغاية من زيارتهم إلاّ ـ التوقير والتكريم و عقد الميثاق مع ما جاءوا به من أُسس التوحيد، فكيف يكون ذلك ذريعة إلى

الشـرک؟ وحصـيلة البحث هی أنّنا لم نجد فی جميع إنجازاته شيئاً بديعاً يرفع به رأسه ويفتخر به علی من سواه، سوی ما فی کلامه من الغلظة والأذی . اللسان والقلم مرآتان للضمير

إنّ اللسان والقلم مرآتان لضـمير صاحبهما يعربان عن نفسـيته الخبيثة أو الطيبة، الشـريرة أو الخيّرة، فاللسان البذیء يکشف عن نفسـيته المستهترة المريضـة، کما أنّ اللسان و مثله القلم النزيهين يکشـفان عن ملکـة فاضـلة. ومن رجع إلی کتب ابن تيميـة يعرف أنّه ما کان يملک لسانه وقلمه عن التقوّل علی المسـلمين والتهجّم عليهم فجاءت کتاباته مليئة بالقول البذیء و إساءة الأدب، الّذی هو علی طرف النقيض من الإسلام والعلم. ابن تيمية فی مرآة الرأی العام

ولقـد کـانت ثورة الرأی العـام الإسـلامی عليه من جـانب الفقهـاء والحکـام والمتکلمين والمحـدثين أدلّ دليـل علی انحرافه عن الخط المستقيم والطريق المهيع، فليس من القضـاء الصـحيح تخطئـة جمهور المسـلمين وتصويب رجـل واحـد، فمنـذ نشـر الرجل رأيه حول الصـفات الخبريـة عام ۶۹۸ هـ فی «الرسالـة الحمويـة» جـاءت الاسـتنکارات تـتری من جميع الطوائف، وکلمـا تعرض الرجـل للعقـائد الإسـلامية الّتی اطبقت عليها الأُمـة فی جميع القرون، تعالی الاسـتنکار، حتّی أُلقی عليه القبض ونفی من بلـد إلی بلد، وتعرض لاعتقال بعـد اعتقـال، إلی أن منع من القرطاس والکتابـة، حتّی مات فی السـجن ممنوعاً من کل شـیء . ولو کان الرجل شـيخ الإسـلام ورائـده وناصحه، لما ضاق عليه المجال من (۳۰)

جـانب أبنـاء جلـدته من قضـاة وحکام: شوافع وأحناف . نعم الأسف کلّه علی الناشـئة الجـدد الـذين وقعوا فرائس فی أحابيل الـدعاية الوهابية الّتی يقودها النظام السـعودی ويغذيها بثروته الواسعة، ويدعمها الاستعمار الغاشم لغاية إضعاف المسلمين بالخلافات وإشغالهم بقضايـا ومسائـل لا تمتّ إلی الحياة بصـلة. ولأجل ذلک نضع حياة الرجل وشخصـيته أولا، وآراء معاصـريه ومن جاء بعـده فی القرون اللاحقـة فی حقه فی ميزان النقـد والقضـاء ثانيـاً، ثم نبحث عن آرائه و أفکـاره ونعرضـها علی الکتـاب والسـنة ثالثـاً، حتّی يتبين الحق ويظهر، ويزهق الباطل .

ابن تيمية: حياته والرأی العام فيه

ابن تيمية: حياته والرأی العام فيه

هو أحمد بن عبد الحليم الحرانی الدمشـقی، ولد فی العاشـر من شـهر ربيع الأول سنة ۶۶۱ هـ ، بعد خمس سـنوات من سقوط الخلافة الإسـلامية فی بغـداد، وانغمار المسـلمين فی مشاکل کثيرة. کان مولـده بمدينة حران مهد الصابئة والصابئين من أقدم عصور الإسـلام، وقـد نشـأ النشـأة الأُولی إلی أن بلغ السابعـة من عمره، فلما أغار عليها التتار، فرّ سـکانها منها، وکان ممن هاجر أُسـرة ابن تيميـة، حيث هاجرت إلی دمشق، وقد اتّجه إلی العلم منذ صـغره، وکان يدرس الفقه الحنبلی ويتتبّع سـير ذلک المذهب، وکان أبوه من شـيوخ هذا المـذهب، ففی المـدارس الحنبليـة تخرج ابن تيميـة، ودرس فی کنف ابيه وتوجيهه ولم ير منه بادرة إلاّ بعـد ما کتب رسالة فی جواب سؤال أهـل حمـاة، سألوه بقولهم: «مـا قول السـادة العلماء أئمـة الـدين ـ أحسن اللّه إليهم أجمعين ـ فی آيات الصـفات، کقوله تعالی: (الرّحمنُ عَلَیَ العَرْشِ اسْـتَوی) وقوله: (ثُمَّ اسْـتَوَی إلی السَّمـاء) إلی غير ذلک من الآيات وأحاديث الصـفات، وأيضاً کقوله (صـلی الله عليه و آله): «إنّ قلوب بنی آدم بين اصـبعين من أصـابع الرحمن» وقوله: «يضع الجبّـار قـدمه فی النار» إلی غير ذلک، وما قالت العلماء فيه، وليبسطوا القول فی ذلک مأجورين إن شاء اللّه؟»(۱) . ______________

۱ . الرسالة الحموية، ص ۴۲۵ ـ طبعت فی ضمن مجموعة الرسائل الکبری ج ۱ . (۳۲)

فأجاب بما هو نصّ فی التجسـيم، وإن ذيّل کلامه بشـیء يريد به الستر علی عاره، ولکنّه لا يسـمن ولا يغنی من جوع، وسيوافيک نصّه عنـد تبيين عقائـده، فاوجـد الجواب ضـجة کبری، وعرف بالشذوذ والانحراف، وکان ذلک عام ۶۹۸ هـ يقول تلميـذه «ابن کـثير» فی حوادث تلک السـنة: «قام عليه جماعـة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلی مجلس القاضـی «جلال الدين الحنفی» فلم يحضـر، فنودی فی

البلد فى العقيدة الّتى كان قد سأله عنها أهل حماة، المسماة بالحموية...»(۱) . وقد كانت له محنة أخرى فى عام ۷۰۵ هـ يذكره ابن كثير فى حوادث تلك السنة ويقول: «وفى يوم الإثنين ثامن رجب حضر القضاء وفيهم «الشيخ تقى الدين ابن تيمية» عند نائب السلطنة بالقصر، وقرأت عقيدة الشيخ تقى الدين (الواسطية)، وحصل بحث فى أماكن منها، وأُخّرت مواضع إلى المجلس الثانى، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثانى عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفى الدين الهندى وتكلم مع الشيخ تقى الدين كلاماً كثيراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين الزملكانى هو الّذى يحاققه من غير مسامحة، فتناظرا فى ذلك وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين الزملكانى، وجودة ذهنه، وحسن بحثه، حيث قاوم «ابن تيمية» فى البحث وتكلم معه... ثم عقد المجلس فى يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرضى، إلى أن صدر القرار بنفى الشيخ إلى مصر إن لم يعزف عن بوادره وعقائده، فأدى به الأمر إلى انتدابه فى مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة، وانتدب للبحث معه شمس بن عدنان، وادّعى عليه عند «ابن مخلوف» المالكى أنّه يقول: إنّ اللّه فوق العرش حقيقة، وإنّ اللّه يتكلم بحرف وصوت، فحكم عليه القاضى بالحبس فى برج أياما، ثم نقل منه إلى الحبس المعروف بالجب، وكُتِبَ ________________

۱ . البداية والنهاية ج ۱۴ ص ۴ و ۲۶ . (۳۳)

كتاب نودى به فى البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقى الدين، فانضمّ إلى صفّه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة(۱) . بقى الشيخ فى السجن بسبب عقيدته الّتى لا تجتمع مع عقيدة جمهور المسلمين حتّى مطلع سنة (۷۰۶ هـ) . يقول ابن كثير: وفى ليلة عيد الفطر من تلك السنة، أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر، القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء، فالقضاة: الشافعى والمالكى والحنفى، والفقهاء: الباجى، والجزرى، والمنوارى، وتكلموا فى إخراج الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً فى ذلك منها أنّه يلتزم بالرجوع عن بعض عقائده، فأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه فى ذلك، فامتنع عن الحضور . استهلّت سنة (۷۰۷ هـ) والشيخ معتقل فى قلعة الجبل بمصر، إلى أن أُطلق سراحه يوم الجمعة ۲۳ من ربيع الأول، وخيّر بين الإقامة بمصر أو الروح إلى موطنه الشام، وقد اختار هو الإقامة بمصر، ولكنّه لم يبرح فى غلوائه وأفكاره إلى أن واجهته محنة ثالثة، وقد ذكرها ابن كثير ايضاً فى تاريخه. المحنة الثالثة

وفى شوال عام ۷۰۷ هـ، شكى منه أيضاً، فردّ الأمر إلى القاضى الشافعى، فعقد له مجلس، وادّعى له ابن عطاء بأشياء ورأى القاضى بدر الدين بن جماعة أنّ فى آرائه قلة أدب بساحة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فحضرت رسالة إلى القاضى إلى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فتمّ الأمر بحسبه فى سجن القضاة، ودخل السجن، وأُفرج عنه فى مستهل سنة ۷۰۸ هـ وبقى فى القاهرة إلى أن توجّه منفياً إلى الإسكندرية فى ليلة سلخ صفر فى عام ۷۰۹ هـ وأقام هناك ثمانية أشهر إلى أن تغيرت الظروف، فعاد ________________

۱ . المصدر نفسه . (۳۴)

الشيخ منها إلى القاهرة يوم عيد الفطر سنة ۷۰۹ هـ فاقام بها إلى سنة ۷۱۲ هـ ثم رجع إلى الشام (۱) . وشغل الشيخ منصة التدريس والإفتاء إلى سنة ۷۱۸ هـ . وقد صدر منه فتاوى شاذة، وكان مصرّاً عليها، فعقد له يوم الخميس ثانى رجب من شهور سنة ۸۲۰ هـ مجلس بدار السعادة، فحضر نائب السلطنة، وحضر القضاة والمعنيون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه، ثم حبس فى القلعة خمسة أشهر، إلى أن ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء، سنة ۷۲۱ هـ . وظل الشيخ بعد خروجه من الحبس مستمراً فى التدريس إلى عام ۷۲۶ هـ . يقول جمال الدين يوسف بن تغرى الأتابكى: «ورد مرسوم شريف من السلطان فى شعبان سنة ۷۲۶ بأن يجعل فى قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولا بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً[دواةً] ولا قلماً ولا ورقاً»(۲) . وقال اليافعى: «مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير، تقى الدين أحمد، بن تيمية، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق»(۳) . هذا، وقد لفظ الرجل نفسه ومات فى قلعة دمشق عام ۷۲۸ هـ وبذلك طويت صحيفة حياته، وبقيت آثاره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. إنّ ما تلوناه عليك من حياته يعرب: أولا: إنّه لم يكن رجلا موضوعياً يهمّه

ما كان يعانى منه المسلمون فى تلك الظروف العصيبة، الّتى كانت الدعوة إلى الوحدة فيها أحوج ما يحتاج إليه ________

۱ . البداية والنهاية ج ۱۴ ص ۵۲، وكانت إقامته بمصر سبع سنين.

۲ . المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ص ۳۴۰ .

۳ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۷۷ . (۳۵)

الناس، فكان يبثّ بذور الخلاف فترة بعد فترة، ويشغل الحكومات والقضاة عن القيام بالواجب بنقل الشيخ من مقام إلى مقام . وثانياً: إنّ جماهير الفقهاء والقضاة كانوا يخالفونه فيما يبديه من الآراء الشاذة، فى مجال الأُصول والفروع، وإنّ آراءه كانت مخالفة لما هو المشهور المجمع عليه بين العلماء . وثالثاً: إنّ الرجل كان معروفاً بالقول بالتجسيم والتشبيه والجهة، وكان اعتقاله لأجل التفوّه بها، فكلّ من أراد تنزيهه عن هذه التهمة، خالف الرأى العام فى حقّه وما عرف منه يوم حياته .

نعم إنّ هناك أُناساً ترجموا للرجل ترجمة وافية، فأثنوا عليه الثناء البالغ، وذكروا ذكاءه وتوقّد ذهنه، وإحاطته بالكتاب والسنّة، كما ذكروا آثاره العلمية من كتب ورسائل، ولكن يؤخذ عليهم بأنّه لماذا ركّزوا على جانب واحد من حياته، ولم يشيروا إلى الجانب السلبى منها، فإنّه لا يمكن لأحد تخطئة أولئك العلماء الذين ناظروه، وباحثوه، وأصدروا أرائهم فيه، وهم كثيرون، ولأجل ذلك نشير إلى المصادر الّتى أخذتها العصبية العمياء فجاءوا كأنّهم يعرفون رجلا أطبق علماء عصره على نزاهته وصفاء فكره، فمن أراد أن يقف عليها فليرجع إلى المصادر التالية: ۱- تذكرة الحفاظ للذهبى ۴/ ۱۴۹۶، بالرقم ۱۱۷۵. وإن استدرك زلّته هذه ببعث رسالة مستقلة إلى ابن تيمية يستنكر فيها عليه أعماله وأقواله كما ستوافيك . ۲- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح عبد الحى بن عماد الحنبلى (م ۱۰۹۸) ۶/۸۰ . ۳- طبقات الحفاظ، لجلال الدين السيوطى، (ت ۹۱۱ هـ)، ص ۵۲ . ۴- الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب زين الدين، أبى الفرج، عبدالرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادى ثم الدمشقى الحنبلى، (۷۳۶ ـ ۷۹۵ هـ) ۲/ ۳۸۷، بالرقم ۴۹۵ . (۳۶)

۵- الوافى بالوفيات، لصلاح الدين، خليل بن أيبك الصفوى ۷/۱۵ ـ ۳۳ بالرقم ۲۹۶۴ . ۶- طبقات المفسرين، للحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى (م ۹۴۵ هـ)، ص ۴۵ ـ ۴۹ بالرقم ۴۲ . ۷- تاريخ الشيخ زين الدين عمر، الوردى، المعروف بتاريخ ابن الوردى ج ۲ ص ۴۰۶ . ۸- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تاليف محمد بن على الشوكانى (ت ۱۲۵۰ هـ)، ج ۱ ص ۶۳ ـ ۷۲ بالرقم ۴۰ . ۹- البداية والنهاية، للحافظ عماد الدين، أبى الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، (م ۷۴۴ هـ)، ج ۱۴، فى حوادث سنة (۶۹۸ هـ)، وغيرها. ولكنّه أشار فى مواضع آخر إلى بعض زلاته ومخالفته للرأى العام فى ذلك اليوم كما عرفت . ۱۰- الأعلام للزركلى، ج ۱ ص ۴۴ . نعم هؤلاء هم الذين ركّزوا على الجانب الإيجابى وتناسوا الجانب السلبى، مع أنّ التقييم لا يصحّ إلاّ بملاحظة كلا الجانبين، ولكن هناك جماعة موضوعيين واقعيين، لم تملأ عيونهم كتب الرجل ورسائله، فجاءوا بتقييم آرائه فيما صار سبباً لاشتهاره، وإليك نصوص هؤلاء حتّى لا نخرج فى التقييم عن حد العدل . آراء معصاريه ومقاربى عصره فى حقه

قد تعرّفت على حياة الشيخ وأنّه لم يزل ينتقل من معتقل إلى آخر، ومن مصر إلى مصر، وكان الرأى المتفق عليه بين القضاة والمعنيين من الحكام هو أنّه رجل يصدر عن عقائد وآراء فى مجال العقائد والأحكام تخالف الرأى العام بين أهل السنة، ولأجل ذلك كانوا يصدرون الحكم عليه بعد الحكم، ويعاقبونه مرة بعد أُخرى ;وقد علمت أنّه منع من الكتابة حتّى فى نفس السجن، فما حال من كان على طرف الخلاف من قضاة المذاهب وحكامهم و علمائهم؟ (۳۷)

وبذلك تعرف أنّ الدعايات الأخيرة هى الّتى تريد أن تعرّفه بشيخ الإسلام و محيى السنة، فما معنى هذه الشيوخة لأهل السنة مع أنّهم أجمعوا على ضَلاله وشذوذه؟ ولأجل أن يقف القارىء على آراء معصاريه فى حقه ومقاربى زمانه، نقتطف من غضون التاريخ جملا تكشف عن إطباق العلماء، على الرد عليه ونقد آرائه، وستوافيك فى أثناء البحث رسالة الذهبى إليه بنصها. وإليك قائمة الشخصيات الذين ردّوا عليه فى عصره أو بعده بقليل: ۱- الشيخ صفى الدين الهندى الأرموى (ت ۷۱۵ هـ)

عرّفه السبكی بقوله: «متكلم علی مذهب الأشعری، كان من أعلم الناس بمذهب الشيخ أبی الحسن وأدراهم بأسراره، متضلّعاً بالأصلين، ومن تصانيفه فی علم الكلام «الزبدة»، وفی أصول الفقه: «النهاية»، وكل مصنفاته حسنة جامعة، لاسيما «النهاية» . مولده ببلاد الهند سنة ۶۴۴ هـ ثم قدم دمشق سنة ۶۸۵ هـ واستوطنها وتوفی بها سنة ۷۱۵ هـ ولما وقع من ابن تيمية فی «المسألة الحموية» ما وقع، وعقد له المجلس بدار السعادة(۱) بين يدی الأمير «تنكز» وجمعت العلماء، أشاروا بأنّ الشيخ الهندی يحضر، فحضر، وكان الهندی طويل النفس فی التقرير، إذا شرع فی وجه يقرره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلاّ اشار إليه فی التقرير، بحيث لا يتم التقرير إلاّ وقد بعد علی المعترض مقاومته، فلما شرع يقرّر، أخذ ابن تيمية يعجّل عليه علی عادته، ويخرج من شیء إلی شیء. فقال له الهندی: ما أراك يا بن تيمية إلاّ ـ كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان، فرّ إلی مكان آخر . وكان الأمير تنكز يعظم الهندی ويعتقده، وكان الهندی شيخ الحاضرين كلّهم، فكلّهم صدر عن رأيه، وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهی ـــــــــــــــــ

۱ . قال المعلق: كان ذلك سنة (۷۰۵ هـ)، راجع البداية والنهاية ج ۱۴ ص ۳۶ ـ ۳۸. (۳۸)

الّتی تضمّنت قوله بالجهة، ونودی عليه فی البلاد وعلی أصحابه، وعزلوا من وظائفهم(۱) . ۲- الشيخ شهاب الدين ابن جهبل الكلابی الحلبی (ت ۷۳۳ هـ)

قال «السبكی»: «درس وأفتی وشغل بالعلم مدة بالقدس ودمشق. مات سنة ۷۳۳ هـ ووقفت له علی تصنيف صنفه فی نفی الجهة رداً علی ابن تيمية» وبما أنّ الرسالة مفصّلة نكتفی فی المقام بذكر مقدمتها. يقول: «أمّا بعد فالذی دعا إلی تصدير هذه النبذة. ما وقع فی هذه المدة، مما علّقه بعضهم فی إثبات الجهة واغترّ بها من لم يرسخ له فی التعليم قدم، ولم يتعلّق بأذيال المعرفة، ولا كبحة لجام الفهم ولا ـ استبصر بنور الحكمة فاحببت أن أذكر عقيدة أهل السنة وأهل الجماعة ثم أُبيّن فساد ما ذكره، مع أنّه لم يدّع دعوی إلاّ نقضها ولا أطّد قاعدة إلاّ هدمها»(۲) . ۳- قاضی القضاة كمال الدين الزملكانی (۶۶۷ ـ ۷۳۳ هـ)

عرّفه السبكی بقوله: «الإمام العلاّمة المناظر، ولد فی شوال سنة ۶۶۷ هـ ودرس بالشامية البرانية ـ إلی أن قال ـ : ثم ولی قضاء حلب، وصنفّ الرد علی ابن تيمية فی مسألتی الطلاق والزيارة(۳) . ۴- الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبی (ت ۷۴۸ هـ)

ترجمه فی «تذكرة الحفاظ» غير أنّه لم يذكر مما ردّ عليه بشیء، وهذا عجيب من الحافظ الذهبی، ولكنّه نصحه فی رسالة بعثها إليه ويذكر ما فيه ويقول: «الحمدللّه علی ذلّتی، يا ربّ ارحمنی، وأقلنی عثرتی، واحفظ علیّ ـــــــــــــــــ

۱ . طبقات الشافعية الكبری ج ۹ ص ۱۶۲ ـ ۱۶۴ .

۲ . تاج الدين، أبونصر، عبدالوهاب بن علی بن عبدالكافی السبكی (ت ۷۲۷ ـ م ۷۷۱) طبقات الشافعية الكبری ج ۹ ص ۳۴ ـ ۳۵) .

۳ . طبقات الشافعية الكبری ج ۹ ص ۱۹۰ ـ ۱۹۱. (۳۹)

إيمانی، واحزناه علی قلة حزنی، واأسفاه علی السنة وذهاب أهلها، واشوقاه إلی إخوان مؤمنين يعاونونی علی البكاء، واحزناه علی فقد أُناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوی وكنوز الخيرات، آه علی وجود درهم حلال وأخ مؤنس، طوبی لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتبّاً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه. إلی كم تری القذاة فی عين أخيك وتنسی الجذع فی عينك؟ إلی كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمّ العلماء وتتبع عورات الناس؟ مع علمك بنهی الرسول ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ [وآله]: «لا تذكروا موتاكم إلاّ بخير، فإنّهم قد أفضوا إلی ما قدموا» بل اعرف أنّك تقول لی لتنصر نفسك: إنّما الوقيعة فی هؤلاء الذين ما شمّوا رائحة الإسلام، ولا عرفوا ما جاء به محمد ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ [وآله]وهو جهاد، بلی واللّه عرفوا أخيراً كثيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً مما لا يعنيهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، يا رجل! باللّه عليك كفّ عنّا، فإنّك محجاج عليم اللسان لا ـ تقر ولا تنام، إياكم والغلوطات فی الدين، كره نبيك ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ [وآله] المسائل وعابها، ونهی عن كثرة السؤال وقال: «إنّ أخوف ما أخاف علی أُمّتی كل منافق عليم اللسان» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسی القلب إذا كان فی الحلال والحرام، فكيف إذا كان فی عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات الّتی تعمی القلوب، واللّه قد صرنا ضحكة فی الوجود، فإلی

كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية؟. لنرد عليها بعقولنا، يا رجل! قد بلعت «سموم» الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن واللّه فی البدن، واشوقاه إلی مجلس فيه تلاوة بتدبّر وخشية بتذكّر وصمت بتفكّر. واهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بل عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما، باللّه خلّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب، وجدّوا فی ذكر بدع كنّا نعدّها من أساس الضلال، قد صارت هی محض السنة وأساس (۴۰)

التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون، وتعدّ النصاری مثلنا، واللّه فی القلوب شكوك، إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد، يا خيبة من اتّبعك فإنّه معرض للزندقة والانحلال، لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفی الباطن عدوّ لك بحاله وقلبه . فهل معظم أتباعك إلّا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامی كذّاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوی المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقنی ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم اقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلی كم تصادقها وتعادی الأخيار؟ إلی كم تصادقها وتزدری الأبرار؟ إلی كم تعظمها وتصغر العباد؟ إلی متی تخاللها وتمقت الزهاد؟ إلی متی تمدح كلامك بكيفية لا تمدح ـ واللّه ـ بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك . بل فی كل وقت تغير عليها بالتضعيف و الإهدار، أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوی؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت فی عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلی ـ واللّه ـ ما أذكر أنّك تذكر الموت، بل تزدری بمن يذكر الموت. فما أظنك تقبل علی قولی ولا تصغی إلی وعظی، بل لك همة كبيرة فی نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لی أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتّی أقول البتة سكت، فإذا كان هذا حالك عندی وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعداؤك ـ واللّه ـ فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، عما أنّ أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيت منك بأن تسبنی علانية، وتنتفع بمقالتی سراً، فرحم اللّه امرأً أهدی إلیّ عيوبی، فإنّی كثير العيوب، غزير الذنوب، الويل لی إن أنا لا أتوب، وافضيحتی من علاّم الغيوب! ودوائی عفو اللّه ومسامحته وتوفيقه وهدايته، والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّی اللّه علی سيدنا محمّد خاتم النبيين وعلی آله وصحبه أجمعين». (۱) ________________

۱ . تكملة السيف الصقيل، للمحقّق المعاصر الكوثری، ص ۱۹۰ ـ ۱۹۲ كتبه من خط ابن قاضی: شهبة، منقولا من خط قاضی القضاة برهان الدين بن جماعة وكتبه، هو من خط الشيخ الحافظ أبی سعيد العلائی المنسوخ من خط الذهبی، وجاء شطر منه فی «فرقان القرآن» تأليف الشيخ سلامة القضاعی العزامی الشافعی فی مقدمة كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقی ص ۱۲۹. وقد طبعت صورة خط ابن قاضی شهبة فی تكملة السيف الصقيل ص ۱۸۷ ـ ۱۸۹.

(۴۱) ۵- الشيخ الإمام صدر الدين المرحل (ت حوالی ۷۵۰ هـ)

عرّفه السبكی بقوله: «كان إماماً كبيراً، بارعاً فی المذهب والأصلين، يضرب المثل باسمه، فارساً فی البحث، نظاراً مفرط الذكاء، عجيب الحافظة ـ إلی أن قال ـ: وله مع ابن تيمية، المناظرات الحسنة، وبها حصل عليه التعصّب من أتباع ابن تيمية، قيل فيه ما هو بعيد عنه، وكثر القائل فارتاب العاقل، وكان الوالد يعظّم الشيخ صدر الدين ويحبّه، ويثنی عليه بالعلم وحسن العقيدة ومعرفة الكلام علی مذهب الأشعری (۱) . ۶- الحافظ علی بن عبدالكافی السبكی (ت ۷۵۶ هـ)

ترجمهُ ولده فی طبقات الشافعية، وهو أحد من ردّ علی ابن تيمية، وألّف فيه كتاباً أسماه «شفاء السقام فی زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» وربما سمی «شنّ الغارة علی من أنكر السفر للزيارة»(۲) وهو يعرّف والده ويقول: «إمام ناضح عن رسول اللّه بنضاله، وجاهد بجداله، حمی جناب النبوة الشريف، بقيامه فی نصره، وتسديد سهامه للذب عنه من كنانة مصره... إلی أن قال: قام حين خلط علی ابن تيمية الأمر، وسول له قرينه الخوض فی ضحضاح ذلك الجمر، حين سد باب الوسيلة وأنكر شدّ الرجال لمجرّد الزيارة، وما برح يدلج ويسير حتی نصر صاحب ذلك الحمی الّذی لا ينتهك، وقد كادت تذود عنه قسراً صدور الركائب. وتجر قهراً أعنة القلوب بتلك

الشبهة الّتى كادت شرارتها تعلق بحداد الأوهام... كيف يزار المسجد ويخفى صاحبه، أو يخفيه الإبهام؟ ولولاه ـ عليه السلام ـ لما عرف تفضيل ذلك المسجد، ولولاه لما قدّس الوالى، ولا أسس على التقوى مسجد فى ذلك النادى ________________

۱ . طبقات الشافعية الكبرى ج ۹ ص ۲۵۳ .

۲ . طبقات الشافعية ج ۱۰ ص ۳۰۸ . (۴۲)

شكر اللّه له، قام فى لزوم ما انعقد عليه الإجماع»(۱) . وكان لهذا الكتاب دوى فى ذاك العصر، حيث جابه السبكى ضوضاء الباطل بكتابه الهادى، وصار مدار الدراسة والقراءة، وهذا هو الشيخ صلاح الدين الصفدى قرأ الكتاب على المؤلف، يقول السبكى (ولد المؤلف): قرأ على الشيخ الإمام (المراد تقى الدين السبكى) ـ رحمه الله ـ جميع كتاب «شفاء السقام فى زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام»(۲) . وقال أيضاً فى خطبة كتابه «الدرة المضيئة فى الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أمّا بعد فإنّه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث فى أُصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنّة، مظهراً أنّه داع إلى الحق، هاد إلى الجنة، فخرج عن الإتباع إلى الإبتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضى الجسمية والتركيب فى الذات المقدسة، وإنّ الإفتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات اللّه تعالى، وإنّ القرآن محدث تكلم اللّه به بعد أن لم يكن، وإنّه يتكلم ويسكت، ويحدث فى ذاته الإرادات بحسب المخلوقات، وتعدّى فى ذلك إلى استلزام قدم العالم، والتزم بالقول بأنّه لا أوّل للمخلوقات فقال بحوادث لا أوّل لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين فى ملة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل فى فرقة من الفرق الثلاث والسبعين الّتى افترقت عليها الأُمّة، ولا وقفت به مع أُمّة من الأُمم همة. وكل ذلك و إن كان كفراً شنيعاً، لكنّه تقل حملته بالنسبة إلى ما أحدث فى الفروع. ثم إنّ السبكى لما وقف على كتاب «منهاج السنة» فى الرد على «منهاج الكرامة» للعلامة الحلى، أنشأ قصيدة، ومما جاء فيها ناقداً لابن تيمية قوله:

---

۱ . طبقات الشافعية ج ۱۰ ص ۱۴۹ ـ ۱۵۰ وللكلام صلة .

۲ . المصدر نفسه، ص ۵ . (۴۳)

ولابن تيمية رد عليه وفى * بمقصد الرد واستيفاء أضربه لكنّه خلط الحق المبين بما * يشوبه كدراً فى صفو مشربه يرى حوادث لا مبدا لأولها * فى اللّه سبحانه عما يظن به لو كان حياً يرى قولى ويفهمه * رددت ما قال أقفو اثر سبسبه كما رددت عليه بالطلاق وفى * ترك الزيارة رداً غير مشتبه (۱) إنّ الشيخ الذهبى من الحنابلة الذين يتعصّبون للمذهب الحنبلى، ومع ذلك نرى أنّه يصف تقى الدين السبكى الّذى ولى مشيخة دار الحديث وخطابة الجامع الأموى بدمشق بقوله: لِيَهْنَ المنبرُ الأمويُّ لما * علاه الحاكمُ البحر التقيُّ شيوخ العصر أحفظهم جميعاً * وأخطبهم «وأقضاهم عليُّ» فإذا كان هذا مقام السبكى عند الذهبى، فليكن حجة على الحنابلة ممن يبغض السبكى لنقده نظرية ابن تيمية فى الزيارة وغيرها(۲) . ۷- محمد بن شاكر الكتبى (ت ۷۶۴ هـ)

قال فى «فوات الوفيات» فى ترجمته: «إنّه ألّف رسالة فى فضل معاوية، وفى أنّ ابنه يزيد لا يسب»(۳) . هذه الرسالة تعرب عن نزعته الأموية، ويكفى القول فى الوالد والوالد: «ووالد وما ولد» أنّه بدّل الحكومة الإسلامية إلى الملكية الوراثية، ودعا عباد اللّه إلى ابنه يزيد، المتكبر، الخميّر، صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهديد والرهبة، وهو يطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكره وفجوره، ولما استتبَّ

الأمر ليزيد، أوقع بأهل الحرة الوقيعة الّتى لم يكن فى الإسلام أشنع منها ولا أفحش، وظن أنّه قد انتقم من أولياء اللّه فقال مجاهراً بكفره: ________________

۱ . المصدر نفسه ج ۱۰ ص ۱۸۶ وتوفى السبكى تقى الدين والد تاج الدين عام (۷۵۶ هـ)وتوفى الولد عام (۷۷۱ هـ) .

۲ . فرقان القرآن ص ۱۲۹ .

۳ . فوات الوفیات ج ۱ ص ۷۷ . (۴۴)

لعبت هـاشم بالملک فلا * خبر جاء ولا وحی نزل وهـذا هو المروق من الـدین، وقول من لا یرجع إلی اللّه ولا إلی دینه ولا إلی کتابه ولا إلی رسوله، ثم من أغلظ ما انتهک وأعظم مااخترم سـفکه دم الحسین بن علیّ، بن فاطمة بنت رسول اللّه، مع موقعه من رسول اللّه ومکانه منه، ومنزلته من الدین والفضل، وشـهادة رسول اللّه له ولأخیه بسـیادة شـباب أهل الجنة، اجتراءً علی اللّه، وکفراً بدینه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واسـتهانة بحرمته، فکأنّما یقتل به وبأهل بیته، قوماً من الکفار(۱) . ۸- أبو محمد المعروف بالیافعی (ت ۷۶۸ هـ)

قال فی کتابه «مرآة الجنان» فی ترجمـة ابن تیمیة: «مات بقلعة دمشق الشـیخ الحافظ الکبیر تقی الدین أحمد بن تیمیة معتقلا، ومنع قبل وفاته بخمسة أشـهر عن الدواة والورق، وسمع من جماعة وله مسائل غریبة ـ أنکر علیها وحبس بسببها ـ مباینة لمذهب أهل السنة، ومن أقبحها نهیه عن زیارة النبی ـ علیه الصـلاة والسـلام ـ وطعنه مشایـخ الصوفیـة، وکذلک ما قد عرف من مذهبه کمسألة الطلاق وغیرها، وکـذلک عقیـدته فی الجهة، وما نقل فیها من الأقوال الباطلة، وغیر ذلک ما هو معروف من مذهبه، ولقد رأیت مناماً فی وقت مبارک یتعلّق بعضه بعقیـدته، ویـدل علی خطئه فیها، وقـد قدمت ذکره فی حوادث سـنة ۵۵۸ هـ فی ترجمـة صـاحب «البیـان» . وقال: کان ابن تیمیة یقول: قوله: «إنّ اللّه علی العرش اسـتوی»، اسـتواء حقیقة، وإنّه یتکلّم بحرف وصوت، وقد نودی فی دمشق وغیرها: من کان علی عقیدة ابن تیمیة حل ماله ودمه! (۲) وقال فی حوادث سنة ۷۲۸ هـ : وله ـــــــــــــــــــــــ

۱ . مأخوذ من کتاب (المعتضد) الّذی تلی علی رؤوس الأشهاد فی أیامه. نقله الطبری فی تاریخه ج ۱۱ ص ۷۷ .

۲ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۷۷، فی حوادث سنة ۷۲۸ هـ وص ۲۴۰ . (۴۵)

مسائل غریبة أنکر علیها وحبس بسـببها مباینة لمذهب (أهل السـنة) ثم (عدّ له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهیه عن زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ . ۹- أبوبکر الحصنی الدمشقی (ت ۸۲۹ هـ)

یقول: «فاعلم أنّی نظرت فی کلام هـذا الخبیث الّـذی فی قلبه مرض الزیغ، المتتبع ما تشابه من الکتاب والسـنّة ابتغاء الفتنـة، وتبعه علی ذلک خلق من العوام وغیرهم ممن أراد اللّه عزّوجلّ إهلاکه، فوجدت فیه ما لا أقدر علی النطق به، ولا لی أنامل تطاوعنی علی رسـمه وتسطیره، لما فیه من تکذیب ربّ العالمین، فی تنزیهه لنفسه فی کتابه المبین، وکذا الازدراء بأصفیائه، المنتخبین وخلفائهم الراشدین، واتباعهم الموفقین، فعدلت عن ذلک إلی ذکر ما ذکره الأئمّة المتّقون، وما اتّفقوا علیه من تبعیده وإخراجه ببغضه من الدین(۱) . ۱۰- شیخ الإسلام، شهاب الدین، أحمد بن حجر، العسقلانی (ت ۸۵۲ هـ)

ترجمه ابن حجر فی کتـابه «الـدرر الکامنـة فی أعیـان المائـة الثامنـة» وذکر حیـاته علی وجه التفصیل وقـال: «وأول ما أنکروا علیه من مقالاته فی شـهر ربیع الأول سـنة ۶۹۸ هـ قـام علیه جماعـة من الفقهـاء بسـبب الفتوی الحمویـة، وبحثوا معه، ومنع من الکلامـ» ثم ذکر معتقلاته وسجونه إلی أن أدرکته المنیّة بما لا حاجة إلی ذکره، ونقتبس مما ذکره الجمل التالیة: أ ـ یقول: «حکم المالکی بحبسه فأُقیم من المجلس وحبس فی برج، ثم بلغ المـالکی أنّ النـاس یترددون علیه، فقـال: یجب التضـییق علیه إن لم یقتـل، وإلاّ ـ فقـد ثبت کفره، فنقلوه لیلة عید الفطر إلی الجب، وعاد القاضی الشافعی إلی ولایته، ونودی بدمشق: من اعتقد عقیدة ابن تیمیة حل دمه وماله، خصوصاً الحنابلة، وقرأ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود فی الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من ـــــــــــــــــــــــ

۱ . دفع شبهة من شبّه وتمرّد، ص ۲۱۶، طبع بمصر عام ۱۳۵۰ هـ . (۴۶)

الصالحیة وغیرها وأشـهدوا علی أنفسهم أنّهم علی معتقد الإمام الشافعی» . ب ـ نقل عن جمال الدین السرمری أنّه قال: وکان ابن تیمیة یتکلم علی المنبر علی طریقـة المفسـرین مع الفقه والحدیث، فیورد فی ساعة من الکتاب والسـنة واللغة والنظر ما لا یقدر أحد علی أن یورده فی عدة مجالس: «... ومن ثم نصب أصـحابه إلی الغلوّ فیه، واقتضی ذلک العجب بنفسه حتّی زها علی أبناء جنسه، واستشعر أنّه مجتهـد یرد علی صـغیر العلماء وکبیرهم، قدیمهم وحدیثهم، حتی انتهی إلی عمر فخطأه فی شـیء، وقال فی حق علی: أخطأ فی سـبعة

عشر شيئاً، ثم خالف فيها، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع فى الأشاعرة، حتّى أنّه سب الغزالى،.. فعظم ذلك على الشيخ نصر المنبجى، وأعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات فى العقائد المثيرة وقعت منه فى مواعيده وفتاواه، فذكروا أنّه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولى هذا(۱) ، فنسب إلى التجسيم، وردّه على من توسّل بالنبى، فأشخص من دمشق فى رمضان سنة (۷۰۵ هـ) . ثم يقول: إنّه اختلف الناس بعد إخراجه عن بعض معتقلاته، فمنهم من نسبه إلى التجسيم، لما ذكر فى العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك، كقوله إنّ اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية للّه، وإنّه مستو على العرش بذاته، فقيل له يلزم من ذلك التحيّز والإنقسام، ومنهم من أنكر كون التحيّز والانقسام من خواص الأجسام (۲) . ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله: إنّ النبى لا يستغاث به، وإنّ فى ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبى، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله فى علىّ ـــــــــــــــ

۱ . سيوافيك نص ابن بطوطة السياح المعروف فى ذلك، وأنه سمعه بأذنه ورآه بعينه، فانتظر .

۲ . اقرأ واضحك على عقلية القائل . (۴۷)

ماتقدم، ولقوله إنّه كان مخذولا حيثما توجّه، وإنّه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، إنّما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله إنّه كان يحب الرئاسة، وإنّ عثمان كان يحبّ المال، ولقوله أبوبكر أسلم شيخاً يدرى ما يقول، وعلىّ أسلم صبياً والصبى لا يصحّ إسلامه على قول(۱) . ۱۱- جمال الدين يوسف بن تغرى الأتابكى (۸۱۲ ـ ۸۷۴ هـ)

وقد ترجمه جمال الدين فى كتابه: «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» ومما جاء فيه: قال القاضى كمال الدين الزملكانى: «ثم جرت له محن فى مسألة الطلاق الثلاث، وشدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحبّب للناس القيام عليه، وحبس مرات فى القاهرة والإسكندرية ودمشق، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق، إلى أن ورد مرسوم شريف من السلطان فى شعبان سنة (۷۲۶ هـ) بأن يجعل فى قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولا بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً [دواةً]ولا قلماً ولا ورقة. ومما وقع له قبل حبسه أنّه ناظر بعض الفقهاء، وكتب محضراً، فإنّه قال. أنا أشعرى ثم أخذ خطه بما نصه: أنا أعتقد أنّ القرآن معنى قائم بذات اللّه، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وأنّ قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ليس على ظاهره، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه إلّا اللّه، والقول فى النزول كالقول فى الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية، ثم أشهدوا عليه جماعة أنّه تاب مما ينافى ذلك مختاراً، وشهد عليه بذلك جمع من العلماء وغيرهم»(۲) . ـــــــــــــــ

۱ . الدرر الكامنة ج ۱ ص ۱۵۴ ـ ۱۶۵ .

۲ . «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» ج ۱ ص ۳۳۶ ـ ۳۴۰، والزملكانى هو كمال الدين محمد بن على بن عبد الواحد الشافعى، ولد سنة (۶۶۷ هـ) وتوفى سنة (۷۳۳ هـ) . (۴۸)

وترجمه أيضاً فى كتابه الآخر: «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» بنفس النص الوارد فى «المنهل الصافى»(۱) . ۱۲- شهاب الدين، ابن حجر، الهيثمى (ت ۹۷۳ هـ)

قال فى ترجمة ابن تيمية: «ابن تيمية عبد خذله اللّه، وأضلّه وأعماه وأصمّه وأذلّه، بذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد، أبى الحسن السبكى وولده التاج والشيخ الإمام العزّ بن جماعة، وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفيةولم يقصر اعتراضه على متأخّرى السلف الصوفية، بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلىّ بن ابى طالب رضى الله عنهما. والحاصل أنّه لا يقام لكلامه وزن، بل يرمى فى كل وعر وحزن ويعتقد فيه أنّه مبتدع، ضالّ، مضلّ، غال، عامله اللّه بعدله، وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله. آمين! إلى أن قال: إنّه قائل بالجهة، وله فى إثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذاة والاستقرار. أى فلعلّه بعض الأحيان كان يصرّح بتلك اللوازم فنسبت إليه، وممن نسب إليه ذلك من أئمة الإسلام المتفق على جلالته وإمامته وديانته، وإنّه الثقة العدل

المرتضى المحقق المدقق، فلا يقول شيئاً إلاّ عن تثبت، وتحقق، ومزيد احتياط، و تحر، لا سيما إن نسب إلى مسلم ما يقتضى كفره، وردّته، وضلاله، وإهدار دمه»(۲) . وقال أيضاً فى كتابه: «الجوهر المنظم فى زيارة القبر الشريف النبوى المكرم»: «فإن قلت: كيف تحكى الإجماع السابق على مشروعية الزيارة والسفر إليها وطلبها، وابن تيمية من متأخرى الحنابلة منكر لمشروعية ذلک كله، كما

۱ . «النجوم الزاهرة...» ج ۲ ص ۲۷۹ .

۲ . الفتاوى الحديثية، ص ۸۶. ونقله العلامة الشيخ محمد بخيت (م ۱۳۵۴ هـ) فى كتابه «تطهير الفؤاد» ص ۹ ط مصر. (۴۹)

رآه السبكى فى خطه، واطال ابن تيمية فى الاستدلال بذلک بما تمجّه الأسماع وتنفر منه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً، وأنّه لا ـ تقصر فيه الصلاة، وأنّ جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه! . قلت: من هو ابن تيمية حتّى ينظر إليه؟ أو يعوّل فى شيء من أُمور الدين عليه؟ وهل هو إلاّ كما قال جماعة من الأئمة الذين تعقّبوا كلماته الفاسدة، و حججه الكاسدة، حتّى أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه وغلطاته، كالعز بن جماعة: عبد أذلّه اللّه وأغواه، وألبسه رداء الخزى وبوّأَهُ من قوة الإفتراء والكذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان...»(۱) . ۱۳- ملّا على القارىء الحنفى (ت ۱۰۱۶ هـ)

وقال ملّا على القارىء الحنفى فى شرحه على الشفاء(۲): «وقد أفرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كما أفرط غيره حيث قال: كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة. وجاحده محكوم ليه بالكفر، ولعلّ الثانى أقرب إلى الصواب، لأنّ تحريم ما أجمع العلماء فيه على الاستحباب يكون كفراً، لأنّه فوق تحريم المباح المتفق عليه فى هذا الباب» .

۱۴- أبو العباس أحمد بن محمد المكناسى، الشهير بابن القاضى (۹۶۰ ـ ۱۰۲۵ هـ)

وقد ترجمه ابن القاضى فى ذيل وفيات الأعيان المسمى بـ «درة الحجال فى أسماء الرجال» قال: «أحمد بن عبد الحليم مفتى الشام ومحدّثه وحافظه، وكان يرتكب شواذ الفتاوى، ويزعم أنّه مجتهد»(۳) .

۱ . فرقان القرآن، ص ۱۳۲ ـ طبع فى مقدمة كتاب الأسماء والصفات للبيهقى .

۲ . «درة الحجال فى أسماء الرجال» ج ۱ ص ۳۰ .

۳ . تأليف الحافظ أبى الفضل عياض بن موسى القاضى (ت ۵۴۴ هـ) وأسماه: «الشفا فى تعريف حقوق المصطفى» وله شروح كثيرة ذكره الكاتب الحلبى فى كتابه . (۵۰) ۱۵- النبهانى (ت ۱۳۵۰ هـ)

قال النبهانى فى تأليفه «شواهد الحق» بعد نقل أسماء عدة من الطاعنين به: «فقد ثبت وتحقّق وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار أنّ علماء المذاهب الأربعة قد اتّفقوا على ردّ بدع ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحة نقله، كما طعنوا بكمال عقله، فضلا عن شدة تشنيعهم عليه فى خطئه الفاحش فى تلک المسائل الّتى شذّ بها فى الدين، وخالف بها إجماع المسلمين، ولا سيما فيما يتعلّق بسيّد المرسلين ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ» . ۱۶- المحقق الشيخ محمد الكوثرى المصرى (ت ۱۳۷۱ هـ)

إنّ الشيخ الكوثرى هو أكثر الناس تتبعاً لمكامن حياة ابن تيمية، وقد شهره وفضحه، بنشر كتاب «السيف الصقيل» للسبكى وجعل له تكملة، نشرهما، معاً فمن وقف على هذا الكتاب وما ذيّل به، لعرف مواقع الرجل، وإليک كلمة من الكوثرى فى حق الحشوية، يقول فى تقديمه لكتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البيهقى ـ بعد ما يسرد أسماء عدة من كتب الحشوية كالاستقامة لخشيش بن أصرم، والسنة لعبد اللّه بن أحمد «والنقض» لعثمان بن سعيد الدارمى السجزى المجسم ـ : «إنّ السجزى أول من اجترأ بالقول «إنّ اللّه لو شاء لا ـ ستقرّ على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته، فكيف على عرش عظيم» وتابعه الشيخ ابن تيمية الحرانى فى ذلک، كما تجد نص كلامه فى «غوث العباد» المطبوع سنة ۱۳۵۱ بمطبعة الحلبى» (۱) . وقال ايضاً فى مقدمته على السيف الصقيل: جزى اللّه علماء أُصول الدين عن الإسلام خيراً، فإنّ لهم فضلا جسيماً فى صيانة عقائد المسلمين بادلّة ناهضة مدى القرون، أمام كل فرقة زائفة ـ إلى أن قال ـ : ومن طالع من ألّفه بعض الرواة على طول القرون من كتب فى التوحيد

۱ . مقدمة الأسماء والصفات للبيهقى، ص «ب» . (۵۱)

والصفات والسنة، والردود على أهل النظر، يشكر اللّه سبحانه على النور الّذى افاضه على عقله، حتّى نبذ مثل تلك الطامات بأول نظرة. وقد استمرّت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط اللّه تعالى، ولاستسخاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ فى أواخر القرن السابع بدمشق، حرّانى تجرّد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء، متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أُستاذ يرشده فى مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتضافرا فى الدفاع عن تحريف السخفاء إلّا إذا كان العقل عقل صابئى والنقل نقل صبى، وكم انخدع بخزعبلاته أُناس ليسوا من التأهّل للجمع بين الرواية والدراية فى شىء، وله مع خلطائه هؤلاء، موقف فى يوم القيامة لا يغبط عليه. ومن درس حياته يجدها كلها فتناً لا ـ يثيرها حافظ بعقله، غير مصاب فى دينه، وأنّى يوجد نصّ صريح منقول أو برهان صحيح معقول يثبت الجهة والحركة والثقل والمكان ونحوها للّه سبحانه؟ . وكل ما فى الرجل أنّه كان له لسان طلق، وقلم سيال، وحافطة جيدة، قلّب ـ بنفسه بدون أُستاذ رشيد ـ صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل الّتى كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق، فاغترّبما فهمه من تلك الكتب من الوساوس والهواجس، حتى طمحت نفسه إلى أن تكون قدوة فى المعتقد والأحكام العملية، ففاه فى القبيلين بما لم يفه به أحد من العالمين، مما هو وصمة عار وأمارة مروق فى نظر الناظرين، فانفضّ من حوله أُناس كانوا تعجّلوا فى إطرائه ـ بادىء بدء ـ قبل تجريبه، وتخلّوا عنه واحداً إثر واحد على تعاب فتنة المدونة فى كتب التاريخ،ولم يبقَ(۱) معه إلّا أهل مذهبه فى الحشو من جهلة المقلدة، ومن ظن أن علماء ________________

۱ . وقال فى التعليق: وثناء بعض المتأخرين عليه لم يكن إلا عن جهل بمضلات الفتن فى كلامه، ووجوه الزيغ فى مؤلفاته، ومنهم من ظن أنه دام على توبته بعد ما استتيب فدام على الثناء، ولا حجة فى مثل تلك الأثنية، وأقواله الماثلة أمامنا فى كتبه لا يؤيدها إلّا غاو غوى، نسأل اللّه السلامة . (۵۲)

عصره صاروا كلهم إلباً واحداً ضدّه حسداً من عند أنفسهم، فَلْيَتّهم عقله وإدراكه قبل اتّهام الآخرين، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه فى الاعتقاد والعمل، وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة، وينقل من سجن إلى سجن إلى أن افضى إلى ما عمل وهو مسجون فقير، هو وأهواؤه فى البابين، بموته وبردود العلماء عليه، وماهى ببعيدة عن متناول رواد الحقائق . كلامه فى حق تلميذه ابن القيم

وكان ابن زفيل الزرعى المعروف بابن القيم يسايره فى شواذه حياً وميتاً، ويقلده فيها تقليداً أعمى فى الحق والباطل، وإن كان يتظاهر بمظهر الاستدلال، لكن لم يكن استدلاله المصطنع سوى ترديد منه لتشغيب قدوته، دائباً على إذاعة شواذ شيخه، متوخياً ـ فى غالب مؤلفاته ـ تلطيف لهجة أُستاذه فى تلك الشواذ لتنطلى وتنفق على الضعفاء، وعمله كله التلبيس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحرانى . تراه يثرثرفى كل واد ويخطب بكل ناد، بكلام لا محصل له عند أهل التحصيل، ولم يكن له حظ من المعقول، وإن كان كثير السرد لآراء أهل النظر، ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصّر، ونونيته(۱) و عَزَوْه من الدلائل على أنّه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بنقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أُناس هلكى، واستدل فيهما باخبار غير صحيحة على صفات اللّه سبحانه. وقد ذكره الذهبى فى المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسينى

۱ . وهى قصيدته البالغة خمسة آلاف بيت فى العقائد، وهى الّتى رد عليها السبكى بتاليف كتاب السيف الصقيل، وأكمله محمد الكوثرى وأسماه تكملة السيف الصقيل، وها نحن ننقل هاتيك العبارات منها. (۵۳)

ولا ابن فهد ولا السيوطى فى عداد الحفاظ فى ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارىء بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية فى زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيّمة لأهل العلم بالحديث، كـ«المورد الهنى فى شرح سير عبدالغنى» للقطب الحلبى ونحوه . ولو لا محلى ابن حزم «وأحكامه» و «مصنف» ابن أبى شيبه «وتمهيد» ابن عبدالبر لما تمكن من مغالطاته وتهويلاته فى

«أعلام الموقعين» . وكم استتيب وعذر مع شيخه وبعده على مخاز فى الاعتقاد والعمل، تستبين منها ما ينطوى عليه من المضى على صنوف الزيغ تقليداً لشيخه الزائغ، وسيلقى جزاء عمله هذا فى الآخرة ـ إن لم يكن ختم له بالتوبة والأمانة ـ كما لقى بعض ذلك فى الدنيا . كلام الحافظ الذهبى وغيره فى حق ابن القيم

قال الذهبى فى المعجم المختص عن ابن القيم هذا: «عنى بالحديث بمتونه وبعض رجاله وكان يشتغل فى الفقه ويجيد تقريره، وفى النحو ويدريه، وفى الأصلين. وقد حبس مدة لإنكاره على شد الرحل لزيارة قبر الخليل (إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ) ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، لكنّه معجب برأيه جرىء على الأُمور . قال ابن حجر فى الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتّى كان لا يخرج عن شىء من أقواله، بل ينتصر له فى جميع ذلك، وهو الّذى هذب كتبه ونشر علمه... واعتقل مع ابن تيمية بالقلة، بعد أن أُهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلما مات أُفرج عنه، وامتحن مرة أُخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه».

قال ابن كثير: «كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق، حتى جرت له بسببها أُمور يطول بسطها مع ابن السبكى وغيره... وكان جماعاً للكتب فحصّل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلا سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.. وهو طويل النفس فى مصنفاته، يتعانى (۵۴)

الإيضاح جهده، فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه بتصرف فى ذلك، وله فى ذلك ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها.. وجرت له محن مع القضاة، منها فى ربيع الأول طلبه السبكى بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنّه رجع عما كان يفتى به من ذلك» . كلام ابن الحصنى فى حقه

وقال التقى الحصنى: كان ابن تيمية ممن يعتقد ويفتى بأنّ شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة، ويصرّح بقبر الخليل وقبر النبى (صلى اللّه عليهما وسلم) ، وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعى، وإسماعيل بن كثير الشركوينى، فاتّفق أنّ ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف، ورقى على منبر فى الحرم ووعظ وقال فى أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: وها أنا راجع ولاـ أزور الخليل. ثم جاء إلى نابلس، وعمل له مجلس وعظ، وذكر المسألة بعينها حتى قال: فلا يزور قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله، فحماه منهم والى نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرّفون صورة ما وقع منه، فطلبه القاضى المالكى فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضى شمس الدين بن مسلم الحنبلى وأسلم على يديه، فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقن دمه، ولم يعزّره لأجل ابن تيمية... ثم أحضر ابن قيم الجوزية وادُّعى عليه بما قاله فى القدس الشريف وفى نابلس فأنكر، فقامت عليه البينة بما قاله، فأُدّب وحُمل على جمل، ثم أُعيد إلى السجن، ثم أُحضر إلى مجلس شمس الدين المالكى وأرادوا ضرب عنقه، فما كان جوابه إلاّـ أن قال: إنّ القاضى الحنبلى حكم بحقن دمى وبإسلامى وقبول توبتى، فأُعيد إلى الحبس إلى أن أُحضر الحنبلى فأخبر بما قاله، فأُحضر وعزّر وضرب بالدرة، وأُركب حماراً وطيف به فى البلد والصالحية، وردّوه إلى الحبس ـ وجرسوا ابن القيم وابن كثير، وطيف بهما فى البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم فى مسالة الطلاق . (۵۵)

قال ابن رجب: قد امتحن و أوذى مرات، وحبس مع الشيخ تقى الدين فى المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً، لم يفرج عنه إلاّ بعد موت الشيخ . وقد سقت هنا نماذج من كلمات أصحابه و أضداده والمتحايدين فى حقه، ليعتبربها المغرورون به. على أنّ الخبر اليقين فيما يجده القارىء الكريم فى حقه فى هذا الكتاب، وأرجو أن الحق لاـ يتعدى ما دللت عليه فى حقه فيما كتبناه. وأحق الناس بالرثاء وأجدرهم بالترحّم من أفنى عمره فى سبيل العلم منصاعاً لمبتدع يرديه من غير أن يتخيّر أُستاذاً رشيداً يهديه، ومثله إذا دوّن أسفاراً لا يزداد بها إلاّ بسمعه ولا يبصر بعداً عن اللّه وأوزاراً، وهو الّذى يصبح متفانياً فى شيخه الزائغ بحيث لا يسمع إلاّ ببصره فى جميع شؤونه، ويبقى فى أحط دركات الجهل من التقليد الأعمى، ولو فكر قليلا لكان أدرك أنّ من السخف بمكان، وضعه لشيخه فى إحدى كفّتى الميزان ليوازن به جميع العلماء والفقهاء من هذه الأُمة فى كفته الأُخرى فيزنهم ويغالبهم به فيغلبهم فى علومهم!! وهذا ما لا يصدر من حافظ بعقله، ولاـ سيما بعد التفكير فى تلك المخازى من شواذه . نعم، يمكن أن يكون عنده أو عند شيخه بعض تفوق فى بعض

العلوم على بعض مشايخ حارته، أو أهل خطته أو قريته أو مضرب خيام عشيرته، لكن لا يوجب هـذا أن يصدق ظنه فى حق نفسه أن جوّ هذه الأرض يضيق عن واسع فهومه، وعرض هذه البحار لا يتّسع لزاخر علومه»(۱) . ۱۷- الشيخ سلامة القضا العزامى (ت ۱۳۷۹ هـ) قال: «بـدأ ابن تيميـة حياته بطلب العلم على ذكاء وتصالح، ورفق به أكابر العلماء لأنّ اباه كان رجلا هادئاً وكان من بيت علم، فساندوه وشـجعوه وأثنوا عليه خيراً، حتّى إذا أقبـل عليه النـاس بـدأ يظهر بالبـدع، وأبطرته الغرة، فتمادى فى التعصب لآرائه، وما زال يتلاعب به الهوى حتّى كان مجموعة بدع ________________

۱ . تكملة السيف الصقيل ص ۴ ـ ۹ . (۵۶)

شنعـاء، ودائرة جهالات وأباطيل شوهـاء، فتجـده فى مسائـل من علم التوحيـد حشوياً كرامياً، يقول فى اللّه بالأجزاء والجهـة والمكان، والنزول والصـعود الحسيين، وحلول الحوادث بـذاته تعالى، ومن ناحيـة أُخرى تجد فيه حضـيضة الخوارج، يكفّر أكابر الأُمة ويخطىء أعاظم الأئمـة وقال: من نـذر شـيئاً للنبى أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أوذبح له ذبيحة كان كالمشـركين الذين يذبحون لأوثـانهم وينـذرون لها، فهو عابـد لغير اللّه فيكون بـذلك كافراً، ويطيل فى ذلك الكلام، واغترّ بكلامه بعض من تأخّر عنه من العلماء ممن ابتلى بصـحبته أو صـحبة تلاميذه، وهو منه تلبيس فى الدين، وصـرف إلى معنى لا يريده مسـلم من المسلمين، ومن خبر حال من فعل ذلك من المسـلمين وجـدهم لا يقصـدون بذبائحهم ونذورهم للمتقين من الأنبياء والأولياء إلاّ الصدقة عنهم، وجعل ثوابها إليهم، وقـد علموا أنّ إجماع أهل السـنة منعقدة على أنّ صدقة الأحياء نافعة للأموات واصـلة إليهم. ولقد تعدّى هذا الرجل حتّى على الجناب المحمدى فقال: إنّ شد الرحال إلى زيارته معصـية، وإنّ من ناداه مسـتغيثاً به بعد وفاته فقد أشـرك، فتارة يجعله شـركاً أصغر، وأُخرى يجعله شركاً أكبر، وإن كان المستغيث ممتلىء القلب بأنّه لا خالق ولا مؤثر إلاّ اللّه، وأنّ النبى إنّما ترفع إليه الحوائج ويستغاث به، على أنّ اللّه جعله منبع كل خير، مقبول الشـفاعة، مستجاب الدعاء كما هى عقيدة جميع المسلمين مهما كانوا من العامة . وقد أوضح ذلك كل الإيضاح قبلنا أكابر جهابـذة العلم لا سـيما علَمُ أعلام هـذا العصـر، حامل لواء الحكمة الإسـلامية، وأحد جماعة كبار العلماء بحق، الشيـخ يوسف الـدجوى، فيما كتبه فى مجلـة الأزهر ـ أدم اللّه تأييده بروح منه، وجلله بالعافية من لدنه ـ . وهذه البدعة من مبتكراته قد اغتر بها ناس، فقالوا بكفر من عداهم من جماهير المسـلمين، وسـفكت فى ذلك دماء لا تحصى، وقد أُلفت الكتب الكثيرة فى رد هذه البدعة وفروعها، بين مطوّل قد جوّده صاحبه، ومختصر أفاده مؤلفه وأجاد. (۵۷)

ومن عجيب أمر هـذا الرجـل أنّه إذا ابتـدع شـيئاً حكى عليه إجمـاع الأولين والآخرين كـذباً وزوراً، وربمـا تجـد تناقضه فى الصـفحة الواحـدة، فتجده فى منهاجه مثلا يدّعى أنّه ما من حاديث إلاّ وقبله حادث إلى ما لا نهاية له فى جانب الماضـى، ثم يقول: وعلى ذلك أجمع الصـحابة والتابعون. وبعـد قليل يحكى اختلافاً لحق الصـحابة فى أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء؟ وبينما تراه يتكلّم بلسان أهل الحق المنزهين، إذا بك تراه قـد انقلب جهوياً(۱) وسـمّى كل من لا يقول بـذلك معطّلا، وزنديقاً، وكافراً، وقد جمع تلميذه «ابن زفيل» سـفاهاته ووساوسه فى علم أصول الـدين، فى قصـيدته النونية، وبينما تراه يسب جهماً والجهمية، إذا بك تراه يأخذ بقوله فى أنّ النار تفنى، وأن أهلها ليسوا خالـدين فيها أبـداً ـ إلى أن قال ـ: وليس من غرضـنا بسط الكلام فى بـدع هـذا الرجل، فقـد كفانا العلماء ـ شكر اللّه سـعيهم ـ من عصره إلى هذا العهد، المؤنة بالتصانيف الممتعة فى الرد عليها، ولكن رفع الجهل رأسه فى عصرنا هذا، وانتدب نـاس من شـيعته لطبع الكثير من كتبه وكتب تلميـذه ابن زفيـل، ففضـحوا الرجـل وشـهّروا به عنـد المحققين من أهـل الفقه فى الـدين، وتبينت صـحة نسبة مـا كـان يتورع العلمـاء عن نسـبته إليه، وإنّ نصـيحتى الّتى أسـديها لكن مسـلم نصـيحة للّه ولرسوله ولكتابه وأئمة المسـلمين وعامتهم، هى لزوم جماعـة المسلمين فى أُصول الـدين وفروعه، ولولا أنّى اشـفق على القارىء أن يملّ لتحدّثت إليه طويلا فيما أصاب الإسلام والمسلمين من عظائم هذا الرجل، ولبسطت له ما قال أكابر العلماء فيه وفى شيعته، ولكنّى أرجو أن يكون ما قدّمته كافياً لذوى النهى»(۲) . ۱۸- الشيخ محمد أبو زهرة (۱۳۱۶ ـ ۱۳۹۶ هـ)

ألّف الشيخ محمد أبو زهرة، كتاباً فى حياة ابن تيمية وشخصيته، ومع ________________

۱ . كذا فی النسخة ولعل المراد: «جهمياً» .

[أو لعل المراد: نسبته إلی من يقول فی اللّه بالجهة] الناشر .

۲ . فرقان القرآن ص ۱۳۲ ـ ۱۳۷ وقد فرغ المؤلف منه سنة ۱۳۵۸ هـ . (۵۸)

أنّه أغمض عن كثير من الجوانب السلبية فی حياته، وأخرج كتابه علی وجه يلائم روح المحايدة فی الكتابة، ومع ذلك انتقد عليه فی موارد، ومنها: منعه التبرك بآثار النبی. يقول: «دفن النبی فی حجرة عائشة لأنّ يكون قبره قريباً من المسجد، وأن يكون قبره معروفاً غير مجهول، فإنّه لو دفن بالبقيع فی الصحراء، فقد يجهل موضعه، ويكون بعيداً عن مسجده، وأمّا إذا دفن فی حجرة عائشة فإنّه يكون قريباً من مهبط الوحی ومبعث الدعوة ومكان التنزيل، وبعد فإنّا نخالف ابن تيمية منعه التبرك بزيارة قبر الرسول و المناجاة عنده، وعدم الندب إليه، وإنّ التبرك الّذی نريده ليس هو العبادة أو التقرب إلی اللّه بالمكان. إنّما التبرك هو التذكّر والاعتبار والاستبصار. وأیّ امریء مسلم علم حياة النبی ـ صلّی الله عليه وآله وسلم ـ وسيرته، وهدايته، وغزواته وجهاده، ثم يذهب إلی المدينة ولا يحس بأنّه فی هذا المكان كان يسير الرسول ويدعو ويعمل، ويدبّر ويجاهد، أو لا يعتبر ـ ولا يستبصر، أو لا يحس بروحانية الإسلام و عبقرية النبی الأمين، أو لا تهزّ أعطافه محبة للّه ورسوله والأخذ بما أمر اللّه به، والانتهاء عما نهی عنه إلاّ من أعرض عن ذكر اللّه ولم يكن من أولی الأبصار؟ إنّ الزيارة إلی قبر الرسول هی الذكری والاعتبار، والهدی والاستبصار والدعاء عند القبر دعاءً، القلب خاشع، العقل خاضع، والنفس مخلصة، والوجدان مستيقظ، وإنّ ذلك أبرك الدعاء»(۱) . وهذه النصوص الرائعة من أئمة الحديث والتفسير والكلام فی حق الرجل تغنينا عن إفاضة القول فيه، وقد اكتفينا بهذا المقدار عن الكثير، فإنّ الناقدين له أكثر مما ذكرنا. وقد نشر كتيب باسم «الوهابية فی نظر المسلمين»(۲) وذكر بعض من لم نذكره، كما أنّه لم يذكر بعض ما ذكرنا من النصوص . والّذی يعرب عن أنّ الرأی العام يوم ذاك كان علی ضدّه هو أنّ لفيفاً من العلماء من معاصريه والمتأخرين عنه ردّوا عليه بكتب ورسائل فندوا فيها. ________________

۱ . ابن تيمية حياته وشخصيته ص ۲۲۸ .

۲ . تأليف: إحسان عبداللطيف البكری. (۵۹)

الرجل حول الصفات الخبرية أولا، والزيارة والتوسل ثانياً، إلی غير ذلك مما أثار عجاباً فی السحاة الإسلامية، وإليك الإيعاز بالردود الّتی كتبت علی آرائه. الناقضون والرادّون علی ابن تيمية

وإليك قائمة ممن ألف كتاباً أو رسالة حول آرائه: ۱- شفاء السقام فی زيارة خيرالأنام، لتقی الدين السبكی . ۲- الدرة المضيئة فی الرد علی ابن تيمية، له أيضاً . ۳- المقالة المرضية، لقاضی قضاة المالكية تقی الدين أبی عبداللّه الأخنائی . ۴- نجم المهتدی ورجم المقتدی، للخفر ابن المعلم القرشی . ۵- دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلی الإمام أحمد، لتقی الدين الإمام أبی بكر الحصنی الدمشقی (ت ۷۲۹ هـ) . ۶- التحفة المختارة فی الرد علی منكری الزيارة، لتاج الدين عمر بن علی اللخمی المالكی الفاكهانی (ت ۷۳۴ هـ) . ومما جاء فيه قوله: أخبر جمال الدين عبداللّه بن محمد الأنصاری المحدث قال: رحلنا مع شيخنا تاج الدين الفاكهانی إلی دمشق، فقصد زيارة نعل رسول اللّه الّتی بدار الحديث الأشرفية بدمشق، وكنت معه، فلما رأی النعل المكرمة، حسر عن رأسه، وجعل يقبله ويمرغ وجه عليه ودموعة تسيل وأنشد: فلو قيل للمجنون: ليلی ووصلها * تريد أم الدنيا وما فی طواياها لقال غبار من تراب نعالها * أحب إلی نفسی وأشفی لبلواها(۱) ۷- اعتراضات علی ابن تيمية، لأحمد بن إبراهيم السروطی ________________

۱ . الغدير: ج ۵ ص ۱۵۵ نقلا عن الديباج المذهب . (۶۰)

الحنفی (۱) . ۸- إكمال السنة فی نقض منهاج السنة، للسيد مهدی بن صالح الموسوی القزوينی الكاظمی (ت ۱۳۵۸ هـ)(۲). ۹- الإنصاف والإنتصاف لأهل الحق من الإسراف، فی الرد علی ابن تيمية الحنبلی الحرانی، فرغ منه مؤلفه سنة (۷۵۷ هـ)، توجد نسخة منه فی المكتبة الرضوية ـ مشهد ـ رقم ۵۶۴۳ . ۱۰- البراهين الجلية فی ضلال ابن تيمية، للسيد حسن الصدر الكاظمی (ت ۱۳۵۴ هـ) (۳). ۱۱- البراهين الساطعة، للشيخ سلامة العزامی (۱۳۷۹ هـ) (۴) . ۱۲- جلاء العينين فی محاكمة الأحمدين (أحمد بن تيمية وأحمد بن

حجر)، للشيخ نعمان بن محمود الألوسى(۵) . ۱۳- الدرة المضيّة فى الرد على ابن تيميـة، لمحمد بن حميد الدين الحنفى الدمشقى كمال الدين المعروف بابن الزملكانى (۶) . ۱۴- الرد على ابن تيمية فى الاعتقاد، لمحمد بن حميد الدين الحنفى الدمشقى (۷) . الفتيا الّتى اصدرها الشاميّون فى حق ابن تيمية

وفى الختام نثبت فى المقام صورة الفتيا الّتى أصدرها الشاميون ونقلها ـــــــــــــــــ

۱ . معجم المؤلفين: ج ۱ ص ۱۴۰ .

۲ . الذريعة ج ۱۰ ص ۱۷۶ .

۳ . الذريعة ج ۳ ص ۷۹ .

۴ . ابن مرزوق: كتاب التوسل بالنبى، ص ۲۵۳ .

۵ . إيضاح المكنون: ج ۱ ص ۲۶۳، معجم المؤلفين ج ۱۳ ص ۱۰۷ .

۶ . كشف الظنون ج ۱ ص ۷۴۴، معجم المؤلفين ج ۱۱ ص ۲۲ .

۷ . معجم المؤلفين ج ۸ ص ۳۱۶ . (۶۱)

الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى تكملة السيف الصقيل، وإليك ما ذكره: «وقد اصدر الشاميون فتياً وكتب عليها البرهان ابن الفركاح الفزارى نحو أربعين سطراً بأشياء، إلى أن قال بتكفيره، ووافقه على ذلك الشهاب بن جهبل، وكتب تحت خطه، كذلك المالكى، ثم عرضت الفتيا لقاضى القضاة الشافعية بمصر: البدر بن جماعة، فكتب على ظاهر الفتوى: الحمد للّه، هذا المنقول باطنها جواب عن السؤال عن قوله: إن زيارة الأنبياء والصالحين بدعة، وما ذكره من نحو ذلك، ومن أنّه لا يرخص بالسفر لزيارة الأنبياء، باطل مردود عليه، وقد نقل جماعة من العلماء أنّ زيارة النبى فضيلة وسنة مجمع عليها، وهذا المفتى المذكور ـ يعنى ابن تيمية ـ ينبغى أن يزجر عن مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الأئمة والعلماء، ويمنع من الفتاوى الغريبة، ويحبس إذا لم يمتنع من ذلك، ويشهر أمره ليحتفظ الناس من الاقتداء به. وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعة الشافعى . وكذلك يقول محمد بن الجريرى الأنصارى، الحنفى: لكن يحبس الآن جزماً مطلقاً، وكذلك يقول محمد بن أبى بكر المالكى، ويبالغ فى زجره حسبما تندفع تلك المفسدة وغيرها من الفاسد . وكذلك يقول أحمد بن عمر المقدسى الحنبلى: وهؤلاء الأربعة قضاة المذاهب الأربعة بمصر أيام تلك الفتنة فى سنة (۷۲۶ هـ)(۱) . ولو أردنا أن نستقصى كل ما كتب رداًعلى ابن تيمية، لخرجنا عمّا هو الهدف، وكفى فى ذلك ما نشر باسم «الوهابية فى نظر المسلمين»(۲) . إلى هنا تمّ تبيين الرأى العام فى ابن تيمية، فى حياته ومماته، وقد عرفت ـــــــــــــــــ

۱ . راجع تكملة السيف الصيقل، ص ۱۵۵، ودفع الشبهة لتقى الدين الحصنى ص ۴۵ ـ ۴۷ .

۲ . تأليف إحسان عبداللطيف البكرى: الطبعة الرابعة، ومجلة «تراثنا» . (۶۲)

فما هو الحق، غير أن تقييم الرجل بنقل آراء الأكابر من العلماء وإن كان له قيمة ـ ولكنّه تقييم تقليدى لهم ـ ومن أراد تقييمه عن اجتهاد وإمعان فيجب أن يستعرض آراءه وأقواله من كتبه ورسائله، ليعرف ما هو الحق فى ذلك المجال، وعندئذ يصدر القاضى عن اجتهاد وإمعان، لا عن تقليد واقتداء بالغير، ولأجل ذلك نخص الفصل الآتى بنقل آرائه فى مواضع مختلفة، ونكتفى ببعضها الّذى أوجد ضجة فى الأيام الغابرة، وقام العلماء فى وجهه كصف واحد، وزجروه وعاتبوه ونفوه وسجنوه، إلى أن مات فى سجن دمشق، ولا ينافى كل ذلك ما للرجل من فضل وفضيلة فى نواح من العلوم الإسلامية، فإنه لولا تحلّيه بالذكاء والتوقّد، أو بالعلم بالكتاب والسنة لما اكتسب مقاماً فى الأوساط الإسلامية، ولم يكن لآرائه قيمة، فالمبدع لا يكون ناجحاً فى بدعه وضلاله إلاّ إذا خلط الحق بالباطل ـ وإلاّ ـ فالباطل المطلق لا ـ يكون له نجاح ونفوذ، ولنعم ما قال أميرالمؤمنين علىّ ـ عليه السَّلام ـ : «إنّما بدءُ وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب اللّه، ويتولى عليها رجال رجالا، على غير دين اللّه. فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق، لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه السنُ المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث

فيمزجان، فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى»(۱) . ________

۱ . نهج البلاغة الخطبة ۴۹ .

الإتهام بالشرك والبدعة

الإتهام بالشرك والبدعة

إنّ أكثر شـیء تداولا وأرخصه فی كتب الوهابيين ودعاياتهم هو اتّهام المسلمين بالشرك والبدعة، وكأنهم لا يجدون فی كنانتهم شيئاً يرمون به المسلمين سوى هاتين الفريتين. ترى أنّهم يتّهمون جميع المسلمين من عرب وعجم وسنة وشيعة بالشرك فی العبادة، وأنه ليس تحت السماء وفوق أديم الأرض أُمة موحّدة سوى محمد بن عبدالوهاب وأتباعه . كما أنهم بدل تكريم المسلمين عند اللقاء، وتهنئتهم بالتسليم ونشر العطور ونثر الازاهير عليهم، يتهمونهم بالابتداع، ويسمونهم بالمبتدعة. ولأجل ذلك يجب على كل محقق وناقد لمزاعم الوهابيين الموروثة من ابن تيمية القيام بأمرين مهمين وهما: ۱- تحديد العبادة تحديداً منطقياً بحيث يكون جامعاً ومانعاً . ۲- تحديد البدعة تحديداً دقيقاً مثل الشرك فی العبادة . ثم القيام بتطبيق ما أوقفه عليه البحث والتنقيب على ما يصفونه بالشرك والبدعة، حتّى يتبيّن أنّ التطبيق صحيح أولا؟ فها نقدّم إليك أيّها القارىء الكريم بحثاً ضافياً حول هذين الموضوعين المهمين، حتّى يتّضح الحقّ بأجلى مظاهره، وتقف على أنّ أكثر من يصفونه بالشرك والبدعة خيال وضلال وجهل بحقيقتهما. (۶۴)

ابن تيمية

ابن تيمية وملاكات التوحيد والشرك فی العبادة

إنّ المفتاح الوحيد لردّ شُبَهِ الوهابيين هو تحديد العبادة وتمييزها عن غيرها، فما لم يتحدّد مفهوم العبادة بشكل منطقی حتّى تتميز فی ضوئه العبادة من غيرها، لم يكن البحث والنقاش ناجحاً، ولأجل ذلك نخصّص هذا الفصل لتعريف العبادة، و نبيّن ما ذكر حولها من التعاريف. إنّ للتوحيد مراتب بيّنها علماء الإسلام فی الكتب الكلامية والتفسيرية، ونحن نشير إلى هذه المراتب على وجه الإجمال، ونركزّ على التوحيد فی العبادة: الأُولى: التوحيد فی الذات، أو التوحيد الذاتی، والمراد منه هو: أنه سبحانه واحد لا نظير له، فرد لا مثيل له. قال سبحانه: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ)(۱) . الثانية: التوحيد فی الخالقية، والمراد منه هو: أنّه ليس فی صفحة الوجود خالق أصيل غير اللّه، ولا مؤثر مستقل سواه، وأنّ تأثير سائر الأسباب الطبيعية وغيرها بأمره وإذنه وإرادته سبحانه. قال سبحانه: (قُلَ اللّهُ خالِقُ كُلّ شَیء وَ هُوَ الوَاحِدُ القَهّارُ)(۲) . الثالثة: التوحيد فی الربوبية والتدبير، والمراد منه أن للكون مدبّراً واحداً ________

۱ . سورة الإخلاص: الآية ۱ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۶ . (۶۶)

ومتصرّفاً فرداً لا يشاركه فی التدبير شیء آخر، وأنّ تدبير الملائكة وسائر الأسباب بأمره وإذنه، فلم يفوّض أمر التدبير إلى الأجرام السماوية والملائكة والجن. قال سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرش يُدَبِّرُ الأمْرَ مَا مِنْ شَفِيع إلاّ مِنْ بَعْدِ إذنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ)(۱) . والمراد من الشفيع هو العلل الطولية، وسُمّی بالشفيع لأنّ تأثيره متوقف إلى ضمّ إذنه سبحانه إليه، والشفع هو الضم، سمی السبب شفيعاً لأنه يؤثر بانضمام إذنه تعالی . وإذ انتهی إليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين، أو الاعتضاد بأعضاد، لم يكن لشیء من الأشياء أن يتوسط فی تدبير أمر من الأُمور ـ وهو الشفاعة ـ إلاّ من عبد إذنه تعالی، فهو سبحانه السبب الأصلی الّذی لا سبب بالأصالة دونه، وأمّا الأسباب فإنها أسباب بتسبيبه، وشفعاء من بعد إذنه(۲) . الرابعة: التوحيد فی التشريع والتقنين، والمراد منه حصر الحاكمية التشريعية فی اللّه فليس لأحد أن يأمر وينهی ويحرم ويحلل إلاّ اللّه سبحانه. قال تعالی: (إنِ الحُكْمُ إلاّ للّهِ أَمَرَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إيّاه)(۳) . الخامسة: التوحيد فی الطاعة، والمراد منه هو: أنه ليس هناك من تجب طاعته بالذات إلاّ اللّه تعالی، فهو وحده الّذی يجب

أن يطاع، ولو وجبت طاعة النبى فإنما هو بإذنه. قال سبحانه (فاتّقوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُم واسْمَعُوا و أَطيعُوا)(۴) . السادسة: التوحيد فى الحاكمية، والمراد منه هو: أن جميع الناس سواسية، فلا ـ ولاية لأحد على أحد بالذات، بل الولاية للّه المالك الخالق، فمن مارس الحكم فى الحياة يجب أن يكون بإذنه، قال سبحانه: (إنِ الحُكمُ ــــــــــــــــــ

۱ . سورة يونس: الآية ۳ .

۲ . الميزان ج ۱۰، ص ۷۶ .

۳ . سورة يوسف: الآية ۴۰ .

۴ . سورة التغابن: الآية ۱۶ . (۶۷) إلاّ للّه يَقُصُّ الحَقّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصلينَ)(۱) . السابعة: التوحيد فى الشفاعة والمغفرة، والمراد منه هو: أن كلا من الشفاعة والمغفرة حق مختص به فلا يغفر الذنوب إلاّ هو، ولا يشفع أحد إلاّ بإذنه. قال سبحانه: (وَ مَن يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاّ اللّه)(۲) .

وقال سبحانه: (مَنْ ذا الّذى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإذنِهِ)(۳) . الثامن: التوحيد فى العبادة، وحصرها فى اللّه سبحانه، فلا ـ معبود إلاّ هو، لا يشاركه فيها شىء، وهذا الأصل مما اتفق عليه الموحدون، فلا تجد موحداً يجوّز عبادة غير اللّه. إنّما الكلام فى المصاديق والجزئيات، وأن هذا العمل مثلا (الاستغاثة بالأولياء وطلب الدعاء منهم والتوسل بهم) هل هو عبادة لهم حتّى يحكم على المرتكب بالشرك، لأنّه عبد غيراللّه، أوْ لا؟ وهذا هو البحث الّذى عقدنا هذا الفصل لبيانه، وما تقدم ذكره من أقسام التوحيد كان استطراداً فى الكلام(۴).

جاءت لفظة العبادة فى المعاجم بمعنى الخضوع و التذلل. قال ابن منظور: أصل العبودية: الخضوع والتذلل، وقال الراغب: العبودية إظهار ــــــــــــــــــ

۱ . سورة الأنعام: الآية ۵۷ .

۲ . سورة ال عمران: الآية ۱۳۵ .

۳ . سورة البقرة: الآية ۲۵۵ .

۴ . إنّ الوهابية تعترف بنوعين من التوحيد وهما التوحيد الربوبى والتوحيد الالوهى، ويفسرون الأول بالتوحيد فى الخالقية، والثانى بالتوحيد فى العبادة، وكلا الاصطلاحين خطأ.

أمّا الأول فالمراد من الربوبية هو تدبير المربوب وإدارته، وأن وظيفة الرب الّذى هو بمعنى الصاحب، إدرة مربوبه، كرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إليها. فالتوحيد فى الربوبية غير التوحيد فى الخالقية، وإن كان ربما تنتهى الربوبية إلى الخالقية.

و أمّا الثانى، أعنى التوحيد فى الالوهية فهو مبنىّ على أن الإله بمعنى المعبود، ولكنه خطأ، بل هو ولفظ الجلالة بمعنى واحد، غير أن الأول كلّىّ والثانى علم لواحد من مصاديق ذلك الكلّى .

ومن أراد التفصيل فليرجع إلى مفاهيم القرآن، الجزء الأول ص ۴۳۲. وعلى ضوء هذا كلما أطلقنا لفظ الإله أو الالوهية فلا نريد منه إلاّ هذا، لا المعبود . (۶۸)

التذلل، والعبادة أبلغ منها، ولكن هذه التعاريف وأمثالها كتفسيرها بالطاعة كما فى القاموس، كلها تفسير بالمعنى الأعم، فليس التذلل وإظهار الخضوع والطاعة نفس العبادة، وإلاّ يلزم الالتزام بأُمور لا يصحّ لمسلم أن يلتزم بها: ۱- يلزم أن يكون خضوع الولد أمام الوالد، والتلميذ أمام الأُستاذ، والجندى أمام القائد، عبادةً لهم. قال تعالى: (وَاخْفِض لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرحْمَةِ)(۱) . ۲- يلزم أن يكون سجود الملائكة لآدم، الّذى هو من أعلى مظاهر الخضوع، عبادةً لآدم. قال سبحانه: (وَ إذ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...)(۲) . ۳- يلزم أن يكون سجود يعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف عبادة له. قال سبحانه: (وَ رَفَعَ أبَوَيْهِ عَلَى العَرشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يَا أبَتِ هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّى حَقاً)(۳) . ۴- يلزم أن يكون تذلل المؤمن عبادة له، مع أنه من صفاته الحميدة، قال تعالى: (فَسَوفَ يَأتِى اللّه بَقَوْم يُحبّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أذِلَّة عَلَى المُؤمِنينَ أعَزّة عَلَى الكَافِرينَ)(۴) . كل ذلك يدفع بنا إلى القول بأنّ تفسير العبادة

بالتذلل والتخضع أو إظهارهما، وبالطاعة وما يشابه ذلك تفسير بالمعنى الأعم، ولا يكون الخضوع ضعيفهُ وشديدهُ عبادةً إلّا إذا دخل فيه عنصر قلبى خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية: ۱- الاعتقاد بألوهية المعبود .

---

۱ . سورة الإسراء: الآية ۲۴ .

۲ . سورة البقرة: الآية: ۳۴ .

۳ . سورة يوسف: الآية ۱۰۰ .

۴ . سورة المائدة: الآية ۵۴ . (۶۹)

۲- الاعتقاد بربوبيته . ۳- الاعتقاد باستقلاله فى الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد. إنّ هذه العبارات الثلاثة تهدف إلى أمر واحد، وهو أنّ مقوّم العبادة ليس هو ظواهر الأفعال وصورها، بل مقومها هو باطن الأعمال ومناشئها، والخضوع الّذى ينبعث عن اعتقاد خاص فى حق المعبود، وهو: إمّا عبارة عن الاعتقاد بألوهية المعبود، سواء أكانت ألوهية حقيقية أم الوهية كاذبة مدّعاة، فاللّه سبحانه إله العالم وهو الإله الحقيقى الّذى اعترف به كل موحد على وجه الأرض، كما أنّ الأوثان والأصنام آلهة مدّعاة اعتقد بألوهيتها عبدتها والعاكفون عليها، فاللّه سبحانه عند المشركين كان إلهاً كبيراً وهؤلاء آلهة صغيرة، وزّعت شؤون الإله الكبير عليهم. أو عبارة عن الاعتقاد بربوبية المعبود، وأنّه المدبّر والمدير بنفسه. أو عبارة عن الاعتقاد باستقلال الفاعل فى فعله وإيجاده، سواء أكان مستقلا فى وجوده وذاته كما هو شأن الإله الكبير عند المشركين، أم غير مستقل فى ذاته ومخلوقاً للّه سبحانه، ولكنه يملك شؤونه سبحانه من المغفرة والشفاعة، أو التدبير والرزق أو الخلق، إلى غير ذلك مما هو من شؤونه سبحانه، والمراد من تملّكه بعض هذه الشؤون أو كلها، هو استقلاله فى ذلك المجال، فكأنه سبحانه فوضها إليه وتقاعد هو عن العمل . هذه هى الملاكات الّتى تضفى على كل خضوع خفيف أو شديد، لون العبادة وتميزه عن أى تكريم وتعظيم للغير. وفى الآيات القرآنية إلماعات إلى هذه القيود الّتى ترجع حقيقتها إلى أُمور ثلاثة: أمّا الأول: فإليك بعض الآيات: قال سبحانه: (أَمْ لَهُم إلهٌ غَيْرُ اللّه، سُبْحانَ اللّه عمّا يُشرِكُونَ)(۱) فقد جعل فى هذه الآية اعتقادهم بألوهية

---

۱ . سورة الطور: الآية ۴۳ . (۷۰)

غير اللّه هو الملاك للشرك. يقول سبحانه: (إنّهم كانُوا إذا قيلَ لَهُم لا إله إلاّ اللّه يستَكبرون)(۱) أى إنّهم يرفضون هذا الكلام لأنّهم يعتقدون بألوهية معبوداتهم، ويعبدونها بما أنّها آلهة حسب تصورهم، ولأجل تلك العقيدة السخيفة، قال تعالى: (إذا دُعىَ اللّه وَحْدَهُ كَفَرْتُم وَإنْ يُشْرَك بِهَ تُؤمِنُوا فالحُكْمُ للّهَ العلىّ الكَبير)(۲) . وقال سبحانه: (وَإذا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمأزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونِ بالآخِرَةِ وَ إذا ذُكِرَ الّذينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)(۳) . والآيات فى هذا المجال وافرة جداً لا حاجة لنقلها، ومن تدبّر فى هذه الآيات يرى أن التنديد بالمشركين لأجل اعتقادهم بألوهية أصنامهم وأوثانهم. قال سبحانه: (الذينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(۴) . وأما الثانى: أى كون الاعتقاد بالربوبية مؤثراً فى إضفاء طابع العبادة على الخضوع، فيكفى قوله سبحانه: (يا أيُّها الناس اعْبُدُوا ربَّكُمُ الّذى خَلَقَكُم والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُم)(۵) . وقال تعالى: (ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكم لا إلهَ إلاّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شىء فَاعْبُدُوه)(۶) . فتعليل لزوم العبادة بكونه سبحانه «ربكم» فى الآية الأُولى أو «ربكم وخالق كلّ شىء» فى الآية الثانية، يعرب عن أن الدافع إلى العبادة هو ذلك الاعتقاد، وبالتالى ينتج أنه لا يتصف الخضوع بصفة العبادة إلاّ إذا اعتقد الإنسان أن المخضوع له خالق ورب أو ما يقاربه، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه

---

۱ . سورة الصافات: الآية ۳۵ .

۲ . سورة غافر: الآية ۱۲ .

۳ . سورة الزمر: الآية ۴۵ .

۴ . سورة الحجر: الآية ۹۶ .

۵ . سورة البقرة: الآية ۲۱ .

۶ . سورة الأنعام: الآية ۱۰۲ . (۷۱)

ينفى صلاحية من فى السماوات والأرض لأن يكون معبوداً لأجل أنهم عباد الرَّحمن، قال: (إن كُلّ مَنْ فى السّمواتِ والأرْضِ إلاّ آتى الرّحمنِ عَبْداً)(۱)، فليسوا أرباباً ليدبّروا أُمورهم، ولا خالقين ليخلقوهم . نعم، الاعتقاد بالربوبية ينحل إلى الاعتقاد بأنه يملك شؤون العابد، إمّا فى جميع الجهات كما هو الحال فى إله العالم عندن الموحدين، أو بعض الشؤون كالشفاعة والمغفرة، أو قضاء الحوائج ورفع النوازل، كما هو الحال فى الآلهة الكاذبة عند المشركين، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينفى عن معبوداتهم كونهم مالكين لكشف الضر. قال: (لاَ يَمْلِكُونَ لاِنفُسِهِم نَفْعاً وَ لا ضرّاً)(۲)، وقال تعالى: (لا يَمْلِكُونَ كَشْف الضُّرّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْويلا)(۳) وقال: (لا يَمْلُكون عَنِ الشّفاعة إلاّ مَنِ اتّخَذَ عِنْدَ الرّحْمنِ عَهْداً)(۴) . وقال: (إنّ الذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُون اللّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُم رِزْقاً)(۵) إلى غير ذلك من الآيات الّتى بتاتاً، تملّك معبوداتهم المدعاة شيئاً من شؤونه سبحانه . وهذا يعرب عن أنّ وجه اتّصاف خضوعهم بالعبادة ودعائهم لها، هو اعتقادهم بأنهم أرباب يملكون ما ينفع فى حياتهم عاجلا أو آجلا، ويؤيد ذلك ما كانوا يرددون فى ألسنتهم حين الطواف والسعى ويقولون: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك . وأما الثالث: وهو الاعتقاد بكون المخضوع له مستقلا إمّا فى ذاته وفعله، أو فى فعله فقط، الإلماع إليه فى غير موضع من كتاب اللّه العزيز، وهو توصيفه سبحانه بالقيوم، قال سبحانه: (اللّه لا إله إلاّ هُوَ الحَىُّ ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة مريم: الآية ۹۳ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۶ .

۳ . سورة الإسراء: الآية ۵۶ .

۴ . سورة مريم: الآية ۸۷ .

۵ . سورة العنكبوت: الآية ۱۷ . (۷۲) القَيُّومُ)(۱) وقال: (وَعَنَتِ الوُجوهُ للحىِّ القَيُّوم)(۲) والمراد منه هو الموجود القائم بنفسه، ليس فيه شائبة من الفقر والحاجة، وأنّ كل ما سواه قائم به، ومن المعلوم أن القائم بنفسه والغنى فى ذاته، غنى فى فعله عن غيره، فلو استغثنا بأحد باعتقاد أنه يملك كشف الضر عنّا فقد طلبنا فعل اللّه سبحانه من غيره، لأنه تعالى وحده الّذى يملك كشف الضر لا غيره، والغنى فى الفعل هو اللّه سبحانه، فلو أقمنا موجوداً آخر مكان اللّه سبحانه فى مجال الإيجاد، وزعمنا أنه يخلق ويرزق ويدبّر الأُمور، أو أنه يغفر الذنوب ويقضى الحاجات من عند نفسه، أو بتفويض من اللّه سبحانه واعتزاله عن الساحة، فقد وصفناه بالربوبية أولا (التعريف الثانى) ولو زعمنا أنه قائم بنفس الفعل الّذى يقوم به سبحانه ثانياً فكأننا أعطينا غيره صفة من صفاته سبحانه، وهى القيومية ولو فى مجال الإيجاد (التعريف الثالث) .

هذا وللتفويض شؤون واسعة: منها تفويض اللّه تدبير العالم إلى خيار عباده من الملائكة والأنبياء والأولياء، ويسمى بالتفويض التكوينى . ومنها تفويض الشؤون الإلهية إلى عباده كالتقنين والتشريع والمغفرة والشفاعة ويسمى بالتفويض التشريعى . وهذا هو الذكر الحكيم يصف أهل الكتاب بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه يقول: (اتّخَذوا أحْبَارَهُم وَ رُهْبانَهُم أرباباً مَنْ دُون اللّه والمَسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً واحِداً لا إله هُوَ سُبْحانَهُ عمّا يُشرِكُون)(۳) . إنّ أهل الكتاب لم يعبدوهم من طريق الصلاة والصوم لها، وإنما ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة البقرة: الآية ۲۵۵ .

۲ . سورة طه: الآية ۱۱۱ .

۳ . سورة التوبة: الآية ۳۱ . (۷۳)

أشركوهم فى تفويض أمر التشريع والتقنين إليهم، وزعموا أنهم يملكون شأناً من شؤونه سبحانه. قال الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ : «واللّه ما صامُوا لَهُم، وَ لاَ صَلُّوا لَهُم، وَلَكِن أحَلُّوا حَرَماً وَ حَرّموا عَلَيْهِم حَلاَلا فاتّبعوهم»(۱). روى الثعلبى فى تفسيره: عن عدى بن حاتم قال: أتيت رسول اللّه وفى عنقى صليب من ذهب، فقال لى: «يا عدى، اطرح هذا الربق من عنقك» قال: فطرحته، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ هذه الآية: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً) حتّى فرغ منها، فقلت: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: أليس يحرّمون ما أحلّه اللّه، فتحرّمونه، ويحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟ قال: فقلت: بلى. قال: فتلك عبادة(۲) . وفى ضوء هذا البحث الضافى تستطيع أن تميّز العبادة عن غيرها، والتعبّد عن التكريم، والخضوع العبادى عن التعظيم العرفى وتقف على أنّ سجود الملائكة لآدم، ويعقوب وزوجته وأبنائه ليوسف، لم تكن عبادة قط، وما هذا إلاّ لأن خضوعهم لم يكن نابعاً عن الاعتقاد بألوهيتهما أو ربوبيتهما، أو أنهما يملكان شؤون اللّه سبحانه، كلها أو بعضها، ويقومان بحاجة المستنجد بنفسهما وذاتهما. ومما يؤيد أنّ خضوع المشركين أمام أوثانهم وأصنامهم كان ممزوجاً بالاعتقاد بكونهم آلهة صغيرة، أو أرباباً، وموجودات تملك شؤون الرب أو بعضها، أنهم كانوا يصفونها بأنها أنداد للّه سبحانه. قال سبحانه: (وَ مِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونَ اللّه أنْداداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللّه)(۳) ولما زعموا أن معبوداتهم المصطنعة، تستجيب دعاءهم وتشفع لهم مثله، عادوا يحبّونها كحب اللّه، ويذكر فى آية أُخرى أنّ المشركين كانوا يسوّون آلهتهم بربّ العالمين.

---

۱ . الكافى ج ۱ ص ۵۳ .

۲ . مجمع البيان ج ۳ ص ۲۳ والبرهان فى تفسير القرآن ج ۲ ص ۱۲۰ .

۳ . سورة البقرة: الآية ۱۶۵ . (۷۴)

قال سبحانه: (تاللّه إنْ كُنّا لَفِى ضَلال مُبين * إذْ نُسَوّيكُمْ بِرَبّ العَالمين)(۱) . والمراد هو التسوية فى شؤونه سبحانه جميعها أوبعضها، وأمّا التسوية فى العبادة فكانت من شؤون ذلك الاعتقاد، فإنّ العبادة خضوع من الإنسان للمعبود، فلا تتحقق إلاّ أن يكون هناك إحساس من صميم ذاته بأن للمعبود سيطرة غيبية عليه، يملك شؤونه فى حياته، وكان المشركون فى ظل هذه العقيدة يسوّون أوثانهم برب العالمين. وبالتالى يعبدونهم. وليس المراد من التسوية هو التسوية فى خصوص توجيه العبادة، إذ لم يعهد من المشركين المتواجدين فى عصر الرسول توجيه العبادة إلى اللّه، ويؤيد ذلك: أنّ الوثنية دخلت مكة ونواحيها أول ما دخلت بصورة الشرك فى الربوبية، وفى ذلك يكتب ابن هشام: كان عمرو بن لحى أول من أدخل الوثنية إلى مكة ونواحيها، فقد رأى فى سفره إلى البلقاء من أراضى الشام أُناساً يعبدون الأوثان، وعندما سألهم عما يفعلون بقوله: «ما هذه الأصنام الّتى أراكم تعبدونها؟» قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوننى منه فأسير به إلى أرض العرب فيعبدون؟!. ثم إنّه استصحب معه إلى مكة صنماً كبيراً باسم (هبل)، ووضعه على سطح الكعبة المشرفة ودعا الناس إلى عبادتها(۲)، فطلب المطر من هذه الأوثان يكشف عن اعتقادهم بأن لهذه الأوثان دخلا فى تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان. الوهابيون وملاكات التوحيد و الشرك

ثم إنّ الوهابيين لما لم يضعوا للعبادة حدّاً منطقياً تتميّز به عن غيرها،

---

۱ . سورة الشعراء: الآية ۹۷ ـ ۹۸ .

۲ . سيرة ابن هشام ج ۱ ص ۷۹ . (۷۵)

عمدوا إلى وضع ملاكات للعبادة، عجيبة جداً، وهى مبثوثة فى كتبهم وثنايا دعاياتهم وهى: ۱- الاعتقاد بالسلطة الغيبية . ۲- الاعتقاد بأن المدعو يقضى حاجته بسبب غير عادى . ۳- طلب الحاجة من الميت . ۴- طلب الحاجة مع كون المطلوب منه عاجزاً . إلى غير ذلك من المعايير الّتى لا تمت إلى التوحيد والشرك بصلة أبداً ولكون هذه الملاكات تدور على ألسنتهم و تتكرر فى كتبهم، نركّز على هذه المعايير وأشباهها لنخرج بنتيجة قطعية، وهى أنّ الملاك فى تمييز التوحيد عن الشرك أمر واحد وهو الاعتقاد بالألوهية والربوبية، أو كون الفاعل مستقلا ومفوضاً إليه الأمر، وأمّا هذه المعايير فكلها معايير عرضية، بل لا تمت إلى مسألة العبادة بصلة أصلا،

بل كل منها يوصف بالتوحيد على وجه، وبالشرك على آخر، وإليك البيان: ۱- هل الاعتقاد بالسلطة الغيبية معيار للشرك ؟
«إنّ هناك من يتصور أن الاعتقاد بالسلطة الغيبية فى المدعو يلازم الاعتقاد بكونه إلهاً. يقول الكاتب المودودى: «إنّ التصوّر الّذى لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرّع إليه هو ـ لا جرم ـ تصور كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على الطبيعة، وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة»(۱) وهذا الكلام صريح فى أنّه جعل الاعتقاد بهذه السلطة ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وعلى ضوء ذلك فكل من اعتقد فى واحد من الصالحين بأنّ له تلك السلطة فهو معتقد بألوهيته، فيصبح دعاؤه عبادة، والداعى عابداً له . وهو مردود من وجهين: ______________

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۱۷ . (۷۶) أولاً: إنّ التصور الّذى لأجله يدعو الإنسان الإله، لا ينحصر فى تصوّر كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، بل يكفى الاعتقاد بكونه مالكاً للشفاعة والمغفرة، كما كان عليه فريق من عرب الجاهلية، إذ كانوا يعتقدون فى شأن أصنامهم بأنّها آلهتهم لأنّها تملك الشفاعة والمغفرة، وهو غير القول بوجود السلطة على عالم التكوين، وبذلك يظهر الضعف فى كلام آخر له، حيث يقول:

«إنّ كلا من السلطة والألوهية تستلزم الأُخرى»(۱). والحال أنّ الإعتقاد بالألوهية أعمّ من الاعتقاد بالسلطة، فلو افترضنا أن الاعتقاد بالسلطة يستلزم الألوهية، ولكن الاعتقاد بالألوهية لا يستلزم الاعتقاد بالسلطة، بل يكفى أن يعتقد أنّ المدعو يملك مقام الشفاعة والمغفرة، أو شأناً من شؤونه سبحانه . وثانياً: إنّ الاعتقاد بالسلطة إنّما يستلزم الاعتقاد بالألوهية إذا كان ينطوى على الاعتقاد بأنّه فوّضت إليه تلك السلطة تفويضاً، بحيث يقوم بأعمالها باختياره من دون استئذان من اللّه سبحانه واعتماد عليه، وعلى ضوء ذلك لا يكون الاعتقاد بها ـ إذا كان إعمال تلك السلطة بإذن اللّه ـ ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وإلاّ وجب أن لا نسجّل أحداً من المسلمين المعتقدين بالقرآن فى ديوان الموحدين، فإنّه يثبت ليوسف وموسى وسليمان والمسيح، بل لأناس آخرين ليسوا بأنبياء سلطة غيبية. هذا قوله سبحانه فى قصة سليمان: (قال يَا أيُّها المَلأ أيُّكُم يَأتِينى بِعَرْشِها قَبْلَ أن يَأتُونى مُسلِمينَ * قال عِفْريتٌ مِنَ الجنّ أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أمينٌ * قَالَ الّذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رآه مُستَقِرّاً عَنَدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضلِ رَبّى لِيَبْلُونى أأشْكُرُ أم أكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ رَبَّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)(۲).

____

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۳۰ .

۲ . سورة النمل: الآية ۳۸ ـ ۴۰ . (۷۷)

ولا يرتاب أحد فى أنّ سليمان سأل ما سأل بعد اعتقاده بكونهم أصحاب السلطة الغيبية، أفيصح للمودودى أن يرمى ذلك النبى العظيم بما لا يليق بساحته، بل لا يحتمل فى حقه؟ . إنّ الذكر الحكيم يثبت ـ لسليمان ـ نفسه سلطة غيبية، وأنّه كان له سلطة على الجن والطير حتّى أصبحا من جنوده، كما يقول: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنودُهُ مِنَ الجِنّ وَ الإنسِ وَ الطّيرِ...)(۱). وكانت له السلطة على عالم الحيوانات حتّى أنّه كان يخاطبهم ويطلب منهم تنفيذ أوامره، كما يقول: (وَ تَفَقَّدَ الطّيرَ فَقالَ مَالِىَ لا أرَى الهُدْهُدَ أم كَانَ مِنَ الغَائبينَ * لأُعذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَديداً أو لأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأتِيَنِى بِسُلطان مُبين)(۲)، وكانت له السلطة على الجن، فكانوا يعملون بأمره وإرادته، كما يقول: (وَ مِنَ الجنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإذْنِ رَبِّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ...)(۳)، وكانت له السلطة على الريح أيما تسليط كما يقول: (وَ لِسُلَيمانَ الرّيحَ عاصَفَةً تَجْرِى بِأمْرِهِ)(۴) .

وعلى أىّ تقدير فايّة سلطة أعظم وأوضح من هذه السلطة الّتى كانت لسليمان؟ والجدير بالذكر أنّ بعض الآيات صرحت بأنّ كل هذه الأُمور غير العادية كانت تتحقق بأمره . هذا ما ذكره القرآن فى حق سليمان، وقد ذكر نظيره فى حق غير واحد من الأنبياء، لاحظ الآيات(۵) فكيف يكون الاعتقاد بالسلطة الغيبية المهيمنة على الطبيعة على وجه الإطلاق ملازماً للاعتقاد بالألوهية ؟

____

۱ . سورة النمل: الآية ۱۷ .

۲ . سورة النمل: الآية ۲۰ ـ ۲۱ .

۳ . سورة سبأ: الآية ۱۲ – ۱۳ .

۴ . سورة الأنبياء: الآية ۸۱ .

۵ . سورة يوسف: الآية ۹۳ ـ ۹۶، سورة الشعراء: الآية ۶۳، سورة البقرة: الآية ۶۰ (فى حق موسى)، سورة آل عمران: الآية ۴۹ (فى حق المسيح)، سورة المائدة: الآية ۱۱۰ (فى حقه أيضاً) . (۷۸) ۲- هل طلب قضاء الحاجة بأسباب غير طبيعية معيار للشرك ؟

يرى المودودى ان التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، أمّا طلب الحاجة وإنجازها بأسباب غيرها فهو يلازم الشرك. يقول: فالمرء إذا كان أصابه العطش فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء، لا يطلق عليه حكم الدعاء، ولا أن الرجل اتخذ إلهاً، وذلك أنّ كل ما فعله الرجل جار على قانون العلل والأسباب، ولكن إذا استغاث بولىّ فى هذا الحال فلا شك أنّه دعاه لتفريج الكربة واتّخذه إلهاً، فكأنّى به يراه سميعاً بصيراً، ويزعم أنّ له نوعاً من السلطة على عالم الأسباب مما يجعله قادراً على أن يقوم بإبلاغه الماء، أو شفائه من المرض(۱) . أقول: إنّ ما ذكره صورة أُخرى للمعيار الأول، وكلاهما وجهان لعملة واحدة، فإنّ طلب التوسل بالأسباب غير الطبيعية لا ينفك عن الاعتقاد بكونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة . يلاحظ عليه: أنّ المودودى تصوّر أنّ طلب التوسل بالأسباب الطبيعية ليس بشرك، وإنّما الشرك هو طلب التوسل بغيرها. والحال أنّ كلا منهما على وجهين: فلو تصوّر أنّ القائم بعمل على وفق الأُصول الطبيعية، إنّما يقوم به عند نفسه وباقتدار مستقل من دون اعتماد على اقداره سبحانه واستئذان منه، فقد اعتقد بألوهيته وطلب فعل الإله من غيره، وأمّا إذا اعتقد أنّ الخادم يحضر الماء بقدرة مكتسبة واستئذان منه فهو نفس التوحيد. ومثله الكلام فى الأسباب غير الطبيعية، فلا شك أنّ أُمة المسيح كانوا يعتقدون فى حقه ـ بعدما رأوا الآيات والمعجزات منه ـ أنّ له سلطة غيبية، وكانوا يسألونه إبراء مرضاهم وإحياء موتاهم، أفهل يتصوّر أنّ سؤالهم هذا كان شركاً؟ وأنّ المسيح كان مجيباً لدعوتهم الشركية؟! فمن ذا الّذى يسمع قول المسيح بين بنى إسرائيل: (أنّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطّينِ كَهَيئَةِ الطّيرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإذنِ اللّهِ و أُبْرَىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ و أُحيِ المَوْتى بِإذنِ اللّهِ وأُنَبِّئُكُم بِما تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى ــــــــــــــــ

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۳۰ . (۷۹) بُيُوتِكُم إنَّ فى ذَلِكَ لآيةً لَكُم إنْ كُنْتُم مُؤمِنينَ)(۱) .

فَمَنْ ذا الّذى يسمع كلامه هذا ـ ولا يعتقد بسلطته الغيبية؟ ولا يسأله كشف الكرب والملمات بإذنه سبحانه؟ أفيصح للمودودى أن يتّهم أُمة المسيح وفيهم الحواريون الذين أُنزلت عليهم مائدة من السماء ومدحهم سبحانه فى الذكر الحيكم(۲)بالشرك ؟ هذا هو الذكر الحكيم ينقل عن السامرى قوله: (بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لى نَفْسى)(۳) . وهو يعطى أنّ السامرى توسّل بالتراب المأخوذ من أثر الرسول، وكان له أثر خاص فى إخراج العجل الّذى كان له خوار. فلو اعتقد المسلم ـ تبعاً للقرآن ـ بأنه توسل باسباب غير طبيعية لإضلال قومه، فهل يصحّ اتهامه بالشرك؟ . وبالجملة: ليس الاعتقاد بالسلطة الغيبية فى مقابل الاعتقاد بالسلطة العادية، كما وليس التوسل بالأسباب غير العادية فى مقابل التوسل بالأسباب العادية، معيارين للتوحيد والشرك، بل كل واحد منهما يمكن أن يقع على وجهين، فعلى وجه يوافق الأُصول التوحيدية، وعلى آخر يخالفها . ۳- هل الموت والحياة ملاكان للتوحيد والشرك؟ .

يظهر من الوهابيين أنهم يجوّزون استغاثة الأحياء، وفى الوقت نفسه يرون استغاثة الأموات شركاً. يقول محمد بن عبدالوهاب: وهذا جائز فى الدنيا والآخرة أن تأتى رجلا صالحاً تقول له: ادع اللّه لى، كما كان أصحاب الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يسألونه فى حياته، وأمّا بعد مماته فحاشا وكلّا أن يكونوا سألوا ذلك، بل أنكر السلف على من قصد دعاء اللّه عند قبره، فكيف بدعاء نفسه(۴) .

---

۱ . سورة آل عمران: الآية ۴۹ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۱۱۵ وسورة الصف: الآية ۱۴ .

۳ . سورة طه: الآية ۹۶ .

۴ . كشف الشبهات ـ طبع مصر ـ ص ۷۰ . (۸۰)

عجيب جداً أن يكون عمل محدد ومشخّص إذا طلب من الحى، نفس التوحيد، وإذ طلب من الميت يكون عين الشرك. إنّ القرآن ينقل عن بعض شيعة موسى ويقول: (فاسْتَغَاثَهُ الّذى مِنْ شِيَعتِه عَلَى الّذى من عَدوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوْسى فَقَضى عَلَيْهِ)(۱)فنفس هذه الاستغاثة فى حال الحياة، يتصور على وجهين، يحكم على أحدهما أنه موافق لأصول التوحيد، وعلى الآخر بخلافها!! إنّ هذه الاستغاثة إنما تكون على وفق التوحيد إذا اعتقد أنّ موسى فى حال حياته يقوم بالاغاثة بقدرة مكتسبة وإذن منه سبحانه، ولو اعتقد بأصالته فى إغاثة المستغيث فقد اعتقد بألوهيته، فإذا كان هذا هو المعيار فى الاستغاثة من الحى، فليكن هذا هو المعيار عند الاستمداد بالأرواح المقدسة العالمة الشاعرة حسب أخبار القرآن (أو الأموات) على زعم الوهابيين . فلو فرضنا أنّ أحداً من شيعة موسى استغاث به بعد خروج روحه الشريف عن بدنه على نحو الاستغاثة الأُولى، فهل يتصوّر أنّه أشرك باللّه؟ وأنّه عبد موسى لاعتقاده أنّه يغيث المستغيث حياً وميتاً؟ . ولو كانت حياة المستغاث ومماته معياراً، فإنّما يصحّ أن يكون معياراً فى الجدوائية وخلافها، لا فى الشرك و التوحيد. وبذلك تقف على ضعف كلام تلميذ ابن تيمية حيث يقول: «و من أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإنّ الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً»(۲) . يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره من الدليلين لا يثبت مدّعاه، لأنّ قوله: «فإنّ الميت قد انقطع عمله» على فرض صحته، يثبت عدم الفائدة فى ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة القصص: الآية ۱۵ .

۲ . فتح المجيد، تأليف حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ۶۷ الطبعة السادسة . (۸۱)

الاستغاثة بالميت، لا ـ انّه شرك، وأمّا قوله: «ولا يملك نفسه ضراً ولا نفعاً» فهو جار فى الحى والميت، فليس فى صفحة الوجود من يملك لنفسه شيئاً، فإنما يملك بإذنه وإراته سواء أكان حياً أم ميتاً، ومع الإذن الإلهى يقدرون على إيصال النفع والضر أحياءً وأمواتاً. هذا كلام التلميذ، فهلمّ ندرس كلام أُستاذه ابن تيمية وهو يقول: كل من غلا فى نبى أو رجل صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية وجعل يقول: يا سيدى فلان أنصرنى وأغثنى... فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب، وإلاّ قتل(۱) . يلاحظ عليه: أنّ الإستغاثة بالأموات ـ حسب تعبير الوهابيين، أو الأرواح المقدسة حسب تعبيرنا ـ إذا كانت ملازمة للاعتقاد بنوع من الألوهية، يلزم أن تكون الاستغاثة بالأحياء ملازمةً لذلك، لأنّ حياة المستغاث ومماته حدّ لجدوائية الاستغاثة وعدمها، وليس حداً للتوحيد والشرك، فى حين أنّ الاستغاثة بالحى تعد من أشد الضروريات للحياة الاجتماعية . وهناك كلام آخر له هلم معى نستمع إليه يقول: «والذين يدعون مع اللّه ألهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنّها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، وإنّما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم ;يقولون: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إى اللّه زلفى، أو هؤلاء شفعاؤنا»(۲) . إنّ قياس استغاثة المسلمين بما يقوم به المسيحيون والوثنيون، والخلط بينهما ابتعاد عن الموضوعية، لأنّ المسيحيين يعتقدون بألوهية المسيح، والوثنيين يعتقدون بتملّك الأوثان مقام الشفاعة والمغفرة، بل مقام التصرف فى الكون كإرسال الأمطار على ما نقله ابن هشام(۳) ولأجل هذا الاعتقاد كان طلبهم واستغاثتهم بالمسيح والأوثان عبادة لها . ــــــــــــــــــــ

۱ . فتح المجيد ص ۱۶۷ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . السيرة النبوية ج ۱ ص ۷۹ . (۸۲)

وأمّا استغاثة المسلمين بالأرواح المقدّسة فخالية من هذه الشوائب فعندئذ، لا يكون شركاً ولا عبادة، بل استغاثة بعبد لا يقوم بشىء إلاّ بإذنه سبحانه، فإن أذن أجاب، وإن لم يأذن سكت، فما معنى توصيف هذا بالشرك ؟ ۴- هل القدرة والعجز حدان للتوحيد والشرك

؟

وهناك معيار مزعوم آخر يظهر من كلمات ابن تيميـة، وهو أنّ قـدرة المسـتغاث على تحقيق الحاجة يوجب أن لا يكون الطلب شـركاً ولكن عجزه عن قضـاء الحاجـة يضـفى على الطلب لون الشـرك، يقول ابن تيميـة: «مَنْ يـأتى إلى قـبر نـبيى أو صالـح ويسـأل حـاجته ويسـتنجد به، مثل أن يسأله أن يزيل مرضه ويقضـى دينه، ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلاّ اللّه عزّوجلّ. فهذا شـرك صـريح يجب أن يستتاب صـاحبه، فإن تاب وإلاّ قتل»(۱) . وليس هـذا ملاكـاً جديـداً بـل هو وجه آخر للملاـك السـابق، غير أنّه عبّر فى السابق بموت المسـتغاث وحياته، وهنا بالعجز والقدرة، يقول الصـنعانى: «الاسـتغاثة بالمخلوقين فى ما يقدرون عليه مما لا ينكرها أحد، وإنّما الكلام فى اسـتغاثة القبوريين وغيرهم بأوليائهم، وطلبهم منهم أُموراً لا يقدر عليها إلاّ اللّه تعالى، من عافية المرض وغيرها، وقد قالت أُم سليم: يـا رسول اللّه. خادمـك أنس، ادع اللّه له، وقـد كـان الصـحابة يطلبون الـدعاء منه وهو حى، وهـذا أمير متفق على جوازه، والكلام فى طلب القبوريين من الأموات أو من الأحياء أن يشفوا مرضاهم ويردوا غائبهم، ونحو ذلك من المطالب الّتى لا يقدر عليها إلاّ اللّه»(۲) . وعلى أىّ تقدير، فسواء أكان هذا وجهاً آخر للملاك السابق أم ملاكاً آخر بقرينة عطف الأحياء على الأموات فى هذا الكلام، فليسـت القدرة والعجز ملاكين للتوحيد والشرك، وإنّما هما ملاك الجدوائية وعدمها. ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، ص ۱۵۶ ـ والهداية السنية، ص ۴۰ .

۲ . كشف الإرتياب ص ۲۷۲ نقلا عن الصنعانى . (۸۳) ۵- طلب فعل اللّه من غيره

هـذا هو الملاك الحقيقى الّـذى أو عز إليه الصـنعانى، ويوجـد فى كلمات ابن تيميـة وقـد عرفت قوله: «مَن يأتى إلى قبر نبى أو صالح ويسأله أن يزيل مرضه ويقضى دينه أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلاّ اللّه تعالى» وهذا مما لا إشكال فيه، غير أنّ الكلام فى تمييز فعل اللّه عن فعـل غيره، أمّا الكبرى فمسـلمة عنـد الكل، فقـد اتفق الموحـدون على أنّ طلب فعله سـبحانه من غيره، ملازم للاعتقاد بألوهية المسؤول وربوبيته، فاللازم دراسـة الصـغرى، وأنّ فعل اللّه ما هو؟ والتركيز عليه . ترى أنّ ابن تيميـة قد سـلم أنّ شـفاء المريض وقضاء الدين على وجه الإطلاق من أفعاله سـبحانه، مع أنّ الحق أن قسـماً منهما يعدّ فعلا للّه سبحانه دون قسم آخر . إنّ إبراء المريض وقضاء الـدين ورد الضالـة وغيرها بالسـنن الطبيعية أو غيرها على وجه الاسـتقلال ومن دون اسـتعانة بأحد هو فعل اللّه سـبحانه، فلو طلب نفس ذلك من غيره لا ينفك عن الاعتقاد بالألوهيـة والربوبية . وأمّا لو طلب منه مع الاعتقاد بأنّه مسـتغاث يقوم بهذه الأُمور عن طريق العلل الطبيعيـة أو غيرها، مسـتمداً من قـدرة اللّه وقائماً بإذنه ومشـيئته، فليس هذا فعل اللّه حتّى يكون طلبه من غيره شـركاً. لأنّه سـبحانه يقوم بالفعل مسـتقلا وبلا اسـتمداد. كيف وقد صـرح القرآن بأنّ المسيح «يبرىء الأكمه والأبرص بإذنه» مع أنّ ابن تيمية وأتباعه زعموا أنها مـن أفعـاله سـبحانه، قـال سـبحانه: (وَ تُبْرِىءُ الأَـكْمَهَ والأَـبْرَص بِإذنى وَ إذْ تُخْرِجُ المَوْتى بِإذْنِى)(۱) وقـد نسـب الـذكر الحكيم

۱ . سورة المائدة: الآية ۱۱۰ . (۸۴)

كثيراً من الأمور الخارقـة للعادة إلى أنبيائه، فلم تكن هـذه النسـبة إلاّ لأجل أنّهم يقومون بما يقومون، بإذنه سـبحانه . وحصـيلة الكلام: التوسّل بالأسـباب بقيد أنّها أسـباب ـ سواء أكانت طبيعية أم غير طبيعية ـ لا يلازم الشـرك، نعم، السبب ربما يكون سبباً واقعياً، وأُخرى سبباً كاذباً وخاطئاً، والاشـتباه فى سببية السبب لا يستلزم الاعتقاد بألوهية السبب أو ربوبيته، أو كون الطلب منه طلب فعل اللّه من غيره . ونعيـد الكلاـم حتّى يتّضـح الحق بـأجلى مظـاهره فنقول: إنّ التعلّق بالشـىء والطلب منه مع الاعتقـاد بالسـببية، وأنّ اللّه سـبحانه أعطاه المقدرة على إنجاز المأمول يمتنع أن يتصف بالشـرك، لأنّ المفروض أنّ المتوسل إنّما تعلّق به بقيد كونه رابطاً وسـبباً. نعم يمكن أن يكون المتوسـل صائبـاً فى الاعتقـاد بالسـببية أو خاطئـاً، ولكن الاشـتباه فى الموضوع لاـيكون دليلاـ على الاعتقاد . وأمّا إذا كان التعلق بالشـىء لاـ بوصف السـببية والرابطيـة، بـل بمـا أنّ المطلوب منه، موجود مسـتقل فى فعله وإيجـاده، يقوم بالفعـل بنفسه، ويقوم بحـاجة المسـتنجد من صـميم ذاته من دون أن يكون سبباً ورابطاً بين الإنسان وربّه، فهذا يكون ملازماً للإعتقاد بالألوهية من دون نقاش . كان

اللائق بابن تيمية ونظرائه دراسة فعل اللّه سبحانه وتمييزه عن غيره، حتّى لا يحكموا بضرس قاطع بأنّ الإعانة والإماتة والشفاعة وغيرها على الإطلاق من أفعال اللّه سبحانه، بل الحق أنّ كلاّ من هذه الأفعال يقع على وجهين، فهو على وجه فعله سبحانه، وعلى وجه آخر يصحّ أن يعدّ فعلا ـ للسبب، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينسب فعلا واحداً لذاته، وفى الوقت نفسه ينسبه لمخلوق من مخلوقاته، وإليك نماذج من ذلك: ۱- يعدّ القرآن ـ فى بعض آياته ـ قبض الأرواح فعلا للّه تعالى، ويصرح بأنّ اللّه هو الّذى يتوفّى الأنفس حين موتها إذ يقول مثلا: (۸۵) (اللّهُ يَتَوَفّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)(۱) .

بينما تجده ينسب التوفّى فى موضع آخر، إلى غيره، قال: (حَتّى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا)(۲) . ۲- يأمر القرآن ـ فى سورة الحمد ـ بالاستعانة باللّه وحده إذ يقول: (وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ)(۳)، فى حين نجده فى آية أُخرى يامر بالاستعانة بالصبر والصلاة إذ يقول: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)(۴) . ۳- يعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً مختصاً باللّه وحده، إذ يقول: (قُلْ للّهِ الشَّفَاعَةُ جَميعاً)(۵) . بينما يخبرنا ـ فى آية أُخرى ـ عن وجود شفعاء غير اللّه كالملائكة ويقول: (وَكَم مِنْ مَلَكٍ فى السّمواتِ لاَ تُغْنى شَفَاعَتُهُم شَيئاً إلاّ مَنْ بَعْدِ أنْ يأذَنَ اللّه)(۶) . ۴- إنّ اللّه هو الكاتب لأعمال عباده إذ يقول: (وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيّتُون)(۷) فى حين أنّ القرآن يعتبر الملائكة كتبة أعمال العباد إذ يقول: (بَلَى وَرُسُلُنا لَدَيْهم يَكْتُبُونَ)(۸) . ۵- قد تضافرت الآيات على أنّه سبحانه هو المدبّر، يقول: (وَمَن يُدَبّرُ الأَمرَ فَسَيَقُولُونَ اللّه)(۹) بينما يصرّح القرآن بمدبرية غيره ويقول: ـــــــــــــــ

۱ . سورة الزمر: الآية ۴۲ .

۲ . سورة الأنعام: الآية ۶۱ .

۳ . سورة الفاتحة: الآية ۵ .

۴ . سورة البقرة: الآية ۴۵ .

۵ . سورة الزمر: الآية ۴۴ .

۶ . سورة النجم: الآية ۲۶ .

۷ . سورة النساء: الآية ۸۱ .

۸ . سورة الزخرف: الآية ۸۰ .

۹ . سورة يونس: الآية ۳۱ . (۸۶) (فَالمُدبّراتِ أمراً)(۱) .

وهذه نماذج من الآيات مما نسب الفعل إلى اللّه سبحانه، وفى الوقت نفسه نسب إلى عباده، وما المصحح إلاّ ـ ما ذكرنا، وهو أنّ المنسب إليه سبحانه غير المنسوب إلى العباد، وأنّ قيامه سبحانه بالأفعال على وجه الاستقلال من دون أن يعتمد على سبب عال أو قوة عليا، وأمّا قيام غيره فإنما هو بالسببية والرابطية والمأمورية. وفى ضوء هذا تقدر على تمييز فعله سبحانه عن فعل غيره، فليس شفاء المريض وقضاء الدين وردّ الضالة على وجه الإطلاق، من فعله سبحانه، ولا من فعل عباده، بل لكلّ سمة وعلامة، بها يتميز عن غيره. والحد الفاصل بين فعله سبحانه وفعل غيره هو كون الفاعل مستقلا فى الايجاد، ومالكاً لفعله، وكونه غير مستقل فى الفعل وغير مالك له، والأول (أى الّذى يصدر عن الفاعل على وجه الاستقلال) لا يطلب إلاّ منه، والثانى يطلب من غيره. فتلخّص من هذا البحث الضافى أنّ كل خضوع قلبى أو لسانى أو خشوع فعلى لا يتصف بالعبادة إلاّ إذا اعتقد الخاضع بأنّ فى المخضوع له، عنصر الألوهية والربوبية، وأنّه مستقل فى الذات والفعل، أو فى الفعل فقط، وأمّا إذا كان قلب الخاضع خالياً عن الاعتقاد بهذا العنصر، بل كان معتقداً بعبوديته وعدم مالكيته شيئاً، وعدم قيامه بأمر إلاّ بإذنه، وأنّه ليس له دور سوى دور السببية، فطلب أىّ شىء منه لا يتّسم بالعبادة، سواء أطلب منه القيام عن طريق أسباب طبيعية، أم القيام به عن طريق أسباب خارقة للعادة . وسواء اعتقد أنّ فيه سلطة غيبية يقوم بأعمال خارقة للعادة فى ظلها أو لا ـ وسواء أكان المطلوب منه عاجزاً أم قادراً. وسواء أطلب أُموراً عادية كالسقى، أم أُموراً غير عادية كبرء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى . ـــــــــــــــ

۱ . سورة النازعات: الآية ۵ . (۸۷)

إذ ليس شيء منها هو العامل المؤثر لإضفاء العبادة على الطلب، وإنّما الموثر هو ما ذكرناه، وبذلك نقدر على القضاء فى الموضوعات التالية الّتى وصفتها الوهابية بأنّهاشرك محرّم وهى: ۱- طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين . ۲- الاستعانة بأولياء اللّه . ۳- طلب شفاء المريض من غير اللّه . ۴- دعوة الصالحين، مثل: يا محمد أغثنى . فإنّ الوهابيين تبعاً لشيخهم فى المنهج يصورون جميع هذه الدعوات دعوات شركية أشبه بدعاء عبدة الأصنام . ولكنّك بعدما أحطت خبراً بما ذكرنا سرعان ما ترجع وتقضى بحكمين مختلفين ينشآن من اختلاف عقيدة الداعى وتقول: إنّ كل واحد من هذه الاُمور على وجه، شرك، وعلى وجه آخر ليس بشرك، ولا يعلم أىّ واحد منهما إلاّ أن نقف على عقيدة السائل . فلو كان المدعو فى اعتقاد الداعى هو اللّه العالم أو غيره، لكن باعتقاد أن له سهماً من الألوهية أو الربوبية، فهو عبادة بلا شك، حتّى لو سئل منه السقى بالماء وإيصاد الباب، وما شابههما من الاُمور العادية البسيطة والمتعارفة. وأمّا إذا كان المدعو حسب اعتقاد الداعى عبداً مرزوقاً ومربوباً محتاجاً، قائماً فى ذاته باللّه سبحانه، مستمداً فى فعله منه، ولا يقوم بفعل إلاّ بإقداره واذنه، فلا يكون الطلب منه ولا دعاؤه متسماً بوصف العبادة، بل أقصى ما يمكن أن يقال هو أنّه إذا كان المسؤول والمدعو قادراً على العمل، يكون الطلب مفيداً، وإلاّ يكون لغواً . وبذلك يظهر أنّ الميزان فى توصيف العمل بالشرك والانحراف عن خط التوحيد ليس هو صور الأعمال وظواهرها، بل المراد حقائقها وبواطنها. فما ورد (۸۸)

فى كلمات القوم من تشبيه عمل المسلمين بعمل عبدة الأصنام تشبيه باطل لا يعوّل عليه. بقيت هنا كلمة وهى : ما هو المراد من النهى عن دعوة غير اللّه ؟

إنّ الآفة كل الآفة هى أن الوهابيين كشيخهم ابن تيمية يسردون الآيات والروايات من دون أن يتفكروا فى مفادهما ومواردهما، ولكنهم يأخذون بالظواهر الابتدائية مع تناسى ما حول الآيات من القرائن، فتراهم يعدون دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والطلب منهم شركاً، بحجّة أنّه سبحانه عد دعاء المشركين للأصنام والأوثان شركاً وقال: (وَ أنّ المَساجِدَ للّه فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللّه أحَداً)(۱) . (لَهُ دَعوَةُ الحَقّ والّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا يَسْتَجيبونَ لَهُم بِشَىء)(۲) . (إنّ الّذينَ تَدْعونَ مِنْ دُون اللّهِ عَبادٌ أمْثالَكُمْ)(۳) . (وَالّذينَ تَدعُونَ مِنْ دُونِهَ مَا يَملِكُونَ مِن قِمطير)(۴) . (قُلِ ادْعُوا الّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرّ عَنْكُم وَلا تَحويلا)(۵) . (أُولئِكَ الّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهم الوَسيلَة...)(۶) . ________

۱ . سورة الجن: الآية ۱۸ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۴ .

۳ . سورة الأعراف: الآية ۱۹۴ .

۴ . سورة فاطر: الآية ۱۳ .

۵ . سورة الإسراء: الآية ۵۶ .

۶ . سورة الإسراء: الآية ۵۷ . (۸۹) (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّه مَا لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ...)(۱) . (وَ مَنْ أضَلّ مِمَّن يَدْعُو مَنْ دُونِ اللّه مَنْ لا يَسْتَجيبُ لَهُ إلى يَومِ القيامَةِ)(۲) .

ترى أنهم يسردون هذه الآيات الواردة فى حقّ المشركين المعتقدين بالوهية الأصنام وربوبيتهم، وكونهم مفوّضاً إليهم القيام بالأفعال والأعمال، من الشفاعة والمغفرة، والشفاء وغيرها. يسردون هذه الآيات بصلافة وقحة فى حق المسلمين الإلهيين الذين لا يعتقدون فى حق الأنبياء والصالحين سوى كونهم عباداً مقربين، تستجاب دعوتهم إذا دعوا، ويقومون بحاجة المستنجد بإذنه سبحانه وقدرته، وإليك محصّلها: ۱- إنّ هذه الآيات وما ضاهاها تختص بالمشركين الذين كانوا يصورون أوثانهم وأصنامهم آلهة يملكون كشف الضر والتحويل، وينصرون بلا استئذان منه سبحانه، لأنّهم يملكون هذا الجانب من الأفعال الإلهية، وأين هو من عقيدة المسلم الموحد فى حقّ الأنبياء والصالحين من أنهم عباد مكرمون، لا يعصون اللّه ما أمرهم، وهم بأمره يعملون، وبإذنه يشفعون و...؟ ۲- إنّ المراد من

الـدعاء فی هـذه الآیـات، لیس الـدعوة المجردة بمعنی النـداء بل المراد هو الـدعاء الخاص المرادف للعبادة، ولیس ذلک بغریـب، فقد جمـع سـبحانه فی آیـة واحـدة، بین الـدعوة والعبـادة، وفسّر الأُولی بالثانیـة نحـو قـوله: (وَقـالَ رَبُّکُم ادْعُونی أستَجِب لَکُم إنَّ الّذینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبَادتی سَیَدْخُلُونَ جَهَنم دَاخرینَ)(۳) . یقول الإمـام زین العابـدین ـ علیه السَّلام ـ : «وسـمیت دعـاءک عبـادة، وترکه استکباراً وتوعدت علی ترکه دخول جهنم داخرین»(۴) . ________________

۱ . سورة یونس: الآیة ۱۰۶ .

۲ . سورة الاحقاف: الآیة ۵ .

۳ . سورة غافر: الآیة ۶۰ .

۴ . الصحیفة السجادیة، الدعاء ۴۹ . (۹۰)

وما ورد فی الحـدیث: «الـدعاء مخّ العبادة» فالمراد هو هذا القسم من الدعاء، أی الدعاء المقرون بالوهیة المدعو بنحو من الأنحاء . ۳- إنّ المنهی عنه هو جعل المـدعو فی مرتبـة اللّه الخالق، کما یعرب عنه قوله: (وَ أنَّ المَسَاجِدَ للّه فَلا تَدْعُوا مَعَ اللّه أحَداً)(۱) وکان هو أساس عبادة المشرکین، قال سبحانه: (و جَعلوا للّهِ أنداداً لِیُضلُّوا عَنْ سبیله)(۲) وقال: (إذْ نُسَوِّیکُم بِرَبّ العَالمین)(۳) وأین هذه الآیات من الموحدین الذین لا یرون مع اللّه شیئاً، بل یرون الکل دونه لکونهم مربوبین؟. ________________

۱ . سورة الجن: الآیة ۱۸ .

۲ . سورة إبراهیم: الآیة ۳۰ .

۳ . سورة الشعراء: الآیة ۹۸ .

البدعة فی الدین وما هو حدها

البدعة فی الدین وما هو حدها

«البدعـة» هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین، ولا شک أنّ البدعة محرّمة بنص الکتاب العزیز، قال سـبحانه: (اللّهُ أذنَ لَکُمْ أم عَلی اللّهِ تَفْتَرُونَ)(۱) دلّت الآیـة علی أنّ کـل مـا ینسب إلی اللّه سـبحانه بلا إذن منه فهو أمر محرّم، ومن أدخل فی الـدین ما لیس منه فقد افتری علی اللّه، ولأجل ذلک نری أنّه سـبحانه یعـد من افتری علی اللّه أظلم الناس ;قال سـبحانه: (فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَی عَلَی اللّهِ کَذِباً أو کَذَّبَ بِآیاتِهِ إنّه لا یُفْلِحُ الْمجْرِمُونَ)(۲) . نری أنّه لمـا اقترح المشـرکون علی النبی أن یـأتی بقرآن غیر هـذا أو یبـدله إلی الآخر، تحاشـی عن ذلک وقال: (قُلْ مَا یَکُونُ لی أنْ أُبَدِّلَهُ مَنْ تَلْقَاءِ نَفْسـی إنْ أتَّبِعُ إلاّ مَا یُوحی إلَیَّ إنّی أخَافُ إنْ عَصَیتُ رَبّی عَذابَ یَوم عَظیم (۳) . فالمبدع فی الشریعة، مبدل لها، وسوف یحیق به عذاب ألیم . هل التقالید والآداب من البدع؟

قـد تعرّفت أنّ مقوّم البدعـة هو أن یقوم الإنسان بفعل ما، باسم الـدین والشـریعة، وباعتقاد أنّه جزء منها، وأمّا إذا قام بأمر مباح فی حد نفسه، ومن ________________

۱ . سورة یونس: الآیة ۵۹ .

۲ . سورة یونس: الآیة ۱۷ .

۳ . سورة یونس: الآیة ۱۵ . (۹۲)

دون أن ینطبق علیه أحـد العنـاوین المحرمـة کشـرب الخمر واقتراف المیسر، لاـ بمـا انّه من الـدین، بـل بمـا أنّه من العـادات والتقالید المتعارفة فی حیاة الشـعب، من دون أن یمت إلی الدین بصـلة، مثلا إذا احتفل شـعب بیوم استقلالهم، وخروجهم عن ذل الاستعباد، أو إذا احتفلوا فی أول الربیع بمـا أنه أول السـنة، وترددوا فی أندیـة الأحبّـة والإـخوان، فلاـ یکون ذلـک بدعـة، وذلـک لأنّ المحتفلین لا یقومون به بمـا أنه من الـدین، وأنّ الشـارع أمر بـذلک، وإنّمـا یقومون به باسم التقالیـد والعادات الّتی جرت علیها الآباء والأجـداد، أو

ابتكرها الجيل الحاضر تشييداً لعزائم الشعب، فى طريق حفظ استقلالهم، والخروج عن سيطرة القوى الكبرى عليهم، مع كون العمل غير محرم فى ذاته، بل هو اجتماع وإنشاد قصائد، وإلقاء خطب وشرب شاى، ولقاء إخوان، إلى غير ذلك . لقد مرّت على الشعب الجزائرى أعوام عديدة كان يسيطر عليهم فيها الإستعمار الفرنسى، ينهب أموالهم وثرواتهم الطائلة، ويدمر ثقافتهم الإسلامية وهو يتهم الدينية، ثم إنّ اللّه سبحانه منحهم ـ فى ظل عزائمهم القوية واستعدادهم لبذل النفس والنفيس فى سبيل هدفهم المنشود ـ الإستقلال والحرية، والرجوع إلى هويتهم الإسلامية، فلو عزم هذا الشعب على أن يقيم فى ذلك اليوم فى كل سنة احتفالاـ عظيماً غير مقترن باقتراف المنكرات وارتكاب المعاصى، لا يلامون ولا يذمّون على فعلهم هذا، بل يمدحهم العقلاء بفطرتهم السليمة، ولا يدور فى خلد أحد أنّهم ارتكبوا بدعة فى الدين، وذلك لأنّهم لم يقوموا بما قاموا به، باسم الدين والشريعة، وأنّ النبى أمر بذلك، بل قاموا بذلك باسم حفظ المصالح الشعبية وتشييد عزائمهم الّذى هو فى حد ذاته حلال بلا ريب: فمن حكم بحرمة هذه التقاليد والآداب و الرسوم، سواء أكانت لها جذور فى الأعوام السابقة أم كانت من محدثات العصر، فقد ارتكب الخطأ فى تحديد البدعة، ولم يميّزها عن غيرها من المراسم والآداب . ولو صحّ تقسيم البدعة إلى الحسنة والسيئة، فإنما يصحّ فى هذا القسم، أى التقاليد والآداب العرفية، فقد يتصف بالحسن وأُخرى بالقبح، وأمّا (۹۳)

البدعة بمعنى إدخال ما ليس من الدين فى الدين فهو قبيح مطلقاً، لا ينقسم وليس له إلاّ قسم واحد، وهو أنّه قبيح محرّم على الإطلاق . هذا ابن تيمية باذر هذه البذور الخبيثة والشكوك الساقطة يصرح بأنّ الأصل فى العادات هو الحلية، إلاّ ما حظره اللّه، قال: «فالأصل فى العبادات لا يشرع منها إلاّ ما شرعه اللّه، والأصل فى العادات لا يحظر منها إلاّ ما حظره اللّه»(۱) . وبذلك يعلم أنّ تضييق الأمر والتقاليد الّتى لم يرد فيها حظر من الشرع، لاـ يصدر إلاّـ من الجاهل، فإنّ الشريعة الإسلامية سمحة سهلة(۲) لم تتدخل فى عادات الناس وتقاليدهم، بل خوّلتها إلى أنفسهم حتّى يختار كل شعب ما يناسب بيئته و ظروفه وملابساته، وهذا هو الأساس، لكون الإسلام خاتم الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيّه خاتم الأنبياء ولو كان محدداً للتقاليد والآداب، والرسوم والمراسم لوقع التصادم بينه وبين حياة الشعوب وحضاراتها المتكاملة مع مر الحقب والأزمان . هل الاحتفال بالمواليد من التقاليد أو من صميم الدين ؟

البحث المهم فى المقام هو تعيين حكم هذا المصداق، وأن الاحتفال بميلاد النبى هل هو كالاحتفال بمواليد سائر الأفراد كالآباء والأجداد أو الأولاد الّذى جرى عليه ديدن العقلاء فى العالم؟ أو أن الاحتفال به يعد من الأُمور الدينية؟ لا اظن أنّ من لمس روح الاحتفالات والمهرجانات الّتى تقام بين المسلمين يوم الميلاد وغيره أن ينسبها إلى التقاليد والرسوم والآداب القومية، فإذن ذلك شىء لا يلائم روح الاحتفالات وأغراض المقيمين لها، فلا شك أنهم يقومون ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . المجموع من فتاوى ابن تيمية، ج ۱۴ ص ۱۹۶ .

۲ . صحيح البخارى ج ۱ كتاب الإيمان باب «الدين يسر» ص ۱۲ روى عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «أحب الدين إلى اللّه الحنيفية السمحة» . (۹۴)

به باسم الدين، ويرجون ثواباً جزيلا فى عقباهم، فالإصرار على أنّه من الآداب والرسوم خطأ، لا يتفوه به من شاهدها وعاينها وعاشر المقيمين لها، فيجب على المسوغ والمانع البحث فى أمر آخر، وهو أنه هل لهذا الأمر أصل فى الشريعة على الوجه الكلى حتّى يكون الإحتفال تجسيداً له فى هذه الظروف، أو ليس له اصل فى الشريعة حتّى يكون بدعة؟ والأسف كله أن المانعين والمسوغين لم يركزوا على هذا المهم إلاّ القليل منهم(۱) فعلى من يحاول حسم مادة الخلاف تبيين تلك النقطة الحساسة، وترك ما يثار حوله من الجدال والحوار . فنقول: إنّ كون شىء أمراً جائزاً فى الدين على قسمين: تارة يقع النص عليه بشخصه، كالاحتفال فى عيدى الفطر والأضحى، أوالاجتماع فى عرفة ومنى، فلا شك أنّ هذا الاجتماع والاحتفال أمر به الشارع بشخصه، فخرج به عن كونه بدعة. وأُخرى يقع النص عليه على الوجه الكلى، ويترك انتخاب أساليبه وأشكاله وألوانه إلى الناس حسب الظروف ورعاية المقتضيات، وإليك بعض الأمثلة :

۱ـ ندب الشارع إلى تعليم الأولاد ومكافحة الأُمّية، ولا شك أنّ لهذا الأمر الكلى أشكالا أو ألواناً حسب تبدل الحضارات وتكاملها،

فلو كان التعليم والكتابة فى الظروف السابقة متحققة بالكتابة بالقصب والحبر، وجلوس المتعلم أمام المعلم على الأرض فى الكتاتيب، فقد تطورت كيفية التعليم من هذه الحالة البسيطة إلى حالة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة، حيث أصبح الناس يتعلمون عن طريق الإذاعة والتلفاز، و (الكمبيوتر)، والأشرطة، إلى غير ذلك من وسائل التعليم وأجهزة الإعلام، سواء أكان ما يذيعه تعليمياً أم تبليغياً، فالشارع أمر ـــــــــــــــــ

١ . ولقد أعطى العلامة الحجة السيد جعفر مرتضى فى كتابه القيم «المواسم والمراسم» للتحقيق فى هذا المجال حقه. شكر اللّه مساعيه (٩٥) .

بالتعليم والتعلم، وخوّل اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات، ولو كان مصراً على لون خاص من كيفية التعليم، لفشل فى طريق هدفه المقدس، لأن الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة والكيفية المختصة الّتى يعينها ويحددها. ٢- ندب الإسلام إلى الإحسان إلى اليتامى، والتحنن عليهم وحفظ أموالهم، وتربيتهم، غير أن هذا الأمر الكلى له ألوان وأساليب مختلفة، تجارى مقتضيات، العصر وإمكانياته، فاللازم علينا هو امتثال ما ندب إليه الشارع، وأما كيفية الإحسان فقد خولت إلى أوليائهم حسب إمكانيات الظروف ومقتضياتها، فمن أصر على أن الشارع بين خصوصيات الامتثال ومشخصات إطاعة ذلك الأمر، فقد جهل الإسلام ولم يعرف أساس كونه خاتماً، إذ لا يكون خاتماً إلّا إذا أخذ باللب (الإحسان إلى الأيتام) وترك القشر واللباس إلى الناس ومقتضيات الظروف . ٣- إنّ الصحابة ـ حسب رواية أهل السنة ـ قاموا بجمع آيات القرآن المتفرقة فى مصحف واحد، ولم يصف أحد منهم هذا العمل بدعة، وما هذا إلّا لأن عملهم كان تطبيقاً لقوله سبحانه: (إنّا نَحْنُ نَزّلْنا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظُونَ)(١)، فعملهم فى الواقع كان تطبيقاً عملياً لنصوص شرعية من الكتاب والسنة، وعلى ذلك جرى المسلمون فى مجال الاهتمام بالقرآن من كتابته وتنقيطه، وإعراب كلمه وجمله، وعدّ آياته وتمييزها بالنقاط الحمر، وأخيراً طباعته ونشره، وتقدير حفاظه وتكريمهم والاحتفال بهم، إلى غير ذلك من الأُمور الّتى كلها دعم لحفظ القرآن وتثبيته وبقائه، وإن لم يفعله رسول اللّه ولا الصحابة ولا التابعون، إذ يكفى وجود أصل له فى الأدلة . ۴- الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء أصل ثابت فى القرآن الكريم، قال سبحانه: (وَأعدّوا لَهُم ما اسْتَطَعْتُم مَنْ قُوّة)(٢)، وأما كيفية الدفاع ونوع السلاح ولزوم الخدمة العكسرية ـــــــــــــــــ

١ . سورة الحجر: الآية ٩ .

٢ . سورة الأنفال: الآية ۶٠ . (٩۶)

فالكل تطبيق لهذا المبدأ وتجسيد لهذا الأصل، فما ربما يرمى التجنيد العمومى إلى أنّه بدعة، غفلة عن حقيقة الحال، وإنّ الإسلام يتبنىّ الأصل، ويترك الصور والألوان والأشكال إلى مقتضيات الظروف . هذا هو الأصل الّذى به نميز «البدعة» عن «التطبيق»، و«الابتداع» عن «الاتّباع» وإليك بعض الكلمات من المخالفين للذكريات وغيرهم حول ما هو بدعة وما ليس ببدعة، والكل يؤكد ما قلناه: قال ابن رجب: قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «وإيّاكم ومحدثات الأُمور فإنّ كل بدعة ضلالة» تحذير للأُمة من اتّباع الأُمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: «كل بدعة ضلالة» والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه، وأمّا ما له أصل فليس ببدعة، وإن كان بدعة لغةً، وفى صحيح مسلم: «عن جابر رضى اللّه عنه أن النبى كان يقول فى خطبته: «إن خير الحديث كتاب اللّه، وخير الهدى هدى محمد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...» وقوله: «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شىء، وهو أصل عظيم من أُصول الدين، وهو شبيه بقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين برىء منه(١). وقال ابن حجر فى شرح قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «إنّ أحسن الحديث كتاب اللّه» والمحدثات ـ بفتح الدال ـ جمع محدثة، والمراد ما أُحدث وليس له اصل فى الشرع، ويسمى فى عرف الشرع بدعة، وما كان له اصل يدل عليه الشرع، فليس ببدعة فالبدعة فى عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة، فإنّ كل شىء أُحدث على غير مثال يسمى بدعة، سواء أكان محموداً أم مذموماً، وكذا القول فى المحدثة(٢) .

۱ . جوامع العلوم والحكم ص ۲۳۳ .

۲ . فتح البارى ج ۱۳ ص ۲۵۳ . (۹۷)

ومن راجع القرآن والسنة يقف على أصل رصين فى الإسلام فى حق النبى الأكرم، وهو لزوم تكريم النبى وتعظيمه حياً وميتاً، وهو أصل لا ـ يمكن لمسلم إنكاره، وإذا ثبت ذلك الاصل يقع الكلام فى أن هذه الاحتفالات هل هى تجسيد لهذا الأصل أو لا؟ فيلزم البحث فى موردين: الأول: لزوم تكريم النبى حياً وميتاً

من أمعن فى القرآن الكريم يقف على أنه يحثّ المسلمين على تكريم النبى وتعظيمه، وأنه لا ـ يصحّ للمسلمين أن يعاملوه معاملة الإنسان الاعتيادى، وإليك ما يمكن استنباط هذا الأصل منه . ۱- قال سبحانه: (الّذينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتّبَعُوا النُّورَ الّذى أُنْزِلَ مَعَهُ أُلِئَكَ هُمُ المُفْلِحُونَ)(۱) . إن الكلمات الواردة فى هذه الآية هى: ۱- «آمنوا به» ۲- «عزروه» ۳- «نصروه» ۴- «اتبعوا النور الّذى أُنزل معه» . فالآية تدعو إلى الإيمان بالنبى وتعزيره ونصرته واتّباع النور الّذى أُنزل معه، والمراد من التعزير، ليس مطلق النصرة، لأنه ذكره بقوله «نصروه» ولا حاجة لتكراره ;ولا مطلق منع الأعداء عنه، بل المراد هو توقيره وتعظيمه(۲)، أو نصرته مع التعظيم (۳) . وعلى كل تقدير فالمفهوم من الآية هو تعزير النبى واحترامه، ومن المعلوم أنّ احترامه ليس إلاّ ـ لأجل كونه سراجاً منيراً للأُمة وهادياً إلى الشريعة ودينه سبحانه . ۲- أشار سبحانه إلى مكانته المرقومه ولزوم توقيره وتكريمه بقوله: (يَا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النّبى وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بَالْقَولِ ـــــــــــــــ

۱ . سورة الأعراف: الآية ۱۵۷ .

۲ . تفسير الجلالين ص ۲۲۵ مجمع البيان ج ۲ ص ۴۸۸ .

۳ . الميزان ج ۸ ص ۲۹۶، مجمع البحرين مادة «عزر» . (۹۸) كَجَهْرِ بَعْضِكُم لِبَعْض أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُم وَ أنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(۱)، فجعل رفع الصوت فوق صوته والجهر له كجهر بعضكم بعضاً، سبباً لحبط الأعمال فما أعظم شأنه وأجلّ قدره .

۳- وقال سبحانه: (لا تَجعَلُوا دُعَاءَ الرّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً)(۲) . ۴- وأشار إلى حرمة التسرّع فى إبداء الرأى بقوله: (يَا أيُّها الّذينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)(۳) . ۵- إنّه سبحانه قرن طاعة النبى بطاعته وقال: (أطِيعُوا اللّهَ وَ أطِيعُوا الرّسُولَ)(۴)، وجعل طاعته طاعة نفسه وقال: (مَنْ يُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أطَاعَ اللّه)(۵)، وجعل اتّباع الرسول آية لحب اللّه سبحانه، وقال: (قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللّه)(۶)، وندّد بمن قدّم حبّ الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن على حب الرسول، وقال: (قُلْ إنْ كَانَ آبَاؤُكُم وَ إخْوانُكُم وَ أَزواجُكُم وَعَشيرَتُكُم وَأَموالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَهَا أحَبّ إلَيْكُم مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ أبناؤكم وَجِهَاد فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأتِيَ اللّهُ بِأمْرِهِ)(۷). وروى أنس أنَّ رسول اللّه قال: «لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، وروى أنّ رسول اللّه قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن الإيمان، أن يكون اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما...»(۸) . ـــــــــــــــ

۱ . سورة الحجرات: الآية ۲ .

۲ . سورة النور: الآية ۶۳ .

۳ . سورة الحجرات: الآية ۱ .

۴ . سورة النساء: الآية ۵۹ .

۵ . سورة النساء: الآية ۸۰ .

۶ . سورة آل عمران: الآية ۳۱ .

۷ . سورة التوبة: الآية ۲۴ .

۸ . مسند أحمد، مما أسند أنس بن مالك ج ۳ ص ۱۰۳ و ۱۷۴ و ۲۳۰، انظر صحیح البخاری ج ۱ ص ۸ «باب حب الرسول من الإیمان» والروایات حول حب النبی وعترته کثیرة، لاحظ جامع الأصول، وکنز العمال. (۹۹)

۶- إنّه سبحانه أمر بالصلاة والتسلیم علی النبی وقال: (إنَّ اللّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصلُّونَ عَلَى النبيّ يَا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً)(۱) . وروی أنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ قال: «البخیل من ذُکِرتُ عنده فلم یصلّ علیّ» وقال: «من صلّی علیّ واحدة صلّی اللّه علیه بها عشراً»(۲) . والصلاة علیه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أحد أرکان الصلاة، من ترکها عامداً بطلت صلاته، والدعاء له بالوسیلة والفضیلة والمقام المحمود عقیب الأذان أمر محمود، وفیه فضل کبیر . ۷- أشار إلی کیفیة معاشرة المؤمنین معه ومع أزواجه بعد وفاته، فقال: (يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلوا بُيُوتَ النّبِيِّ إلاّ أن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَام غَيْرَ نَاظِرِينَ إناهُ، ولَكِن إذَا دُعِيتُم فَادْخُلُوا فإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَ لاَ مُستَأنِسِينَ لِحَديث إنَّ ذَلِكُم كَانَ يُؤذِى النَّبِيّ فَيَسْتَحِي مِنكُم وَاللّهُ لا وَلاَ يَسْتَحيِى مِنَ الحَقّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتاعاً فَاسْأَلُوهُنّ مِنْ وَراءِ حِجَاب ذَلِكُم أطْهَرُ لِقُلُوبِكُم وَقُلُوبِهِنّ وَمَا كَانَ لَكُم أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّه وَلاَ تَنْكِحُوا أزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أبَداً إنّ ذَلِكُم كَانَ عِنْدَ اللّه عَظِيماً)(۳) .

ومن وقف علی خصائص النبی الّتی ذکرها الفقهاء فی الکتب الفقهیة، یقف علی مکانته عند اللّه، وعظمته عند المسلمین، ولزوم توقیره وتکبیره وتعظیمه. هذه الآیات والأحادیث تفید بأنه سبحانه فرض محبة النبی ومودته علی ________________

۱ . سورة الأحزاب: الآیة ۵۶ .

۲ . مسند أحمد، مما أسند إلی علی بن الحسین ج ۱ ص ۲۰۱، والدر المنثور ج ۵ ص ۲۱۷ فی تفسیر قوله: «إن اللّه وملائکته»، ورواه الترمذی فی ج ۵، فی کتاب الدعوات .

۳ . سورة الأحزاب: الآیة ۵۳ . (۱۰۰)

المؤمنین، وأنّ المؤمن لا ـ یتم له إیمان حتّی یکون ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أحب إلیه من نفسه وماله وأهله، ومن شک فی ذلک فهو شاک فی البدیهیات الدینیة. وهنا یقع الکلام فی المقام الثانی، وهو ما یتحقق به التکریم، وما یمکن الاستقلال به علی أنه صادق فی حبّ النبی، وإلیک البحث فیه. الثانی: الاحتفال تجسید لتکریم النبی

أذا دلّت الآیات والأحادیث علی لزوم تکریم النبی وتعظیمه أولا، وحبه ومودته ثانیاً، فعندئذ یقع الکلام: فیما یتحقق به ذلک الأصل، وتتجسم به هذه الفریضة . لا شک أنّ لتکریم الإنسان وتعظیمه طرقاً مختلفة مألوفة للناس، ولکن صاحب الشخصیة العالمیة إذا أراد الشعب المسلم تکریمه وتعظیمه، فالاحتفال بولادته وإقامة العزاء یوم رحلته، تکریم وتعظیم له، وتجسید لذلک الأصل الّذی نطق به الکتاب والسنة، ولیس ذلک أمراً خفیاً علی الناس فإنّ العقلاء بفطرتهم یحتفلون بذکری شخصیاتهم ولادة ووفاة، تکریماً واحتراماً لهم، والفرق بین تکریم النبی وتکریم تلک الشخصیات أنّ تکریمهم من قبیل التقالید والآداب الشعبیة، فلو لم یرد حظر منه کفی فی جواز ذلک عدم الحظر . وأمّا تکریم النبی الأکرم فله أصل فی الشریعة الغرّاء، وله تجلیات فی الظروف المختلفة، فلو احتفل المؤمنون فی کل دورة وکورة بمیلاد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من دون اقتراف المعاصی والمنکرات، وأقاموا احتفالا ـ حاشداً یبهر العیون ویحیر العقول، فقام الخطباء فیه بإلقاء الکلم حول فضائله ومناقبه، وما نزل فی حقه من الآیات والآثار، وما ضحّی بنفسه ونفیسه فی طریق هدایة أُمته، وقام الشعراء بإنشاء القصائد الّتی تُستلهم من الکتاب والسنة خالیة عن الغلو والإفراط، ثم قاموا بإطعام الإخوان و المحبین لرسول اللّه من مال اللّه الّذی جعل الناس فیه مستخلِفین،... فلا ـ شک أنهم جسدوا ذلک الأصل الرصین (تکریم النبی وتعظیمه) بعملهم المشرق، کما أظهروا بذلک محبتهم وولاءهم لصاحب الرسالة. (۱۰۱)

وعند ذلک کیف یمکن أن توصف تلکم الاحتفالات الباهرة بالبدعة؟ أولیست البدعة هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین؟ وهل المسلمون أدخلوا فی الدین ما لیس منه؟ أولیس تکریمه وتوقیره هو الأصل الرصین؟ أوَلیس الإحتفال الباهر تحقیقاً عملیاً لذلک المبدأ عند جمیع العقلاء، فأین البدعة یاتری؟ أوَلیس القرآن والسنة ندبا المسلمین إلی حب النبی، وهل الحب یجب أن یبقی کامناً

فى مكـامن النفس، ولو تظاهر به الإنسان كان عاصـياً، أو أن المحبـة والمودة لها مظاهر ومجال، وإظهار الفرح يوم ولادته والحزن يوم رحلته دليل على الحب الأصيل والمودة المكنونة فى القلب . ولسنا ننكر أن لإظهار المودة وتوقيره طرقاً أُخرى، منها التمسك بسة قولا وعملاـ وتعلماً وتعليماً وإيثاراً، أو التأسّـى بأخلاقه وآدابه، ونشـر سـنته وأحاديثه، إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون مظاهر للحب، ـ ولكن أيها الأخ العزيز ـ لا ينحصـر إظهار الحب والتكريم فى هـذه الأُمور، فإنّها من الوظائف الدينية الّتى يجب على المسـلم القيام بها فى كـل يوم وليلـة، وهى فى الوقت نفسه مظاهر لتوقير النبى وتكريمه وإظهار المودة والحب له، ولكن الاحتفال بمولـده وإقامـة العزاء فى يوم رحلته أيضـاً مظهر آخر للتوقير والتكريم وإظهـار المودة، فلماذا نؤمن ببعض ونكفر ببعض؟ . فكيف تقام الاحتفالات فى نفس المملكـة السـعودية لأبنـاء عائلتهـا وتغفـل عن النبى الأكرم وأهل بيته، وإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى العـدد (۱۰۲) من مجلة «الفيصـل» الّتى تصـدر فى طباعـة أنيقـة جـداً فى السـعودية، فهو يحتوى على تقرير مبسوط عن الاحتفال الكبير الّذى أقامته السـلطات السـعودية بمناسبـة عودة «الأمير سـلطان» من الرحلـة الفضائيـة فى مركبة «ديسـكفرى»، ويحتوى هذا العدد على صور كثيرة تحكى عن حجم المبالغ الطائلة الّتى صـرفت فى ذلك الاحتفال، وقد نشرت الكلمات والقصائد الّتى أُلقيت فيه، وقرىء فيها المدح المفرط والثناء المسـرف على آل سـعود عامة والأمير العائد من الرحلة الفضائية خاصة... ألا يسـتحق رسول الإسـلام أن تخلّد ذكرى مولده الشـريف، وتنشر مناقبه (۱۰۲)

وفضائله وإنجازاته العظيمـة، وعطاؤه الزاخر، وخـدماته الجليلة، وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتّى يعرف الصديق والعدو ما أسداه هذا النبى العظيم من خدمة، وما قدمه من عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب فى سبيل هداية البشر، وهل التكريم إلاّ الاحتفال به، ونشر قِيَمِهِ الفاضـلة، والحث على الاقتـداء به والأخـذ بهـديه، والمحافظـة على آثـاره؟ ما هـذا التناقض بين القول والعمل؟ تقيمون الاحتفال لأمير البلـد، وتحرّمون الاحتفال للنبى الأكرم؟ . فلو أُقيم احتفال فى أىّ بلـد من بلاد اللّه تبارك وتعالى، سواء أكان فى ميلاد النبى أم غيره، وقرأ المقرىء الآيـات النازلـة فى حقه، أو تليت قصـيدة حسـان بن ثابت الّذى قال رسول اللّه بأنّ لسانه على المشـركين أشـد وقعاً من السيوف على رقابهم، كقوله فى قصيدة رثى بها النبى بعد رحلته، يقول فيها: بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد * منير وقد تعفو الرسوم وتهمد يدل على الرّحمن من يقتدى به * وينقذ من هول الخزايا ويرشد إمام لهم يهديهم الحق جاهداً * معلِّم صدق إن يطيعوه يسعدوا(۱) أو ألقى فيها شـعر كعب بن زهير الّذى يمـدح به النبى ويقول: بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول * متّيم إثرها لم يُفْد مكبول نُبّئتُ أنّ رسول اللّه أوعـدنى * والعفـو عنـد رسـول اللّه مـأمول مهلاـ هـداك الّذى أعطـاك نافلـة القرآن فيهـا مواعيـظ و تفصـيل * إن الرسول لَنورٌ يسـتضاءبه مهنّدٌ من سيوف اللّه مسلول(۲) أو مـا أنشأه عبـداللّه بن رواحه ويقول فيه: خلّوا بنى الكفار عن سبيله * خلّوا فكل الخير فى رسـوله يـارب إنّى مـؤمن بِقيلِهِ * أعرف حق اللّه فى قبوله(۳) أو قرأ فيهـا قصـيدة البوصـيرى الّتى أنشأها عن إيمان وإخلاص بالرسول لغاية التكريم والاحترام مستهلها:

أمِنْ تذكُّر جيران بذى سَلَم * مَزجْتَ دمعاً جرى من مقلة بدم ________________

۱ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۶۶۶، والقصيدة .

۲ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۵۱۳ .

۳ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۳۷۱ . (۱۰۳)

أم هبت الريـح من تلقاء كاظمةً * وأومض البرق فى الظلماء من أضم(۱) فهل يتصور أن يعـد ذلك أمراً محرماً وبدعة؟ وكأنّ الرسول يجب أن يكون خامل الـذكر. ولو هتف به هاتف بالتكريم يكون آثماً، يجب أن يجلد أو يقتل لأجل البدعة أو الشـرك: سـبحانك يا رب مـا أعظم جرأتهم على الحط من كرامـة الرسول وعظمته!! نرى أنه سـبحانه خَلَّدَ ذكره ورفع مقامه بمنْحِهِ النبوة وقال: (وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ)(۲) فلنفترض أن الآية: «رفعنا لك ذكرك» تشير إلى منح منصب النبوة، ومقام الرسالة له، ولكن يستفاد من الآية أن رفع النبى أمر مطلوب للّه سـبحانه، وأن تتويجه بالنبوة سـبب لـذلك الرفع المحمود، فالاحتفال بمولـده ليس إلاّ تجسـيداً لذلك الرفع المطلوب،

وليس لقائل أن يقول: إنّ المطلوب هو رفعه بمنح النبوة له فقط، فلا يسوغ ترفيعه وتخليد ذكراه في المجتمع عن طريق آخر، فإنّ ذلك يأباه الذوق السليم . هذا هو معنى البدعة، وهذا تحديدها، فاتخذه مقياساً تميز به المبتدع عن المتشرع، والبدعة عن السنة، وبذلك تقف على أن أكثر ما يصفونه بالبدعة له أصل في القرآن والسنة، ولأجل أن يكون البحث مترامي الأطراف نردفه بالبحث عن التبرك، حتّى يكون الوقوف على حقيقته معيناً على حل عقدهم ومشاكلهم، وسيوافيك البحث مستقلا عن الاحتفال بالمواليد .

---

١ . جواهر الأدب، أحمد الهاشمي، ص ۴۶۷ والقصيدة لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري صاحب «البردة» و «الهمزية» ولهذه القصيدة شروح.

٢ . سورة الإنشراح: الآية ۴ . (۱۰۴) (۱۰۵)

التبرك بآثار النبي الأكرم والصالحين

التبرك بآثار النبي الأكرم والصالحين

جرت سيرة الموحدين على التبرّك بآثار الأنبياء والصالحين، وجرت سيرة المسلمين على التبرّك بآثار النبي الأكرم، والتبرك بالآثار إمّا تطبيقاً لمبدأ الحب والمودة لرسول اللّه، وإمّا طلباً لأثر معنوي وضعه اللّه سبحانه في الشيء المتبرّك به، كما في التبرك بماء زمزم، وماء ميزاب الكعبة وكسوتها، وماء الفرات وسؤر المؤمن، إلى غير ذلك مما وردت الأحاديث في التبرك به. فسواء أكان تجسيداً للمحبة والمودة كتقبيل الأضرحة والمنبر والأبواب، أم كان لطلب الآثار الخاصة الّتي وردت النصوص فيها، فلا يمت ذلك إلى الشرك في العبادة بصلة، وقد عرفت أن العنصر المقوّم لتحقق مبدأ الشرك هو الاعتقاد بـ «الألوهية» والربوبية، أو كون المدعو مبدأً لأفعال إلهية، وأمّا إظهار المودة والمحبة لآثار المحبوب على حد قول الشاعر : أمرّ على الديار ديار ليلى * أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا وما حب الديار شغفن قلبي * ولكن حب من سكن الديارا أو طلب الشفاء من الأسباب الّتي ورد الحديث بأن فيها الشفاء، فليس عبادة ;فإنّ الشافي هو اللّه سبحانه، وماء زمزم وماء ميزاب الكعبة أسباب له، فهذه الأسباب المعنوية كالأدوية الكيمياوية الّتي عمّت العالم، يأوي إليها كل مريض من موحد ومشرك، غير أنّ الموحّد يستعملها بما أنها السبب، والشافي هو اللّه سبحانه، وهو الّذي أعطى السببية لها، ولو أراد لسلبها عنها . (۱۰۶)

فالمهم في المقام دراسة ما ورد في الشرع حول التبرك بآثار الأنبياء والأولياء، وتبيين موضع الصحابة من آثار الرسول الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وقبل أن نسرد بعض ما وقفنا عليه، نشير إلى كتابين كريمين في ذلك المجال: ١- «تبرك الصحابة» للشيخ محمد طاهر مكي، من علماء الحرم الشريف، طبع مكة المكرمة . ٢- «التبرك» تأليف الأستاذ الفذ الشيخ علي الأحمدي، وقد استقصى فيه جل ما ورد في التبرك، ولا اظن أن من قرأ هذين الكتابين يبقى له الشك في جوازه، إن كان ممن يستمع القول فيتّبع أحسنه، وإلاّ يزيده إلاّ خساراً. التبرّك في القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم يذكر أنّ يوسف أمر البشير أن يذهب بقميصه إلى ابيه، وقال: القوا بقميصي هذا على وجهه فيعود بصيراً، واللّه سبحانه يحكي عن يوسف هكذا: (اذهَبُوا بِقَميصي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجهِ أبي يَأتِ بَصيراً وَ أُتوني بِأهْلِكُم أجْمَعين)(١) (فَلَمّا جَاءَ البَشيرُ أَلْقاهُ عَلَى وَجهِهِ فارتَدّ بَصيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنّي أعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)(٢) فالآيات صريحة في أن يعقوب تبرّك بقميص ابنه يوسف، ولا شك أن قميص يوسف كان من القطن، والقطن كالحديد الّذي يصنع منه الأضرحة والأبواب، والقطن والحديد لا يؤثران في رفع المرض وكشف الكربة، ولكنّه سبحانه تكريماً للنبي يمنّ على المريض بالشفاء بعد التبرك به، وكأنّ هناك صلة معنوية غير مرئية ولا ملموسة ولا مدركة في المختبرات بين التبرك بالقميص وآثار الأنبياء ونزول الشفاء من اللّه سبحانه، كما نرى تلك الرابطة بين استعمال الدواء وحصول البرء بعده، ومن المعلوم أنّه سبحانه هو مسبب الأسباب، وجاعل السببية للسبب. ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة یوسف: الآیة ۹۳ .

۲ . سورة یوسف: الآیة ۹۶ . (۱۰۷)

إنّ هیئة الآمرین بالمعروف والناهین عن المنکر حول الضریح النبوی الشریف والمسجد الحرام یرفعون عقیرتهم بأنّ هذا (الضریح) حدید، والحدید لا یفید، فلیستمعوا إلی قول اللّه سبحانه: (اذهبوا بقمیصی هذا)، فعلی ضوء کلامهم قمیص یوسف من القطن، والقطن کالحدید، ولکنّه سبحانه منح الشفاء لعین نبیه غِبّ تبرکه بقمیص ولده لصموده فی سبیل اللّه . وأمّا الأحادیث والآثار الواردة حول التبرک فحدّث عنها ولاـ حرج، فإنها تتجاوز المائة، ومن أراد فلیرجع إلی الکتابین الجلیلین اللذین نوهنا بهما، وقبل أن نورد بعض الآثار، نذکر بعض الکلمات فی هذا المجال من کبار العلماء : قال ابن حجر: «کل مولود فی حیاة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ یُحکم بأنّه رآه، وذلک لتوفّر دواعی إحضار الأنصار أولادهم عند النبی للتحنیک والتبرک، حتّی قیل: لمّا افتتحت مکة، جعل أهل مکة یأتون إلی النبی بصبیانهم لیمسح علی رؤوسهم، ویدعو لهم بالبرکة»(۱) . یقول مؤلف تبرک الصحابة: «لا شک أنّ آثار رسول اللّه ـ صفوة خلق اللّه وأفضل النبیین ـ أثبت وجوداً وأشهر ذکراً، فهی أولی بذلک التبرک وأحری، وقد شهده الجم الغفیر من الصحابة، وأجمعوا علی التبرک بها والاهتمام بجمعها، وهم الهداة المهدیون والقدوة الصالحون، فتبرکوا بشعراته وفضل وضوئه وبعرقه وثیابه، وبمس جسده الشریف، وغیر ذلک مما عرف من آثاره الشریفة الّتی صحت بها الأخبار عن الأخیار» (۲) . ولنقدم بعض ما ذکره الشیخان (البخاری ومسلم) لکون صحیحیهما من أتقن الکتب عند أهل السنة وأصحها: ۱- هذا الشیخ البخاری یروی أنّ الصحابة کانوا یتبرکون بفضل وضوئه، قال: ________

۱ . الإصابة فی تمییز الصحابة ج ۱ ص ۵ .

۲ . تبرک الصحابة ص ۵ . (۱۰۸)

«لما خرج علینا رسول اللّه بالهاجرة، فأتی بوضوء فتوضأ، فجعل الناس یأخذون من فضل وضوئه ویتمسحون به»(۱). ۲- إنّ الصحابة کانوا یتبرکون بشعره، فروی أنس أنّ رسول اللّه لما حلق رأسه کان أبو طلحة أول من أخذ شعره(۲) . ۳- إنّ الصحابة کانوا یتبرکون بالإناء الّذی شرب منه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ، قال أبو بردة: قال لی عبداللّه بن سلام: ألا اسقیک فی قدح شرب النبی فیه؟(۳) . ویفهم من الروایة أنّ عبداللّه بن سلام کان یحتفظ بذلک القدح للتبرک، لشرب رسول اللّه منه. ۴- کان الصحابة یتبرکون بیدیه الشریفتین، فعن أبی حجیفة: خرج رسول اللّه بالهاجرة إلی البطحاء فتوضأ ثم صلی الظهر رکعتین والعصر رکعتین ـ إلی أن قال ـ : وقام الناس فجعلوا یأخذون یدیه فیمسحون بهما وجوههم، قال: فأخذت بیده فوضعتها علی وجهی، فإذا هی أبرد من الثلج، وأطیب رائحة من المسک(۴) . لا أظن أنّ الوهابی یجترىء علی ردّ أحادیث البخاری، لأنّه أصحّ الکتب وأتقنها، خصوصاً أنّ هذه الروایات جاءت فیها متواترة، وهم القائلون: وما من صحیح کالبخاری جامعاً * ولا مسند یلفی کمسند أحمد هذا بعض ما رواه البخاری، وهلم معی ندرس ما ذکره مسلم فی صحیحه: ذکر مسلم أنّ الصحابة کانوا یأتون بصبیانهم إلی النبی للتبرک والتحنیک، قال: إنّ رسول اللّه کان یؤتی إلیه بالصبیان، فیبارک علیهم ویحنکهم(۵) . ________

۱ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۵۹، فتح الباری ج ۱ ص ۲۵۶ .

۲ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۵۴ .

۳ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۱۴۷، فتح الباری ج ۱۰ ص ۸۵ .

۴ . صحیح البخاری ج ۴ ص ۱۸۸ .

۵ . صحیح مسلم ص ۱۶۹۱ . (۱۰۹)

کما روی فی حق شعره: «أنّ رسول اللّه أتی منی، فأتی الجمرة فرماها، ثم اتی منزله بمنی، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلی جانبه الأیمن ثم الأیسر، ثم جعل یعطیه الناس(۱) . هذا بعض ما رواه الشیخان، وأمّا ما رواه غیرهم فحدّث عنه ولا حرج، وقد عقد البخاری

فى صحيحه باباً سماه: «باب ما ذكر من درع النبى وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك، مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته، مما يتبرك به أصحابه وغيرهم بعد وفاته»(۲) . إنّ فاطمة ـ عليها السّلام ـ الّتى لا شك أنها من أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً حضرت قبر أبيها، وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكى وتقول: ماذا على من شمّ تربة أحمد * أن لا يشم مدى الزمان غواليا صُبّت علىّ مصائبٌ لو أنها * صُبّت على الأيام صرن لياليا وفى لفظ: فجعلتها على عينيها ووجهها(۳) . نعم، كانت بنو أُمية وأذنابهم يمنعون الناس عن التبرك بقبر رسول اللّه وآثاره، فمن منع التبرك فإنما هو على خطهم. روى الحاكم فى المستدرك: «أقبل مروان يوماً فوجد رجلا واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته، ثم قال: هل تدرى ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصارى، فقال: إنّى لم آت الحجر، وإنما جئت رسول اللّه، سمعت رسول اللّه يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذ وليه غير أهله(۴) . ________________

۱ . صحيح مسلم ج ۳ ص ۹۴۷ .

۲ . صحيح البخارى ج ۴ ص ۸۲ .

۳ . وفاء الوفاء: ج ۲ ص ۴۴۴، صلح الإخوان، ص ۵۷ وغيرهما من المصادر .

۴ . مستدرك الصحيحين للحاكم ج ۵ ص ۵۱۵، ومجمع الزوائد ج ۴ ص ۲، باب وضع الوجه على قبر سيدنا رسول اللّه . (۱۱۰)

قال العلامة الأمينى : «إنّ هذا الحديث يعطينا خبراً بأنّ المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدع الأمويين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أُذن الدنيا قط صحابياً ينكر ذلك، غير وليد بيت أُمية، مروان الغاشم . نعم... «الثور يحمى انفه بروقه»(۱) . نعم... لبنى أُمية عامة، ولمروان خاصة ضغينة على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ منذ يوم لم يُبقِ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى الأسرة الأموية حرمة إلّا هتكها، ولا ناموساً إلّا مزقه، ولا ركناً إلّا أباده، وذلك بوقيعته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فيهم، وهو لا «ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ ـ وحى يوحى، علّمه شديد القوى» فقد صحّ عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قوله: «إذا بلغت بنو أُمية أربعين، اتّخذوا عباد اللّه خولا، ومال اللّه نحلا وكتاب اللّه دغلا»(۲) . نعم تبع مروان بن الحكم ـ الوزغ ابن الوزغ ـ ابن طريد رسول اللّه من بعده الحجاج بن يوسف، هذا هو المبرّد ينقل فى كامله، قال: ومما كفرت به الفقهاء الحجاج بن يوسف والناس يطوفون بقبر رسول اللّه منبره. لقوله: «إنما يطوفون بأعواد ورمّة»(۳) ومراد الحجاج من الأعواد: المنبر، ومن الرّمة: عظام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فيستسخر من المسلمين ويهينهم بكلامه، وهذا يعرب عن أنّ المسلمين كانوا يطوفون حول قبر رسول اللّه . قال ابن أبى الحديد: خطب الحجاج بكوفة، فذكر الذين يزورون قبر ________________

۱ . الروق: القرن، وهو مثل يضرب لمن يدافع عن شخصيته وعرضه .

۲ . الغدير: ج ۵ ص ۱۴۹ .

۳ . التبرك ص ۱۶۱ . (۱۱۱)

رسول اللّه بالمدينة، فقال: تبّاً لهم، إنهم يطوفون بأعودا ورمّة بالية. هلا طافوا بقصر أميرالمؤمنين عبدالملك؟ ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله؟(۱) . هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التبرك، ومن أراد التفصيل والتبسط فليرجع إلى كتاب «التبرك» فقد بلغ الغاية فى ذلك المجال . * * * *

هذا وقع عقد العلامة الأمينى فصلا أسماه «التبرك بالقبر الشريف بالتزام وتمريغ وتقبيل» وذكر هناك نصوصاً كثيرآ تحكى عن جريان السيرة على التبرك بالقبر الشريف، فمن أراد فليرجع إلى الجزء الخامس: ص ۱۴۶ ـ ۱۶۴ . ________________

۱ . شرح نهج البلاغة ج ۱۵ ص ۲۴۲ .

عقائد ابن تيمية

عقائد ابن تيمية

عقائد ابن تيمية عقائده و آراؤه

إنّ الآراء والمعتقدات، مقياس شخصية الإنسان، ومستوى عقليته وثقافته، كما أنّ ما يمت منها الى الإسلام بصلة، مقياس عرفانه بالكتاب والسنة، وسلامة ذوقه وصفاء ذهنه، وقد حان تقييم شخصية ابن تيمية عن طريق عرض آرائه على المصادر الإسلامية، ليعلم مدى صحتها وانطباقها على المصدرين وحدّ سلامة ذوقه وصفاء ذهنه فى مقام الاستضاءة بهما، وإليك البيان : (۱۱۴)

ابن تيمية ورأيه فى الصفات الخبرية(۱)

ابن تيمية ورأيه فى الصفات الخبرية(۱)

إنّ المحنة الأُولى لابن تيمية بدأت ممّا نشره باسم «العقيدة الحموية» حيث أجاب فيها عن سؤال أهل «حماه» فى آيات الصفات، مثل قوله: (الرَّحمنُ عَلى العَرْشِ استوى) وقوله: (ثُمّ اسْتَوَى إلى السّماءِ)، وأحاديث الصفات، كقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «إنّ قلوب بنى آدم بين إصبعين من اصابع الرحمن»، وقوله: «يضع الجبار قدمه فى النار» بما هذا نصه: «فهذا كتاب اللّه من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ من أولها إلى آخرها، ثم عامة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الائمة مملوء بما هو إمّا نص وإمّا ظاهر فى أنّ اللّه سبحانه وتعالى فوق كل شىء، وعلى كل شىء، وأنّه فوق السماء، مثل قوله: (إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيّبُ، وَ العَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ)، (إنّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إلىَّ)، (أمِنْتُم مَنْ فِى السّماءِ أنْ يَخسِفَ بِكُمُ الأرْضَ...)، (أمِنْتُم مَنْ فى السّماءِ أنْ يُرسِلَ عَلَيْكُم حَاصباً...)، (بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إليْهِ...)(إلَيْهِ تَعْرُجُ...وَالرُّوحُ...)(يَخافُونَ رَبَّهم مِنْ فَوْقِهِم...)(ثُمَّ استَوى عَلى العَرْشِ)(فى ستة مواضع). (الرّحمنُ عَلَى العَرْشِ استَوى)، (يا هَامَانُ ابْنِ لى صَرْحاً لَعَلّى أبْلُغُ الأسبابَ، أسْبَابَ السَّمواتِ، فأطَّلِعَ إلى إله ـــــــــــــــــــــــ

۱ . الصفات الخبرية، هى الصفات الّتى أخبر عنها القرآن والسنة، مقابل ما يدل عليه العقل كالعلم والقدرة . (۱۱۵) موسى وَ إنِّى لأظُنّهُ كاذِباً...)، (تَنزيلٌ مِنْ حكيم حميد)، (مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّك) إلى أمثال ذلك مما لا يكاد يحصى إلاّ بكلفة .

وفى الأحاديث الصحاح والحسان ما لا يحصى، مثل قصة معراج الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إلى ربّه، ونزول الملائكة من عنداللّه وصعودهم إليه، وقوله فى الملائكة: «الذين يتعاقبون بالليل والنهار، فيعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم، فيسألهم وهو أعلم بهم»، وفى الصحيح فى حديث الخوارج: «ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء، يأتينى خبر السماء صباحاً ومساء» وفى حديث الرقية الّذى رواه أبو داود وغيره: «ربنا اللّه الّذى فى السماء تقدس اسمك. أمرك فى السماء كما رحمتك فى السماء، اجعل رحمتك فى الأرض. اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت ربّ الطيبين»، وقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «إذا اشتكى أحد منكم أو اشتكى أخ من إخوانه فليقل: «ربنا اللّه الّذى فى السماء ذكره»، وقوله فى حديث الأعمال: «والعرش فوق ذلك، واللّه فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله فى حديث قبض الروح: «حتّى يعرج به إلى السماء الّتى فيها اللّه» . وقول عبداللّه بن رواحة الّذى أنشده للنبى وأقره عليه: شهدت بأنّ وعد اللّه حقٌّ * وأنّ النار مثوى الكافرينا وأنّ العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش ربّ العالمينا وقول أُمية بن أبى الصلت الّذى أنشده للنبى، فاستحسنه، وقال: آمن شعره وكفر قلبه . مجّدوا اللّه فهو للمجد أهل * ربّنا فى السماء أمسى كبيراً بالبناء الأعلى الّذى سبق النا * س وسوىّ فوق السماء سريرا شرجعاً(۱) ما يناله بصر الـ * ـعين ترى دونه الملائك صوراً(۲) إلى أمثال ذلك مما لا يحصيه إلاّ اللّه، مما هو من أبلغ التواترات اللفظية والمعنوية الّتى تورث علماً يقيناً من أبلغ العلوم الضرورية، إنّ الرسول المبلغ

---

۱ . الشرجع: الطويل .

۲ . الصور، جمع أصور: المائل العنق. (۱۱۶)

عن اللّه ألقى إلى أَمته المـدعوين: أنّ اللّه سـبحانه على العرش استوى وأنّه فوق السـماء، كمـا فطر اللّه على ذلـك جميع الأمم عربهم وعجمهم فى الجاهلية والإسلام، إلاّ من اجتالته الشياطين عن فطرته . ثم عن السلف فى ذلك من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئين أو أُلوفاً، ثم ليس فى كتاب اللّه ولا فى سـنة رسول اللّه، ولا عن أحـد من سـلف الأُمـة ولا من الصـحابة والتابعين، ولا عن الأئمـة الذين أدركوا زمن الأـهواء والاختلاـف، حرف واحـد يخـالف ذلك لا نصاً ولا ظاهراً، ولـم يقل أحـد منهم قط إنّ اللّه ليس فى السـماء ولا أنه ليس على العرش، ولاـ أنه ليس فى كـل مكـان، ولاـ أن جميع الأمكنـة بالنسـبة إليه سواء، ولا أنه لا داخل العالـم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصـل، ولاـ أنه لا تجوز الإشارة الحسـية إليه بالأصابع ونحوها، بل قـد ثبت فى الصـحيح عن جابر أن النبى لما خطب خطبته العظيمة يوم عرفـات، فى أعظم مجمع حضـره رسول اللّه، جعـل يقول: ألاـ هـل بلّغت؟ فيقولون: نعم، فيرفع إصـبعه إلى السـماء وينكبهـا إليهم فيقول: اللّهمّ اشـهد، غير مرة، وأمثال ذلك كثيرة(۱) . وقـد كرر ابن تيمية ما اختاره فى باب الصـفات الخبرية فى غير واحد من آثاره، فقـال فى العقيـدة الواسـطية: «ومـا وصف الرسول به ربه من الأحـاديث الصـحاح الّتى تلقّاهـا أهـل المعرفـة بالقبول وجب الإيمان بها، كـذلك مثـل قوله: «ينزل ربنـا إلى سـماء الـدنيا كـل ليلـة، حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: «من يـدعونى فأسـتجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يسـتغفرنى فأغفر له» وقوله ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ : «يضـحك اللّه إلى رجلين أحـدهما يقتل الآخر، كلاهما يدخل الجنـة» . وقوله: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيـد؟ حتّى يضع رب العزة فيها قدمه» وقوله ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ فى رقية المريض: «ربنا اللّه الّذى فى السماء ـ تقدس اسمك ـ أمرك فى السماء والأرض...» . ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . العقيدة الحموية الكبرى ـ الرسالة الحادية عشرة ـ من مجموع الرسائل الكبرى لابن تيمية ص ۴۲۹ ـ ۴۳۲ . (۱۱۷)

وقوله: «والعرش فوق ذلك، واللّه فوق ذلك، واللّه فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه» وقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ للجارية: «أين اللّه؟ قـالت: فى السـماء، قـال: من أنا؟ قالت: أنت رسول اللّه. قال: أعتقها فأنها مؤمنـة» وقوله: «إذا قام أحـدكم إلى الصـلاة فإنّ الله قِبَلَ وجهه، فلاـ يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه، ولكن عن يساره أو تحت قـدمه»، وقوله: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلـة البـدر لا تضـامون فى رؤيته» . وقـد دخل فيما ذكرناه من الإيمان باللّه، الإيمان بما أخبر اللّه به فى كتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع عليه سـلف الأُمة من أنّه سـبحانه فوق سـماواته على عرشه، عليٌّ على خلقه، وهو معهم سـبحانه أينما كانوا»(۱) . وقال: «وقد سألوه ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ : هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فأجابهم: نعم، وسأله أبو رزين: أيضـحك ربنا؟ فقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : نعم، فقال: لـن نعـدم مـن رب يضـحك خيراً. ثم إنهم لمـا سـألوه عن الرؤيـة، قـال: إنكم سـترون ربكم كمـا ترون الشـمس والقمر، فشبه الرؤية بالرؤية(۲) . وقـال رداً على نُفاة الصـفات(۳): إمّا أن يكون اللّه يحب منّا أن نعتقـد قول النفـاة، أو نعتقـد قول أهـل الإثبات، أو نعتقد واحداً منهما ;فإن كان مطلوبه منّا اعتقاد قول النفاة، وهو أنّه لا داخل العالم ولا خارجه، وأنّه ليس فوق السماوات ربٌّ ولا على العرش إله، وأنّ محمـداً لم يعرج به إلى اللّه، وإنمـا عرج به إلى السـماوات فقـط، لا إلى اللّه، فإنّ الملائكـة لا تعرج إلى اللّه بل إلى ملكوته، وإنّ اللّه لا ينزل منه شـىء ولا يصـعد إليه شىء، وأمثال ذلك. وإن كانوا يعبّرون عن ذلك بعبارات مبتدعة فيها إجمال وإبهام وإيهام، كقولهم: ليس بمتحيز، ولا جسم، ولا جوهر، ولا هو فى جهة، ولا مكان، وأمثال هذه ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . العقيدة الواسطية، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الكبرى، ص ۳۹۸ ـ ۴۰۰ بتلخيص .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳، طبع لجنة التراث العربى .

۳ . المراد: الصفات الخبرية كاليد والوجه . (۱۱۸)

العبارات الّتى تفهم منها العامـة تنزيه الرب تعالى عن النقائص، ومقصـدهم أنّه ليس فوق السـماوات ربٌ ولا على العرش إله يعبد، ولا عُرج بالرسول إلى اللّه، ولو كان هذا هو المطلوب كان من المعلوم أنه لا بد أن يبينه الرسول، وقد علم بالاضطرار أنّ الرسول وأصحابه لم يتكلموا بمذهب النفاة(۱) . وقال: «إنّ المالكيـة وغير المالكيـة نقلوا عن مالك أنّه قال: اللّه فى السـماء، وعلمه فى كل مكان، ولأنّ علماءهم حكموا إجماع السـنة والجماعـة على أنّ اللّه بذاته فوق عرشه»(۲) . وقال ـ نقلا عن ابن أبى حنيفـة ـ «أنّه سـئل عمن يقول: لا

أعرف ربّى فى السماء أو فى الأرض؟ قال: كفر، لأنّ اللّه يقول: (الرَّحمن على العرش استوى) وعرشه فوق سبع سماواته، فقال السائل: إنّه يقول على العرش، ولكن لا ـ أدرى العرش فى السماء أو فى الأرض؟ فقال: إنّه إذا أنكر أنّه فى السماء كفر، لأنّه تعالى فى أعلى عليين، وإنّه ليدعى من أعلى لا من أسفل(۳) . ونقل عن عبداللّه بن المبارك أنّه سئل: بماذا تعرف ربنا؟ قال: بأنّه فوق سماواته على عرشه، بائن عن خلقه قلت بحد لا ـ يعلمه غيره. ثم نقل عن كثير من أئمة الحديث كالثورى، ومالك، وابن عيينة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، وابن المبارك، وفضيل بن عياض، وأحمد، وإسحاق، عن كون اللّه سبحانه فوق العرش بذاته، وأنّ علمه بكل مكان(۴). إلى غير ذلك مما نقله وأرسله على نسق واحد، والكل يهدف إلى أن الصفات الخبرية يجب أن تجرى على اللّه سبحانه بحرفيتها وظهورها التصورى، من دون تفصيل وتأويل، بإرجاعها إلى المعانى المجازية أو الكنائية . ______________

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳ .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۷ .

۴ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۸ ـ ۲۰۹ . (۱۱۹) الآراء المتضاربة حول الصفات الخبرية

إنّ للمتكلمين وأهل الحديث فى تفسير الصفات الخبرية مذاهب نشير إليها: ۱- جريها على اللّه سبحانه كجريها على المخلوقين، وهذا ما يعبّر عنه بالتكييف، وعليه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبيه ـ خذلهم اللّه سبحانه ـ وهو يستلزم أن يكون سبحانه جسماً، أو جسمانياً جالساً على كرسى جسمانى، ناظراً من عرشه إلى تحته كنظر الملك الجبار إلى عبيده وغلمانه . ۲- جريها على اللّه سبحانه بنفس المفاهيم اللغوية والمعانى الابتدائية، والمدلولات التصوّرية، بلا تصرف وتعليل وتدخّل فيها، واللّه سبحانه يتّصف بها لكن بلا تكليف، والفرق بين هذا القول و القول الأوّل هوأنّ القول الأوّل يثبت المعانى مع الكيفية، وهذا القول يثبتها بنفس المعانى لكن بلا تكييف، وهذا هو الّذى اختاره ابن تيمية، ويذكر ذلك فى رسائله ويقول: «والقول الفاصل هو ما عليه الأُمة الوسط من أنّ اللّه مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به، فكما أنّه موصوف بأنّه بكل شىء عليم، وعلى كل شىء قدير، وأنّه سميع بصير، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض الّتى لعلم المخلوقين وقدرتهم، فكذلك هو سبحانه فوق العرش، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق، ولوازمها»(۱). ويقول ايضاً: «ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل، فلا يمثلون صفات اللّه بصفات خلقه، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فيعطّلون أسماءه الحسنى يحرّفون الكلم عن مواضعه. أمّا المعطّلون، فإنهم لم يفهموا من أسماء اللّه وصفاته إلّا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولا وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة باللّه سبحانه»(۲) . ______________

۱ . العقيدة الحموية ص ۴۲۸ ـ ۴۴۰ .

۲ . المصدر نفسه . (۱۲۰)

۳- جريها على اللّه سبحانه بمفاهيمها التصديقية، بعد الإمعان فى القرائن الموجودة فى نفس الآيات والروايات الصحيحة وأمّا غيرهما، فأكثر ما ورد فى ذلك من وضع الأحبار والرهبان الذين دسّوا هذه الأحاديث بين المسلمين بخداع خاص . وعلى ضوء ذلك فالكل قائلون باستوائه على العرش، لكن الطائفة الأُولى يفسرونه بالجلوس والاستقرار على العرش كاستقرار الإنسان على عرشه، الّذى له قوائم أربع. والطائفة الثانية يفسرونه بنفس هذه المفاهيم، ولكن يقولون: استقراراً وجلوساً لائقاً بحاله سبحانه، وعرشاً لائقاً بساحته، فهو مستقر وجالس لا كجلوس الإنسان وله عرش لا كعروشه، بل الكل ما يليق بساحته، من غير تكييف ولا تمثيل. والطائفة الثالثة يفسرونه بالاستيلاء، أخذاً بالقرائن الموجودة فى نفس الآيات، وما ورد فى كلمات البلغاء والفصحاء فى استعمال نظيره فى كلماتهم ومحاوراتهم. ۴- وهناك طائفة رابعة يقولون بالتفويض، وأنّه ليس لنا تفسير الآية، بل نفوّض معانيها إليه سبحانه . قال الشهرستانى:

«اعلم إنَّ جماعة كثيرة من السلف، كانوا يثبتون للّه صفات خبرية مثل اليدين والوجه، ولا يؤوّلون ذلك، إلاّ أنّهم يقولون: إنّا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه، مثل قوله: (الرَّحمن على العرش استوى) ولسنا مكلفين بمعرفة هذه الصفات»(۱) . وقال الرازى: «إنّ هذه المتشابهات يجب القطع بأنّ مراد اللّه منها شىء غير ظواهرها، كما يجب تفويض معناها إلى اللّه تعالى، ولاـ يجوز الخوض فى تفسيرها»(۲) . ________________

۱ . الملل والنحل ج ۱ ص ۹۳ بتلخيص .

۲ . أساس التقديس ص ۲۲۳ . (۱۲۱)

إلى غير ذلك من الكلمات الّتى نقلناها فى هذه الموسوعة(۱) . ثم إنّ أصحاب التنابز بالألقاب وصفوا الطائفة الثالثة بالمعطّلة تارة، والمؤوّلة أُخرى، ولكنهم غير معطلة أبدا، لأنهم لم يعطلوا فى مقام توصيفه سبحانه شيئاً مما ورد فى الكتاب، غير أنهم قاموا بتعيين المراد من هذه الصفات فأجروها عليه، وأمّا المؤولّة، فإنما يصحّ توصيفهم بهذا الوصف إذا أُريد منها المعانى التصورية الابتدائية، وأمّا المعانى التصديقية الّتى تدل عليها القرائن، فلا يؤوّلون شيئاً منها، والملاك فى صدق التأويل هو المعانى التصديقية، لا التصورية . هذه هى الأقوال المعروفة فى باب الصفات على وجه الإجمال، هلمّ معى ندرس نظرية ابن تيمية فيها، حتّى يتجلّى الحق بأجلى مظاهره .

نظرية ابن تيمية تلازم الجهة والتجسيم

لاـ يشك من نظر إلى ما نقلناه عن ابن تيمية فى مواضع متعددة من رسائله وكتبه فى أنه صريح فى التجسيم والتشبيه، خصوصاً أنه يصرح بأنه تصحّ الإشارة الحسية بالأصابع إليه، ولا هدف له من جمع كل ما ورد فى ذلك المجال من غثّ وسمين وصحيح وزائف. إلاّـ إثبات أن هذه الصفات تجرى عليه سبحانه بمعانيها اللغوية، غير أنّ تذرعه بلفظ «بلا كيف» أو «بلا تمثيل» أو ما يقاربهما ربما يوجب عدم عدّه من المجسّمة والمشبهة، لأنّه يقول بأنّ له سبحانه هذه الصفات لا كصفات المخلوقين، ولكن هذا التذرّع واجهة يريد به تبرير توصيفه سبحانه بها بمعانيها اللغوية، وعدم اتهامه بالقول بالتجسيم والتشبيه، ولكنها لا تفيد شيئاً وذلك: إنّ هذه الصفات كاليد والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغةً على معانيها المتكيفة بكيفيات جسمانية، فاليد هى الجارحة المعروفة من الإنسان والحيوان، وهكذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحركة من العالى إلى السافل، والحركة من صفات الجسم، فالكيفية مقوّمة لمعانى هذه ________________

۱ . راجع الجزئين الثانى والثالث . (۱۲۲)

الألفاظ والصفات، فاليد والرجل بلا كيفية ليستا يداً ورجلا بالمعنى اللغوى المتبادر عرفاً، وعلى ضوء ذلك فليس هنا إلاّ سلوك أحد طريقين: ۱- جريها بنفس معانيها اللغوية الّتى تتبادر منها المفاهيم المتكيفة، فهو نفس القول بالتجسيم . ۲- جريها بمفاهيمها المجازية، ككون اليد كناية عن القدرة، كما فى قوله سبحانه: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيفَ يَشاء)(۱)، فهذا هو قول المؤوّلة، أو المعطلة باصطلاح ابن تيمية، وليس ههنا معنى ثالث ينطبق على ما يتبنّاه ابن تيمية، وهو إجراؤها على اللّه بنفس مفاهيمها، لكن من غير تكييف، وذلك لما عرفت أنّ مفاهيمها متقوّمة بالتكييف والتمثيل، فلو حذفنا الهيئة والكيفية من اليد، فلا يبقى منها شىء، كما أنّا لو حذفنا الحركة الحسية من النزول لا يبقى منه شىء، إلاّ إذا حملا على الكناية والتأويل، وهو ما لا يقبله ابن تيمية وأتباعه . ولو صحّ حمل هذه المفاهيم عليه سبحانه بالتذرّع بـ «بلا تكيف» و «لا تمثيل» لصحّ توصيفه سبحانه بكل شىء فيه أدنى كمال، ونقول: إنّه جسم لا كالأجسام، وله قلب لا كهذه القلوب، وله لسان ناطق لا كهذه الألسنة. وخلاصة القول: إنّ ابن تيمية يرى نفسه بين أمرين: أحدهما: القرآن بظواهره الحرفية حجة لاـ يصحّ لأحد تأويلها أو حملها على الكناية والمجاز . ثانيهما: إنَّ القرآن صريح فى أنّه ليس كمثله شىء، وأنّ المشركين ما قدروا اللّه حق قدره، إلى كثير من آيات التنزيه.

فعند ذلك يريد أن يجمع بين الأمرين باللجوء إلى أنّ المقصود ما يناسب ساحته، زاعماً بأنّه ينجيه عن القول بالجهة والتجسيم، مع أنه ليس لنا إلاّ اختيار أحد الأمرين: الأخذ بالمفاهيم اللغوية بلا تأويل ومرجعه إلى ________________

۱ . سورة المائدة: الآية ۶۴ . (۱۲۳)

التجسيم، أو الإمعان فى الآيات والآثار الصحيحة وتفسيرها حسب الدلالة التصديقية، بالمعانى الكنائية أو المجازية أو غير ذلك . وأمّا ما ادّعاه من أنّ ما ذكره نفس معتقد السلف فقد أجاب عنه العلامة الشيخ سلامة القضاعى العزامى الشافعى (ت ۱۳۷۹ هـ) قال: «إذا سمعت فى بعض عبارات بعض السلف: إنما نؤمن بأنّ له وجهاً لا ـ كالوجوه، ويداً لا كالأيدى، فلا تظن أنهم أرادوا أنّ ذاته العلية منقسمة إلى أجزاء وأبعاض، فجزء منها يد وجزء منه وجه، غير أنه لا يشابه الأيدى والوجوه الّتى للخلق . حاشاهم من ذلك، وما هذا إلّا التشبيه بعينه، وإنما أرادوا بذلك أنّ لفظ الوجه واليد قد استعمل فى معنى من المعانى وصفة من الصفات الّتى تليق بالذات العلية، كالعظمة والقدرة، غير أنهم يتورعون عن تعيين تلك الصفة تهيباً من التهجم على ذلك المقام الأقدس، وانتهز المجسمة والمشبهة مثل هذه العبارة فغرروا بها العوام، وخدعوا بها الأغمار من الناس، وحملوها على الأجزاء فوقعوا فى حقيقة التجسيم والتشبيه، وتبرأوا من اسمه، وليس يخفى نقدهم المزيف على صيارفة العلماء وجهابذة الحكماء»(۱) . وقد صرح بما ذكرنا ـ الأخذ بالمفاهيم اللغوية يلازم الجهة والتجسيم ـ ناصر ابن تيمية فى جميع المواقف (إلاّ ـ فى موقف أو موقفين) الشيخ محمد أبو زهرة حيث لم يستطع أن يستر الحقيقة، فقال: «ولا تتسع عقولنا لإدراك الجمع بين الإشارة الحسية بالأصابع والإقرار بأنه فى السماء، وأنه يستوى على العرش، وبين تنزيه المطلق عن الجسمية والمشابهة للحوادث. وإن التأويل (حملها على المجاز و الكناية) بلا ـ شك فى هذا يقرب العقيدة الى المدارك البشرية، ولا يصح أن يكلف الناس ما لا يطيقون، وإذا كان ابن تيمية قد اتسع عقله للجمع بين الإشارة الحسية وعدم الحلول فى مكان والتنزيه المطلق، فعقول الناس لا تصل إلى سعة أُفقه إن كان كلامه مستقيماً»(۲) . يقول أيضاً: «ومهما حاولوا نفى التشبيه فإنّه لاصق بهم، فإذا جاء ابن ـــــــــــــــــــ

۱ . فرقان القرآن ص ۸۰ - ۸۱.

۲ . ابن تيمية، حياته وعصره ص ۲۷۰ . (۱۲۴)

تيمية من بعدهم بأكثر من قرن فقال: «إنّه اشتراك فى الإسم لا فى الحقيقة» فإن فسّروا الاستواء بظاهر اللفظ فإنه الإقعاد والجلوس، والجسمية لازمة لا محالة، وإن فسروه بغير المحسوس فهو تأويل، وقد وقعوا فيهما نهوا عنه، وفى الحالين قد خالفوا التوقف الّذى سلكه السلف»(۱) . أقول: ليس ابن تيمية فريداً فى هذا الباب، بل المذهب الّذى أرسى قواعده شيخه ابن حنبل من التعبد بالظواهر بحرفيتها ومعانيها التصورية لا ينفك عن التجسيم والتشبيه، ومهما حاولوا الفرار عنه وقعوا فيه من حيث لا يشعرون. نعم حاول ابن الجوزى أن يدافع عن أُستاذ مذهبه فوجّه اللوم إلى تلاميذه، فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم فى الأُصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبداللّه بن حامد(۲) وصاحبه القاضى (أبو يعلى) (۳) وابن الزاغوانى(۴)، فصنّفوا كتباً شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس ؛فسمعوا أنّ اللّه سبحانه وتعالى خلق آدم ـ عليه السَّلام ـ على صورته، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وعينين وفماً ولهوات وأضراساً وأضواءً لوجهه، ويدين وأصابع وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين، وقالوا ما سمعنا بذكر الرأس . وقد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمية مبتدعة، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى ـــــــــــــــــــ

۱ . ابن تيمية حياته وعصره ص ۲۷۲ - ۲۷۳ .

۲ . شيخ الحنابلة فى عصره، البغدادى، الوراق، المتوفى سنة ۴۰۳ له كتاب فى أصول الإعتقاد سماه «شرح أُصول الدين» وفيه أقوال تدل على التشبيه والتجسيم.

۳ . القاضى أبو يعلى محمد الحسين بن خلف بن الفراء الحنبلى المتوفى سنة ۴۵۸ وقد تكلم فى أُصول الإعتقاد كلاماً تبع أُستاذه ابن حامد وأكثر من التشبيه والتمثيل حتّى قال فيه بعض العلماء:

«لقد شان أبويعلى الحنابلة شيئاً لا يغسله ماء البحار» .

۴ . هو أبو الحسن على بن عبيداللّه بن نصر الزاغوانى الحنبلى المتوفى سنهٔ ۵۲۷ وله كتاب فى أصول الإعتقاد اسمه «الإيضاح» قال فيه بعض العلماء: «إنّ فيه من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه» . (۱۲۵)

النصوص الصارفهٔ عن الظواهر إلى المعانى الواجبهٔ للّه تعالى، ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدث، ولم يقنعوا أن يقولوا صفهٔ فعل حتّى قالوا: صفهٔ ذات، ثم لمّا أثبتوا أنها صفات، قالوا: «لا نحملها على توجيه اللغهٔ، مثل يد على نعمهٔ وقدرهٔ، ولا مجىء وإتيان على معنى بر ولطف، ولا ـ ساق على شدهٔ، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفهٔ، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدميين»، والشىء إنّما يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرفه صارف حمل على المجاز. ثم يتحرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم، ويقولون نحن أهل السنهٔ، وكلامهم صريح فى التشبيه، ولقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتّباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل ـ رحمهٔ اللّه ـ يقول وهو تحت السياط: «كيف أقول ما لم يقل به» فإياكم أن تبتدعوا فى مذهبه ما ليس منه . ثم قلتم فى أن الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر القدم: الجارحهٔ، ومن قال استوى بذاته المقدسهٔ فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيات، وينبغى أن لا ـ يحمل ما لا يثبته الأصل وهو العقل، فإنّا به عرفنا اللّه وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت، لما أنكر عليكم، وإنما حملكم إياه على الظاهر قبيح، فلا تُدخلوا فى مذهب هذا الرجل الصالح السلفى ما ليس فيه»(۱) . أقول: عزب عن ابن الجوزى الحنبلى أنّ إمامه هو الّذى دعم هذه الفكرهٔ فى كتبه، وأنّه هو الّذى حشا كتبه بأحاديث التجسيم والتشبيه، ومن اراد الوقوف عليها، فليرجع إلى كتاب السنهٔ الّذى رواه عنه ابن عبداللّه، وقد روينا قسماً وافراً من رواياته فى الجزء الأول(۲) . نعم، قسَّم عز بن عبدالسلام الحشويهٔ وقال بأنهم على ضربين: ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن تيميهٔ، حياته وعصره، ص ۲۷۳ ـ ۲۷۴ نقلا عن دفع شبههٔ التشبيه لابن الجوزى، ونقله ملخصاً الشيخ سلامهٔ فى فرقان القرآن ص ۸۲.

۲ . بحوث فى الملل والنحل ج ۱ ص ۱۳۰ ـ ۱۴۳ . (۱۲۶)

أحدهما «يتحاشى عن الحشو والتشبيه والتجسيم، والآخر تستّر بمذهب السلف، ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التشبيه والتجسيم»(۱) . والحق أنّ الحشويهٔ بأجمعهم مجسّمهٔ، والتسمك بمذهب السلف واجههٔ ستروا بها قبح عقيدتهم، ولو رفع الستر لبان أنهم مجسمهٔ ومشبهٔ،وفى هذاالصدد يقول الزمخشرى : ولو حنبلياً قلت قالوا بأننى * ثقيل حلولىٌ بغيض مجسم ويقول أبوبكر ابن العربى فى حقهم: قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا * عنها العدول إلى رأى ونظر بينوا عن الخلق لستم منهم أبداً * ما للأنام ومعلوف من البقر(۲) نعم، الظواهر هى الأصل ولا يجوز لأحد العدول عنه: ولكن الظواهر منها ظاهر حرفى، ابتدائى، تصورى، فهو ليس بحجهٔ أبداً، ومنها ظاهر جملى تصديقى استمرارى، وهو الحجهٔ قطعاً، فإذا قلت: رأيت أسداً فى الحمام، فالظهور الإبتدائى التصورى الحرفى للفظ الأسد هو الحيوان المفترس، ويقابله الظهور التصديقى الجملى الاستمرارى وهو الرجل الشجاع، وهؤلاء الذين يضلون العوام يغترون بالقسم الأول من الظاهر، دون الثانى. وإذا قال المحققون: ظواهر الكتاب والسنهٔ حجهٔ لا يصح العدول عنها ولا يجوز لأحد تأويلها، يريدون الظهورات التصديقيهٔ الّتى تنعقد للكلام بعد الإمعان فى القرائن المتصلهٔ أو المنفصلهٔ، ولكن من يتبع الظواهر الحرفيهٔ فقد ضل، وغفل عن أن كلام العرب والبلغاء والفصحاء ملىء بالمجازات والكنايات . وحصيلهٔ البحث أن الجمود على الظواهر عبارهٔ عن الجمود على ظواهرها الحرفيهٔو ولا شك أنه يجر إلى الكفر أحياناً، فمن جمد على ظاهر قوله سبحانه: (ليس كمثله شىء) يجب عليه أن يقول: إنّ للّه مثلا وليس كهذا المثل شىء، كما أنّ التأويل ضلال، والمراد منه هو العدول عن الظواهر ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . نقض المنطق ص ۱۱۹، كما فى كتاب «ابن تيميهٔ» لمحمد أبى زهرهٔ.

۲ . فرقان القرآن ص ۹۸ . (۱۲۷)

التصديقيهٔ الّتى تتبادر إلى أذهان أهل اللغهٔ بعد الإمعان فى سياق الكلام، والتأمّل فى نظائره فى كلمات العرب. فلو استقرّ ظهور جملهٔ فى شىء بهذا الشرط، فالعدول عنه يوجب مسخ كلام اللّه ومحو الشريعهٔ. فعلى العالم الباحث أن يمعن النظر فى الصفات الخبريهٔ الّتى

جاءت فى الكتاب والسنة، ويتلقاها آيات متشابهة، ويمعن فى الآيات المحكمة حتّى يزيل عنها التشابه. «ومن تتبع براهين القرآن واستقرأ آياته العظام وجد كثيراً مما تشابه فيه، ورأى كثيراً منه محكماً، وهو ما كان من المجاز البيّن الشائع فى لغة العرب، وعلى قدر الرسوخ فى العلم يكون زوال التشابه أو أكثره عن الكثير من المتشابه، ولما كان الراسخون فى العلم متفاوتين لا ـ جرم تفاوتت أنصباؤهم فى زوال التشابه عنهم...»(۱) . وفى الختام نذكر أُموراً: الأول: إنّ ابن تيمية وإن تستّر بقوله (بما يناسب ساحته) ونظيره، ولكنّه أظهر عقيدته الواقعية فى مجالات خاصة، وهذا ابن بطوطة ينقل فى رحلته: «وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون، إلاّ أنه كان فى عقله شىء، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظهم على المنبر، وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء.. ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزوادى المالكى وقال: إنّ هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدّد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر الشهود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة.

قال قاضى القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلاّ اللّه، فأعاد عليه فاجاب عليه بمثل قوله، فامر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، وصنّف فى السجن كتاباً فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط . ثم إنّ أُمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن ــــــــــــــــــــ

۱ . كلام الإمام ابن دقيق العيد، كما فى فرقان القرآن ص ۹۷ . (۱۲۸)

وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق. فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكّرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إنّ اللّه ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدى والمنال ضرباً كثيراً»(۱). * * * الثانى: إنّ ابن تيمية ومن لفّ لفّه يستدلون على مقالتهم بالقياس، ويقولون: إنّ الوجه، والعين، واليدين، والقدمين والساق صفات مثل سائر الصفات، كالحياة والعلم والإرادة، فكما أنّ له سبحانه حياة لا كحياة الإنسان، فهكذا صفاته الخبرية، فله وجه لا كالوجوه، ويد لا كالأيدى، ورجل لا كالرجل .

يلاحظ عليه: أنّ الاستدلال بالقياس فى مجال العقائد أشد خطأ من الاستدلال به فى المسائل الفقهية، وعلى فرض الصحة فالقياس مع الفارق، وذلك أنّ كلا ـ من العلم والقدرة موضوع لمعنى غير متقيد بالجسم والمادة، فالعلم من ينكشف لديه المعلوم، والقادر من يستطيع على الفعل عن اختيار، فلأجل ذلك لكل واحد منهما مراتب ودرجات، فمنه حصولى ومنه حضورى، فمنه زائد على الذات، ومنه عين الذات، وأمّا الصفات الخبرية كالوجه فإنها موضوعة على الموجود المادى الّذى له شكل خاص، ولو كانت له مصاديق متفاوتة كوجه الإنسان والفرس والأسد فإنما هى فى إطار الجسم المادى، فالوجه بأى نحو أطلق يجب أن يكون موجوداً مادياً متهيئاً بهيئة خاصة، فالوجه الفاقد للمادة والهيئة، ليس وجهاً لغة، ومثله الرجل واليد، فالقول بأنّ له سبحان يداً لا كالأيدى، إن أُريد منه التأويل، أى تأويله بالقدرة، فهذا هو الّذى ذهب إليه أهل التنزيه، وإن أُريد به المعنى اللغوى بلا تدخل ولا تصرف، ومع ذلك فهو يفقد المادة والهيئة والشكل فهذا أشبه بالتناقض. * * * ــــــــــــــــــــ

۱ . ابن بطوطة: الرحلة ص ۹۵ ـ ۹۶ طبع دار صادر (۱۳۸۴ هـ). (۱۲۹) الثالث: إنّ ابن تيمية ينسب إلى السلف بأنّهم لا يؤوّلون ظواهر الكتاب فى مجال الصفات الخبرية، ثم يستنتج منه أنهم يحملونها على ظواهرها اللغوية، ويقولون: إنّ للّه وجهاً ويداً ورجلا، ونزولا ونقلة بنفس معانيها اللغوية، غاية الأمر أنّ الكيف مجهول .

يلاحظ عليه: أنّ ما نسب إلى السلف إذا كان صحيحاً يهدف إلى توقّفهم فى تعيين المراد وتفويض الأمر إلى اللّه، إذ فى الأخذ بالظاهر البدوى مغبة الجهة والتجسيم، وفى تعيين المراد مظنة التفسير بالرأى، فكانوا لا يخوضون فى هذه الأبحاث الخطرة، وأمّا أنهم يحملونها على ظواهرها ويفسرونها بنفس معانيها الابتدائية التصورية، كما زعمه ابن تيمية، فهو افتراء على المثبتين منهم . نعم، كان أهل التحقيق يخوضون فى هذه المباحث ويعينون المعنى المراد، وهذا ما يطلق عليه التأويل، ولكن التأويل صحيح على وجه، وباطل

على وجه آخر، فإن كان هناك شاهد عليه فى نفس الآية والحديث، أو كان التأويل من قسم المجاز البيّن الشائع، فالحق سلوكه من غير توقف، وإن لم يكن فى النصوص عليه شاهد، أو كان من المجاز البعيد، فهذا هو التأويل الباطل، وهو يلازم الخروج عن الملة والدخول فى الكفر والإلحاد. كما أنّ التأويل بلا قيد و شرط كفر وضلال، كما عليه الباطنية، فهكذا التعبد بالظواهر الابتدائية والمعانى التصورية، وعدم الاعتناء بالقرائن المتصلة أو المنفصلة أيضاً كفر وضلال وتعبّد بالتجسيم والتشبيه. إنّ المتحرّى للحقيقة يتبع الحق ولا يخاف من الإرهاب والإرعاب، ولا من التنابز بالألقاب، فلا يهوله ما يسمع من ابن تيمية وابن عبدالوهاب من تسمية المنزهين للحق عن الجهة والمكان، معطّلة وجهمية، وتلقيب القائلين ببدع اليهود والنصارى بالموحدين والمثبتين، فلا ـ يصرفنّك النبز بالألقاب إلى الإنحراف عن الحق الصراح، الّذى أرشدك إليه كتاب اللّه وسنة رسوله القويمة، والعقل الّذى به عرفت اللّه سبحانه، وبه عرفت رسله ومعاجزه وآياته . (۱۳۰)

ومما يدل على أنّ السلف لا ـ يحملون الصفات الخبرية على ظواهرها، بل لا يتكلمون ويفوضون الأمر إلى اللّه، هو ما نقل عن عالم المدينة مالك بن أنس عندما سئل عن قوله سبحانه: (ثمَّ استوى على العرش)أنّه كيف استوى؟ قال: الإستواء معلوم، والكيف غير معقول(۱). نعم إنّ ابن تيمية وأبناء الوهابية يحكون عنه أنّه قال: «الكيف مجهول»، والفرق بين العبارتين واضح، فالأول يهدف إلى التنزيه، والثانى يناسب التجسيم، إذ معناه أنّ لاستوائه على العرش كيفية من الكيفيات ولكنها مجهولة لنا. ويدل على أن الوارد هو «غير معقول» ما جاء فى ذيل الرواية أنّ مالكاً بعدما سمع السؤال وأجاب بما ذكرناه، علته الرحضاء، أى العرق الكثير وقال: «ما أظنك إلّا صاحب بدعة» وما ظنّه كذلك إلاّ ـ لأنّ سؤاله كان عن الكيفية، فأحس أن السائل يريد إثبات الكيفية لاستوائه سبحانه، فأخذته الرحضاء من سؤاله واعتقاده . * * * الرابع: إنّ ابن تيمية يكرر كثيراً استواءه سبحانه على العرش، ويعتمد على ظاهره، ويتخيل أنّ الإستواء بمعنى الاستقرار أو الجلوس، ولكنّه تستراً لمذهبه، يضيف إليه «بلا تكييف» ولأجل رفع الستر عن معنى الآية نأتى بكلام شيخ السلف من المفسرين أبى جعفر الطبرى، ولا يشك أحد فى أنّه سلفى، فهو يقول:

الاستواء فى كلام العرب منصرف على وجوه: ۱- انتهاء شباب الرجل وقوته، ويقال: إذا صار كذلك قد استوى الرجل . ۲- استقامة ما كان فيه أود من الأُمور والأسباب. يقال: استوى لفلان أمره إذا استقام له بعد أود، ومنه قول الطرماح: ــــــــــــــــــــ

۱ . نقله الذهبى فى كتابه «العلو» عن مالك وشيخه ربيعة، كما نقله أيضاً بالسند عن أبى عبداللّه الحاكم وابن زرعة، لاحظ فرقان القرآن ص ۱۴ ـ ۱۵ ونقله عن الإلكائى فى شرح السنة. (۱۳۱)

طال على رسم محدد أبده * وعفا واستوى به بلده يعنى استقام به . ۳- الإقبال على الشىء بالفعل، كما يقال: استوى فلان على فلان، بما يكرهه ويسوءه بعد الإحسان إليه . ۴- الاختيار والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة، أى احتوى عليها وحازها. ۵- العلو والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريره، يعنى به علوه عليه . ثم قال: وأولى المعانى بقول اللّه جلّ ثناؤه: (ثمّ استوى إلى السماء فسوّاهنّ): علا عليهن وارتفع، قد برهن بقدرته وخلقهن سبع سماوات(۱) . وهذا الشيخ السلفى لا يفسر الاستواء على العرش، بالجلوس ولا بالاستقرار، بل بعلو الملك والسلطان، كما هوالمراد من قوله سبحانه:(وَهُوَ العَلِيّ العَظِيمُ)(۲)، والعرب الذين نزل القرآن بلغتهم لا يفهمون من الاستواء إذا وقع وصفاً لموصوف بالقدرة والعظمة، سوى العلوّ، قال الشاعر: قد استوى بِشْرٌ على العراقِ * من غير سيف ودم مهراق وقال الآخر: ولما علونا واستوينا عليهم * تركناهم مرعىً لنسر وكاسر والأسف أنّ ابن تيمية وأتباعه إذ فسروا الاستواء بالعلو، يفسرونه بالعلو بالمكان، ولا يدرون أن الفضيلة والكرامة فى العلو المعنوى لا العلو المكانى، فما قيمة العلو فى المكان إذا لم يكن هناك علو معنوى، وهذا هو القرآن يركّز على العلو المعنوى، ويقول: (وَلاَ تَهِنُوا وَ لاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأعْلَونَ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ)(۳)، وقال سبحانه: (ألاّ تَعْلُوا عَلَيّ وَ أْتُونى ــــــــــــــــــــ

۱ . تفسير الطبرى ج ۱ ص ۱۵۰، سورة البقرة الآية ۲۹ ط دارالمعرفة .

۲ . سورة البقرة: الآية ۲۵۵ .

۳ . سورة آل عمران: الآية ۱۳۹ . (۱۳۲) مُسْلِمينَ)(۱) وقال سبحانه: (إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فى الأرْضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً)(۲) وقال تعالى: (وَ أنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللّه إنّى آتِيْكُم بِسُلطَان مُبين)(۳) وقال: (لَا تَخفْ إنّكَ أنْتَ الأعْلَى)(۴) .

هـذا كلّه حـول الاسـتواء، وأمّـا العرش فهو سـرير الملـك الّـذى يجلس عليه للحكم، وهـذا هو أصـل الوضع، ثم يكنّى به عن السـلطة والسـيطرة، حتّى صار يسـتعمل فى هذا المعنى ولا ينصرف إلى المعنى اللغوى، فإذا كان الملك آخذاً بزمام الأُمور ومسيطراً على البلد وأهله يقال: اسـتوى على العرش، أو هو مستو عليه، وإذا كان ضعيفاً فى الإدارة غير نافذ أمره فى البلد وأهله، وكان هناك انتفاضة بعد انتفاضة، يقال: إنّه غير مستو على عرشه . ومن تتبع القرآن الكريم وأمعن النظر فى الموارد الّتى ورد فيها اسـتواؤه سـبحانه على العرش فى موارد متعـددة يجـد أنّه ذكر مقروناً بفعل من أفعاله، دال على غناه المطلق، مثل رفع السـماوات بغير عمـد، قال سـبحانه: (اللّهُ الّذى رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَها، ثُمَّ استَوى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ)(۵)، أو (خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أيّام) . وإليـك الآيـات الّتى جـاء فيهـا هـذا الأمـر، قال سـبحانه: (إنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرضَ فى سِتَّةِ أيّام، ثُمَّ اسْتوى عَلَى العَرْشِ، يُغشى اللَّيلَ النَّهارَ)(۶) وقال سبحانه: (اللّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرضَ فِى سِتَّةِ أيّام، ثُمّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأمرَ، ما مِنْ شَفِيع إلّا مِنْ بَعْدِ إذنِهِ)(۷)، وقال سبحانه: (اللّهُ الّذى خَلَقَ السّمواتِ وَ الأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ـــــــــــــــ

۱ . سورة النمل: الآية ۳۱ .

۲ . سورة القصص: الآية ۴ .

۳ . سورة الدخان: الآية ۱۹ .

۴ . سورة طه: الآية ۶۸ .

۵ . سورة الرعد: الآية ۲ .

۶ . سورة الأعراف: الآية ۵۴ .

۷ . سـورة يونس: الآيـة ۳ . (۱۳۳) فى سِتَّةِ أيّام، ثُمّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرّحمنُ فَسْئلْ بِهِ خَبيراً)(۱) وقال سـبحانه: (اللّهُ الّذى خَلَقَ السّمواتِ وَ الأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فى سِتَّةِ أيّام ثُمّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لاَ شَفيع أفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ)(۲) وقال سبحانه: (هُوَ الّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرْضَ فِى سِتَّةِ أيّام ثُمّ استَوى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْها وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها)(۳) .

والناظر فى هـذه الآيات يرى أنّه سـبحانه عنـدما يذكر اسـتواءه على العرش يذكر آثار قدرته وعظمته من خلق السـماوات والأرض فى ستـة أيام، وتـدبيره الأمر «يـدبّر الأمر»، وأنّه لا مؤثّر ولا موجـد إلّا بإذنه «ما من شـفيع إلّا من بعـد إذنه»، ومن علمه الوسـيع بما يلج فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السـماء وما يعرج فيها. كلّ ذلك يعرب عن أنّ الآيـة فى جميع الموارد تهـدف إلى علوّه سـبحانه على عالم الوجود الإمكانى، وأنّه بجملته فى سـلطانه وقـدرته، ولا يخرج شـىء من حيطـة قـدرته، وأين هذا من تفسـيره بالجلوس على العرش فوق السماوات ناظراً إلى ما دونه.(تَعَالَى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً). ولو تتّبع المعاصرون المنتمون إلى السلف يجدون خير السلف كالطبرى(۴) يفسـر «الواسـع» فى قوله: (واللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم)(۵) ويقول: واللّه واسع الفضـل، جواد بعطايـاه، فزوّجوا إماءكم فإنّ اللّه واسع يوسع عليهم من فضـله إن كانوا فقراء، كما أنّ الشـيخ البخارى يفسر الوجه فى قوله: (كُلُّ شَىء هَالِكٌ إلّا وَجْهَهُ) بالملك(۶) . * * *

---

۱ . سورة الفرقان: الآية ۵۹ .

۲ . سورة السجدة: الآية ۴ .

۳ . سورة الحديد: الآية ۴ .

۴ . تفسير الطبرى ج ۱۸ ص ۹۸ .

۵ . سورة النور: الآیة ۳۲ .

۶ . صحیح البخاری ج ۶ ص ۱۱۲، تفسیر سورة القصص، الآیة ۸۸ . (۱۳۴) الخامس:إنّ الفرقة المشبهة لیست ولیدة عصرنا هذا، بل لها عرق ممتدّ إلی زمن التابعین، الّذی کثرت فیه مسلمة الیهود والنصاری، فأدخلوا فی الأحادیث ما یروقهم من العقائد، فتأثر بهم السذّج من المسلمین والمحدثین، فأولئک هم المعروفون بالحشویة نسبة إلی الحشو (بسکون الشین) وهو اللغو الّذی لا اعتبار له، فضلا عن أن یکون منسوباً إلی اللّه ورسوله، أو مذهباً یدان اللّه به، وما زال أهل الحق لهم بالمرصاد.

وقد کان القول بالتجسیم والتشبیه ردّ فعل لما کان علیه علیّ ـ علیه السَّلام ـ وأولاده من الدعوة إلی التنزیه، والاجتناب عن التشبیه، فی مجال الحق وذاته وصفاته، نعم حکی عن الإمام أبی حنیفة أنه قال: «أتانا من المشرق رأیان خبیثان، جهم معطّل ومقاتل مشبّه، فأفرط جهم فی النفی (نفی الصفات الجسمانیة) حتّی قال: «وإنّ اللّه لیس بشیء» وافرط مقاتل فی الإثبات، حتّی جعل اللّه تعالی مثل خلقه»(۱) . ولکن الإمام أبا حنیفة تسامح فی نسبة التجسیم إلی مقاتل، بل لها جذور فی الأحادیث المرویة فی الصحاح والمسانید التی دسها مسلمة الیهود والنصاری فی الأحادیث، وکثیر من المحدثین راقتهم تلک الأحادیث، وبما أنّ علیّاً وابناء بیته الطاهر کانوا علی التنزیه، وهذه خُطَبهُ الرفیعة الرائعة فی تنزیه الحق، حاولت السلطة الأمویة أنْ تُروّج کل حدیث یتضمّن ضدّ ما کان علیه علیّ، ویُحترم کل محدث یجنح إلی بثّ هذه الخرافات . السادس: إنّ أتباع ابن تیمیة ومن کان علی ذاک الخطّ قبله من الحشویة، یفرّون من الاستدلال والبرهنة وعلم الکلام والمناظرة، ویحرّمون الاستماع إلی البراهین العقلیة والمجادلة بالتی هی أحسن، ولکنّه من تمویهاتهم الّتی یریدون بها دعم مبادئهم وصیانتها عن النقد والإشکال، وکأنهم لم یسمعوا قول اللّه سبحانه: (...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَکُم إنْ کُنتُم صَادِقِین)(۲) أو قوله سبحانه: ـــــــــــــــــــــــ

۱ . تهذیب التهذیب ج ۱۰ ص ۲۸۱ ترجمة مقاتل .

۲ . سورة البقرة: الآیة ۱۱۱ . (۱۳۵) (الّذین یَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أحْسَنَه...)(۱) أو قوله سبحانه: (ادعُ إلی سَبِیلِ رَبِّکَ بَالْحِکْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتی هِیَ أحسنُ)(۲).

والکل یهدف إلی أنّ المسلم الواعی إنّما یتّبع البرهان ولا یعرض عنه، ولا یعطّل عقله حتّی یمیّز الأحسن عن غیره، ویجادل المخالف بالبرهان والدلیل. نعم لو أُرید من علم الکلام، المراء والجدال وکسب العظمة والمقام، فلا ـ شک أنّه مرغوب عنه . نعم، لیس لهم هدف من تحریم البحث والنظر إلاّ الستر لعوار بدعهم، وعقائدهم الباطلة، ولا یجحد النظر فی العقائد إلاّ أحد رجلین: رجل غبیّ یشق علیه سلوک أهل التحصیل والناس أعداء ما جهلوا، ورجل یعتقد بمذاهب فاسدة یخاف من ظهور عوار مذهبه وفضائح عقیدته . هذا قلیل مما ذکره ابن تیمیة وأتباعه فی الصفات الخبریة، ولو أردنا أن نستقصی کلمات الرجل فی المقام لطال بنا الکلام، ولنکتف بهذا المقدار، وقد عرفت الحق، والحق أحق أن یتّبع . ـــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الزمر: الآیة ۱۸ .

۲ . سورة النحل: الآیة ۱۲۵ . (۱۳۶)

ابن تیمیة وشد الرحال إلی زیارة النبی ـ صلَّی الله

ابن تیمیة وشد الرحال إلی زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ

ذهب ابن تیمیة إلی أنّ شد الرحال إلی زیارة قبر رجل صالح حرام، وقال: ثبت فی الصحیحین عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أنّه قال: «لا تشدّ الرحال إلا إلی ثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصی، ومسجدی هذا» ثم قال: ولو نذر السفر إلی قبر الخلیل ـ علیه السَّلام ـ أو قبر النبی لم یجب الوفاء بهذا النذر بإتفاق الأئمة الأربعة، فإنّ السفر إلی هذه المواضع منهّی عنه لنهی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «لا تشد الرحال إلاّ إلی ثلاثة مساجد...» فإذا کانت المساجد الّتی هی من بیوت اللّه، الّتی أمر فیها بالصلوات الخمس،

قد نهى عن السفر إليها، فإذا كان مثل هذا ينهى عن السفر إليه، فما ظنك بغيرها؟ فقد رخص بعض المتأخرين فى السفر إلى المشاهد ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعية ـ إلى أن قال ـ: وكل حديث يروى فى زيارة قبر النبى فإنه ضعيف، بل موضوع، ولم يرو أهل الصحاح والسنن والمسانيد، كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً، ولكن الّذى فى السنن ما رواه أبو داود عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: «ما من رجل يسلّم علىّ إلاّ ردّ اللّه علىّ روحى حتّى أرد عليه السلام، فهو يردّ السلام على من سلم عليه عند قبره ويبلغ [إليه] سلام من سلم عليه من البعيد، كما فى النسائى عنه أنّه قال: «إنّ اللّه وكل بقبرى ملائكة يبلغون لأمتى السلام» وفى السنن عنه أنه قال: «أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة (۱۳۷)

وليلة الجمعة، فإن صلاتكم معروضة علىّ(۱) . أقول: إن هنا مسألتين: الأولى: شد الرحال إلى زيارة الأنبياء والصالحين . الثانية: حكم زيارة قبر الصلحاء والأنبياء والنبى الأعظم، وإن لم يكن هناك شد للرحال، ونحن ندرس كلتا المسألتين فى ضوء الكتاب والسنة، فنقول:

أفتى ابن تيمية بتحريم شدّ الرحال إلى زيارة الصلحاء والأنبياء والأئمة مستدلا بما ورد من النهى من شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، والاستدلال بهذا يتوقف على الإمعان فى سند الحديث ودلالته، فنقول: روى الحديث بصور ثلاث، والّذى يصحّ الإستدلال به إنّما هو الصورة الأولى والثانية لا ـ الثالثة، وإليك البيان: ۱- لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى. ۲- إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدى، ومسجد إيلياء. ۳- تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد(۲). فلو قلنا بأنّ لفظة «إنما» تفيد الحصر، تكون الصورة الثانية مثل الصورة الأُولى فى إفادة الحصر، وإلاّ فينحصر الاستدلال بالصورة الأُولى، فلنفترض أنّ الحديث ورد على نمط الصورتين الأُوليين، فنقول: إنّ الاستثناء ________________

۱ . مجموعة الرسائل الكبرى ج ۲ ص ۵۷ ـ ۶۵ الرسالة الثالثة فى زيارة بيت المقدس .

۲ . أورد مسلم هذه الأحاديث فى صحيحه ج ۴ ص ۱۲۶، كتاب الحج باب (لا تشد الرحال) وذكره أبو داود فى سننه ج ۱ ص ۴۶۹ كتاب الحج، وكذلك النسائى فى سننه المطبوع مع شرح السيوطى ج ۳ ص ۳۷ و ۳۸ وقد ذكر السبكى صوراً أُخرى للحديث هى أضعف دلالة على مقصود المستدل، لاحظ شفاء السقام ص ۹۸ . (۱۳۸)

لا ـ يستغنى عن وجود المستثنى منه، وحيث لم يذكر فى كلامه، فيلزم تقديره وهو أحد الأمرين: أ ـ لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد إلاّ إلى ثلاثة . ب ـ لا تشد الرحال إلى مكان من الأمكنة إلاّ إلى ثلاثة مساجد . أمّا الأول فيجب علينا ملاحظة الأمور التالية: الأول: إنّ الحديث لو دلّ على شىء فإنما يدلّ على النهى عن شدّ الرحال إلى مسجد سوى المساجد الثلاثة، وأمّا شد الرحال إلى الأماكن الأُخرى فالحديث ساكت عنه، غير متعرّض لشىء من أحكامه، بل النفى والإثبات يتوجّهان إلى المسجد، فالمساجد ينهى عن شد الرحال إليها غير المساجد الثلاثة، والاستدلال به على حكم شد الرحال إلى المنتزهات و المراكز العلمية أو الصناعية أو مقابر الأولياء والشهداء أو الصديقين والصلحاء فهو ساكت عنه، ومن العجيب أن نستدل به على تحريم شد الرحال إليها . الثانى: إنّ النهى عن شد الرحال إلى غير هذه المساجد لا يعنى تحريمه بل يعنى نفى الفضيلة فيه، وذلك لأنّ المساجد سوى الثلاثة، لمّا كانت متساوية فى الفضيلة والثواب فلا ملزم لتحمّل العبء بشد الرحال إليها، فالمساجد الجامعة متساوية فى الفضيلة فى عامة البلاد، فلا وجه لشد الرحال إلى مسجد لإقامة الصلاة فيه، ولكنّه إذا شدّ الرحال بقصد الصلاة فيه والعبادة لربّه، لا يعد عمله محرماً، بل غاية الأمر لا يترتب عليه ثواب خاص .

وبذلك يتبين بطلان ما ذكره ابن تيمية من الاستدلال بالأولوية بأنّه إذا حرم شد الرحال إلى غير هذه الثلاثة مع أنه من بيوت اللّه الّتى أمر فيها بالصلوات الخمس يكون شد الرحال إلى زيارة القبور حراماً بطريق أولى، إذ ليست ساحة القبور مراكز للعبادة، فهى أقل درجة من سائر المساجد . وجه الضعف أنّ الإستدلال مبنى على أنّ التحريم تحريم مولوى تعبدى، وأما على ما استظهرناه من أن النهى إرشادى إلى أنه لا ـ وجه لتحمل العبء فى هذا الطريق، لتساوى المساجد فى الفضيلة والكرامة، فلا وجه للإستدلال، لترتب

الثواب على زيارة القبور . (۱۳۹) الثالث: إنّ الحديث نص أو ظاهر فى الحصر، مع أنّه ورد فى الصحيح أنّ النبى كان يأتى مسجد قبا راكباً وماشياً يصلّى فيه(۱) فكيف يجتمع هذا العمل مع هذا الحصر، ولسان الحديث لسان الإباء عن التخصيص؟ فلا يصحّ لنا أن نقول إنّ النهى خصّص بعمل النبى، وهذا ربما يكشف عن كون الحديث غير صحيح من رأس، أو أنّه نقل محرّفاً، خصوصاً أنّه نقل عن طريق أبى هريرة، والاستدلال بمتفرداته أمر مشكل، وقد تنبّه ابن تيمية لهذا الإشكال فحاول أن يرفع التناقض بين الحصر، فقال: «إنّه يستحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إلى مسجد قبا» ولكنّه لا يرفع الإشكال، فإنّ الكلام فى تخصيص النص الدال على الحصر، وأنّه لا يشد إلى غيره أبداً، سواء المقيم والمسافر.

هذا كله على فرض كون المستثنى منه هو المسجد، وقد عرفت كونه أجنبياً عن السفر إلى غير المساجد، وبما أنّ المستثنى منه هو المسجد فالمناسب هو كون المستثنى من هذا القبيل . وأمّا على التقدير الثانى وهو تقدير الأماكن وما يقاربه ويعادله، فلازم ذلك أن تكون كافة الأسفار محرّمة غير السفر إلى المساجد الثلاثة، وهل يلتزم بذلك مسلم، وهل يفتى به أحد؟ كيف ولو كان الحديث بصدد منع كافة الأسفار المعنوية، فكيف كان النبى والمسلمون يشدّون الرحال فى موسم الحج إلى عرفات والمشعر ومنى، وهذا دليل على أنّ المستثنى منه هو المساجد لا ـ الأماكن . أضف إلى ذلك أنّ الذكر الحكيم والأحاديث الصحيحة حثّا على السفر إلى طلب العلم، والجهاد فى سبيل اللّه، وصلة الرحم، وزيارة الوالدين، قال سبحانه: (فَلَوْلاَ ـ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَة مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينَ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُونَ)(۲) . ______________

۱ . صحيح مسلم ج ۴ ص ۱۲۷ وصحيح البخارى ج ۲ ص ۱۷۶ السنن للنسائى، المطبوع مع شرح السيوطى ج ۲ ص ۱۲۷ .

۲ . سورة التوبة: الآية ۱۲۲ . (۱۴۰)

مضافاً إلى ما ورد فى السفر لطلب الرزق، فلو كان الحكم عاماً، فما معنى هذه التخصيصات الكثيرة الوافرة الّتى تنافى البلاغة، والّتى تزلزل الحصر، وهناك كلمة قيّمة للغزالى فى إحياء العلوم يقول: «القسم الثانى هو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحج أو جهاد.. ويدخل فى جملة زيارة قبور الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته، يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا والمسجد الحرام و المسجد الأقصى» لان ذلك فى المساجد، فإنّها متماثلة (فى الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلّا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء فى أصل الفضل، وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند اللّه(۱) . تحليل آخر للنهى عن السفر

ولنفترض أنّ المستثنى منه هو الأمكنة، ولكن المتبادر من الحديث أن يكون الدافع إلى السفر هو تعظيم ذلك المكان، فيختص النهى بما إذا أُريد من شد الرحال إلى مكان، تعظيمه ولو بإيقاع العبادة فيه، وعندئذ يخرج السفر إلى زيارة النبى عن منطوق الحديث، لأنّه لا يسافر لتعظيم بقعته، وإنما يسافر لزيارة من فيها مثل ما لو كان حياً. ويؤيد ذلك أمران: ۱- روى عن بعض التابعين أنّه سأل ابن عمر أنّه يريد أن يأتى الطور، فأجابه: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد... ودع الطور فلا تأته(۲) . ۲- أفتى الجمهور بأنّه لو نذر أن يأتى مسجداً من المساجد سوى الثلاثة ______________

۱ . كتاب إحياء علوم الدين للغزالى ج ۲ ص ۲۴۷، كتاب آداب السفر، طبعة دار المعرفة بيروت .

۲ . الفتاوى الكبرى ج ۲ ص ۲۴ . (۱۴۱)

فلا ينعقد النذر، فإنّه ليس فى قصد مسجد بعينه غير الثلاثة قربة مقصودة، وما لا يكون قربة ولا عبادة فهو غير ملزم بالنذر . كل ذلك يحدد مصب الحديث وهدفه، وأنّ المقصود هو المنع عن تعظيم مكان تشد الرحال إليه، وأمّا إذا كانت الغاية تعظيم من عظّمه اللّه سبحانه وأكرمه ورزقه فضلا كبيراً ـ كما قال -: (وَ كانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)(۱)، فهو خارج عن مورد الحديث . ومع ذلك فإنّ النهى عن شد الرحال إلى مكان خاص ليس لغاية تحريمه، وإنما هو إرشاد إلى نفى الفضيلة. قال ابن قدامة الحنبلى: «إن سافر لزيارة

القبور والمشاهد فقال ابن عقيل لا يباح له الترخص لأنه منهى عن السفر إليها، قال النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : لا تشد الرحال إلاّ ـ إلى ثلاثة مساجد، والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأنّ النبى كان يأتى قبا ماشياً وراكباً، وكان يزور القبور، وقال: زوروها تذكركم الآخرة، وأمّا قوله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، فيحمل على نفى الفضيلة، لا على التحريم، فليست الفضيلة شرطاً فى إباحة القصر ولا يضر انتفاؤها(۲) . هذا كله حول الحديث وتحديد مضمونه، وقد عرفت أنّ شد الرحال إلى زيارة النبى خارج عن موضوع الحديث على كلا التقديرين، فالاستدلال به على التحريم باطل جداً . الدليل على جواز السفر إلى زيارة القبور

ثم إنّ هنا سؤالا يثار فى المقام، وهو أنّ الحديث وإن كان قاصراً عن إثبات التحريم، ولكن ما هو الدليل على جواز السفر لزيارة قبر النبى أو سائر ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة النساء: الآية ۱۱۳ .

۲ . المغنى لابن قدامة المتوفى سنة ۶۲۰، ج ۲ ص ۲۱۷ ـ ۲۱۸، وذكر فى ج ۳ ص ۴۹۸ استحباب الزيارة، وكيفية زيارة النبى فلاحظ، وما نقله عن ابن عقيل غير ثابت، لأنّ السبكى نقل عنه خلافه، لاحظ شفاء السقام ص ۱۱۳ . (۱۴۲)

القبور، خصوصاً إذا كان السفر دينياً ومنسوباً إلى الشرع، فإنّ الإفتاء بجوازه بما أنّه عمل يؤتى به لأجل كونه أمراً دينياً يحتاج إلى الدليل، وإلى الجواب: يدل على جواز السفر لفيف من الدلائل، وإليك بيانها: الأول: ما ورد من الحث على زيارة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وستوافيك نصوصها فإنّها بين صريح فى جواز السفر أو مطلق يعم المقيم والمسافر، فقول النبى وفعله حجتان، أمّا قوله: فقد روى عن عبداللّه بن عمر أنّه قال: قال النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : من جاءنى زائراً لا تعمله (تحمله) إلاّ زيارتى كان حقاً علىّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة. روى أيضاً عن عبداللّه بن عمر عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ أنّه قال: من حجّ فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى . والثانى صريح فى جواز السفر، والأول مطلق يعم المسافر والمقيم فى المدينة، وستوافيك هذه النصوص عن أعلام المحدثين . وأمّا فعله، فقد روى عن طلحة بن عبداللّه قال: خرجنا مع رسول اللّه يريد قبور الشهداء ـ إلى أن قال ـ : فلمّا جئنا قبور الشهدا، قال: هذه قبور إخواننا(۱) . الثانى: الإجماع، لإطباق السلف والخلف، لأنّ الناس لم يزالوا فى كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ، وإن منهم من يفعل ذلك قبل الحج، قال السبكى: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من ـــــــــــــــــــ

۱ . أخرجه أبو داود فى سننه ج ۱ ص ۳۱۱، والبيهقى فى السنن الكبرى ج ۵ ص ۲۴۹ والمراد من الشهداء شهداء أحد، كما هو مورد الحديث . (۱۴۳)

مشارق الارض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم، يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى اللّه عزّوجلّ، ومن تأخر فإنّما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه، وودّ لو تيسّر له، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمع على خطأ فهو المخطىء . وما ربما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أُخرى وهى الصلاة فى المسجد، باطل جداً. فإنّ المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة فى أمر البديهة، فمن عرف الناس أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلاّ ببال قليل منهم، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسّر إتيانه، وإن كان فى الصلاة فيه من الفضل ما قد عرفت، فالمقصود الأعظم فى المدينة، كما أنّ المقصود الأعظم فى مكة، الحج أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شك فى نفسه فليسأل كل من توجّه إلى المدينة ما قصد بذلك(۱) . الثالث: إنّه إذا كانت الزيارة قربة وأمراً مستحباً على الوجه العام والخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد، فيجوز قطعاً. الرابع: ما نقله المؤرخّون عن بعض الصحابة والتابعين .

۱- قال ابن عساكر فى ترجمة بلال: إنّ بلالا رأى فى منامه رسول اللّه وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، اما آن لك أن تزورنى يا بلال؟ فانتبه حزيناً، وجلا، خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين - رضى اللّه عنهما ـ فجعل يضمّهما ويقبّلهما، فقالا له: نشتهى نسمع أذانك الّذى كنت تؤذن به لرسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ففعل، فعلا ـ سطح المسجد، فوقف موقفه الّذى كان يقف فيه، فلمّا أن قال: «اللّه أكبر، اللّه أكبر» ارتجّت المدينة، فلمّا أن قال: «أشهد أن لا ـ إله إلاّ ـ اللّه»، ازدادت رجّتها، فلمّا أن قال: «أشهد أنّ محمداً رسول اللّه» خرجت العواتق من ________________

۱ . شفاء السقام، فى زيارة خير الأنام لتقى الدين السبكى ص ۸۵ ـ ۸۶ ط بولاق مصر . (۱۴۴)

خدورهن فقالوا: أبعث رسول اللّه؟ فما رئى يوماً أكبر باكياً بالمدينة بعد رسول اللّه من ذلك اليوم(۱) . ۲- إنّ عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرىء النبى السلام، ثم يرجع، قال السبكى: إنّ سفر بلال فى زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبدالعزيز فى زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة لم يكن إلاّ للزيارة والسلام على النبى، ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك من أمر الدنيا، ولا من أمر الدين، ولا من قصد المسجد، ولا غيره . ۳- إنّ عمر لمّا صالح أهل بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم، وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معى إلى المدينة وتزور قبر النبى وتتمتّع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد، سلم على رسول اللّه(۲) . ۴- ذكر ابن عساكر فى تاريخه وابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن بأسانيدهما إلى محمد بن حرب الهلالى قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وزرته وسلمت بحذائه، فجاءه أعرابى فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إنّ اللّه أنزل إليك كتاباً صادقاً قال فيه: (وَلَوْ أَنّهمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرَوا اللهَ واستَغفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللّه تَوّاباً رَحيماً) وإنّى جئتك مستغفراً ربك من ذنوبى، مستشفعاً فيها بك إلى ربى، ثم بكى وأنشأ يقول: يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسى الفداء لقبر ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكم وقد ذيّله أبو الطيب أحمد بن عبدالعزيز بأبيات وقال: وفيه شمس التقى والدين قد غربت من بعد ما أشرقت من نورها الظلم ________________

۱ . شفاء السقام ص ۴۴ ـ ۴۷ وقد نقله من مصادر كثيرة، قال: وذكره الحافظ أبو محمد عبدالغنى المقدسى فى «الكمال فى ترجمة بلال».

۲ . المصدر نفسه . (۱۴۵)

حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت فى الشرق والغرب من أنواره الأُمم(۱) وبذلك تعرف قيمة ما ذكره ابن تيمية حول السفر إلى المشاهد وقال: وقد رخّص بعض المتأخرين فى السفر إلى المشاهد، ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجّوا بحجّة شرعية(۲) . وبما أنّك تعرّفت على الحجج الشرعية على الجواز، هلمّ معى ندرس نصوص الأعلام من علماء الإسلام لنعرف موقف ابن تيمية فى التثبت والأمانة، وإليك نصوصهم حول السفر للزيارة نقتطف موضع الحاجة من كلماتهم: نصوص الأعلام على جواز السفر لزيارة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ

لعل القارىء يتصوّر أنّ لما ذكره ابن تيمية من عدم الإفتاء بجواز السفر، مسحة من الحق والصدق، ولكنّه إذا أمعن النظر فيما وصل إلينا من فتاواهم، يقف على أنّ الحق على ضد ما نسب إليهم، وإليك البيان: ۱- قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملى الشافعى المتوفّى سنة (۴۲۵ هـ) فى «التجريد»: ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبى . ۲- وقال أبو الحسن الماوردى المتوفّى سنة (۴۵۰ هـ)، فى الأحكام السلطانية، ص ۱۰۵: «فإذا عاد (ولى الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول اللّه، ليجمع لهم بين حج بيت اللّه عزّوجلّ وزيارة قبر رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ، رعاية لحرمته، وقياماً بحقوق طاعته(۳) . ۳- وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادى الحنبلى المتوفّى سنة (۵۱۰ هـ) فى كتاب الهداية: «فإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر

النبی وقبر صاحبیه». ۴- قال القاضی عیاض المالکی،المتوفّی سنة (۵۴۴ هـ) فی «الشفاء»، نقلا ــــــــــــــــــــ

۱ . شفاء السقام ص ۵۲ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . مجموعة الرسائل الکبری ج ۲ ص ۶۰ . (۱۴۶)

عن إسحاق بن إبراهیم الفقیه: «ممّا لم یزل من شأن من حج، المزور(۱) بالمدینة والقصد إلی الصلاة فی مسجد رسول اللّه، والتبرک برؤیة روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس یدیه، ومواطن قدمیه، والعمود الّذی استند إلیه، ومنزل جبرئیل بالوحی فیه علیه، ومن عمره وقصده من الصحابة وائمة المسلمین . ۵- قال أبو محمد عبدالکریم بن عطاء اللّه المالکی المتوفی سنة (۶۱۲ هـ) فی مناسکه: فصل: إذا کمل لک حجک وعمرتک علی الوجه المشروع، لم یبق بعد ذلک إلاّ إتیان مسجد رسول اللّه للسلام علی النبی والدعاء عنده، والسلام علی صاحبیه، والوصول إلی البقیع وزیارة ما فیه من قبور الصحابة والتابعین . ۶- وقال نجم الدین بن حمدان الحنبلی المتوفی سنة (۵۹۵ هـ) فی الرعایة الکبری فی الفنون الحنبلیة: «ویسن لمن فرغ من نسکه، زیارة قبر النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وقبر صاحبیه، وله بعد فراغ حجه، وإن شاء قبل فراغه» . ۷- قال القاضی الحسین: «إذا فرغ من الحج... ثم یأتی المدینة ویزور قبر النبی» . ۸- قال الإمام ابن الحاج محمد بن محمد العبدری القیروانی المالکی، المتوفی سنة (۷۳۷ هـ) فی (المدخل) فی فصل زیارة القبور (۱: ۲۵۷): وأمّا عظیم جناب الأنبیاء والرسل ـ صلوات اللّه وسلامه علیهم أجمعین ـ فیأتی إلیهم الزائر، ویتعیّن علیه قصدهم من الأماکن البعیدة. ۹- قال الشیخ تقی الدین السبکی الشافعی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شفاء السقام فی زیارة خیر الأنام»: «ومن روی عنه السفر إلی زیارة النبی، بلال بن أبی رباح» ثم ذکر قصته. لاحظ الباب الثالث من کتاب شفاء السقام فقد عقده فی ما ورد فی السفر إلی زیارته . ۱۰- ذکر شیخ الإسلام أبو یحیی زکریا الأنصاری الشافعی المتوفی ــــــــــــــــــــ

۱ . مصدر میمی بمعنی الزیارة . (۱۴۷)

سنة (۹۲۵ هـ) فی «أسنی المطالب» (۱/۵۰۱) «فیما یستحب لمن حج»: ثم یزور قبر النبی ویسلم علیه وعلی صاحبیه بالمدینة المشرفة.. ۱۱- أفتی الشیخ محمد بن الخطیب الشربینی المتوفی سنة (۹۷۷ هـ) فی مغنی المحتاج (۱/۳۵۷) باستحباب زیارة النبی مطلقاً، وأنّ تخصیص بعض باستحبابه بعد الفراغ عن الحج لأجل التأکید، وأنّه یتأکد للحاج أکثر من غیره . ۱۲- وقال الشیخ زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سنة (۱۰۳۱ هـ) فی شرح الجامع الصغیر، ج ۶ ص ۱۴۰: وزیارة القبر الشریف من کمالات الحج . ۱۳- عقد الشیخ حسن بن عمار الشرنبلالی فی «مراقی الفلاح بإمداد الفتاح» فصلا فی زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وقال: زیارة النبی من أفضل القربات فإنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ حرض علیها وبالغ فی الندب إلیها فقال: من وجد سعة فلم یزرنی فقد جفانی . ۱۴- وقال القاضی شهاب الدین الخفاجی الحنفی المصری المتوفی سنة (۱۰۶۲ هـ) فی شرح الشفاء (۳/۵۶۶) واعلم أنّ هذا الحدیث «لا تشدّ الرحال إلاّ إلی ثلاثة مساجد...» هو الّذی دعا ابن تیمیة ومن معه کابن القیم إلی مقالته الشنیعة الّتی کفّروه بها، وصنّف فیها السبکی مصنفاً مستقلا وهی منعه من زیارة قبر النبی وشد الرحال إلیه، وهو کما قیل: لمهبط الوحی حقاً ترحل النجب * وعند ذاک المرجّی ینتهی الطلب فتوهمّ أنّه حمی جانب التوحید بخرافات لا ینبغی ذکرها. ۱۵- قال الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۸۷ هـ) فی مجمع الأنهر فی شرح ملتقی الأبحر (۱/۱۵۷): «من أحسن المندوبات، بل یقرب من درجة الواجبات زیارة قبر نبینا وسیدنا محمد، وقد حرض ـ علیه السّلام ـ علی زیارته وبالغ فی الندب إلیها، ثم قال: فإن کان الحج فرضاً فالأحسن أن یبدأ به إذا لم یقع فی طریق الحاج المدینة المنورة، ثم یثنی بالزیارة. (۱۴۸)

۱۶- قال أبو الحسن السندی محمد بن عبدالهادی الحنفی المتوفی سنة (۱۱۳۸هـ) فی شرح سنن ابن ماجة ج ۲ ص ۲۶۸ قال الدمیری: فائدة: زیارة النبی من أفضل الطاعات وأعظم القربات، لقوله من جاءنی زائراً لا تحمله حاجة إلاّ زیارتی کان حقاً علیّ أن أکون له شفیعاً یوم القیامة . ۱۷- قال الشیخ إبراهیم الباجوری الشافعی المتوفی سنة (۱۲۷۷ هـ) فی حاشیته علی شرح ابن الغزی علی متن الشیخ

أبی شجاع فی الفقه الشافعی، (۱/۳۴۷): ویسن زیارة قبره ولو لغیر حاج ومعتمر کالـذی قبله، ویسن لمن قصد المدینة الشریفة لزیارته أن یکثر من الصلاة والسلام علیه فی طریقه . ۱۸- قال الشیخ عبدالمعطی السقاء فی الإرشادات السنیة ص ۲۶۰: زیارة النبی إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مکة ـ أدام اللّه تشریفها وتعظیمها ـ طلب منه أن یتوجّه إلی المدینة المنورة للفوز بزیارته علیه الصلاة والسلام . ۱۹- وقال الشیخ محمد زاهد الکوثری فی تکملة السیف الصقیل ص ۱۵۶ : ولم یخف ابن تیمیة من اللّه فی روایة عدّ السفر لزیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ سفر معصیة لا تقصر فیه الصلاة عن الإمام ابن الوفاء ابن عقیل الحنبلی ـ وحاشاه عن ذلک ـ راجع کتاب التذکرة له تجد فیه مبلغ عنایته بزیارة المصطفی والتوسل به، کما هو مذهب الحنابلة، ثم ذکر کلامه وفیه القول باستحباب قدوم المدینة وزیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وکیفیة زیارته(۱) . وهـذه النصوص تـدل علی أنّ شد الرحال إلی زیارة النبی الأکرم کان أمراً متسالماً علیه، وقـد شـذّ من حرّمه وسعی فی منع الناس من زیارته . ۲۰- ثم إنّ تقی الدین السبکی ذکر فروعاً فقهیة عن أئمة المذاهب، ________________

۱ . قـد أخـذنا هـذه النصوص برمتهـا من کتـاب الغـدیر للمحقق الأمینی من ج ۵ ص ۱۰۹ ـ ۱۲۵ وقـد نقـل أربعین کملـة عن أعلام المذاهب الأربعة حول زیارة النبی الأقدس، ونحن اقتطفنا منه ذلک، ویدل علی استحباب السفر فقط، وأما استحباب زیارته فسیوافیک فی فصل آخر . (۱۴۹)

تـدل علی محبوبیة شد الرحال إلیها من أرجاء الدنیا، فمن أراد فلیرجع إلیه(۱). وفیمـا ذکرنا من النصوص غنی، کما أنّ فیما ذکرنا من الحجج کفایة لمن أراد الحق وتجنب عن العصبیة، فحان حین البحث حول نظریته فی نفس الزیارة، وما أثار حولها من شبهات . * * * (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ افْتَرَی عَلَی اللّه کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بآیاتِهِ إنّهُ لاَ یُفْلِحُ الظّالِمُونَ)(۲) . ________________

۱ . شفاء السقام ص ۴۲ .

۲ . سورة الأنعام: الآیة ۲۱ .

ابن تیمیة ورأیه فی زیارة النبی ــ صلَّی الله علیه

ابن تیمیة ورأیه فی زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ

المعروف من ابن تیمیة وأبناء الوهابیة هو جواز زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وتحریم السفر إلیها، لکن ما نقلناه فی البحث الثانی ینـافی ذلـک، فـإنّ الظـاهر أنّه یحرّم أصـل الزیـارة وقـد عرفت أنّه قـال: کل حـدیث یروی فی زیارة قبر النبی فإنّه ضـعیف، بل موضوع، ولم یرو اهل الصحاح والسنن والمسانید کمسند أحمد وغیره من ذلک شیئاً(۱). وقال السبکی: قد یتوهم أنّ نزاع ابن تیمیة قاصر علی السفر للزیارة دون أصل الزیارة، ولیس کذلک، بل نزاعه فی الزیارة أیضاً کما سنذکره من الشبهتین وهما: ۱- کون الزیارة علی هـذا الوجه المخصوص بدعة . ۲- کون الزیارة من تعظیم غیر اللّه المفضی إلی الشرک . وما کان کـذلک، کان ممنوعاً، وعلی هاتین الشبهتین بنی کلامه، وقد نقل السبکی فتیاً بخط ابن تیمیة ولکن کلامه فیها مضطرب، ففی صدرها ما یشعر بمنع الزیارة مطلقاً، وفی ذیلها ما یقتضی أنّه إذا کانت الزیارة بمعنی السلام علیه والدعاء له، جازت، ویطابق ذلک ما نقلناه عن الرسالة الثالثة. والحاصل أنّه یقسم الزیارة إلی الزیارة البدعیة والزیارة الشرعیة فیجوّز ________________

۱ . مجموعة الرسائل الکبری ج ۲ ص ۶۵ الرسالة الثالثة . (۱۵۱)

الثانیـة ویقصـرها فی السـلام علی المیت والـدعاء له إن کـان مؤمناً، یقول: فالزیارة لقبر المؤمن، نبیاً کان أو غیر نبی من جنس الصلاة علی جنازته، یدعی له کما یدعی إذا صلی علی جنازته(۱). فاللازم البحث عن زیارة القبور أولا، وزیارة قبر النبی الأعظم بشخصه ثانیاً . * * * زیارة القبور فی السنة

لاـ شک أنّ زیارة القبور تنطوی علی آثار أخلاقیـة وتربویـة هامـة، لأنّ مشاهـدة هـذا الوادی الهادی ـ الّـذی یضم فی أعماقه مجموعة

كبيرة من الذين عاشوا فى هذا الحياة الدنيا ثم انتقلوا إلى الآخرة ـ تخفّف روح الطمع والحرص على الدنيا، ولربما يغيّر الإنسان سلوكه فى هذه الحياة، فيترك الجرائم والمنكرات، ويتوجّه إلى اللّه والآخرة . ولذا يقول الرسول الأعظم: ١- «زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»(٢) . ودل بعض الأحاديث على أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عن زيارة القبور فى أول الأمر، ولعل النهى كان لأجل أن الأموات يوم ذاك كانوا مشركين وعبدة للأصنام، فنهى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عن زيارة الأموات، ولمّا كثر الشهداء بين المسلمين وماتت مجموعة كبيرة من المسلمين فى المدينة وأطرافها، رخّص النبى بإذن من اللّه سبحانه وقال: ٢- «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة»(٣) . ________________

١ . شفاء السقام ص ١٠٧.

٢ . سنن ابن ماجة ج ١ ص ١١٣.

٣ . السنن لابن ماجة ج ١ ص ١١۴ طبعة الهند ـ باب ما جاء فى زيارة القبور، وصحيح الترمذى، أبواب الجنائز ج ٣ ص ٢٧۴ . (١۵٢)

٣- وروى مسلم فى صحيحه: «زار النبى قبر أُمّه فبكى وأبكى من حوله... وقال: استأذنت ربّى أن أزورَ قبرها فأذن لى، فزوروا القبور فإنّها تذكركم الموت»(١) . ۴- وقالت عائشة: «إنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ رخّص فى زيارة القبور»(٢) . ۵- وقالت: إنّ النبى قال: أمرنى ربى أن آتى البقيع فأستغفر لهم. قلت: كيف أقول يا رسول اللّه؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم اللّه المستقدمين منّا والمستأخرين، وإنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون(٣) . وجاء فى أحاديث أُخرى نص الكلمات الّتى كان رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يقولها عند زيارة القبور، وهى: ۶- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا وإياكم متواعدون غدا ومواكلون، وإنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد»(۴) . وجاء فى حديث آخر نص الكلمات بما يلى: ٧- «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم»(۵) . وفى حديث ثالث: ________________

١ . صحيح مسلم ج ٣ ص ۶۵ باب استئذان النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ربه عزّوجلّ فى زيارة قبر أُمه .

٢ . صحيح ابن ماجة ج ١ ص ١١۴ .

٣ . صحيح مسلم ج ٣ ص ۶۴، باب ما يقال عند دخول القبور، السنن للنسائى ج ٣ ص ٧۶.

۴ . السنن للنسائى ج ۴ ص ٧۶ ـ ٧٧ .

۵ . السنن النسائى ج ۴ ص ۵۶ ـ ٧٧ . (١۵٣)

٨- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون»(١) . ويستفاد من حديث عائشة أن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كان يخرج إلى البقيع فى آخر الليل من كل ليلة، ويقول: ٩- «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وآتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنّا إن شاء اللّه بكم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقيع الغرقد»(٢) . ويستفاد من حديث آخر أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كان يزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ويعلمهم كيفية الزيارة: ١٠- «كان رسول اللّه يعلمهم ـ إذا خرجوا إلى المقابر ـ فكان قائلهم يقول: السلام على أهل الديار ـ أو ـ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء اللّه لاحقون، أسأل اللّه لنا ولكم العافية»(٣) . النساء وزيارة القبور

ولعل هنا من يتوهم أن الزيارة تسوغ للرجال دون النساء، لما روى عن النبى: لعن رسول اللّه زوارات القبور(۴) . ويناقض هذا الحديث ما نقله مسلم فى صحيحه والنسائى فى سننه أنّ النبى زار البقيع مع حليلته عائشة، وعلّمها كيفية الزيارة كما مرّ فى الرقم (۵) من الروايات، ولأجل ذلك يجب أن يعالج هذا الحديث بشكل خاص وهو التفريق بين زائرات القبور وزواراتها، ولعل الثانى كان مقروناً بأُمور محرّمة كالتبرّج المنهى عنه، أو البكاء بما يقترن بالنوح المحرم، أو غير ذلك من الوجوه الّتى يمكن الجمع بها بين المتعارضين، وإلاّ فأىّ فرق بين الرجل والمرأة فى هذا الأمر حتّى تكون لأحدهما جائزة وللأُخرى محرّمة، لولا المحذورات الخاصة؟

۱ . السنن لأبى داود ج ۲ ص ۱۹۶ .

۲ . صحيح مسلم ج ۳ ص ۶۳ باب ما يقال عند القبور .

۳ . صحيح مسلم ج ۳ ص ۱۱، باب ما يقال عند دخول القبر .

۴ . صحيح ابن ماجة ج ۱ ص ۴۷۸، كتاب الجنائز الطبعة الأولى بمصر . (۱۵۴)

أضف إلى ذلك جريان السيرة بين المسلمين حتّى فى نفس عصر الصحابة والتابعين على زيارة السيدات لقبور أعزائها، فهذه السيدة فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ كانت تخرج إلى زيارة قبر عمها حمزة فى كل جمعة، أو أقلّ من ذلك، وكانت تصلّى عند قبره وتبكى(۱) . وهذه عائشة زوجة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ لما جاءت إلى مكة خرجت لزيارة قبر أخيها عبدالرحمن بن أبى بكر، وأنشدت بيتين من الشعر فى رثائه(۲) . هذا كله فى زيارة قبور المسلمين، وأمّا زيارة أوليائهم من النبى والأئمة والشهداء والصالحين فلا شك أنّ لزيارتهم نتائج بنّاءة، نشير إليها: إنّ زيارة مراقد هذه الشخصيات هو نوع من الشكر والتقدير لتضحياتهم، وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى والفضيلة، والدفاع عن المبدأ والعقيدة، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم وحدها، بل يدفعنا إلى إبقاء ذكرياتهم حيّة ساخنة، والمحافظة على آثارهم، وإقامة المهرجانات فى ذكرى مواليدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفيدة فى أيام رحلاتهم، وهذا شىء مما يدركه كل ذى مسكة، فلأجل ذلك نرى أنّ أبناء الأُمم الحية يتسابقون فى زيارة مدافن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحوا أنفسهم و أموالهم فى سبيل إحياء الشعب و اسقلاله، و نجاته من يد المستعمرين والظالمين، ويقيمون الذكريات المئوية لإحياء معالمهم وآثارهم وأسمائهم، ولا يخطر ببال أحد أنّ هذه الأُمور عبادة لهم، فأين التعظيم والتعزيز للشخصيات من عبادتهم؟ فإنّ التعظيم تقدير لجودهم، والعبادة رمز لألوهيتهم وربوبيتهم، فهل منّا من يخلط بين الأمرين؟ إذا وقفت على الآثار البنّاءة لزيارة مطلق القبور، وزيارة قبور الأولياء والصالحين، وتعرّفت على مجموعة من الروايات الحاثّة على زيارة قبور دار ـــــــــــــــــ

۱ . مستدرك الصحيحين للحاكم ج ۱ ص ۲۷۷ .

۲ . صحيح الترمذى ج ۴ ص ۲۷۵، كتاب الجنائز باب ما جاء فى زيارة القبور . (۱۵۵)

المؤمنين، فلنذكر خصوص ما ورد من الروايات الّتى فيها الحث على زيارة قبر النبى الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ . قد نقل قاضى القضاة تقى الدين أبو الحسن عبدالكافى السبكى ۱۵ حديثاً فى ذلك المجال وتكلم فى أسنادها و صحّح كثيراً منها (۱) . كما قام العلامة السمهودى المتوفّى سنة (۹۱۱ هـ) فى كتابه القيم (وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفى) بنقل روايات كثيرة فى ذلك المجال(۲) . كما أنّ فقهاء المذاهب الأربعة فى مصر العزيزة فى العصر الحاضر أفتوا بأن زيارة قبر النبى أفضل المندوبات. ورد فيها أحاديث. وقد اعتمدوا على رواية عبداللّه بن عمر عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أنه قال: (من زار قبرى وجبت له شفاعتى)(۳). وبما أنّ العلامة الأمينى قد تحمّل جهوداً جبارة فى جمع الأحاديث الواردة حول زيارة النبى الأكرم، والفحص عن مظانّها ومصادرها من أقدم العصور إلى عصرنا هذا، فنحن ـ تقديراً لجهوده الجبارة ومثابرته الجليلة فى هذا الطريق ـ ننقل عن تلك الموسوعة نفس الروايات ومصادرها. قال قدس سره: (۱)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من زار قبرى وجبت له شفاعتى». أخرجته أُمة من الحفاظ وأئمة الحديث، منهم: ۱- عبيد بن محمد أبو محمد الوراق النيسابورى المتوفى سنة (۲۵۵ هـ) . ۲- ابن أبى الدنيا أبو بكر عبدالله بن محمد القرشى المتوفى سنة (۲۸۱ هـ).

۱ . شفاء السقام فى زيارة خير الأنام، ص ۳ ـ ۳۴، الباب الأول: فى الأحاديث الواردة فى الزيارة .

۲ . وفاء الوفاء ج ۴ ص ۱۳۳۶ .

۳ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۵۰۵ . (۱۵۶)

۳- الدولابى أبو بشر محمد الرازى المتوفى سنة (۳۱۰ هـ) فى الكنى والأسماء ج ۲ ص ۶۴ . ۴- محمد بن إسحاق أبو بكر النيسابورى المتوفى سنة (۳۱۱ هـ) الشهير بابن خزيمة، أخرجه فى صحيحه . ۵- الحافظ محمد بن عمرو أبو جعفر العقيلى المتوفى سنة (۳۲۲ هـ) فى كتابه . ۶- القاضى المحاملى أبو عبداللّه الحسين البغدادى المتوفى سنة (۳۳۰ هـ) . ۷- الحافظ أبو أحمد بن عدى المتوفى سنة (۳۶۵ هـ) فى الكامل. ۸- الحافظ أبو الشيخ أبو محمد عبداللّه بن محمد الأنصارى المتوفى سنة (۳۶۹ هـ) . ۹- الحافظ أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى المتوفى سنة (۳۸۵ هـ) فى سننه . ۱۰- أقضى القضاة أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة (۴۵۰ هـ) فى «الأحكام السلطانية» ص ۱۰۵ . ۱۱- الحافظ أبوبكر البيهقى المتوفى سنة (۴۵۸ هـ) فى «السنن» وغيره . ۱۲- القاضى أبو الحسن على بن الحسن الخلعى الشافعى المتوفى سنة (۴۹۲ هـ) فى فوائده . ۱۳- الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل القرشى الإصبهانى المتوفى سنة (۵۳۵ هـ) . ۱۴- القاضى عياض المالكى المتوفى سنة (۵۴۴ هـ) فى «الشفاء» . ۱۵- الحافظ أبو القاسم على بن عساكر المتوفى سنة (۵۷۱ هـ)، فى تاريخه فى باب (من زار قبره ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وهذا الباب أسقطه المهذب من الكتاب فى طبعه، واللّه يعلم سر تحريفه هذا وما أضمرته سريرته . ۱۶- الحافظ أبو طاهر أحمد بن السلفى المتوفى سنة (۵۷۶ هـ) . ۱۷- أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الأندلسى المتوفى سنة (۱۵۷)

(۵۸۱ هـ) الأحكام الوسطى والصغرى(۱). ۱۸- الحافظ ابن الجوزى المتوفى سنة (۵۹۷ هـ) فى «مثير الغرام الساكن» . ۱۹- الحافظ على بن مفضل المقدسى الإسكندرانى المالكى المتوفى سنة (۶۱۱ هـ) . ۲۰- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقى المتوفى سنة (۶۴۸ هـ) . ۲۱- الحافظ أبو محمد عبدالعظيم المنذرى المتوفى سنة (۶۵۶ هـ). ۲۲- الحافظ أبو الحسين يحيى بن على القرشى الأموى المالكى المتوفى سنة (۶۶۲ هـ). فى كتابه «الدلائل المبينة فى فضائل المدينة». ۲۳- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمياطى المتوفى سنة (۷۰۵ هـ). ۲۴- الحافظ أبو الحسين هبة اللّه بن الحسن . ۲۵- أبو الحسن يحيى بن الحسن الحسينى فى كتاب «أخبار المدينة» . ۲۶- أبو عبداللّه محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى الشهير بابن الحاج المتوفى سنة (۷۳۷ هـ)، فى «المدخل» ج ۱ ص ۲۶۱ . ۲۷- تقى الدين على بن عبدالكافى السبكى الشافعى المتوفى سنة (۷۵۶ هـ)، بسط القول فى ذكر طرقه فى شفاء السقام، ص ۳ ـ ۱۲ وقال فى ص ۸: والرواة جميعهم إلى موسى بن هلال ثقاة لا ريبة فيهم، وموسى بن هلال، قال ابن عدى: أرجو أنه لا باس به، هو من مشايخ أحمد، وأحمد لم يكن يروى إلاّ عن ثقة، وقد صرح الخصم بذلك فى الرد على البكرى . ثم ذكر شواهد لقوة سنده فقال: وبذلك تبين أن اقل درجات هذا الحديث أن يكون حسناً إن نوزع فى دعوى صحته، إلى أن قال: وبهذا بل ـــــــــــــــــــــ

۱ . قال فى خطبة الأحكام الصغرى: أنه تخيرها صحيحة الأسناد معروفة عند النقاد، قد نقلها الإثبات وتداولها الثقاة، وقال فى خطبة الوسطى: إنَّ سكوته عن الحديث دليل على صحته... الخ راجع (شفاء السقام) ص ۹ . (۱۵۸)

بأقل منه يتبين افتراء من ادّعى أن جميع الأحاديث الواردة فى الزيارة موضوعة، فسبحان اللّه! أما الستحى من اللّه ومن رسوله فى هذه المقالة الّتى لم يسبقه إليها عالم ولا جاهل، لا من أهل الحديث ولا من غيرهم؟ ولا ذكر أحد موسى بن هلال ولا غيره من رواة حديثه هذا بالوضع، ولا اتهمه به فيما علمنا، فكيف يستجيز مسلم أن يطلق على كل الأحاديث الّتى هو واحد منها موضوعة، ولم ينقل إليه ذلك عن عالم قبله، ولا ظهر على هذا الحديث شىء من الأسباب المقتضية للمحدثين للحكم بالوضع، ولا حكم متنه بما يخالف الشريعة، فمن أى وجه يحكم بالوضع عليه لو كان ضعيفاً؟ فكيف وهو حسن وصحيح . ۲۸- الشيخ شعيب عبداللّه بن سعد المصرى، ثم المكى الشهير بالحريفيش المتوفى سنة (۸۰۱ هـ) فى «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۲۹- السيد نور الدين على بن عبداللّه الشافعى القاهرى السمهودى(۱) المتوفى سنة (۹۱۱ هـ) فى «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۴ . ۳۰- الحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطى المتوفى سنة (۹۱۱ هـ) فى «الجامع الكبير» كما فى ترتيبه: ج ۸ ص ۹۹ . ۳۱- الحافظ أبو العباس شهاب الدين القسطلانى(۲) المتوفى سنة (۹۲۳ هـ)، فى «المواهب اللدنية» من طريق الدارقطنى، وقال: رواه عبد الحق فى أحكامه الوسطى والصغرى وسكت عنه، وسكوته عن

الحدیث فیه دلیل علی صحته . ۳۲- الحافظ ابن الدیبغ أبو محمد الشیبانی المتوفی سنهٔ (۹۴۴ هـ)، فی «تمییز الطیب من الخبیث» ص ۱۶۲ . ۳۳- الشیخ شمس الدین محمد الخطیب الشربینی المتوفی سنهٔ (۹۷۷ هـ)، فی «المغنی» ج ۱ ص ۴۹۴ عن صحیح ابن خزیمهٔ . ۳۴- زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سنهٔ (۱۰۳۱ هـ)، فی «کنوز ______

۱ . السمهود قریهٔ کبیرهٔ غربی نیل مصر .

۲ . نسبهٔ إلی قسطلهٔ بلدهٔ بالأندلس . (۱۵۹)

الحقائق» ص ۱۴۱، وشرح الجامع الصغیر للسیوطی ج ۶ ص ۱۴۰ . ۳۵- الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنهٔ (۱۰۷۸ هـ)، فی «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷. ۳۶- أبو عبدالله محمد بن عبدالباقی الزرقانی المصری المالکی المتوفی سنهٔ (۱۱۲۲ هـ) فی «شرح المواهب» ج ۸ ص ۲۹۸ نقلا عن أبی الشیخ وابن أبی الدنیا . ۳۷- الشیخ إسماعیل بن محمد الجراحی العجلونیی المتوفی سنهٔ (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۰ نقلا عن أبی الشیخ، وابن أبی الدنیا، وابن خزیمهٔ. ۳۸- الشیخ محمد بن علی الشوکانی المتوفی سنهٔ (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ نقلا عن غیر واحد من أئمهٔ الحدیث . ۳۹- الشیخ محمد بن السید درویش الحوت البیرونی المتوفی سنهٔ (۱۲۷۶ هـ) فی «حسن الأثر» ص ۲۴۶ . ۴۰- السید محمد بن عبدالله الدمیاطی الشافعی المتوفی سنهٔ (۱۳۰۷ هـ)، فی «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . ۴۱- عدهٔ من فقهاء المذاهب الأربعهٔ فی مصر الیوم فی «الفقه علی المذاهب الأربعهٔ» ج ۱ ص ۵۹۰ (۲) .

عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «من جاءنی زائراً لا تعمله إلّا زیارتی، کان حقاً علی أن أکون له شفیعاً یوم القیامهٔ. وفی لفظ: لا تحمله إلّا زیارتی. وفی آخر: لم تنزعه حاجهٔ إلّا زیارتی وفی رابع: لا ینزعه إلّا زیارتی کان حقاً علی الله عزّوجلّ، وفی خامس للغزالی: لا یهمه إلاّ زیارتی أخرجه جمع من الحفاظ لا یستهان بهم وبعدتهم منهم: ۱- الحافظ أبو علی سعید بن عثمان السکن البغدادی المتوفی بمصر (۱۶۰)

سنهٔ (۳۵۳ هـ) فی کتابه «السن الصحاح» جعل فی آخر کتاب الحج (باب ثواب من زار قبر النبی) ولم یذکر فی الباب غیر هذا الحدیث. قال السبکی فی «شفاء السقام» ص ۱۶: وذلک منه حکم بأنه مجمع علی صحته بمقتضی الشرط الّذی شرطه فی الخطبهٔ، وابن السکن هذا إمام حافظ ثقهٔ کثیر الحدیث واسع الرحلهٔ... الخ . قال فی خطبهٔ کتابه: اما بعد: فإنک سألتنی أن أجمع لک ما صحّ عندی من السنن المأثورهٔ الّتی نقلها الأئمهٔ من أهل البلدان، الذین لا یطعن علیهم طاعن فیما نقلوه، فتدبرت ما سألتنی عنه فوجدت جماعهٔ من الأئمهٔ قد تکلفوا ما سالتنی من ذلک وقد وعیت جمع ما ذکروه، وحفظت عنهم أکثر ما نقوله، واقتدیت بهم، وأجبتک إلی ما سألتنی من ذلک، وجعلته أبواباً فی جمیع ما یحتاج إلیه من احکام المسلمین، فأول من نصب نفسه لطلب صحیح الآثار: البخاری وتابعه مسلم، وأبو داود، والنسائی وقد تصفحت ما ذکروه وتدبرت ما نقلوه فوجدتهم مجتهدین فیما طلبوه، فما ذکرته فی کتابی هذا مجملا فهو مما أجمعوا علی صحته، وما ذکرته بعد ذلک مما یختاره أحد من الأئمهٔ الذین سمیتهم، فقد بینت حجته فی قبول ما ذکره، ونسبته إلی اختیاره دون غیره، وما ذکرته مما یتفرد به أحد من أهل النقل للحدیث فقد بینت علته، ودللت علی انفراده دون غیره، وبالله التوفیق . ۲- الحافظ أبوالقاسم الطبرانی المتوفی سنهٔ (۳۶۰ هـ)، أخرجه فی معجمه الکبیر . ۳- الحافظ أبو بکر محمد بن إبراهیم المقری الإصبهانی المتوفی سنهٔ (۳۸۱ هـ)، فی معجمه . ۴- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سنهٔ (۳۸۵ هـ)، أخرجه فی أمالیه . ۵- الحافظ أبو نعیم الإصبهانی المتوفی سنهٔ (۴۰۲ هـ). ۶- القاضی أبو الحسن علی بن الحسن الخلعی الشافعی المتوفی سنهٔ (۴۹۲ هـ) صاحب «الفوائد» . (۱۶۱)

۷- حجهٔ الإسلام أبو حامد الغزالی الشافعی المتوفی سنهٔ (۵۰۵ هـ)، فی «إحیاء العلوم» ج ۱ ص ۲۴۶ . ۸- الحافظ ابن عساکر المتوفی سنهٔ (۵۷۱ هـ)، صاحب «تاریخ الشام» . ۹- الحافظ أبو الحجاج یوسف بن خلیل الدمشقی المتوفی سنهٔ (۶۴۸ هـ) . ۱۰- الحافظ یحیی بن علی القرشی الأموی المالکی المتوفی سنهٔ (۶۲۲ هـ) . ۱۱- الحافظ أبو علی الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد فی کتابه . ۱۲-

تقی الدين السبكی الشافعی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فصل القول فی طرق هـذا الحـديث، وأخرجه من طرق شتی وصححه فی «شفاء السقام» ص ۱۳ ـ ۱۶ . ۱۳- السيد نور الدين علی بن عبداللّه الشافعی القاهری السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۶، ذكره من طرق شتی، منها طريق الحافظ ابن السكن فقال: ومقتضـی ما شـرطه فی خطبته أن يكون هـذا الحـديث مما أجمع علی صحته ثم قال: قلت: ولهـذا نقل عنه جماعـة منهم الحافظ زين الـدين العراقی أنه صـححه... الـخ . ۱۴- أبو العباس شـهاب الدين القسطلانی المتوفی سنة(۹۲۴ هـ)، فی «المواهب اللدنية» وقال: صححه ابن السكن . ۱۵- الشيخ محمد الخطيب الشربينی المتوفی سنة (۹۷۷ هـ)، فی «مغنی المحتاج» شرح المنهاج ج ۱ ص ۴۹۴ وقال: رواه ابن السكن فی سننه الصحاح المأثورة . ۱۶- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸ هـ)، فی «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷. (۳)

عن عبـداللّه بن عمر مرفوعـاً: «من حـج فزار قبری بعـد وفـاتی كان كمن زارنی فی حياتی» وفی غير واحـد من طرقه زيادة: وصـحبنی. أخرجه جمع من الحفاظ منهم: (۱۶۲)

۱- الحافظ عبد الرزاق أبو بكر الصنعانی المتوفی سنة (۲۱۱ هـ) . ۲- الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان الشيبانی المتوفی سنة (۳۰۳ هـ) . ۳- الحافظ أبو يعلی أحمد بن علی الموصـلی المتوفی سنة (۳۰۷ هـ) فی مسنده . ۴- الحافظ أبو القاسم عبداللّه بن محمد البغوی سنة (۳۱۷ هـ) . ۵- الحافـظ أبو القاسم الطبرانی المتوفی سـنة (۳۶۰ هـ) . ۶- الحافظ أبو أحمـد بن عدی المتوفی سـنة (۳۶۵ هـ) فی «الكامل» . ۷- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقری المتوفی سـنة (۳۸۱ هـ) . ۸- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی سـننه وغيرها. ۹- الحافظ أبوبكر البيهقی المتوفی سـنة (۴۵۸ هـ) فی سـننه ج ۵ ص ۲۴۶ . ۱۰- الحافظ ابن عساكر الدمشـقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) فی تـاريخه . ۱۱- الحافظ ابن الجوزی المتوفی سـنة (۵۹۷ هـ) فی «مثير الغرام السـاكن إلی أشـرف الأماكن» . ۱۲- الحافـظ أبو عبـداللّه بن النجار البغـدادی المتوفی سـنة (۶۴۳ هـ)، فی كتـابه «الـدرة الثمينـة فی أخبار المدينـة» . ۱۳- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . ۱۴- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمياطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ). ۱۵- أبو الفتـح أحمـد بن محمـد بن أحمـد الحداد فی كتابه . ۱۶- الحافظ أبو الحسـين المصـری . ۱۷- ولی الـدين الخطيب التـبريزی فی «مشكاة المصابيح» المتوفی سنة (۷۳۷ هـ)، فی باب حرم المدينـة فی الفصل الثالث . ۱۸- تقی الدين السـبكی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، بسط القول فی طرقه فی «شفاء السقام» ص ۱۶ - ۲۱ ورواه عن كثير من هؤلاء الحفاظ المذكورين وغيرهم . (۱۶۳)

۱۹- الشـيخ شـعيب عبداللّه المصـری الحريفيش المتوفی سـنة (۸۰۱ هـ)، فی «الروض الفـائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۲۰- السـيد نور الدين السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فصـل القول فی طرقه فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۷ . ۲۱- الحافظ جلال الدين السيوطی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «الجامع الكبير» كما فی ترتيبه ج ۸ ص ۹۹ . ۲۲- قاضی القضاة شهاب الدين الخفاجی الحنفی المتوفی سنة (۱۰۶۹ هـ)، فی شرح الشفاء للقاضی عياض ج ۳ ص ۵۶۷ . ۲۳- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸هـ)، فی «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷ . ۲۴- الشـيخ محمد الشوكانی المتوفی سـنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نيـل الأوطـار» ج ۴ ص ۳۲۵ . ۲۵- السـيد محمد بن عبداللّه الدمياطی الشافعی المتوفی سنة (۱۳۰۷ هـ)، فی «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . (۴)

عن عبـداللّه بن عمر مرفوعاً: «من حـج البيت ولم يزرنی فقد جفانی» أخرجه جمع منهم: ۱- الحافظ أبو حاتم محمـد بن حبَّان التميمی البستی المتوفی سـنة (۳۵۴ هـ)، فی «الضـعفاء» . ۲- الحافظ ابن عـدی المتوفی سـنة (۳۶۵ هـ)، فی «الكامـل» . ۳- الحافظ الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی كتابه أحاديث مالك الّتی ليست فی الموطأ . ۴- تقی الدين السبكی المتوفی سنة (۷۶۵ هـ)، من غير طريق فی «شفاء (۱۶۴)

السـقام» ص ۲۲، وردّ حكم ابن الجـوزی علی الحـديث بـالوضع . ۵- السـيد نور الدين السـمهودی المتوفی سنة (۹۲۱ هـ)، فی «وفـاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۸. ۶- أبو العباس شـهاب الدين القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۲ هـ)، فی «المواهب اللدنيـة» نقلا عن ابن عدی، وابن حبان، والدارقطنی. ۷- الشـيخ اسـماعيل الجراحی العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «كشف الخفـاء» ج ۲ ص ۲۷۸ نقلا عن ابن

عدی، وابن حبان، والدارقطنی . ۸- الشيخ المرتضی الزبيدی الحنفی المتوفی سنة (۱۲۰۵ هـ)، فی «تاج العروس» ج ۱۰ ص ۷۴ . ۹- الشيخ محمد الشوكانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نيل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ . (۵)

عن عمر مرفوعاً: «من زار قبری (أو من زارنی) كنت له شفيعاً (أو شهيداً) ومن مات فی أحد الحرمين بعثه اللّه عزّوجلّ فی الآمنين يوم القيامة» أخرجه: ۱- الحافظ أبو داود الطيالیسی المتوفی سنة (۲۰۴ هـ)، فی مسنده ج ۱ ص ۱۲ . ۲- الحافظ أبو نعيم الإصبهانی المتوفی سنة (۴۳۰ هـ) . ۳- الحافظ البيهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی «السنن الكبری» ج ۵ ص ۲۴۵ . ۴- الحافظ ابن عساكر الدمشقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ)، فی «تاريخ الشام» . ۵- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . (۱۶۵)

۶- تقی الدين السبكی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۲ . ۷- نور الدين السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . ۸- أبوالعباس القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ)، فی «المواهب اللدنية». ۹- الحافظ ابن الديبع المتوفی سنة (۹۴۴ هـ)، فی «تمييز الطيب» ص ۱۶۲ . ۱۰- زين الدين عبدالرؤوف المناوی المتوفی سنة (۱۰۳۱ هـ)، فی «كنوز الحقائق» ص ۱۴۱ . ۱۱- الشيخ إسماعيل العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «كشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۷۸ . (۶)

عن حاطب بن أبی بلتعة مرفوعاً: «من زارنی بعد موتی فكأنما زارنی فی حياتی، ومن مات فی أحد الحرمين بعث يوم القيامة من الآمنين». أخرجه: ۱- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی «السنن» . ۲- الحافظ أبو بكر البيهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) . ۳- الحافظ ابن عساكر الدمشقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۴- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . ۵- الحافظ أبو عبداللّه عبدالمؤمن الدمياطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ) . ۶- أبو عبداللّه العبدری المالكی ابن الحاج المتوفی سنة (۷۳۷ هـ)، فی «المدخل». ۷- تقی الدين السبكی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۵ . (۱۶۶)

۸- الشيخ شعيب الحريفيش المتوفی سنة (۸۱۰ هـ)، فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۹- نور الدين السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . ۱۰- أبو العباس القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ) فی «المواهب اللدنية» عن البيهقی . ۱۱- الجراحی العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «كشف الخفاء» ج ۲ ص ۵۵۱ عن ابن عساكر والذهبی، وحكی عن الأخير أنّه قال: إنّ هذا الحديث من أجود أحاديث الباب إسناداً. ۱۲- الشيخ محمد الشوكانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ) فی «نيل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ . ۱۳- الشيخ محمد بن درويش الحوت البيرونی المتوفی سنة (۱۲۷۶ هـ)، فی «حسن الأثر» ص ۲۴۶ . (۷)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من حج حجة الإسلام وزار قبری، وغزا غزوة وصلی علیّ فی بيت المقدس لم يسأل اللّه عزوجل فيما افترض عليه» . أخرجه الحافظ محمد بن الحسين بن أحمد أبو الفتح الأزدی المتوفی سنة (۳۷۴ هـ)، فی فوائده، ورواه عنه الحافظ السلفی أبو طاهر الإصبهانی المتوفی سنة (۵۷۶ هـ) بإسناده، وأخرجه بالطريق المذكور تقی الدين السبكی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شفاء السقام» ص ۲۵، وذكره السيد السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ والشيخ محمد بن علی الشوكانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نيل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . (۸)

عن أبی هريرة مرفوعاً: «من زارنی بعد موتی فكأنما زارنی وأنا حی، (۱۶۷)

ومن زارنی كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» أخرجه: ۱- الحافظ أبو بكر أحمد بن موسی بن مردويه المتوفی سنة (۴۱۶ هـ). ۲- الحافظ أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن الإصبهانی المتوفی سنة (۵۴۰ هـ). ۳- أبو الفتوح سعيد بن محمد اليعقوبی فی فوائده المتوفی سنة (۵۵۲ هـ) . ۴- الحافظ أبو سعد عبدالكريم السمعانی الشافعی المتوفی سنة (۵۶۲ هـ) . ۵- ابن الأنماطی إسماعيل بن عبداللّه الأنصاری المالكی المتوفی سنة (۶۱۹ هـ) . ۶- تقی الدين السبكی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شفاء السقام» ص ۲۶ . ۷- السيد نور الدين السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . (۹)

عن أنس بن مالك مرفوعاً: «من زارنی بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً». وفی رواية أُخری عنه أيضاً: «من مات فی أحد الحرمين بعث من الآمنين يوم القيامة، ومن زارنی محتسباً إلی المدينة كان فی جواری يوم القيامة». وفی لفظ ثالث له زيادة: وكنت له شهيداً وشفيعاً

یوم القیامة. أخرجته أمَة من الحفاظ منهم: ۱- ابن أبی فدیک محمد بن إسماعیل المتوفی سنة (۲۰۰ هـ) . ۲- ابن أبی الدنیا أبو بکر القرشی المتوفی سنة (۲۸۱ هـ) . ۳- الحافظ أبو عبداللّه الحاکم النیسابوری المتوفی سنة (۴۰۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو بکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی «شعب الإیمان» . ۵- القاضی عیاض المالکی المتوفی سنة (۵۴۴ هـ) فی «الشفاء» . (۱۶۸)

۶- الحافظ علی بن الحسن الشهیر بابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۷- الحافظ ابن الجوزی المتوفی سنة (۵۹۷ هـ) فی «مثیر الغرام الساکن» . ۸- الحافظ عبد المؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ) . ۹- أبو عبداللّه العبدری المالکی ابن الحاج المتوفی سنة (۷۳۷ هـ) فی «المدخل» ج ۱ ص ۲۶۱ . ۱۰- شمس الدین أبو عبداللّه الدمشقی الحنبلی المعروف بابن القیم الجوزیة المتوفی سنة (۷۵۱ هـ)، فی «زاد المعاد ج ۲ ص ۴۷» . ۱۱- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۷ . ۱۲- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . ۱۳- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ) فی «المواهب اللدنیة» . ۱۴- جلال الدین السیوطی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «الجامع الکبیر» کما فی ترتیبه ج ۸ ص ۹۹ . ۱۵- الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸ هـ)، «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷ بلفظ: «من زارنی فی المدینیة متعمداً کان فی جواری إلی یوم القیامة» . ۱۶- الشیخ محمد الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . ۱۷- أبو عبداللّه الزرقانی المالکی المتوفی سنة (۱۱۲۲ هـ)، فی «شرح المواهب» ج ۸ ص ۲۹۹ . ۱۸- الجراحی العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی کشف «الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۱ . (۱۶۹)

۱۹- السید أحمد الهاشمی فی مختار الأحادیث النبویة، ص ۱۶۹ . ۲۰- السید محمد بن عبداللّه الدمیاطی الشافعی المتوفی سنة (۱۳۰۷هـ)، فی «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . ۲۱- الشیخ منصور علی ناصف فی «التاج» ج ۲ ص ۲۱۶ . (۱۰)

عن أنس بن مالک مرفوعاً: «من زارنی میتاً فکأنما زارنی حیاً، ومن زار قبری وجبت له شفاعتی یوم القیامة، وما من أحد من أمتی له سعة ثم لم یزرنی فلیس له عذر» أخرجه: ۱- الحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود ابن النجار المتوفی سنة (۶۴۳ هـ)، فی کتابه «الدرة الثمینة فی فضائل المدینة». ۲- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۸ . ۳- الحافظ زین الدین العراقی المتوفی سنة (۸۰۶ هـ)، أشار إلیه کما فی «المواهب» . ۴- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . ۵- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ) فی «المواهب اللدنیة» . ۶- العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفاء» ص ۲۷۸ . (۱۱)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من زارنی فی مماتی کان کمن زارنی فی حیاتی، ومن زارنی حتّی ینتهی إلی قبری کنت له یوم القیامة شهیداً، أو قال: شفیعاً». أخرجه الحافظ أبو جعفر العقیلی المتوفی سنة (۳۲۲ هـ)، فی کتاب (۱۷۰)

«الضعفاء» فی ترجمة فضالة بن سعید المازنی، والحافظ ابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) کما فی «شفاء السقام» ص ۲۱، و«وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱، و«نیل الأوطار» للشوکانی ج ۴ ص ۳۲۵ ـ ۳۲۶ . (۱۲)

عن علی أمیرالمؤمنین مرفوعاً وغیر مرفوع: «من زار قبری بعد مماتی فکأنما زارنی فی حیاتی، ومن لم یزر قبری فقد جفانی» أخرجه: ۱- أبو الحسین یحیی بن الحسن بن جعفر الحسنی فی کتابه «أخبار المدینة» . ۲- أبو سعید عبدالملک بن محمد النیسابوری الخرکوشی المتوفی سنة (۴۰۶ هـ)، فی «شرف المصطفی» . ۳- الحافظ ابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۴- الحافظ أبو عبداللّه ابن النجار المتوفی سنة (۶۴۳ هـ) فی کتاب «الدرة الثمینة» . ۵- الحافظ عبد المؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ) . ۶- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۹ . ۷- الشیخ شعیب الحریفیش المتوفی سنة (۸۰۱ هـ)، فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۸- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ) فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱ . ۹- زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سنة (۱۰۳۱ هـ) فی «کنوز الحقائق» ص ۱۴۱ . (۱۳)

عن بکر بن عبداللّه مرفوعاً: «من أتی المدینة زائراً لی وجبت له شفاعتی (۱۷۱)

يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين بعث آمناً. أخرجه أبو الحسين يحيى بن الحسن الحسنى فى كتابه «أخبار المدينة» كما فى «شفاء السقام» للسبكى ص ۳۰، و «وفاء الوفاء» للسمهودى، ج ۳ ص ۴۰۲ . (۱۴)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى» أخرجه: ۱- الحافظ سعيد بن منصور النسائى أبو عثمان الخراسانى المتوفى سنة (۲۲۷ هـ). ۲- الحافظ أبو القاسم الطبرانى المتوفى سنة (۳۶۰ هـ) . ۳- الحافظ أبو أحمد ابن عدى المتوفى سنة (۳۶۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو الشيخ الأنصارى المتوفى سنة (۳۶۹ هـ) . ۵- الحافظ أبو الحسن الدارقطنى المتوفى سنة (۳۸۵ هـ) . ۶- الحافظ أبو بكر البيهقى المتوفى سنة (۴۵۸ هـ) . ۷- القاضى عياض المالكى المتوفى سنة (۵۴۴ هـ) . ۸- قاضى القضاة الخفاجى الحنفى المتوفى سنة (۱۰۶۹هـ)، فى شرح الشفاء ج ۳ ص ۵۶۵ نقله عن البيهقى، والدارقطنى، والطبرانى، وابن منصور. ۹- زين الدين عبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة (۱۰۳۱ هـ)، فى «كنوز الحقائق» ص ۱۴۱ بلفظ: «من زار قبرى بعد موتى». ۱۰- العجلونى المتوفى سنة (۱۱۶۲ هـ) فى «كشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۱، نقلا عن أبى الشيخ، والطبرانى، وابن عدى، والبيهقى . (۱۵)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من حجّ إلى مكة ثم قصدنى فى مسجدى كتبت له حجتان مبرورتان» . أخرجه الفردوس فى مسنده كما فى «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱ و«نيل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . (۱۷۲) (۱۶)

عن رجل من آل الخطاب مرفوعاً: «من زارنى متعمداً كان فى جوارى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين بعثه اللّه فى الآمنين (من الآمنين)». وزاد الشحامى عقب قوله «يوم القيامة»: «ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة» روى بأسناده. فيه من الحفاظ. : ۱- الحافظ أبو جعفر العقيلى المتوفى سنة (۳۲۲ هـ) . ۲- الحافظ أبو الحسن الدارقطنى المتوفى سنة (۳۸۵ هـ) . ۳- الحافظ أبو عبداللّه الحاكم المتوفى سنة (۴۰۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو بكر البيهقى المتوفى سنة (۴۵۸ هـ)، فى «شعب الإيمان» . ۵- الحافظ ابن عساكر الدمشقى المتوفى سنة (۵۷۱ هـ) . ۶- الحافظ أبو محمد بن المؤمن الدمياطى المتوفى سنة (۷۰۵ هـ)، وأخرجه من طريق هؤلاء الحفاظ . ۷- ولى الدين الخطيب العمرى التبريزى فى «مشكاة المصابيح» المتوفى سنة (۷۳۷ هـ) فى باب حرم المدينة فى الفصل الثالث . ۸- تقى الدين السبكى المتوفى سنة (۷۵۶ هـ)، فى «شفاء السقام» ص ۲۴ وقال: مرسل جيد، ورواه عنه السيد نور الدين السمهودى فى «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . (۱۷)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من زارنى بالمدينة كنت له شهيداً وشفيعاً»، أخرجه الحافظ الدارقطنى بأسناده فى «السنن» كما فى «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۸ . (۱۷۳) (۱۸)

روى عن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، قال: «من وجد سعة ولم يفد «يغد» إلى فقد جفانى». ذكره ابن فرحون فى مناسكه، والغزالى فى «الإحياء» ج ۱ ص ۲۴۶، والقسطلانى فى «المواهب اللدنية»، والعجلونى فى «كشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۷۸ . (۱۹)

قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «من زارنى بعد وفاتى وسلم علىّ رددت عليه السلام عشراً، وزاره عشرة من الملائكة، كلهم يسلمون عليه، ومن سلم علىّ فى بيته رد اللّه تعالى على روحى حتّى أسلم عليه» . ذكره الشيخ شعيب الحريفيش المتوفى سنة (۸۰۱ هـ) فى «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . (۲۰)

عن أبى عبداللّه محمد بن العلاء رحمه اللّه قال: دخلت المدينة وقد غلب على الجوع، فزرت قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وسلمت عليه وعلى الشيخين رضى اللّه عنهما وقلت: يا رسول اللّه جئت وبى من الفاقة والجوع ما لا ـ يعلمه إلاّ ـ اللّه عزّوجلّ، وأنا ضيفك فى هذه الليلة، ثم غلبنى النوم فرأيت النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى المنام فأعطانى رغيفاً فأكلت نصفه ثم انتبهت من المنام وفى يدى نصفه الآخر، فتحقق عندى قول النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً، فإنّ الشيطان لا يتمثل بى». ثم نوديت: يا أبا عبداللّه: «لا يزور قبرى أحد إلاّ غفر له ونال شفاعتى غداً». ذكره الشيخ شعيب الحريفيش فى «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۸ فقال فى المعنى من زار قبر محمد * نال الشفاعة فى غد باللّه كرر ذكره * وحديثَهُ يا منشدى واجعل صلاتك دائماً * جهراًعليه تهتدى (۱۷۴)

فهو الرسول المصطفی * ذو الجود والکف الندی وهو المشفع فی الوری * من هول یوم الموعد والحوض مخصوص به * فی الحشر عذب المورد صلی علیه ربنا * ما لاح نجم الفرقد (۲۱)

مرفوعاً عنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «لا عذر لمن کان له سعهٔ من أُمتی ولم یزرنی». رواه الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده فی «مجمع الأنهر» فی شرح ملتقی الأبحر ص ۱۵۷، وَعَدّهُ من أدلهٔ الباب من دون غمز فیه. (۲۲)

عن أمیرالمؤمنین علیّ ـ علیه السَّلام ـ : «من زار قبر رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ کان فی جواره» أخرجه ابن عساکر کما فی «نیل الأوطار» للشوکانی ج ۴ ص ۳۲۶ . * * *

وبعد هذه النصوص المتضافرهٔ لا حاجهٔ إلی نقل کلمات أعلام المذاهب الإسلامیهٔ حول زیارهٔ النبی الأقدس، وهی وافرهٔ، وقد نقلنا شطراً منها عند البحث عن شدّ الرحال إلی زیارته، فمن أراد أن یقف علی تلک النصوص فلیرجع إلی الأثر القیم «الغدیر» للعلامهٔ الأمینی(۱) . وأخیراً نذکر کلام محمد بن عبدالوهاب، مجدد مذهب ابن تیمیهٔ فی المقام قال: «تسن زیارهٔ النبی إلاّ أن لا تشد الرحال إلاّ إلی زیارهٔ المسجد والصلاهٔ فیه» (۲) . انظر کیف یسیر إثر أُستاذه فی المنهج حذو النعل بالنعل. إلی هنا اتضح الحق بأجلی مظاهره، وبقی هنا أمر وهو دفع ما أثار ابن ______________

۱ . الغدیر ج ۵ ص ۱۰۹ ـ ۱۲۹ .

۲ . الهدیهٔ السنیهٔ، الرسالهٔ الثانیهٔ.. (۱۷۵)

تیمیهٔ من الشبهة فی زیارهٔ النبی الأکرم الّتی أشرنا إلیها فی صدر البحث وهی: ۱- کون الزیارهٔ علی هذا الوجه المخصوص بدعهٔ. ۲- کون الزیارهٔ من تعظیم غیر اللّه المفضی إلی الشرک . أمّا الشبهة الأُولی فهی باطلهٔ من رأس، وذلک لأنّ البدعهٔ هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین، فهل یمکن لأحد بعد هذه النصوص المتضافرهٔ، التقوّل بأنّه لم یرد فی الدین شیء حول زیارهٔ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ لم یامر بها؟ کیف وقد أمر هو بزیارهٔ القبور؟ فهل یُتصوّر أنه لا یعادل زیارته زیارهٔ قبر مسلم؟ (کَبُرَت کَلِمةٌ تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِم)وقد أمر النبی بزیارهٔ قبور المؤمنین . وأمّا الشبهة الثانیهٔ فنقول: کیف تکون زیارهٔ النبی مفضیهٔ إلی الشرک مع أنّ زیارهٔ قبر نبی التوحید، استشعار لحقیقته، وتقدیس لمعناه؟ فإنّ التقدیس الّذی یتصل بالرسل إنما هو من فکرتهم وهدایتهم. فالتقدیس لمحمد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ تقدیس للمعانی الّتی دعا إلیها وَحَثَّ علیها، فکیف یتصوّر من مؤمن عرف حقیقهٔ الدعوهٔ المحمدیهٔ أن یکون مضمراً لأی معنی من معانی الوثنیهٔ، وهو یستعبر ویستبصر ببصیرته عند الحضرهٔ الشریفهٔ والروضهٔ المنیفهٔ؟ فإذا کان خوف ابن تیمیهٔ من أن یؤدی ذلک إلی الوثنیهٔ بمضی الأعصار والدهور فإنه خوف من غیر جههٔ، لأنّ الناس کانوا یزورون قبر الرسول إلی أول القرن الثامن، ثم باتوا إلی العصور من بعده إلی یومنا هذا، ومع ذلک لم ینظر أحد إلیه نظر عبادهٔ أو وثنیهٔ، ولو أفرط بعض العوام فذلک لا یمنع تلک الذکریات العطرهٔ، بل یجب إرشادهم وتفهیمهم لا منعهم من الزیارهٔ ولا تکفیرهم . قال الشیخ محمد زاهد الکوثری : «إنّ سعی ابن تیمیهٔ فی منع الناس من زیارته یدل علی ضغینهٔ کامنهٔ فیه نحو الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وکیف یتصوّر الإشراک بسبب الزیارهٔ، (۱۷۶)

والتوسل فی المسلمین الذین یعتقدون فی حقّه أنّه عبده ورسوله، وینطقون بذلک فی صلاتهم نحو عشرین مرهٔ فی کل یوم علی أقل تقدیر، إدامهٔ لذکری ذلک، ولم یزل أهل العلم ینهون العوام عن البدع فی کل شؤونهم، ویرشدونهم إلی السنهٔ فی الزیارهٔ وغیرها إذا صدرت منهم بدعهٔ فی شیء، ولم یعدّوهم فی یوم من الأیام مشرکین بسبب الزیارهٔ أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراک بتلک الوسیلهٔ هو ابن تیمیهٔ، وجری خلفه من أراد استباحهٔ أموال المسلمین ودماءهم لحاجهٔ فی النفس»(۱) . ثم إنّ آخر ما فی کنانهٔ ابن تیمیهٔ وأتباعه فی عدّ الزیارهٔ بدعهٔ وتقسیمها إلی قسمین، ما رواه أحمد فی مسنده، وهو أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ قال: ألّلهمّ لا تجعل قبری وثناً یعبد(۲). وسیوافیک الکلام فی معنی الحدیث عند البحث عن الاحتفال بمیلاد النبی، ولا صلهٔ لهذا الحدیث بالزیارهٔ، والزائر المسلم لا ـ یعبد النبی ولا ـ یعبد قبره، کما هو واضح، بل یعبد اللّه سبحانه، وإنما یزور قبر نبیه کما یزور قبور آبائه

وأجدادهم من غير فرق، غير أنّه يترتب على زيارة قبر نبى التوحيد ما لا يترتب على غيره . * * * (أَولَئِكَ الَّذينَ هَدَى اللّه فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه)(۳) . ـــــــــــــــ

۱ . تكملة السيف الصقيل ص ۱۵۸ .

۲ . مسند أحمد ج ۳ ص ۲۴۸ .

۳ . سورة الأنعام: الآية ۹۰ .

ابن تيمية والبناء على القبور

ابن تيمية والبناء على القبور

إنّ إبن تيمية هو أول من أفتى بحرمة البناء على القبور، سواء أكان صاحب القبر صالحاً أم طالحاً، وإليك نصه: قال: وقد اتفق أئمة الإسلام على: ۱- أنّه لا يشرع بناء هذه المشاهد الّتى على القبور . ۲- ولا يشرع اتخاذها مساجد . ۳- ولا تشرع الصلاة عندها . ۴- ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغاثة وابتهال، ونحو ذلك، وكرهوا الصلاء عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهى عنها... إلى أن قال: وإنما دين اللّه تعالى تعظيم بيوت اللّه وحده، وهى المساجد التى تشرع فيها الصلاة جماعة وغير جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له.. وذكر بعض الآيات الواردة فى تعظيم المساجد، وعدّ منها قوله تعالى: (فى بُيُوت أذنَ اللّهُ أنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، يُسَبّحُ لَهُ فيها بِالْغُدُوِّ والآصالِ* رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهم تِجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَإقامِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلّبُ فِيه القُلُوبُ وَ الأَبْصَارُ)(۱) . ـــــــــــــــ

۱ . سورة النور: الآية ۳۶ ـ ۳۷ وقد أفتى فى كلامه هذا بحرمة أمور اربعة، سنبحث عنها واحداً بعد واحد إلّا مسألة قصد المشاهد، لما استوفينا الكلام فيه عند البحث عن قصد السفر إلى زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ . (۱۷۸)

وأمّا اتّخاذ القبور أوثاناً فهو من دين المشركين(۱) . يقول تلميذه ابن القيم: يجب هدم المساجد الّتى بنيت على القبور، ولاـ يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً(۲) . وعلى هذا الأصل لمّا استولى السعوديون على الحرمين الشريفين هدموا المراقد المقدسة فى البقيع، وبيوت أهل البيت، بعدما رفعوا سؤالا إلى علماء المدينة المنورة، وإليك السؤال والجواب: السؤال: ما قول علماء المدينة المنورة ـ زادهم اللّه فهماً وعلماً ـ فى البناء على القبور، واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهى عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها، ومنع الصلاة عندها أم لا؟.

وإذا كان البناء فى مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنى عليه، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لاـ؟ الجواب: أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة فى منعه، ولذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث علىّ (رضى اللّه عنه) أنّه قال لأبى الهياج:

«ألا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول اللّه، أن لا تدع تمثالا إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سويته»(۳) . والامعان فى الاستفتاء يعرب عن أنه لم تكن الغاية منه الوقوف على حكم ـــــــــــــــ

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۵۹ ـ ۶۰ طبع مصر، تحت إشراف السيد محمد رشيد رضا .

۲ . زاد المعاد فى هدى خير العباد، ابن القيم ص ۶۶۱ .

۳ . جريدة أم القرى،وقد نشرت نص الإستفتاء وجوابه فى العدد الصادر بتاريخ ۱۷ شوال سنة ۱۳۴۴ هـ . (۱۷۹)

اللّه، سواء أكان جائزاً أم حراماً، وإنما كانت الغاية هى أخذ الاعتراف منهم على الحظر، ولأجل ذلك أدرج المستفتى الجواب فى السؤال وقال: «بل هو ممنوع منهى عنه نهياً شديداً» وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المستفتى قام على رأس المفتين فأخذ منهم الجواب بالتخويف والتهديد. ثم إنّ المستفتى أى الشيخ النجدى المعروف بسليمان بن بليهد، يقول فى مقال نشرته جريدة «أم

القرى» فى عددها الصادر فى شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ۱۲۴۵ هجرية: «إنّ بناء القباب على مراقد العلماء صار متداولا منذ القرن الخامس الهجرى» . وهذا ما يكرره علماء الوهابية فى دعاياتهم، ويضيفون إلى حديث «أبى الهياج» حديث «جابر» عن النبى الّذى سيوايك بيانه ونقده سنداً ومتناً. ولأجل إيضاح الحال، نحلل ما جاء فى الجواب، من الاستدلال بالإجتماع تارة، والحديث ثانياً، فنقول: هل هناك إجماع على التحريم؟

إنّ للإجماع الوارد فى كلامه احتمالات: ۱- الإجماع التقديرى، بحجة وجود الحديث الصحيح فى الصحاح، بمعنى أنه لو وقف العلماء عليه لأفتوا بمضمونه كما أفتى به المجيب، ولا يخفى أنه غير مفيد، إذ هو فرع كون الحديث صحيحاً سنداً وكاملا من حيث الدلالة على مقصوده عند غيرهم، وكلا ـ الأمرين غير ثابت، بل ثبت خلافهما كما سيوافيك بيانه . ۲- الإجماع المحقق، وأنّ العلماء أفتوا فى كتبهم بالتحريم حدوثاً وبقاءً، وهذا خلاف نصوصهم ;ونكتفى بالنص الوارد فى الفقه على المذاهب الأربعة الّذى اتفق عليه علماء أهل السنة فى العصر الحاضر، حيث قالوا بكلمة واحدة: (۱۸۰)

«يكره أن يبنى القبر ببيت أو قبة أو مدرسة أو مسجد»(۱) : وهذا شارح صحيح مسلم يقول فى شرح حديث أبى الهياج: أمّا البناء فإن كان فى ملك البانى فمكروه، وإن كان فى مقبرة مسبلة فحرام، نص عليه الشافعى والأصحاب(۲) . وتحريم البناء ـ عندئذ ـ لأجل عنوان عرضى لا ذاتى، وهو المزاحمة لأهداف الواقف وأغراضه . ۳- سيرة المسلمين وعملهم منذ أن ارتحل النبى الأكرم إلى يومنا هذا، سوى الوهابيين . أما سيرة المسلمين فحدّث عنها ولا حرج، فقد دفن النبى الأكرم فى بيته الرفيع، ولم يخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أن البناء على القبر حرام، وأنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ نهى عنه نهياً شديداً، ولما كان البيت متعلّقاً بزوجته (عائشة) جعلوا فى وسطه ساتراً، ولما توفى الشيخان أوصيا بدفنهما فى حجرة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ تبرّكاً بذاته ومكانه، ولم تسمع من أىّ ابن أُنثى نعيرة أنّه حرام ولا ـ مكروه، وعلى ذلك استمرت سيرة المسلمين فى حق الصلحاء والأولياء والعلماء، يدفنونهم فى البيوت المعدة لذلك، أو يرفعون لمراقدهم قواعد وسقفاً بعد الدفن تكريماً لهم وتقديراً لتضحياتهم، ولم يخطر ببال أحد أنه على خلاف الدين والشرع . وهذا عمل المسلمين وسيرتهم القطعية فى جميع الأقطار والأمصار، ملء المسامع والأبصار على اختلاف نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذا العصر من الشيعة والسنة، وأىّ بلاد من بلاد الإسلام من مصر أو العراق أو الحجاز أو سوريا، وتونس ومراكش وإيران، وهلمّ جرّاً ليس فيها قبور مشيدة، وضرائح منجدة وهؤلاء أئمة المذاهب: الشافعى فى مصر، وأبو حنيفة فى بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم شاهقة القباب، ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲۱ .

۲ . صحيح مسلم بشرح النووى ج ۷ كتاب الجنائز طبع مصر . (۱۸۱)

شامخة المبانى غير أنّ الوهابيين لما استولوا على المدينة هدموا قبر مالك. وهذه القبور قد شيدت وبنيت فى الأزمنة الّتى كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوى، وزعماء المذهب، فما أنكر منهم ناكر، وليس هذا رائجاً بين المسلمين فقط، بل جرى على هذا جميع عقلاء العالم، بل يعد تعمير قبور الشخصيات من غرائز البشر ومقتضيات الحضارة وشارة الرقى، فكل هذا دليل على الجواز لو لم نقل يفوق ذلك، ولو لم تكن تلك السيرة المسلمة بين المسلمين والعقلاء عامة غير مفيدة فى المقام، فلا يصحّ الاستناد إلى أية سيرة قاطعة بين المسلمين أو الناس . وليس يصحّ فى الأذهان شيء * إذا احتاج النهار إلى دليل النتائج المحمودة لحفظ الآثار الإسلامية

إنّ المحافظة على آثار الأنبياء وخاصة آثار النبى الأكرم من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه والشهداء الذين ضحوا بانفسهم فى سبيل دينه، نتائج محمودة لا تستغنى عنها الأُمة الإسلامية فى وقت من الزمن، فإنّ الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيه خاتم الأنبياء، فهى حجة على الناس إلى قيام الساعة الّتى لا يحيط بوقتها إلاّ اللّه تعالى، قال سبحانه: (قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى، لاَ يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ)(۱) .

فمن الممكن أن تمر على عمر الدنيا، وبالتالى على عمر الشريعة الإسلامية آلاف السنين، فالقضاء على آثار الشريعة ومعالم وجود نبيها

يجعلها فى معرض التشكيك والتردد، وأنه هل لما يدّعيه المسلمون من الرجة الكبرى ببعث النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ومواقفه وقضاياه وتشريعاته مسحة حق؟ بل ربما تحولها بعد مدة إلى أُسطورة تاريخية، حيث لا يجد الناس بعد حقب من الدهر آثاراً ملموسة من صاحب الشريعة، وليس هذا شيئاً غريباً، وهذه هى المسيحية قد مضى من عمرها عشرون قرناً، وقد تحول المسيح وأُمه العذراء

١ . سورة الأعراف: الآية ١٨٧ . (١٨٢)

وكتابه الإنجيل وتلاميذه إلى أساطير تاريخية، وصار بعض المستشرقين يشككون مبدئياً فى وجود رجل اسمه المسيح واسم اُمه مريم وكتابه الإنجيل، وكادوا يعتبرونه أُسطورة خيالية تشبه أُسطورة (المجنون العامرى وليلاه) وما هذا إلا لعدم وجود أثر ملموس منه، ولا من كتابه الواقعى وأصحابه وحوارييه . وأمّا المسلمون فهم يواجهون العالم مرفوعى الرؤوس، ويقولون: يا أهل العالم قد بعث نبى فى ارض الحجاز قبل ألف وأربعمائة سنة، وقدحقق نجاحاً فى مهمته، وهذه آثار وجوده وحياته، فهذه هى الدار الّتى ولد فيها، وهذا هو غار حراء، مهبط وحيه فى بدء الأمر، وهذا هو البيت الّذى دفن فيه، وهذه مدارس أولاده و... فالإبقاء على الآثار الإسلامية وصيانتها من الزوال، صغيرة أو كبيرة، دعم لاستمرار رسالة هذا الدين وبقائه على مدى العصور والأزمان، وتدميرها سبب رئيس لتعريضها للشك والإنكار، وإعانة على أهداف المخالفين . وقد اهتمّ المسلمون اهتماماً كبيراً بشأن آثار النبى وسيرته وسلوكه، حتّى أنهم سجلوا دقائق أُموره وخصائص حياته و مميزات شخصيته إلى درجة أنهم سجلوا حتّى ما يرتبط بخاتمه وحذائه، وسواكه وسيفه، ودرعه، ورمحه، وجواده وإبله وغلامه، والآبار الّتى شرب منها الماء، والأراضى التى وقفها لوجه اللّه سبحانه، و مشيته، وأكله، وشربه، وما يرتبط بلحيته المقدسة وخضابه لها وغير ذلك، ولا زالت آثار البعض باقية إلى يومنا هذا . ولو كان ابن تيمية موجوداً فى تلك الأعصار، وكان ينظر إلى الموضوع بالفكرة التى نشأ عليها، لرمى الصحابة الأجلاء والسلف الصالح بالشرك والوثنية، وزعم أنهم اتخذوا نبيهم وثناً يعبد، ولكن من حسن الحظ أنه لم يكن موجوداً فيها، ولكن كتب السير حافلة بذكرها فليقض عليهم بالحق. وما أشبه عمل من يدمر الآثار النبوية تحت واجهة قلع الشرك بعمل الصبيان النوكى الذين يتلاعبون بميراث آبائهم بالتمزيق والتدمير، أوالبيع بثمن بخس . (١٨٣) ولأجل أن تعرف مدى شيوع هذه السيرة فارجع إلى ما يكتبه أحد الكتاب الوهابيين ويقول: «وهذا أمر عمّ البلاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحيث لا بلدة من بلاد الإسلام إلاّ فيها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمين غالباً لا تخلو من قبر ومشهد، ولا يسع عقل عاقل أن هذا منكر يبلغ إلى ما ذكرت من الشناعة ويسكت علماء الإسلام»(١) . فلو كانت هذه سيرة المسلمين، فما معنى ادّعاء الإجماع على حرمة البناء ووجوب هدمه؟ فلو كان الهدم واجباً فلماذا لم يأمر الخليفة عمر بهدم قبور الأنبياء عندما فتح المسلمون بيت المقدس؟. فهل الخليفة تسامح فى هذا الأمر الخطير، أم أنه وسائر الصحابة الحضور فى الواقعة، وجدوه أمراً مطابقاً للفطرة والشريعة الإسلامية، فلأجل ذلك أبقوها على حالها، وقام المسلمون بصيانتها وحفظها طوال القرون؟ . إلى هنا تبين أنه لا إجماع فى المسألة، بل لم تكن المسألة خلافية إلى عصر ابن تيمية، وقد خالف هو وحده وتبعه تلميذه ابن القيم، وكانت الفتوى مدفونة فى الكتب إلى أن أحياها تلميذه فى المنهج محمد بن عبدالوهاب، فنبش تلك الدفائن واستخرج هاتيك الكوامن والبذور المهلكة، فأثمرت قتل النفوس، وقطع الرؤوس كما سيوافيك تفصيل هذه الكوارث . وقد استند ابن تيمية وأتباعه فى ادّعاء الحرمة لحديث أبى الهياج، ونحن نذكر متن الحديث بالسند الّذى رواه مسلم فى صحيحه. «حديثنا يحيى بن يحيى، وأبوبكر بن أبى شيبة، وزهير بن حرب، قال يحيى: أخبرنا وقال الآخران: حدثنا وكيع عن سفيان، عن حبيب بن أبى ـــــــــــــــــ

١ . تطهير الاعتقاد ص ١٧ طبع مصر. ثم إنه حاول أن يجيب عن هذا الأمر بما الإعراض عن ذكره أحسن . (١٨٤)

ثابت، عن أبى وائل عن أبى الهياج الأسدى قال: قال لى علىّ بن أبى طالب: ألا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول اللّه، أن لا تدع تمثالا إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته(١) . زعم المستدل أن معناه: ولا قبراً عالياً إلاّ سوّيته بالأرض. والاستدلال به باطل، لأنه ضعيف السند، قاصر الدلالة. وأمّا السند فيكفى أن علماء الرجال ضعفوا هؤلاء الأربعة الواقعين فى السند: ١- وكيع. ٢- سفيان الثورى . ٣-

حبيب بن أبى ثابت . ۴- أبو وائل الأسدى(۲). ويكفى فى ضعف الحديث أنه رواه أبو الهياج وليس له فى الصحاح والمسانيد حديث غير هذا، فكيف يستدل بسند يشتمل على المدلسين والمضعفين والذين لا يحتج بحديثهم، كما ذكره ابن حجر فى ترجمة هؤلاء الأربعة . وإليك نقل اقوال العلماء فى حقهم: ۱- وكيع: هو وكيع بن الجراح بن مليح، الرواسى، الكوفى، روى عن عدة منهم سفيان الثورى، وروى عنه جماعة منهم يحيى بن يحيى، وهو مع ما مدحوه نقلوا فيه أيضاً قدحاً كثيراً، قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب:

قال عبداللّه بن أحمد عن أبيه (أحمد بن حنبل) قال: سمعت أبى يقول: كان وكيع أحفظ من عبدالرَّحمن بن مهدى كثيراً كثيراً، وقال فى ——————

۱ . صحيح مسلم، ج ۳ كتاب الجنائز ص ۶۱، السنن للترمذى ج ۲ ص ۲۵۶، باب ما جاء فى تسوية القبور، السنن للنسائى ج ۴ باب تسوية القبر ص ۸۸ .

۲ . لاحظ تهذيب التهذيب للعسقلانى الأجزاء ۳، ۴، ۱۱ ص ۱۷۹، ۱۱۵، ۱۳۰، ۱۲۵ . (۱۸۵)

موضع آخر: ابن مهدى أكثر تصحيفاً من وكيع: ووكيع أكثر خطأ منه . وقال فى موضع آخر: أخطأ وكيع فى خمسمائة حديث . وقال ابن عماد: قلت لوكيع: عدّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غلطت فيها، فقال: حدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة ليس بكثير فى ألف وخمسمائة. وقال على بن المدينى: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه لكان عجباً. وقال محمد بن نصر المروزى: كان يحدث بآخره من حفظه، فيغيّر ألفاظ الحديث كأنه كان يحدث بالمعنى، ولم يكن من أهل اللسان(۱) . وقال الذهبى فى ميزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المدينى: كان وكيع يلحن، ولو حدث بألفاظه كان عجباً(۲). * * * ۲- سفيان الثورى: وهو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى الكوفى، أكثروا المدح فى حقه، وقال الذهبى: مع أنه كان يدلس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال: يدلس ويكتب عن الكذابين(۳) .

وقال ابن حجر: قال ابن المبارك: حدث سفيان بحديث فجئته وهو يدلس، فلما رآنى استحيى، وقال: نرويه عنك؟(۴) . وقال فى ترجمة يحيى بن سعيد بن فروخ قال: أبوبكر، وسمعت يحيى يقول: جهد الثورى أن يدلس على رجلاـ ضعيفاً فما أمكنه(۵) .

---

۱ . تهذيب التهذيب ج ۱۱ ص ۱۲۳، ۱۳۱ .

۲ . ميزان الإعتدال ج ۴ ص ۳۳۶ .

۳ . ميزان الإعتدال ج ۲ ص ۱۶۹ برقم ۳۳۲۲ .

۴ . تهذيب التهذيب ج ۴ ص ۱۱۵ فى ترجمة سفيان .

۵ . تهذيب التهذيب ج ۱۱ ص ۲۱۸ . (۱۸۶)

والتدليس هو أن يروى عن رجل لم يلقه، وبينه وبينه واسطة فلا يذكر الواسطة. وقال أيضاً فى ترجمة سفيان: قال ابن المدينى عن يحيى بن سعيد: لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص، ولا حيان بن أياس، ولم يسمع من سعيد بن أبى بردة، وقال البغوى: لم يسمع من يزيد الرقاشى. وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث المسائية، يضع ماله حيث يشاء ولم يسمع من خالد بن سلمة بتاتاً، ولا من ابن عون إلّا حديثاً واحداً(۱) . وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلساً، وعندئذ يكون فاقداً لملكة العدالة، لأنه كان يصور غير الواقع واقعاً. وقال الإمام الذهبى: قال صاحب الحلية: أخبرنا أبو أحمد الفطريفى، أخبرنا محمد بن أحمد بن مكرم، أخبرنا على بن عبد الحميد، أخبرنا موسى بن مسعود، أخبرنا سفيان، دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز وكساء خز دخانى، فقلت: يابن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ليس هذا من لباس آبائك قال: كانوا على قدر اقتار الزمان، وهذا زمان قد اسبل عزاليه ثم حسر عن جبّة صوف تحته، وقال: لبسنا يا ثورى هذا للّه وهذا لكم، فما كان للّه أخفيناه وما كان لكم أبديناه(۲) . إنّ هذا الإعراض يدل على عدم فهمه للأُمور، وعدم معرفته بها . * * * ۳- حبيب بن أبى ثابت قيس بن دينار: تابعى، وثقه بعض، ولكن قال ابن حبان فى

الثقات: کان مدلساً، وقال العقیلی: غمزه ابن عون، وقال القطان: له غیر حدیث عن عطاء لا یتابع علیه، ولیست محفوظة.
وقال ابن خزیمة فی صحیحة: کان مدلساً. وقال العقیلی: وله عن عطاء أحادیث لا یتابع(۳) . ـــــــــــــــــــــ ۱ . تهذیب التهذیب ج ۴ ص ۱۱۵ والمسائیة: العبد المعتق .
۲ . تذکرة الحفاظ ج ۱ ص ۱۶۷ .
۳ . تهذیب التهذیب ج ۲ ص ۱۷۹ . (۱۸۷)

وقال ابن حجر ایضاً فی تقریب التهذیب: حبیب بن أبی ثابت: قیس، ویقال: هند بن دینار الأسدی، مولاهم أبو یحیی الکوفی، ثقة فقیه جلیل، وکان کثیر الإرسال والتدلیس، من الثالثة، مات سنة تسع عشرة ومائة(۱) . ونقل ابن حجر عن کتاب الموضوعات لابن الجوزی من نسخة بخط المنذری أنه نقل فیه حدیثاً عن أبی کعب فی قول جبرئیل: لو جلست معک مثل ما جلس نوح فی قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال، ولم یعله ابن الجوزی إلاّ بعبد اللّه بن عامر الأسلمی شیخ حبیب بن أبی ثابت(۲) . * * * ۴- أبو وائل الأسدی: وهو شقیق بن سلمة الکوفی، کان منحرفاً عن علیّ بن أبی طالب، قال ابن حجر: قیل لأبی وائل: أیهما أحب إلیک: علیّ أم عثمان؟ قال: کان علیّ أحبّ إلیّ ثم صار عثمان(۳) .

ولفظة «أحب» هناک لیست صیغة التفضیل بل المراد أنه کنت علویاً ثم صرت عثمانیاً، وکان الحزبان یومذاک یبغض أحدهما الآخر. ویشهد لذلک ما ذکره ابن أبی الحدید حیث قال: ومنهم أبو وائل شقیق بن سلمة، کان عثمانیاً یقع فی علیّ ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ ویقال إنّه کان یری رأی الخوارج، ولم یختلف فی أنّه خرج معهم، وأنّه عاد إلی علی ـ علیه السّلام ـ منیباً مقلعاً. روی خلف ابن خلیفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربَعة آلاف فخرج إلینا علیّ فما زال یکلّمنا حتّی رجع منّا ألفان . وروی صاحب کتاب «الغارات» عن عثمان بن أبی شیبة، عن الفضل بن دکین، عن سفیان الثوری قال: سمعت أبا وائل یقول: شهدت صفین وبئس الصفوف کانت!.

---

۱ . تقریب التهذیب ج ۱ ص ۱۴۸ تحت رقم ۱۰۶ .
۲ . لسان المیزان ج ۲ ص ۱۶۸ فی ترجمة حبیب بن ثابت .
۳ . تهذیب التهذیب ج ۴ ص ۳۶۲ . (۱۸۸)

قال وقد روی أبوبکر بن عاصم بن أبی النجود قال: کان أبو وائل عثمانیاً(۱). ویکفی أنّه کان من ولاة عبید اللّه بن زیاد لعنه اللّه . قال ابن ابی الحدید: وقال أبو وائل: استعملنی ابن زیاد علی بیت المال بالکوفة(۲) . هذا کله حول سند الروایة، وقد عرفت أنّ سندها یشتمل علی ضعاف، وعلی فرض ورود المدح فی حقهم فو معارض بما عرفت من الجرح، وعند التعارض یقدّم الجارح علی المادح فیسقط الحدیث عن الاعتبار، و یرجع إلی أدلة أُخری، وسیوافیک أنّ الأصل فی المقام الجواز، کما سیأتی ذلک فی آخر البحث . * * *

وأمّا ضعفه دلالةً فإلیک البیان . إنّ تبیین ضعف دلالة الحدیث یتوقف علی توضیح معنی اللفظین الواردین فی الحدیث المذکور: ۱- «قبراً مشرفاً». ۲- «إلاّ سوّیته» . أمّا الأول فقد قال صاحب القاموس: والشرف محرکة: العلو. ومن البعیر سنامه، وعلی ذلک فیحتمل أن یراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص کسنام البعیر ولا یتعین ذلک إلاّ بالقرینة . أمّا الثانی، أعنی قوله: «سوّیته» فهو یستعمل علی وجهین: أ ـ یطلق ویراد منه مساواة شیء بشیء، فیتعدی إلی المفعول الثانی بحرف التعدیة کالباء قال سبحانه (إذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ العَالَمِینَ)(۳) . ـــــــــــــــــــ
۱ . شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ج ۴ ص ۹۹ .
۲ . شرح نهج البلاغة ج ۱۲ ص ۲۲۳ .
۳ . سورة الشعراء: الآیة ۹۸ . (۱۸۹)

أى نعدّ الآلهة المكذوبة متساوين مع رب العالمين، فنضيف إليكم ما نضيف إلى رب العالمين. وقال سبحانه حاكياً عن حال الكافرين يوم القيامة (يَوْمَئِذ يَوَدُّ الّذينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوِّى بِهِمُ الأرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً)(۱) أى يودّون أن يكونوا تراباً أو ميتاً مدفوناً تحت الأرض . ب ـ يطلق ويراد منه ما هو وصف لنفس الشيء، لا ـ بملاحظة شيء آخر، فيكتفى بمفعول واحد، قال سبحانه: (الّذى خَلَقَ فَسَوَّى)(۲) وقال سبحانه: (بَلَى قَادرينَ عَلَى أنْ نُسَوِّى بَنَانَهُ)(۳) وقال سبحانه: (فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهَ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدينَ)(۴) فى هذه الموارد وقعت التسوية وصفاً لنفس الشيء بلا إضافة إلى غيره. ويراد منه حسب اختلاف الموارد تارة كمال الخلقة واستقامتها فى مقابل نقصها واعوجاجها، وهذا هو المقصود فى الآيات الكريمة، وأُخرى تسطيحه مقابل اعوجاجه، وبسطه مقابل كونه كالسنام . إذا عرفت ذلك فلنعد إلى الحديث ولنطبق الضابطة عليه، فبما أنّه استعمل مع مفعول واحد فلا يراد منه المعنى الأول، أى مساواته بالأرض، وإلاّ كان عليه أن يقول «سويته بالأرض» بل يراد منه ما هو وصف لنفس القبر والمعنى المناسب هو تسطيح القبر فى مقابل تسنيمه، وبسطه فى مقابل اعوجاجه، وهذا هو الّذى فهمه شراح الحديث، وبما أنّ السنة هى التسطيح، والتسنيم بدعة، أمر علىّ ـ عليه السّلام ـ بأن تكافح هذه البدعة، ويسطّح كل قبر مسنم . ويؤيد ما ذكرناه أنّ المحققين من أهل السنة لم يفهموا من الحديث إلاّ ما ذكرنا، وإليك نقل كلماتهم : ۱- قال القرطبى فى تفسير الحديث: «قال علماؤنا: ظاهر حديث أبى

۱ . سورة النساء: الآية ۴۲ .

۲ . سورة الأعلى: الآية ۲ .

۳ . سورة القيامة: الآية ۴ .

۴ . سورة الحجر: الآية ۲۹ . (۱۹۰)

الهياج منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون واطئة»(۱) . إنّ دلالة الحديث على منع تسنيم القبور ظاهرة، وأمّا دلالتها على عدم ارتفاعها فغير ظاهر، بل مردود باتفاق أئمة الفقه على استحباب رفعها قدر شبر(۲) . ۲- قال ابن حجر العسقلانى فى شرحه على البخارى ما هذا نصه: (مسنَّماً بضم الميم وتشديد النون المفتوحة أى: مرتفعاً. زاد أبو نعيم فى مستخرجه: وقبر أبوبكر وعمر كذلك واستدل به على أنّ المستحب تسنيم القبور، وهو قول أبى حنيفة ومالك وأحمد والمزنى وكثير من الشافعية . وقال أكثر الشافعية ونص عليه الشافعى: التسطيح أفضل من التسنيم، لأنّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ سطح قبر إبراهيم، وفعله حجة لا فعل غيره، وقول السفيان التمار «رأى قبر النبى مسنّماً فى زمان معاوية» لا حجة فيه، كما قال البيهقى، لاحتمال أنّ قبره ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وقبرى صاحبيه لم تكن فى الأزمنة الماضية مسنّمة ـ إلى أن قال ـ : ولا يخالف ذلك قول علىّ ـ عليه السّلام ـ أمرنى رسول اللّه أن لا أدع قبراً مشرفاً إلاّ سوّيته، لأنّه لم يرد تسويته بالأرض، وإنّما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، ونقله فى المجموع عن الأصحاب(۳) . ۳- وقال النووى فى شرح صحيح مسلم: إنّ السنة أن القبر لا يرفع عن الأرض رفعاً كثيراً، ولا يسنم بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعى ومن وافقه، ونقل القاضى عياض عن أكثر العلماء أن الأفضل عندهم تسنيمها، وهو مذهب مالك(۴) . ويؤيد ذلك أنّ صاحب الصحيح (مسلماً) عنون الباب بـ(باب تسوية القبور) ثم روى بسنده إلى تمامه قال: كنّا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم ،

۱ . تفسير القرطبى ج ۲ ص ۳۸۰ تفسير سورة الكهف .

۲ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲ .

۳ . إرشاد السارى ج ۲ ص ۴۶۸ .

۴ . صحيح مسلم بشرح النووى ج ۷ ص ۳۶ الطبعة الثالثة ـ دار إحياء التراث العربى . (۱۹۱)

فتوفى صاحب لنا، فأمر فضال بن عبيد بقبره فسوى، قال: سمعت رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ يأمر بتسويتها، ثم أورد بعده فى نفس الباب حديث أبى الهياج المتقدم(۱) . وفى الختام نذكر أُموراً: ۱- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتّفقت

عليه كلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وكلهم متّفقون على أنّه يندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر(۲) ولو أخذنا بالتفسير الّذى يرومه الوهابى من حديث أبى الهياج من مساواة القبر بالأرض يجب أن يكون القبر لاطئاً مساوياً معه . ۲- لما عجز الوهابيون فى مقابل سيرة المسلمين، حيث دفنوا النبى فى بيته فصار القبر عليه بناء، عمد بعضهم إلى التفريق بين الأمرين فقال: الحرام هو البناء على القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبى تحت البناء ولم يبنوا على قبره شيئاً(۳) ولكنّه تفريق بلا وجه، لأنّ حديث أبى الهياج مطلق يعم الصورتين . ۳- حديث أبى الهياج ـ على فرض صحة سنده ودلالته ـ يهدف إلى تخريب القبر ومساواته بالأرض، لا هدم البناء الواقع عليه، فالاستدلال به على الثانى استدلال عجيب. * * * ب ـ حديث جابر وتحليله سنداً ومتناً

إنّ الوهابيين يستدلون بحديث جابر على حرمة البناء على القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذكر نصاً واحداً منها: روى مسلم فى صحيحه: حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة، حدثنا حفص ــــــــــــــــــ

۱ . المصدر السابق .

۲ . الفقه على المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲ .

۳ . رياض الجنة، بقلم مقبل بن الهادى طبع الكويت . (۱۹۲)

ابن غياث، عن ابن جريج، عن أبى الزبير، عن جابر قال: نهى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه(۱) . والاستدلال بحديث جابر غير صحيح سنداً ومتناً . أمّا الأول فلأنّ جميع أسانيده مشتملة على رجلين هما فى غاية الضعف : ۱- ابن جريج: وهو عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج . ۲- أبو الزبير. وهو محمد بن مسلم الأسدى . أمّا الأول فإليك كلمات أئمة الرجال فى حقه: سئل يحيى بن سعيد عن حديث ابن جريج قال: فقال: ضعيف، فقيل له إنّه يقول: أخبرنى قال: لا شىء.. كله ضعيف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج: قال فلان وقال فلان جاء بمناكير. وقال مالك بن أنس: كان ابن جريج حاطب ليل . وقال الدارقطنى: يجنب تدليس ابن جريج فإنّه قبيح التدليس، لا يدلس إلاّ فى ما سمعه من مجروح . وقال ابن حبان: كان ابن جريج يدلس فى احاديث(۲). وأمّا الثانى: فإليك أقوال علماء الرجال فيه: فعن إمام الحنابلة عن أيوب إنّه كان يعتبر أبا الزبير ضعيف الرواية . ــــــــــــــــــ

۱ . لاحظ للوقوف على متون الحديث المختلفة وأسانيده: صحيح مسلم، كتاب الجنائز ج ۳ ص ۶۲، والسنن للترمذى ج ۲ ص ۲۰۸، طبع المكتبة السلفية، وصحيح ابن ماجة، ج ۱ كتاب الجنائز، ص ۴۷۳، وصحيح النسائى ج ۴ ص ۸۷ إلى ۸۸، وسنن أبى داود ج ۳ ص ۲۱۶، باب البناء على القبر، ومسند أحمد ج ۳ ص ۲۹۵ و ۳۳۲ ورواه أيضاً مرسلا عن جابر ص ۳۹۹ .

۲ . تهذيب التهذيب ج ۶ ص ۲ ـ ۴ و ص ۵ ـ ۶ طبع دار المعارف العثمانية. ولاحظ ما ذكرناه فى الجزء الأول ص ۹۶ . (۱۹۳)

وعن شعبة: لم يكن فى الدنيا أحبّ إلىّ من رجل يقدم فأسأله عن أبى الزبير، فقدمت مكة فسمعت منه فبينا أنا جالس عنده، إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فردّ عليه، فافترى عليه فقلت: يا أبا الزبير تفترى على رجل مسلم؟ قال: إنّه أغضبنى، قلت: ومن يغضبك تفترى عليه؟ لا رويت عنك شيئاً. وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: مالك تركت حديث أبى الزبير؟ قال: رأيته يزن ويسترجع فى الميزان . وقال ابن أبى حاتم: سألت أبى عن أبى الزبير، فقال: يكتب ولا يحتج به قال: وسألت أبا زرعة عن أبى الزبير فقال: يروى عنه الناس قلت: يحتج بحديثه؟ قال: إنما يحتج بحديث الثقات(۱) . باللّه عليك أيصحّ الاستدلال بهذا الحديث؟ أفهل يصحّ هدم آثار النبوة والرسالة والصحابة بهذه الرواية؟ . على أنّ بعض الأسانيد مشتمل على عبد الرحمن بن أسود المتّهم بالكذب والوضع . هذا كله ما يتعلّق بالسند، وأمّا المتن ففيه ملاحظتان: الأُولى: إنّ الحديث روى بِصوَر سبع، مع أنّ النبى نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلى متونه المبعثرة فى المصادر الّتى أوعزنا إليهاترى فيها الاضطراب العجيب، وإليك صورها:

۱- نهى رسول اللّه عن تجصيص القبر والاعتماد عليه . ۲- نهى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عن الكتابة على القبر . ۳- نهى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عن تجصيص القبر، والكتابة والبناء عليه، والمشى عليه . ــــــــــــــــــ

۱ . تهـذيب التهـذيب، ترجمة أبى الزبير ج ۹ ص ۴۴۲ طبع حيـدرآباد ـ دكن عام ۱۳۲۶، ولاحـظ: الطبقات الكبرى ج ۵ ص ۴۸۱ . (۱۹۴)

۴- نهى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ عن الجلوس على القبر، وتجصـيصه، والبنـاء والكتابـة عليه . ۶- نهى عن رسـول اللّه ـ صلَّى الله عليـه وآله وسـلم ـ عن الجلـوس على القـبر، وتجصـيصه والبنـاء عليه . ۷- نهى رسـول اللّـه ـ صـلّى الله عليه وآله وسـلم ـ عن الجلوس على القبر وتجصـيصه والبناء عليه، والزيارة عليه، والكتابـة عليه(۱). مضافـاً إلى اختلافات أُخرى فى أداء مقصود واحـد، فيعبّر عنه تـارة بالاعتمـاد، وأُخرى بـالوطء، وثالثـة بـالقعود. ومن المعلوم إِنَّ الاعتمـاد غير الـوطء، وهمـا غير القعـود، فمع هـذا الاضـطراب والاختلاف فى المضـمون لاـ يمكن لأى فقيه أن يعتمـد عليه؟!. الثانيـة: إنّ الحـديث على فرض صـحته لا يثبت سوى ورود النهى من النبى ولكن النهى منه تحريمى ومنه تنزيهى، وبعبـارة أُخرى: نهى تحريم، ونهى كراهـة، وقـد اسـتعمل النهى فى كلمـات الرسول فى القسم الثـانى كثيراً ولأجـل ذلـك حمله الفقهـاء على الكراهـة، فترى الترمـذى يـذكر هـذا الحـديث فى صـحيحة تحت عنوان كراهية تجصـيص القبور، والسـندى شارح صـحيح ابن ماجة ينقل عن الحاكم النيسابورى أنّه لم يعمل بهذا النهى (بالمضمون التحريمى) أحد من المسلمين، بدليل أنّ سيرة المسلمين قائمة على الكتابة على القبور .

وأمّا الكراهة فربما تكون مرتفعة بالنسبة إلى المصالح العظيمة المترتبة عليه، كما إذا صار البناءعلى القبر سـبباً لحفظ الآثار الإسـلامية، وإظهـار المودة لصاحب القبر الّذى فرض اللّه مودته على الناس(۲)، أو يكون لاسـتظلال الزائر وتمكّنه من تلاوة القرآن وإهـداء ثوابه إلى صاحب القبر، إلى غير ذلك من الأُمور ______________

۱ . لاحظ فى الوقوف على المتون المختلفة للحديث مضافاً إلى المصادر الّتى أوعزنا إليها، كتابنا (الوهابية فى الميزان) ص ۸۸ ـ ۸۹ .

۲ . قال سبحانه: (قل لا أسألكم عليه أجراً الّا المودة فى القربى) (الشورى/۲۳) . (۱۹۵)

الّتى يتمكّن الإنسـان منهـا تحت الظـل لاـ تحت الشـمس ولا فى برد الليل، فالنهى التنزيهى أشـبه بالمقتضـيات الّتى ترتفع بأقوى منها .

أحاديث ثلاثة فى الميزان

فقد ورد فى ذلك المجال أحاديث أُخر نذكرها بسـندها ومتنها: روى ابن ماجة فى صحيحه ما يلى: ۱- حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا محمد بن عبد اللّه الرقاشـى، حدثنا وهب، حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن القاسم بن مخيمرة، عن أبى سعيد أنّ النبى نهى أن يبنى على القبر(۱) . ويذكر ابن حنبل حديثاً آخر بسـندين هما: ۲- حـدثنا حسن، حدثنا بريد بن أبى حبيب، عن ناعم مولى أُم سـلمة عن أُم سلمة قالت: نهى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أن يبنى على القبر أو يجصّص . ۳- على بن إسحاق، حدثنا عبد اللّه بن لهيعـة، حدثنى بريد بن أبى حبيب عن ناعم مولى أُم سـلمة: أنّ النبى نهى أن يجصّيـص قبر أو يبنى عليه أو يجلس(۲) . فسند الحديث الأول يشـمل على (وهب) وهو مردد بين سـبعة عشـر رجلا، وفيهم الوضّاعون والكذّابون(۳) . والحـديث الثانى والثالث لا يحتـج بهما لاشـتمالهما على (عبداللّه بن لهيعة) الّذى يقول فيه ابن معين: ضـعيف لا يحتج به، ونقل الحميدى عن يحيى بن سـعيد أنّه كان لا يراه شيئاً(۴) . ______________

۱ . صحيح ابن ماجة ج ۱ ص ۴۷۴ .

۲ . مسند أحمد ج ۶ ص ۲۹۹ .

۳ . ميزان الاعتدال ج ۳ ص ۳۵۰ ـ ۳۵۵ .

۴ . ميزان الاعتدال ج ۲ ص ۴۷۶، وتهذيب التهذيب ج ۱ ص ۴۴۴ . (۱۹۶)

هذه حال الأحاديث الّتى صارت ذريعة بيد الوهابيين لتدمير الآثار الإسـلامية منذ أن اسـتولوا على الحرمين الشـريفين، حيث لا تمر سنة إلّا ويدمّر أثر من الآثار الإسلامية بحجة توسيع الحرم الشريف، حتّى المكتبات وبيوتات بنى هاشم ومدارسهم، وبيت مضيف النبى أبى أيوب الأنصارى، وفى الوقت نفسه يعكفون على حفظ آثار اليهود فى خيبر وغيرهم باسم الحفاظ على الآثار التاريخية. ثم إنّ القاضـى

ابن بليهد قد أعوزته الحجة فتمسّك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأنّ البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها. سبحان اللّه ما أتقنه من برهان؟ من أين علم أنّ البقيع كانت أرضاً حية وقفها صاحبها على دفن الأموات؟ . ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنه لم يكن فيها يوم أُعِدَّت للتدفين أى أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب (وفاء الوفاء) . آخر ما فى كنانة المستدل

ذكر البخارى فى صحيحه فى باب كراهة اتّخاذ المساجد على القبور الخبر التالى: لما مات الحسن بن الحسن بن على ضربت امرأته القبّة على قبره سنة، ثم رفعت، فسمعوا صالحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا(۱) . إنّ هذا الخبر لو صحّ فهو على نقيض المطلوب أدل، فهو يدل على جواز نصب المظلّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن ـ عليهما السَّلام ـ لأنه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلها نصبت تلك القبة لأجل تلاوة القرآن فى جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه . وأمّا قول الصالح فهو أشبه بقول غير الصالح، كما أنّ الجواب أيضاً ــــــــــــــــــــــ

۱ . صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ۲ ص ۱۱۱، السنن للنسائى ج ۲ كتاب الجنائز ص ۱۷۱. (۱۹۷)

مثله، لأنه بصدد الشماتة على امرأة افتقدت زوجها وهى مستحقة للتعزية والتسلية لا الشماتة، لأنها ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة زوجها إلى الحياة حتّى يقال إنها يئست، بل كان نصبها للمظلة للغايات الدينية والأخلاقية . ترى هؤلاء الأغبياء يدمّرون آثار الرسالة وهم يتمسكون فى ذلك بركام من الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حباً لأهل بيت رسول اللّه الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وفرض مودّتهم وولاءهم وقال: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى)(۱) . * * *

إلى هنا تبين أنّه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهه على حرمة البناء على القبور، وأنهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درس السلف الصالح. والآن هلمّ معى أتلو عليك أدلة القائلين بالجواز، سواء أكان صاحب القبر رجلا عادياً أم كان عظيماً من عظماء الدين، وإليك بيانها: عرض المسألة على الأدلة المحكمة

إذا وقفت على ضعف ما استدل به القوم على تحريم البناء على القبور، وسقوطه عن الاعتبار، فيجب عرض المسألة على الأدلة المحكمة الّتى لا يصحّ لأحد النقاش فى اعتبارها وحجيتها . فإذا دلت تلك الأدلة على الجواز، فلا محيص من طرح هذه الأحاديث الضعاف، أوحملها على الكراهة، أو غير ذلك. وإليك بيان تلك الأدلة: ۱- الكتاب والبناء على القبور

يظهر من الكتاب أنّ البناء على القبور، بل بناء المسجد عليها كان جائزاً فى الشرائع السابقة، وأنّ الناس عندما وقفوا على قبور أصحاب الكهف، ــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الشورى: الآية ۲۳ . (۱۹۸)

اختلفوا على قولين: فمن قائل: (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً)(۱) . ومن قائل آخر: (لَنَتَّخِذَنّ عَلَيْهِم مَسْجِداً)(۲) . والاستدلال بالآية واضح لمن يرى القرآن قدوة وأُسوة. فإنّ القرآن ينقل كلا القولين، من دون أن ينتقدهما أو يعترض عليهما ويردع عنهما بل الظاهر أنّه ينقلهما بصورة التحسين، وأنّ أصحاب الكهف بلغ بهم ثباتهم فى طريق العقيدة إلى حد لما عثر عليهم الناس اجتمعوا على تكريمهم واحترامهم، بل التبرك بهم، فمن قائل بلزوم البناء عليهم. وآخر باتخاذ مراقدهم مسجداً، وليس القرآن كتاب قصة وأُسطورة، وإنما هو كتاب إرشاد وقدوة وإمام. فلو كانوا فى عملهم هذا ضالين لعلق على قولهم بشىء أو عابه، كما هو الحال فيما ينقل عن المشركين، والكافرين، عملا، أو رأياً. قال سبحانه حاكياً كيفية غرق فرعون: (حَتّى إذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنّهُ لَا إِلهَ اَلّا الّذى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)(۳) ولأجل إيقاف المؤمنين على أنّ الإيمان فى هذا الظرف غير مفيد، عقّب عليه بقوله:(ألآن وَقَد عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)(۴) . فلأجل ذلك يكون القرآن قدوة فى كل ما ينقله من أعمال الماضين، إلاّ إذا عقّب عليه بالرد، أو دلّت القرائن على كونه عملا غير مقبول . ۲- السيرة المستمرة بين المسلمين

لم يزل الإلهيون من أهل الكتاب والمسلمين فى قاطبة الأعصار يهتمون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير، ثم التطهير والتنظيف، حتّى نرى أنّ كثيراً من المتمكّنين يخصصون أموالهم ويوقفونها فى هذا المجال. فهذه القباب الشاهقة، والمنائر الرفيعة، والساحات

الوسيعة حول ______________

۱ . سورة الكهف: الآية ۲۱ .

۲ . سورة الكهف: الآية ۲۱ .

۳ . سورة يونس: الآية ۹۰ .

۴ . سورة يونس: الآية ۹۱ . (۱۹۹)

مراقد الأنبياء والأولياء، فى مختلف البلاد شرقها وغربها، وهذا دليل قاطع على أنّ هذه السيرة كانت مرضية عن صاحب الشريعة وخلفائه وأصحابه، وإلاّ ـ كان عليهم رفضها وردها بالبنان والبيان، والسلطة والقوة، فالسكوت فى بعض الفترات ودعمها فى بعض الأحايين أدلّ دليل على كونها سيرة مرضية. نعم، إذا كان اتّخاذ المقابر مساجد على النحو الرائج عند اليهود والنصارى فهو محرّم، وقد نصّ الرسول على تحريمه، كما تأتى الروايات مع توضيحها، وهو مسألة أُخرى غير مجرّد البناء على القبور الّذى هو مسألتنا. هذا هو السلف الصالح قد وقفوا ـ بعد ما فتحوا الشام ـ على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ... فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أن تهدم، وهكذا الحال فى سائر القبور المشيدة عليها الأبنية فى أطراف العالم، وإن كنت فى ريب فاقرأ تواريخهم، وإليك نص ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية: إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة من قبيلة «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم بـ «حبرون» ولعلهم استغلوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم.. وربما يكون توصيف تميم الدارى نسبة إلى الدار، أى: الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخميين للإسلام، لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الّذى قدّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم(۱) . وجاء أيضاً فى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة «الخليل»: ويقول المقدسى، وهو أول من أسهب فى وصف الخليل: إنّ قبر إبراهيم كانت تعلوه قبة بنيت فى العهد الإسلامى، ويقول مجير الدين: إنها شيدت فى عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطّى بعضه، وقبر يعقوب قباله، وكان المقدسى أول من ذكر تلك الهبات الثمينة الّتى قدّمها الأُمراء الورعون من أقاصى البلاد إلى هذا الضريح، وذلك الاستقبال الكريم الّذى يلقاه الحجاج من جانب ______________

۱ . دائرة المعارف الإسلامية ج ۵ ص ۴۸۴ مادة تميم الدارى . (۲۰۰)

التيميين (۱) . ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة الّتى كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أنّ السّنة السنية الرائجة فى تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هى مشروعية البناء على القبور، والعناية بحفظ آثار رجال الدين، ولم ينبس أىّ ابن أُنثى حول ذلك ببنت شفة، وما اعترض عليها، بل تلقوها إظهاراً للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين قال سبحانه: (وَمَنْ يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)(۲) .

وقد وارى المسلمون جسد النبى الأكرم فى بيته المسقف، ولم يزل المسلمون مذ أن ووِرىَ جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب، وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً وقد جاء تفصيل كل ذلك مع ذكر وصف الأبنية الّتى توالت عليها عبر القرون فى الكتب المتعلقة بتاريخ المدينة، لا سيما وفاء الوفاء للعلامة السَّمهودى المتوفى عام (۹۱۱ هـ)(۳) والبناء الأخير الّذى شيّد عام (۱۲۷۰ هـ) قائم لم يمسه سوء، وسوف يبقى بفضل اللّه تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجتراء . وأمّا المشاهد والقباب المبنية فى المدينة فى العصور الأُولى فحدّث عنها ولا ـ حرج، ولا ـ سيما فى بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة . هذا هو المسعودى المتوفى عام (۳۴۵ هـ) يقول: «وعلى قبورهم فى هذا ______________

۱ . دائرة المعارف الإسلامیة ج ۸ ص ۴۲۰ مادة خلیل .

۲ . سورة النساء: الآیة ۱۱۵.

۳ . وفاء الوفاء ج ۲ الفصل التاسع ص ۴۵۸ إلی آخر الفصل . (۲۰۱)

الموضع من البقیع رخامة مکتوبه علیها: بسم اللّه الرحمن الرحیم، الحمدللّه مبید الأُمم ومحی الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ سیدة نساء العالمین، وقبر الحسن بن علیّ بن أبی طالب، وعلیّ بن الحسین بن أبی طالب، ومحمد بن علیّ و جعفر بن محمد»(۱) . وذکر السبط ابن الجوزی المتوفی عام ۶۵۴ هـ فی تذکرة الخواص ص ۳۱۱ نظیر ذلک، وهذا هو محمد بن أبی بکر التلمسانی یصف المدینة الطیبة وبقیع الغرقد فی القرن الرابع بقوله: «وقبر الحسن بن علیّ عن یمینک إذا خرجت من الدرب ترتفع إلیه قلیلا، علیه مکتوب: هذا قبر الحسن بن علیّ، دفن إلی جنب أُمه فاطمة رضی اللّه عنها وعنه(۲) . ویقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار المتوفی عام ۶۴۳ هـ فی أخبار مدینة الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ :.. فی قبة کبیرة عالیة قدیمة البناء فی أول البقیع، وعلیها بابان یفتح أحدهما فی کل یوم للزیارة، رضی اللّه عنهم(۳) . یقول ابن جبیر ذلک السائح الطائر الصیت المتوفی عام ۶۱۴ هـ فی رحلته فی وصف بقیع الغرقد: مقابل قبر مالک، قبر السلامة الطاهرة إبراهیم ابن النبی علیه قبة بیضاء وعلی الیمین منها تربة ابن عمر بن الخطاب (رضی الّه عنه)... وبإزائه قبر عقیل ابن أبی طالب (رضی اللّه عنه). وعبداللّه بن جعفر الطیار (رضی اللّه عنه)، وبإزائهم روضة فیها أزواج النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وبإزائها روضة صغیرة فیها ثلاثة من أولاد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ، ویلیها روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن علی (رضی اللّه عنه)، وهی قبة مرتفعة فی الهواء علی مقربة من باب البقیع المذکور، وعن یمین الخارج من، رأس الحسن إلی رجلی العباس (رضی اللّه عنهما)، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشیان بألواح ملصقة أبدع، إلصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومکوکبة بمسامیر علی أبدع صفة وأجمل منظر، وعلی هذا ــــــــــــــــــــ

۱ . مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ۲ ص ۲۸۸ .

۲ . مجلة العرب رقم ۵ ـ ۶ المؤرخ ۱۳۹۳ .

۳ . أخبار مدینة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال ـ طبع مکة المکرمة ۱۳۶۶ . (۲۰۲)

الشکل قبة إبراهیم ابن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ، ویلی هذه القبة العباسیة بیت ینسب لفاطمة بنت الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ، ویعرف ببیت الحزن... وفی آخر البقیع قبر عثمان الشهید المظلوم ذی النورین (رضی اللّه عنه)، وعلیه قبة صغیرة مختصرة، وعلی مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أُم علیّ (رضی اللّه عنها) وعن بنیها(۱). روی البلاذری أنّه لما ماتت زینب بنت جحش سنة عشرین صلی علیها «عمر» وکان دفنها فی یوم صائف، ضرب «عمر» علی قبرها فسطاطاً(۲) ولم یکن الهدف من ضربه تسهیل الأمر لمن یتعاطی دفنها، بل لأجل تسهیله لأهلها حتّی یتفیّأوا بظلّه ویقرأوا ما تیسّر من القرآن والدعاء، فلاحظ . حصیلة البحث إنّ سیرة المسلمین من عصر الصحابة إلی التابعین إلی تابعی التابعین، إلی عصرنا هذا أقوی حجة علی الحکم الشرعی ـ فإنّ اتفاق العلماء فی عصر و «إجماعهم علی حکم» حجة شرعیة علیه، فکیف اتفاقهم علیه طیلة قرون، ولا سیما الصحابة العدول . فالصحابة واروا جسد النبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فی بیته، ولم یخطر ببال أحد أن البناء علی القبور محرّم، ولا ـ أظن أنّ جاهلا متنسّکاً یفرق بین البناء المتقدم علی الدفن والمتأخر عنه، فضلا عن عالم، فإنّ کون قبر المیت تحت بناء تکریم له وتعظیم، والقوم یتلقونه شرکاء لأنّه تعظیم لغیر اللّه، فلا یفرق بین البناء علی القبور أو دفن المیت تحت بناء . ولیس هذا شیء ینکره أحد من المسلمین . والعجب أنّ الوهابیین لما واجهوا هذه السیرة المستمرة عمدوا إلی تفسیر هذه السیرة بأنّ النبی إنما دفن فی بیته، لأجل حدیث رواه أبوبکر، قال ابن کثیر: إنّ أصحاب النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ لم یدروا أین یقبرون ــــــــــــــــــــ

۱ . رحلة ابن جبیر، بیروت دار صادر. وقد زار المدینة المنورة عام ۵۷۸ هـ .

۲ . أنساب الأشراف ج ۱ ص ۴۳۶ . (۲۰۳)

رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ حتّى قال أبوبكر: سمعت النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يقول:: لم يقبر نبىّ إلاّ ـ حيث يموت(۱) . ثم أضاف المؤلف: فعلمنا من هذه الأحاديث أنّ النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ دفن فى بيته كما أمر بذلك، فعلى هذا فلا حجة فيه للقبوريين فى البناء على القبور، إذ لم يبن على قبره، وإنّما دفن فى بيته(۲) . ولا يخفى وجود التهافت فى عبارته، فصدرها يدل على أنّ دفن النبى فى بيته كان بأمره ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ، ولو لم يكن أمره لما دفنوه فيه، لأنّ الدفن فى البناء حرام، وذيل العبارة يدل على التفريق بين الدفن تحت البناء القائم والبناء على القبر . فلو أراد الوجه الأول كما هو ظاهره حيث استقصى مصادر الحديث المذكور قرابة ست صفحات، فهو مردود بدفن الشيخين فى البيت، مع أنّه لم يرد فى حقهما ما ورد فى حق النبى . ولو أراد الثانى فهو تفريق لا يجنح إليه ذو مسكة، بعد وحدة الملاك والاشتراك فى المفسدة المزعومة. وبعد دلالة الذكر الحكيم والسيرة على الجواز، لا مناص عن طرح هذه الروايات أو تأويلها. ۳- البناء تعظيم لشعائر اللّه

إنّ تعظيم قبور الأنبياء والأولياء وتنظيفها وحفظها عن تطرق الفساد والانهدام مظهر لتعظيم شعائر اللّه قال سبحانه: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّم شَعَائِرَ اللّهِ فإنَّها مِنْ تَقْوى القُلُوبِ)(۳) . ______________

۱ . البداية والنهاية ج ۵ ص ۲۶۶، وقد جاءت مصادر هذه الرواية فى كتاب رياض الجنة ص ۲۶۴ .

۲ . رياض الجنة ۲۶۹ .

۳ . سورة الحج: الآية ۳۲ . (۲۰۴)

والاستدلال بالآية يتوقف على ثبوت صغرى وكبرى: الغصرى عبارة عن كون الأنبياء وأوصيائهم ومن يرتبط بهم أحياءً وأمواتاً من شعائر اللّه... والكبرى عبارة عن كون البناء والتنظيف وصيانة المقابر تعظيم لشعائر اللّه . ولا أظن أنّ الكبرى تحتاج إلى مزيد بيان، إنما المهم بيان الصغرى، وأنّ الأنبياء والأوصياء من شعائر اللّه، وبيان ذلك يحتاج إلى نقل ما ورد حول شعائر اللّه من الآيات : ۱- (إنَّ الصّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّه)(۱) . ۲- (يَا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللّهَ وَلاَ الشّهْرَ الحَرَام وَلا الهَدْىَ وَ لاَ القَلاَئِدَ وَ لاَ آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً)(۲) . ۳- (وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللّه لَكُمْ فِيْهَا خَيْرٌ)(۳) . ۴- وفى رواية أُخرى جعل مكان شعائر اللّه، حرمات اللّه وقال: (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّه فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنْعامُ إلاّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنِ الأوثَانِ...)(۴) .

ما هو المقصود من (شعائر اللّه) ؟ هنا احتمالات: ۱- تعظيم آيات وجوده سبحانه . ۲- معالم عبادته وأعلام طاعته . ۳- معالم دينه وشريعته وكل ما يمتإليهما بصلة . ______________

۱ . سورة البقرة: الآية ۱۵۸ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۲ .

۳ . سورة الحج: الآية ۳۶ .

۴ . سورة الحج: الآية ۳۰ . (۲۰۵)

أمّا الأول فلم يقل به أحد، إذ كل ما فى الكون آيات وجوده، ولا يصحّ تعظيم كل موجود بحجة أنه دليل على الصانع . وأمّا الثانى فهو داخل فى الآية قطعاً، وقد عدّ الصفا والمروة والبدن من شعائر اللّه، فهى من معالم عبادته وأعلام طاعته، إنما الكلام فى اختصاص الآية بمعالم العبادة وأعلام طاعته، الظاهر المتبادر هو الثالث، أى معالم دينه سبحانه، سواء أكانت أعلاماً لعبادته وطاعة أم لا، فالأنبياء والأوصياء والشهداء والصحف والقرآن الكريم والأحاديث النبوية كلها من شعائر دين اللّه وأعلام شريعته، فمن عظمها فقد عظم شعائر الدين . قال القرطبى: فشعائر اللّه: أعلام دينه، لا سيما ما يتعلق بالمناسك(۱) ولقد أحسن حيث عمّم أولا، ثم ذكر مورد الآية ثانياً، ومما يعرب عن ذلك أنّ إيجاب التعظيم تعلق بـ (حرمات اللّه) فى آية أُخرى . قال سبحانه: (وَمَنْ يُعظِّمْ حُرُماتِ اللّه فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ ربّه)، والحرمات ما لا يحل انتهاكه، فأحكامه سبحانه حرمات اللّه، إذ لا يحل انتهاكها، وأعلام طاعته وعبادته وحرمات اللّه، إذ يحرم

هتكها وأنبياؤه وأوصياؤهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمات اللّه، يحرم هتكهم، فلو عظّمهم المؤمن أحياء وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَن يَعظّم حرمات اللّه» «ومن يعظّم شعائر اللّه». ۴- الإذن فى ترفيع بيوت خاصة

لقد أذن اللّه تعالى فى ترفيع البيوت الّتى يذكر فيها اسمه فقال: (فى بُيُوت أذنَ اللّهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ و الآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَبَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّه)(۲) وقد عرفت أنّ ابن تيمية جعل الآية دليلا على تكريم المساجد، ولكنّه غفل عن أنّ البيوت غير المساجد، فهناك بيت وهناك مسجد، والبيت هو البناء الّذى يتشكّل من جدران أربعة وعليها ــــــــــــــــــــ

۱ . تفسير القرطبى، طبع دار إحياء التراث العربى، ج ۱۲ ص ۵۶ .

۲ . سورة النور: الآية ۳۶ ـ ۳۷ . (۲۰۶)

سقف قائم، ولأجل ذلك يقال للكعبة بيت اللّه، وللساحة المحيطة به (المسجد الحرام) وأيضاً يستحب أن تكون المساجد غير مسقّفة، وترى المسجد الحرام مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يظلّه، دون البيت فالسقف من مقوماته . قال سبحانه: (وَلَوْلاَ أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بَالرَّحمنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضّة وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُون)(۱) . فالبيوت غير المساجد، ولو تنزلنا فهى أعمّ منها تشمل المسجد وغيره. هذا كله حول البيوت، وأمّا الرفع الوارد فى الآية الكريمة فسواء أفسّر بالرفع الحسى بإرساء القواعد وإقامة الجدران كما فى قوله سبحانه: (وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعِيلُ)(۲)، أمْ فسّر بالرفع المعنوى كما هو الحال فى قوله سبحانه: (وَرَفَعَنَاه مَكَاناً عَلياً)(۳). أى منحناه مكانة عالية. فلو فسرّ بالرفع الحسّى يكون دليلاـ على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء، وتعميرها فى حياتهم وبعد وفاتهم حسب إطلاق الآية، وقد كان بيوت كثير من الأئمة الصالحين هى مقابرهم، فتشييد هذه البيوت عمل جائز بنص الآية، وأمّا لو فسّر بالرفع المعنوى، وأنّ من وظائف المسلمين تكريم هذه البيوت كما هو المتبادر، فتعمير بيوتهم من مظاهر ذلك التعظيم المعنوى، كما أنّ تدميرها وجعلها معرضة لما لا يناسب ساحتهم، تجاهل لهذه الآية وتولٍّ عنها . ومن لطيف ما روى فى المقام ما رواه الحافظ السيوطى عن أنس بن مالك، وبريدة، أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قرأ قوله: (فى بيوت أذن اللّه أن ترفع) فقام إليه رجل وقال: أى بيوت يا رسول اللّه؟ فقال: «بيوت الأنبياء» فقام إليه أبوبكر وقال: يا رسول اللّه وهذا البيت منها؟ ـ مشيراً إلى بيت علىّ وفاطمة ـ فقال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : نعم من أفاضلها(۴) . ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الزخرف: الآية ۳۳ .

۲ . سورة البقرة: الآية ۱۲۷ .

۳ . سورة مريم: الآية ۵۷ .

۴ . الدر المنثور: ج ۵ ص ۵۰ . (۲۰۷)

فهذه الآية وحدها كافية فى جواز تعظيم بيوت الأنبياء والأوصياء وأهل بيت النبى مطلقاً، ومقابرهم ومراقدهم إذا كانت بيوتهم . ۵- إظهار المودة للنبى والقربى

إنّ القرآن الكريم ـ يأمرنا ـ بكل صراحة ـ بحب النبى وأقربائه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، ومودّتهم ومحبّتهم فيقول: (وَمَنْ يَتَوَلّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغَالِبُونَ)(۱) . (قُل لا أسْالُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَودَّةَ فِى القُرْبَى)(۲) .

ومن الواضح لدى كل من يخاطبه اللّه بهذه الآية أنّ البناء على مراقد النبى وأهل بيته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، وهو نوع من إظهار الحب والمودة لهم، وبذلك يخرج عن كونه بدعة لوجود أصل له فى الكتاب والسنة، ولو بصورة كلية . وهذه العادة متبعة عند كافة الشعوب، والاُمم فى العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية فى كنائس ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها . إلى هنا تمّ الكلام حول جواز البناء على القبور مطلقاً، وقبور الأنبياء والأوصياء والصالحين خاصة، على وجه لم يبق لمتدبّر فيه شكّ، ولا ـ لمكابر إنكار، إلاّ من أعمى اللّه بصره وبصيرته . هذه هى الآيات الواضحة الدلالة على جواز البناء، وهذه هى سيرة المسلمين المشرقة طوال القرون . ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة المائدة: الآیة ۵۶ .

۲ . سورة الشوری: الآیة ۲۳ . (۲۰۸)

فلو فرضنا تعارض الأدلة من الجانبین، فالأصل هو الإباحة کما سیوافیک . ۶- الأصل هو الإباحة

إنّ القائل بالحرمة یجب أن یستدل علیها، والقائل بالإباحة یکفیه الأصل (عدم الحرمة إلاّ ما قام الدلیل علی تحریمه) وقد عرفت أنّه لیس هناک شبه دلیل علی الحرمة، والآیات أدل دلیل علی أنّه سبحانه لا یعذب أُمّةً إلاّ بعد إرسال الرسل و بعثهم، وهو کنایة عن وصول البیان والتشریع إلی الناس، فلو لم یصل ـ وإن بلغه الرسول ـ لا یکون منجزاً فی حق العبد. قال سبحانه: (وَمَا کُنّا مُعَذِّبِینَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولا)(۱) .

وظاهر الآیات یعطی أن وظیفة التشریع تبیین المحرمات لا المباحات. قال سبحانه: (قَلْ تَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُم)(۲) . وقال: (قُلْ لَا أجِدُ فی ما أُوحِیَ إلَیّ مُحَرّماً عَلَی طَاعِمٍ یَطْعَمُهُ..)(۳) . فإذا کان صعید التشریع فارغاً عمّا یدل علی التحریم فهو حجة علی کون الشیء مباحاً محللا. وإلیک البحث عن بناء المساجد علی قبور الصالحین، وهو الموضوع الخامس فیما طرحه ابن تیمیة . * * * ________________

۱ . سورة الإسراء: الآیة ۱۵.

۲ . سورة الأنعام: الآیة ۱۵۱ .

۳ . سورة الأنعام: الآیة ۱۴۵ .

ابن تیمیة وبناء المساجد علی القبور

ابن تیمیة وبناء المساجد علی القبور

قال ابن تیمیة: «ولا یشرع اتّخاذها ـ أی القبور ـ مساجد»(۱) . وقال أیضاً: «لا یجوز بناء المسجد علی القبور» . وقد استدلّ الوهابیون علی ما یتبنّونه بالحدیث التالی المروی بعبارات مختلفة: ۱- «قاتل اللّه الیهود اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد» . ۲- «لعن اللّه الیهود والنصاری اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد». ۳- «ألا ومن کان قبلکم کانوا یتّخذون قبور أنبیائهم وصالحیهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّی أنهاکم عن ذلک» . ۴- «أخرجوا أهل الحجاز وأهل نجران من جزیرة العرب، واعلموا أنَّ شرار الناس الذین اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد». ۵- «لعن اللّه الیهود اتخذوا قبور أنبیائهم مساجد»(۲) . ________________

۱ . مضی مصدرها .

۲ . راجع للوقوف علی مصادر هذه الأحادیث صحیح البخاری کتاب الجنائز ج ۲ ص ۱۱۱، السنن للنسائی ج ۲ کتاب الجنائز ص ۸۷۱، صحیح مسلم ج ۲ ص ۵۶۸ کتاب المساجد وغیرها، وقد جمع مصادر الحدیث وصوره المختلفة محمد ناصر الدین الألبانی فی کتابه تحذیر الساجد ص ۱۱ ـ ۲۸ فذکر للحدیث ۱۴ صورة کما جمعها أبو عبدالرحمن مقبل بن هادی الوادعی فی کتاب ریاض الجنة ص ۲۷۸ ـ ۲۸۱ . (۲۱۰)

إنّ الوهابیین استغلوا هذا الحدیث وخرجوا بهذه النتیجة بأنّ مفادها: أ ـ حرمة بناء المساجد علی القبور . ب ـ وحرمة قصد الصلاة فیها . حتّی قال ابن تیمیة: إنّ المسجد والقبر لا یجتمعان(۱) . وهذا هو الکلام الّذی یجتره ویکرره کل من جاء بعده، فنظروا إلی الروایات بعقیدة مسبقة، وترکوا إجماع الأُمة ودلالة الکتاب علی الجواز کما بیّناه، فنقول: إنّ لهذه الروایات محتملات: ۱- الصلاة علی القبور بالسجود علیها تعظیماً . ۲- الصلاة باتّجاه القبور واتّخاذها قبلة . ۳- بناء المساجد علی القبور وقصد الصلاة فیها تبرکاً بالمقبور . ۴- إقامة الصلاة عند مراقد الأنبیاء ومقابرهم فقط . فهل للحدیث إطلاق یعم هذه الصورة والمحتملات کما ادّعاه الألبانی تبعاً لشیخه ابن تیمیة، وزعم أنّ هذا الحدیث من جوامع کلمه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ . أو أنّ الحدیث ینصرف ـ بشهادة القرائن المتصلة

والمنفصلة ـ إلى بعض الصور مما يلازم كون العمل شركاً، والمصلى مشركاً وخارجاً عن الحدود الّتى حددها الكتاب والسنة، كما هو الحق بشهادة القرائن العشر التالية؟ وإليك البيان: ۱- إنّ الحديث يركّز على عمل اليهود والنصارى، وأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وينهى المسلمين عن متابعتهم فى ذلك . ــــــــــــــــ

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۵۹ ـ ۶۰ وزاد المعاد تأليف ابن القيم ص ۶۶۱ . (۲۱۱)

وبما أنّ أهل الكتاب معروفون بالشرك وعبادة غير اللّه طيلة الأجيال والقرون، فالمسيحية تعبد ـ المسيح وأمه ـ كما أنّ كثيراً منهم اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون اللّه، يحرّمون ما أحلّ اللّه ويحلّلون ما حرّم اللّه . اليهود هم الذين طلبوا من نبيهم أن يجعل إلهاً كما أنّ لغيرهم آلهة، وهم الذين عبدوا العجل، بل عبدوا بعد رحلة الكليم أرباباً وآلهة، فهم كأنهم مفطورون على الوثنية وعبادة البشر ـ فعند ذلك ـ ينصرف الحديث إلى عمل يلحق المسلم بهم، ولا ـ يمكن أن يدّعى أنّ الحديث يعم ما إذا كان عمل اتخاذ القبور مساجد مجرّداً عن أىّ شرك، أو إذا كانت إقامة الصلاة عند قبورهم من باب التبرك بهم . ۲- نرى أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يصف هؤلاء الجماعة بكونهم شرار الناس. فقد روى مسلم فى كتاب المساجد أنّ أُم حبيبة وأُم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها فى الحبشة فيها تصاوير، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنى على قبره مسجد، وصَوّر فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند اللّه(۱) . إنّ توصيفهم بأنهم شرار الخلق عند اللّه، يميط الستر عن حقيقة عملهم، إذ لا ـ يوصف الإنسان بالشر المطلق، إلاّ ـ إذا كان مشركاً. قال سبحانه: (إنَّ شَرَ الدَّوابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الّذينَ لاَ يَعْقِلُونَ)(۲)، وقال تعالى: (إنَّ شَرَّ الدّوَابِّ عِندَ اللّهِ الّذينَ كَفَرُوا فَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ)(۳) . كل ذلك يكشف عن مرمى الحديث، وأنّ عملهم لم يكن عملا مجرداً مثل صرف بناء المسجد على القبر والصلاة فيه، أو إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملا مقترناً بالشرك بألوانه وصوره المختلفة، كاتخاذ القبر إلهاً ومعبوداً أو قبلة عند الصلاة، أو السجدة عليها بمعنى اتخاذها مسجوداً . ۳- إنّ الروايات الناهية الواردة فى المقام على قسمين: ــــــــــــــــ

۱ . صحيح مسلم ج ۲ كتاب المساجد ص ۶۶۶ .

۲ . سورة الأنفال: الآية ۲۲ .

۳ . سورة الأنفال: الآية ۵۵ . (۲۱۲)

قسم يشتمل على اللعن، وهذا مختص باتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد. وقسم آخر مشتمل على مجرد النهى من دون اقتران باللعن، وقد ورد ذلك فى مطلق القبور . ۱- عن أبى مرصد الغنوى قال: قال رسول اللّه: لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها(۱) . ۲- عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: الأرض كلها مسجد إلاّ المقبرة و الحمّام(۲) وغير ذلك . ۳- عن عبداللّه بن عمر: نهى عن الصلاة فى المقبرة(۳) . فعندئذ يجب التأمل فى هذا التفريق، لماذا اقترن الأول (اتخاذ قبور الأنبياء مساجد) باللعن دون الآخر، وإنّما ورد فيه مجرد النهى، (المحمول على الكراهة مطلقاً، أو فى ما إذا كان القبر بحيال المصلى، أو كانت الصلاة بين القبرين) وما هذا إلاّ لأنّ القسم الأول ناظر إلى عمل اليهود والنصارى فى مورد قبور أنبيائهم . وبما أنه كان مقترناً بالشرك بالسجود لها تعظيماً لهم، أو باتخاذها قبلة، استحقوا اللعن، وعرفوا بأنهم شرار الناس، ووهى المسلمون عن اتّباعهم . وأمّا القسم الآخر فلم يكن مقترناً بذلك أبداً، فجاء فيه النهى مجرداً عن اللعن . وبهذا لا يمكن القول بإطلاق الحديث و عموميته لكل الأحوال . ۴- إنّ السيدة عائشة، قالت: قال رسول اللّه: «لعن اللّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: فلولا ـ ذاك لأبرز قبره،

---

۱ . صحيح مسلم ج ۷ ص ۳۸ .

۲ . سنن أبى داود ج ۱ ص ۱۸۴ .

۳ . موارد الضمآن ص ۱۰ كما فى رياض الجنة . (۲۱۳)

غير أنّه خشـى أن يتّخذ مسـجداً (١) إنّ المسـلمين بعـدما دفنوا النّبى فى بيته سوّروه بحائـط مسـتدير، لا مربّع، لئلا يشابه الكعبـة . ومن المعلوم أنّ التسوير بالجدران وعدم إبراز قبره إنما يمنع عن اتخاذه مسـجوداً له أو قبلة، وأمّا الصلاة فى جنبه فلم يكن الجدار مانعاً عن إقامة الصلاة . ومراد السيدة عائشة: إنّ عدم إبراز القبر وستره بالحيطان منع المسلمين عن أن يرتكبوا ما كان اليهود والنصارى يرتكبونه . ومن المعلوم أنّ الجدران منعت عن الصور الشـركية كصورة اتخاذه مسجوداً له أو قبلة، لا إقامة الصـلاة المجردة من هذه الضـمائم . وهـذا دليل واضـح على أنّ الحديث كان بصدد نهى المسـلمين عن اتخاذ القبر مسـجوداً له أو قبلة . والعجب من الشـيخ الالبانى حيث أراد اسـتغلال الحـديث لتأييـد مذهبه، وموقفه، وفسّر قولها: «فلولا ذاك لأبرز قبره» بأنّ المقصود هو الدفن خارج بيته، مع أنّ العبارة لا تتحمّل هـذا، لانها تركزّ على ا لقبر الموجود، فيكون المقصود: ولو لا ذاك لكشف قبره ولم يتخـذ عليه حائط . ۵- قال أبو هريرة: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : أللّهمّ لا تجعل قبرى وثناً، لعن اللّه قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . إنّ العلاقة بين الجملتين تكشف عن أنّ المقصود هو: اتخاذ قبور الأنبياء مساجـد على نحو يعود القبر وثناً يعبد، أو يصـلى إليه . وأمّا الصـلاة للّه تبارك وتعالى وإلى الكعبة عند القبر تبركاً به فلا تجعل القبر وثناً يعبد، وهذا هو قول اللّه تعالى وهو يأمر الحجيج باتّخاذ مقام إبراهيم مصلّى، ويقول: (وَاتَّخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلّى)(٢) ______________

١ . البخارى ج ٣ ص ١۵٩ ومسلم ج ٢ ص ٧۶ .

٢ . سورة البقرة: الآية ١٢۵ . (٢١۴)

وليست الصـلاة عنـد القبر إلّا كمثل الصـلاة عند مقام إبراهيم . غير أنّ جسد النبى إبراهيم قد لامس هذا المكان مرة أو مرات عديدة، ولكن مقـابر الأنبياء احتضـنت أجسادهم الّتى لا تبلى دائماً. ۶- إنّ علماء الحـديث وجهابـذته فهموا من هـذه الأحاديث نفس ما قلناه، وإن لم يذكر الألبانى وغيره شيئاً من هذه التفاسير . أ ـ يقول العسـقلانى: إنّما صوّروا أوائلهم الصور ليسـتأنسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحـة فيجتهـدوا كاجتهـادهم، ثـم خلفهـم قـوم جهلـوا مرادهـم ووسـوس لهـم الشـيطان أنّ أسـلافهم كـانوا يعبـدون هـذه الصـور ويعظمونها... إلى أن يقول: قال البيضاوى: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشانهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصـلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأمّا من اتخذ مسجداً فى جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، لا للتعظيم ولا للتوجه نحوه، فلا يـدخل فى الوعيد المذكور(١). ب ـ ويقول النووى فى شـرح صحيح مسلم: قال العلماء إنما نهى النبى عن اتخـاذ قبره و قبر غيره مسـجداً خوفـاً من المبالغـة فى تعظيمه والافتتـان به، فربمـا أدّى ذلـك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأُـمم الخاليـة. ولمـا احتـاجت الصـحابة والتابعون إلى زيادة فى مسـجد رسول اللّه ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ حين كثر المسـلمون، وامتدّت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أُمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وصاحبيه، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مسـتديرة حوله لئلاّ يظهر فى المسـجد فيصـلى إليه العوام ويعود المحذور. ولهذا قالت عائشة فى الحديث عنه: ولو لاـ ذلك لأبرز قبره، غير أنّه خشـى أن يتّخـذ مسـجداً(٢) . ج ـ وقـال السـندى شارح الصـحيح للنسائى: اتخـذوا قبور أنبيائهم

---

١ . فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ج ١ ص ۵٢۵ ط دار المعرفة، وقريب منه ما فى إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى ج ٢ ص ۴٣٧ باب بناء المساجد على القبور .

٢ . صحيح مسلم بشرح النووى، ج ۵ ص ١٣ ـ ١۴ . (٢١۵)

مساجـد، أى قبلة للصـلاة ويصـلون إليها، أو بنوا مساجد يصـلون فيها، ولعلّ وجه الكراهة أنّه قد يقضـى إلى عبادة نفس القبر . إلى أن يقول: يحـذّر النبى أُمته أن يصـنعوا بقبره مـا صـنع اليهود والنصـارى بقبور أنبيـائهم من اتخـاذ تلك القبور مساجـد، إمّا بالسـجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلـة يتوجهون فى الصـلاة إليها(١). د ـ وقال شارح آخر: إنّ حـديث عائشـة يرتبط بالمسـجد البنوى قبل الزيادة فيه... أمّا بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه فقد بنوا الحجرة بشـكل مثلث كى لا يتمكّن أحد من الصلاة على القبر، إنّ اليهود والنصارى

كـانوا يعبـدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شـركاء فی العبادة(۲) . هــ ـ قـال الشـيخ علی القاری: سـبب لعنهم إمّا لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلی، وإمّا لأنهم كانوا يتخذون الصلاة للّه تعالی فی مدافن الأنبياء، والسجود علی مقـابرهم، والتوجه إلی قبورهم حـال الصـلاة، نظراً منهم بـذلك إلی عبـادة اللّه، والمبالغـة فی تعظيم الأنبيـاء، وذلك هو الشـرك الخفی. فنهی النبی أُمته عن ذلك إمّا لمشابهـة ذلك الفعل سـنة اليهود، أو لتضـمنه الشـرك الخفی. كـذا قال بعض الشـراح من أئمتنا ويؤيـده ما جاء فی روايـة. يحـذر مثل الّـذی منعوا(۳) . و ـ إنّ المروی عـن أئمـة أهـل الـبيت هـو مـا فهمه أولئـك الشـراح . ۱- روی الصـدوق مرسـلا قال: وقال النبی: لا تتخـذوا قبری قبلة ولا مسـجداً، فإنّ اللّه لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(۴). والمراد من قوله «مسـجداً» بقرينـة «قبلـة» هو السـجود عليه تعظيماً. روی الشـيخ الطوسـی بأسـناده عن معمر بن خلاد، عن الرضا ـ عليه السَّلام ـ

۱ . السنن للنسائی ج ۲ ص ۴۱ طبع الأزهر .

۲ . صحيح مسلم ج ۲۲ ص ۶۶ .

۳ . مرقاة المفاتيح فی شرح مشكاة المصابيح ج ۱ ص ۴۵۶ .

۴ . الوسائل: الجزء الثانی الباب ۶۵ من أبواب الدفن. الحديث ۲ . (۲۱۶)

قال: لا بأس بالصـلاة بين المقابر ما لم يتخذ القبر قبلة(۱) . ۳- روی الصدوق فی علل الشرائع بإسناده إلی زرارة عن أبی جعفر (الباقر) ـ عليه السَّلام ـ قال: قلت له: الصـلاة بين القبور، قال: بين خللها، ولا تتخذ شيئاً منها قبلة، فإنّ رسول اللّه نهی عن ذلك وقال: لا تتخذوا قبری قبلـة ولا مسـجداً، فإنّ اللّه عزّوجلّ لعن الـذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(۲) . ولو كـان المراد هو اتخاذ القبر قبلـة حقيقـة، بأن يصلـی عليه من كـل جـانب كالكعبـة، يكون حرامـاً لكونه بدعـة، ولو كـان المراد كون القبر أمامه وحيال وجهه، فيحمل علی الكراهة لجريان سـيرة المسـلمين علی الصـلاة فی الصـفة فی مسـجد النبی، والقبر بحيال المصلی . ۷- روی المفسـرون فی تفسـير قوله سبحانه: (وَقَالُوا لاَ تَـذَرُنَّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلاَ سُواعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْـراً)(۳) . عن ابن عبـاس: هؤلاء كانوا قوماً صالحين فی قومهم، فلمّا ماتوا عكفوا علی قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلمّا طال عليهم الأمـد عبودهم . قال القرطبی: روی الأئمـة عن أبی مرصـد الغنوی قـال: سـمعت رسول اللّه ـ صـلَّی الله عليه وآله وسـلم ـ يقول: لا تصـلوا إلی القبور ولا تجلسوا إليها (لفظ مسـلم) أی لا تتخـذوها قبلـة، فتصـلوا عليهـا أو إليها كما فعل اليهود والنصاری(۴) . ۸- روی مسـلم فی صـحيحه عن النبی الأـكرم أنّه قال حينما قالت أُم حبيبـة وأُم سلمـة بأنهما رأتا تصاوير فی إحدی كنائس الحبشة: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا علی قبره مسـجداً، وصوروا فيه تلك الصورة،

۱ . الوسائل الجزء الثالث، الباب ۲۵ من أبواب مكان المصلی، الحديث ۳ والباب ۲۶ الحديث ۳ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . سورة نوح: الآية ۲۳ .

۴ . تفسير القرطبی ج ۱۰ ص ۳۸۰ . (۲۱۷)

أولئك شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة(۱) . إنّ الهـدف من وضع صور الصالحين بجوار قبورهم إمّا لغاية اتخاذها قبلة أو عبادة ذويها، كالصـنم المنصوب، ومعه لا يمكن أن يسـتدل به علی تحريم مطلق اتخاذ القبور، مساجـد . ۹- إنّ أقصـی ما يدل عليه الحديث لو قلنا بإطلاقه هو أن يتّخـذ مـدفن الأنبياء مساجـد، وأمّا بناء مسجد فی جنب مدافنهم بحيث يكون المسـجد وراء المدفن كما هو الحال فی المشاهـد المشـرفة لأئمـة الشـيعة فلا يعمه النهی أبداً . ۱۰- وعلی فرض وجود الإطلاـق فـإذا دار الأـمر بين الأخـذ بالكتاب(۲) والسنة الرائجة بين المسـلمين من عهد التابعين إلی يومنا هذا، حيث يصـلون فی مسجد النبی وقبره فی وسطه، وبين إطلاق هذه الرواية فالأول هو المتعين . إذا تبين عـدم صـلاحية الحـديث للاسـتدلال علی التحريم، فيجب علينـا عرض المسألـة علی سـائر الأدلـة، وإليك البيان.

عرض المسألة على القرآن

كان الواجب على الوهابيين الذين يدمّرون الآثار الإسلامية بهذه الأحاديث عرض المسألة على القرآن الكريم الّذى هو تبيان لكل شىء . قال سبحانه: (وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شىء)(۳) .

والقرآن صادق مصدّق لا يكذب ـ يذكر سبحانه ـ فى قصة أصحاب الكهف أنّ القوم لما عثروا على أجسادهم المطرية فى الغار اختلفوا على قولين: تذكرهما الآية التالية : (وَكَذَلِكَ أعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَأنَّ السّاعَةَ لاَ رَيبَ ـــــــــــــــــــــ

۱ . صحيح مسلم ج ۲ ص ۶۶ كتاب المساجد .

۲ . سيوافيك بيان دلالة الكتاب على الجواز .

۳ . سورة النحل: الآية ۸۹ . (۲۱۸) فيها إذْ يَتنازَعُونَ بَيْنَهُم أمْرَهُم فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيهِم بُنْيَاناً رَبُّهُم أعْلَمُ بِهِم قَالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنّ عَلَيْهِم مَسْجداً)(۱) .

فالآية صريحة فى أن القوم بعد ما عثروا عليهم اختلفوا فى كيفية تكريمهم وتعظيمهم على قولين: ۱- البناء على قبورهم «ابنوا عليهم بنياناً» . ۲- بناء المسجد على قبورهم «لنتخذن عليهم مسجداً». وكلتا الطائفتين يريدان التعظيم والتكريم على اختلاف منهجهم، والمعروف بين المفسرين أنّ القائلين بالقول الأول كانوا هم المشركين، وأنّ القائلين بالقول الثانى هم الموحدون والمسلمون، وسواء أثبت ذلك أم لا فإنّ العاثرين عليهم اختلفوا فى كيفية تكريمهم وتعظيمهم، وعلى كل تقدير فالآية حجة على جواز بناء المسجد على القبور أولاً وعلى جواز بناء المسلمين عليها ثانياً، وذلك لأنّ القرآن يذكر القولين من دون رد وطعن، ولو كان كل من القولين ـ وخصوصاً القول الثانى ـ على خلاف الهداية وفى جانب الضلالة، لأشار إلى ردّه وطعنه، وليس القرآن كتاب قصة وإنما هو كتاب هداية، فلو كان يذكر شيئاً من الأُمم السالفة، فإنما هو للعبرة والاعتبار، ولأجل ذلك كثيراً ما يردّ عليهم بعد نقل كلامهم، فسكوت القرآن تجاه هذين القولين ونقلهما عن القوم بصورة كونه عملا مستحسناً، أقوى دليل على جواز العمل المذكور فى الأُمة المحمدية . قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المَدينَةَ): «إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشى بين سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فزعاً، ورأى أنّه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول فى نفسه: أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلاّ قتل، أمّا الغداة فاسمعهم، وكل ـــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الكهف: الآية ۲۱ . (۲۱۹)

إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال فى نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة الّتى أعرف...»(۱) . وهذا يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحدة مؤمنة متدينة بشريعة المسيح، رغم ما كانوا على ضده قبل ثلاثمائة سنة . وقال فى تفسير قوله تعالى: (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْياناً) فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم يقول: رب الفتية أعلم بشأنهم وقوله: «قَالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِم» يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف لنتخذنّ عليهم مسجداً . وقد نقل عن عبداللّه بن عبيد بن عمير: فقال المشركون نبنى عليهم بنياناً، فإنهم آباؤنا، ونعبد اللّه فيها. وقال المسلمون: نحن أحق بهم، هم منّا، نبنى عليهم مسجداً ونعبد اللّه فيه(۲) . وبذلك يعلم أنّ ما ذكره الألبانى فى الرد على الاستدلال بالآية، من أنّ المراد من الغالبين هم أهل السلطة ولا دليل على حجية فعلهم، رجم بالغيب، فإنّ ما ذكره الطبرى يدل على أنّ المراد هو الغلبة فى مجال الدين، وتدهور الوثنية وازدهار التوحيد . وهذا يدلّ على أنّ سيرة العقلاء فى العالم تكريم موتاهم، وأنّ سيرة المؤمنين الموحدين اتخاذ مقابر الصالحين مساجد ليتبركوا بوجودهم وأجسادهم الذين كرسوا حياتهم فى إشادة قوائم التوحيد ورفعوا صرحه، وكيف يتصور ممن قام بتكريم إمام الموحدين وسيدهم، أن ينحرف عن خطه الأصيل (التوحيد) ويعبد غيره سبحانه ويكون مشركاً، إلاّ إذا كان منحرفاً وأشرب فى قلبه العجل ـ أعاذنا اللّه من وساوسهم . * * * ـــــــــــــــــــــ

۱ . تفسير الطبرى ج ۱۵ ص ۲۱۹ طبع مصطفى الحلبى بمصر، سورة الكهف الآية ۱۹ .

۲ . تفسير الطبرى ج ۱۵ ص ۲۲۵، ولاحظ تفسير القرطبى والكشاف للزمخشرى وغرائب القرآن للنيسابورى فى ذيل هذه الآية . (۲۲۰)

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

هـذا هو الموضوع السـادس الّـذى قـال فى حقه ابن تيميـة: «ولا تشـرع الصـلاة عنـدها، ولا يشـرع قصـدها لأجل التعبّـد عنـدها بصـلاة واعتكاف، أو استغاثة وابتهال ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهى عنها، إلى أن قال: وإنما دين اللّه تعالى تعظيم بيوت اللّه وحدها التى تشـرّع فيها الصـلوات جماعة وغير جماعة، والاعتكاف، وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والـذكر والدعاء له(۱) . يقول محمـد بن عبـد الوهاب: لم يـذكر أحـد من أئمـة السـلف أنّ الصـلاة عنـد القبور وفى مشاهدها مسـتحبّة، ولاـ أنّ الصـلاة والـدعاء هنـاك أفضـل، بـل اتفق الكل على أنّ الصـلاة فى المساجـد والبيوت أفضل منها عنـد قبور الأولياء والصالحين(۲) . وجاء فى الجواب المنسوب إلى علماء المدينة: «أمّا التوجه إلى حجرة النبى عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المـذهب، لأـنّ أفضـل الجهـات جهـة القبلـة» . وقـد تجاوزت هـذه المسألـة على مر الزمان مرحلـة المنع إلى مرحلة الشرك ، ـــــــــــــــــــــــ

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۶۰ .

۲ . زيارة القبور ص ۱۵۹ ـ ۱۶۰ . (۲۲۱)

حتّى أنهم اليوم يعتبرون ذلك شـركاً، وكل من فعل ذلك يكون عندهم مشركاً، وإليك توضيح المسألة: ۱- لا شك أنّ إقامة الصلاة عند القبور لغاية عبادة صاحب القبر أو اتخاذه قبلة شرك، ولكن لاتجد على وجه البسيطة مسلماً يفعل ذلك، بل لا يحوم حوله البعداء من الأوسـاط الإسـلامية، فضـلا عن المتحضّـرين منهم، المتواجـدين فى الأوسـاط الدينيـة . ۲- إنّ هـدف المسـلمين من إقامة الصـلاة والـدعاء عنـد قبور الأولياء، هو التبرك بالمكان الّـذى احتضن جسد حبيب من أحبّاء اللّه، فيتمتع ذلك المكان بمنزلة سامية، فالصـلاة والـدعاء هناك يعودان بثواب أكثر على فاعلهما. إنّ لمشاهد الأولياء ومراقدهم شـرفاً وفضـيلة خاصة لا توجد فى غيرها، ولأجل ذلك أوصـى الشـيخان بدفنهما فى جوار النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، فالمصلى لدى قبورهم لا يقصد سوى ما قصده الشيخان لا غير. فلو كان قصد التبرك بمكان شـركاً فلماذا أوصـى الشـيخان بالدفن بجوار النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ؟ . ۳- إنّ القرآن الكريم يـأمر حجـاج بيت اللّه الحرام بإقامـة الصـلاة عنـد مقـام إبراهيم، وهو الصـخرة الّتى وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبـة، فيقول: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً)(۱) . إنّ الصلاة فى مقام إبراهيم لأجل التبرك بمقام النبى إبراهيم، فلو كانت عبـادة اللّه تبـارک وتعالى مقرونـة بالتبرك بمكان المخلوق شـركاً، فلماذا أمر به سـبحانه، فهل هناك فرق بين مقامهم ومثواهم؟ . ۴- سـأل المنصور العباسـى مالـک بن أنس وهما فى مسـجد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ فقال: يا أبا عبـد اللّه، أسـتقبل القبلة وأدعو أم أسـتقبل رسول اللّه؟ فقال مالک: لم تصرف عنه، وهو وسيلتک ووسيلة أبيک آدم إلى اللّه يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعک اللّه (۲) . ـــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة البقرة: الآية ۱۲۵ .

۲ . وفاء الوفاء ج ۴ ص ۱۳۷۶ . (۲۲۲)

والعجب أنّ الكاتب الوهابى (الرفاعى) حاول أن يكـذب القصة، قال: «إنّ أبا جعفر المنصور كان من أعلم علماء عصـره، فلا يصح أن يكون جاهلاـ فيستفسـر» . يا للعجب! من أين علم أنه كان مثل مالک بن أنس إمام المدينـة المنورة؟ وهل له آثار فى الفقه والحـديث مثـل مالـک؟ ماهـذه الكلمـة الساقطـة؟ وأى دليـل على أنه لم يكن جاهلا بهـذه المسألـة فيستفسـر مثله أو من هو أعلم منه ؟ ۵- روى

السيوطى فى أحاديث المعراج أنّ النبى الأكرم نزل فى المدينة وطور وسيناء وبيت لحم، وصلّى فيها، فقال له جبرائيل: يا رسول اللّه أتعلم أين صلّيت؟ إنّك صليت فى طيبة، وإليها مهاجرتك، وصلّيت فى طور سيناء، حيث كلم اللّه موسى تكليماً، وصليت فى بيت لحم حيث ولد عيسى(۱) . ولا أظن أن يتوهم أحد وجود الفرق بين المولد والمرقد بالتجويز فى الأول دون الثانى . ۶- إنّ المسلمين جميعاً يصلّون فى حجر إسماعيل، مع أنّ الحجر مدفنه ومدفن أُمه هاجر، فأىّ فرق بين مرقد النبى ومدفن أبيه إسماعيل؟ ۷- ولقد بلغت هاجر أُم إسماعيل مرتبة عند اللّه بسبب صبرها وتحمّلها المتاعب فى سبيل اللّه سبحانه، فجعل اللّه موضع أقدامها محلا للعبادة، وأوجب على حجاج بيته الحرام أن يسعوا فيها كما سعت هاجر بين جبلى الصفا والمروة، فنسأل إذا كان صبرها على المكاره، وتحمّلها المتاعب فى سبيل اللّه تعالى قد منحا الكرامة لموضع أقدمها، وأوجب اللّه على المسلمين أن يعبدوه سبحانه فى ذلك المكان بالسعى بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ـــــــــــــــــــــــ

۱ . الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطى ج ۱ ص ۱۵۴ . (۲۲۳)

مباركاً ومقدساً، فى حين أنّه تحمّل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده . قال ابن القيم ـ تلميذ ابن تيمية ـ: «إنّ عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبّدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه»(۱) . ۸- إذا كانت الصلاة عند القبر محرّمة فى الشريعة الإسلامية، فلماذا قضت عائشة عمرها فى البيت الّذى دفن فيه الرسول؟ . ۹- إنّ السيدة فاطمة الزهراء الّتى قال فى حقها النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «إنّ اللّه يرضى برضى فاطمة ويغضب بغضبها»(۲) كانت تزور قبر عمّها حمزة فى كل جمعة أو فى كل أسبوع مرتين، وكانت تبكى وتصلّى عند قبره . يقول البيهقى: كانت فاطمة (رضى اللّه عنها) تزور قبر عمّها حمزة كل جمعة، فتصلّى وتبكى عنده(۳) . ۱۰- إنّ مراقد الأنبياء ومشاهدهم تعدّ جزءاً من مطلق الأرض الّتى جعلها اللّه سبحانه محلا لعبادته، وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»(۴) . فما الدليل على إخراج مشاهد الأنبياء والأولياء والصالحين عن إطلاق الحديث المتفق عليه، أفيزعم الوهابى ان الصلاة فى مشاهد الأنبياء ومراقدهم أقل ثواباً من مطلق الأرض؟! ـــــــــــــــــــــــ

۱ . زاد المعاد فى هدى خير العباد طبع مصطفى البابى الحلبى، القاهرة بإشراف طه عبدالرؤوف ۱۳۹۰ هـ ق .

۲ . صحيح البخارى ج ۵ باب مناقب قرابة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ص ۲۰ ومستدرك الحاكم ج ۳ ص ۱۵۴ .

۳ . السنن للبيهقى ج ۴ ص ۷۸ مستدرك الصحيحين للحاكم ج ۱ ص ۳۷۷ .

۴ . صحيح البخارى ج ۱ ص ۹۱، مسند أحمد ج ۲ ص ۲۲۲ . (۲۲۴)

وأخيراً نرى أنّ المسلمين يقيمون الصلاة طيلة أربعة عشر قرناً عند قبر النبى والخليفتين، من دون أن يختلج ببال أحد من أنّ إقامة الصلاة عند القبور حرام أو مكروه . كيف، ولو كان مكروهاً أو حراماً لما أوصى الإمام الحسن بن على بدفن جسده المطهر عند قبر جده المصطفى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ حتّى حالت بنو أُمية دون إنفاذ وصيته . هذه الوجوه العشرة كافية لمن أراد اتباع الحق، ولا أظنّ أنّ المنصف المتحرّى للحقيقة ـ إذا تجرّد عن الهوى ـ ينبذ هذه الأدلة وراء ظهره . * * *

وفى الختام نذكر حكم الإضاءة عند القبور، فربّما يحكم بالحرمة لما رواه النسائى عن ابن عباس أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ لعن زائرات القبور والمتّخذين عليها المساجد والسرج(۱) . إنّ هذا الحديث وأمثاله يهدف إلى ما إذا كانت الإضاءة تبذيراً للمال، أو تشبّهاً ببعض الأُمم والشعوب، وإلاّ فالإضاءة إذا كانت لغاية قراءة القرآن والدعاء لا تكون محرمة . بل يقول العلامة السندى فى شرحه على الحديث: «والنهى عنه لأنّه تضييع مال بلا نفع»(۲) . أضف إلى ما فى الحديث من لعن زائرات القبور، مع أنّ عائشة زارت البقيع مع النبى، وقد علّمها كيفية الزيارة كما تقدم حديثه . ـــــــــــــــــــــــ

۱ . السنن للنسائى ج ۳ ص ۷۷ .

۲ . السنن للنسائى ج ۳ ص ۷۷ طبع مصر وج ۴ ص ۹۵ طبع بيروت شرح الجامع الصغير ج ۲ ص ۱۹۸ . (۲۲۵)

ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين

ابن تيمية والتوسل بالأنبياء والصالحين

إنّ التوسل بالأنبياء والصالحين فى حال حياتهم أو بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى من الأُمور الرائجة بين الموحدين فى جميع الأجيال والقرون، وقد أثارت فتوى ابن تيمية فيها بالحرمة ضجّة كبرى بين المسلمين، فالمسلمون كانوا إلى عصر ابن تيمية على جواز التوسل بشروطه المسوغة، إلى أن جاء ابن تيمية فأفتى بالحرمة، وتبعه الوهابيون، فأقصى ما جاز عندهم من التوسل هو التوسل بدعاء النبى فى حال حياته، غير أنّ الشبه والظنون الّتى اعتمدوا عليها فى منع التوسل كانت تقتضى منع هذا القسم أيضاً، لأنّه توسل بالمخلوق لا محالة فى مقام العبادة، لكنّهم لم يجدوا منتدحاً عن القول بجوازه لتصريح القرآن به، حيث حثّ المسلمين على المجىء إلى النبى وطلب الاستغفار منه، قال سبحانه: (وَلَوْ أَنّهُم إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً)(۱)، وقال سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوا يَسْتَغْفِرْ لَكُم رَسُولُ اللّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُم وَرَأَيْتَهُم يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)(۲) وقال سبحانه ناقلا عن أبناء يعقوب (يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنّا كُنّا خَاطِئِينَ)(۳) . ______________

۱ . سورة النساء: الآية ۶۴ .

۲ . سورة المنافقون: الآية ۵ .

۳ . سورة يوسف: الآية ۹۷ . (۲۲۶)

ولأجل الحط من شأن النبى وكرامته يجعلون النبى مساوياً للمؤمنين ويقولون: «إنّ التوسل الجائز هو التوسل بدعاء المؤمن حال حياته، ولو جاز التوسل بدعاء النبى فليس هذا إلاّ لكونه أحد المؤمنين، ويجوز التوسل بدعاء كل أخ مؤمن من غير فرق بين النبى وغيره، وأمّا غير ذلك فكله ممنوع». وستوافيك أقسامه وكلماتهم فيها، وبما أنّ الوهابيين مازالوا يستدلون ضد المتوسلين ببعض الآيات، نقدم البحث عنها ونقول: آيتان على طاولة التفسير (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُم وَلَا تَحْوِيلا * أُولئِكَ الّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِم الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ، وَيَرجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُوراً)(۱).

يقول محمد نسيب الرفاعى مؤسس الدعوة السلفية وخادمها فى الرياض: إنّك ترى أنّ اللّه تعالى يلفت أنظار المؤمنين إلى أنّ عمل المشركين بالتزلّف إلى اللّه بأشخاص المخلوقين لا يفيدهم شيئاً، لأنهم لا يملكون كشف الضرّ عنهم ولا تحويلا، فدعاؤهم بالذوات أو التوسل بهم لا ـ يقدّم ولا ـ يؤخّر، ولا ـ يوصلهم، لأنهم أخطأوا الطريق إلى اللّه . إنّ هاتين الآيتين فى سورة الإسراء نزلتا فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنّيون، أمّا الإنس الذين كانوا يعبدونهم فلم يشعروا بإسلامهم، فأخبرهم اللّه بوحيه المنزل على عبده ورسوله محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ: إنّ هؤلاء الذين يزعم المشركون أنهم يقرّبونهم إلى اللّه زلفى، يتسابقون ويتنافسون فيما بينهم بالتقرّب إلى الله تعالى، ويرجون رحمته و يخشون عذابه، فكيف أيها المشركون تدعونهم لكشف الضر عنكم وتوسّطونهم، فما الّذى تؤملون منهم وهم على أشدّ ما يكونون حاجة إلى اللّه تعالى، فالذى لا ـ يملك شيئاً، لا ـ يعطى شيئاً(۲).

____

۱ . سورة الإسراء: الآية ۵۶ ـ ۵۷ .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۱۲ ـ ۱۳ . (۲۲۷)

إنّ الاستدلال بهاتين الآيتين على رد التوسل الشائع بين المسلمين من عجيب الأُمور، فإنّ التوبيخ فيهما متوجّه إلى المشركين الذين كانوا معتقدين بألوهية معبوداتهم، وأنهم يملكون كشف الضر وتحويل السوء عن الدعاة، واللّه سبحانه يرد عليهم بأنّ المدعوين فى أشد الحاجة إلى طلب التقرب إلى اللّه سبحانه، فكيف يمكن لهم كشف الضر عنهم؟ وأيّة صلة بين أولئك المشركين المعتقدين

بألوهيـة المـدعوين، والموحـدين الذين يعتقدون بأنّه لا يملك كشف الضـر إلاّ اللّه، ولكنّهم يوسّطون بينهم وبين ربّهم أحد عباد اللّه الصالحين، الّذى له مكانة عند اللّه، لعلّه سبحانه يجيب دعوته لأجله وحرمته ومقامه، وليس ذلك ببدعة، فقد أمر بتوسيط دعاء النبى فى طلب المغفرة من اللّه، وأمر العصاة أن يطلبوا منه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ الاستغفار على ما عرفت . والقسمان يشتركان فى توسيط المخلوق، سواء أكان ذاته القدسية أمْ دعاءَهُ المستجاب . ثم إنّه فى ذيل كلامه يقول: «إنّ الذين كان العرب يوسطونهم فى توسلاتهم كانوا يتقربون إلى اللّه بأعمالهم الصالحة، فما بال المسلمين المتوسلين لا يقتدون بهم، ولم لا يفعلون ما يفعلون ما داموا بهم وبصلاحهم واثقين»؟ . وللملاحظة والتدبّر فى كلامه مجال واسع: أمّا أولا ـ فمن أين علم أنّ هؤلاء الذين كان العرب يوسطونهم كانوا يتقربون إلى اللّه بأعمالهم الصالحة؟ فليس فى الآية شىء يدل على ذلك . وثانياً ـ لو صحّ ذلك فمعنى كلامه أنّ التوسل منحصر فى ذلك، مع أنّه من المجوزين لتوسل المسلم بدعاء النبى فى حال حياته، بل بدعاء أخيه المسلم، فلماذا صار التخلف هيهنا عن هديهم ومذهبهم جائزاً مع أنهم لم يكونوا متقربين إلاّ بأعمالهم فقط .

والحق أنّ الكاتب اتّخذ موقفاً مسبقاً فى مجال التوسل، وهو إحياء ما بذره ابن تيمية، فلذلك ترى أنّه يقفو فى كتابه أثر شيخه، بلا تخلّف عنه قيد شعرة، مع أنه يتظاهر فى بدء كتابه بأنه يريد أن يعالج الموضوع علاجاً محايداً (۲۲۸)

عن كلّ تحيّز(۱) . أقسام التوسل: المشروع والممنوع عند الوهابيين

ثم إنّ الرفاعى لغاية التظاهر بالحياد فى الكتابة عن التوسل، يقسمه إلى مشروع وممنوع ويقول: وينقسم التوسل المشروع إلى ثلاثة أقسام: ۱- توسل المؤمن إلى اللّه تعالى بذاته العلية، وبأسمائه الحسنى، وبصفاته العلى . ۲- توسل المؤمن إلى اللّه تعالى بأعماله الصالحة . ۳- توسل المؤمن إلى الّه تعالى بدعاء أخيه المؤمن له . ثم إنّه يقدم الكتابة فى الموضوعات الثلاثة فيما يقرب من مائة وسبعين صفحة، مع أنّ هذه الموضوعات من المسائل البديهية لدى الأُمم جمعاء، فضلا عن المسلمين، ولكنّه جاء يصرف القلم والحبر والورق فى هذه الموضوعات لغاية التظاهر بأنه ليس مانعاً من التوسل، لكن التوسل المشروع هو هذه . ثم إنّه خصّ الشطر الآخر من كتابه التوسل الممنوع، وجعله ثلاثة : ۱- التوسل إلى اللّه بذوات النبيين والصالحين، وبالأمكنة الفاضلة كالكعبة والمشعر الحرام، وبالأزمنة المباركة كشهر رمضان وليلة القدر وأشهر الحج والأشهر الحرم . ۲- التوسل إلى اللّه بجاه فلان أو حرمته أو ما أشبه ذلك . ۳- الإقسام على اللّه تعالى بالمتوسل به . ثم إنّه بدأ فى البحث عن أحكام هذه التوسلات الثلاثة، وخرج بالمآل بحرمتها إمّا بالطعن فى أسناد الأحاديث، أو بنقد مضامينها، مع أنّ المأثورات الواردة فى ذلك المقام مستفيضة أو متواترة بالمعنى، فمن العجيب المناقشة فى أسناد المستفيض أو المتواتر. نعم إنّ الشيخ الرفاعى تنازل عن توصيف هذه ______________

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۹ . (۲۲۹)

التوسلات بالشرك، وأفتى بحرمتها، مع أنّ المعروف من ابن تيمية وأذنابه هو توصيفها بالشرك، أو كونها ذريعة له . يقول ابن تيمية فى بيان مراتب التوسل : أحدها: إنَّ الدعاء لغير اللّه سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ أمْ غيرهم، فيقال: يا سيدى أغثنى، وأنا مستجير بك وغير ذلك، فهذا هو الشرك باللّه . الثانى: أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء الصالحين: ادع اللّه وادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا مما لا يستريب عالم فى أنه غير جائز . الثالث: أن يقول: أسالك بجاه فلان عندك وحرمته ونحو ذلك(۱) . ترى أنّه وصف الصورة الأُولى بالشرك والثانية والثالثة بعدم الجواز، فقد فرغنا من تبيين معيار التوحيد والشرك فلا نعيد، وإنّما نتكلم فى الجواز وعدمه، ولنبحث عن الصور الثلاث الّتى جاءت فى كلام الرفاعى، وزعم أنها ممنوعة، فنقول: * * *

____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۲ ـ ۲۳ .

اقسام التوسل:

التوسل بالأنبیاء والصالحین أنفسهم

التوسل بالأنبیاء والصالحین أنفسهم

احتج الشیخ السلفی المعاصر علی التحریم بوجوه واهیة مدحوضة، وإلیک بیانها: ۱- لو کان هذا النوع من التوسل مشروعاً حقیقة لذکره الشارع فی زمرة ما ذکره وحثّ کذلک الناس علیه، ولیس معقولا أن یهمله اللّه تعالی ولا یبلّغه رسوله . ۲- إنّ اللّه عاب فی الآیة المتقدمة (آیة الإسراء) محاولتهم القربی والزلفی إلیه تعالی بالأشخاص والعباد المخلوقین، فکلا الأمرین فی الآیة عیب وذنب . ۳- إن أرادوا بالواسطة فی جلب المنافع ودفع المضار مثل أن یکون واسطة فی رزق العباد فهو من أعظم الشرک(۱) . یلاحظ علی الوجه الأول: أنّ القائلین بالتوسل بالأشخاص یدّعون أنّ النبی ذکره فی کلامه، وقد نقل هو فی نفس الکتاب ستة وعشرین دلیلا عنهم، وهو بین حدیث مروی عن النبی، وأثر منقول عن الصحابة فی ذلک المجال، وهو وإن ناقش فی أسنادها غالباً، لکنّه غفل ـ بعد تسلیم ما ناقشه ـ عن أنّ هذا العدد الهائل من الأخبار، أخبار متواترة بالمعنی، ولا وجه للمناقشة فی ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . التوصل إلی حقیقة التوسل ۱۷۷ ـ ۱۸۰ . (۲۳۲)

المتواتر، ولو صحّ النقاش فی المتواتر فربما تکون جمیع الأسناد زائفة باطلة . ویلاحظ علی الوجه الثانی: أنّ اللّه تعالی عاب علیهم بعبادتهم الوسائل الّتی یوسّطونها بینهم وبین اللّه، لا لتوسلهم بالأشخاص والعباد. قال سبحانه نقلا عنهم: (مَا نَعْبُدُهُم إلاّ لِیُقَرِّبُونَا إلی اللّهِ زُلْفَی)(۱) فکم فرق بین أن یعیب سبحانه توسیط الصالحین فی دعائه سبحانه، وأن یعیب عبادتهم الصالحین لیتوسطوا بینهم وبین اللّه، والآیة تهدف إلی الثانی دون الأول، وما هذا الاعوجاج فی الفهم لو لم یکن عناداً؟ . یلاحظ علی الوجه الثالث: أنّه فریة واضحة لا تصدر عن مسلم، بل یریدون منهم الدعاء والطلب من اللّه مثل حال حیاتهم، أو یطلبون من اللّه سبحانه قضاء حاجتهم، لأجل حرمة الوسائط الذین کرمهم اللّه فی الدنیا والآخرة، فالمدعو الحقیقی هو اللّه سبحانه، وهو الکعبة المقصودة مآلا . إذا وقفت علی دلائله الداحضة. هلمّ نقرر أدلة القائلین بجواز هذا النوع من التوسل، وهی أدلة مشرقة لا تبقی لأحد شکاً، وإلیک البیان: ۱- توسل الضریر بالنبی الأکرم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ

عن عثمان بن حنیف أنه قال: إنّ رجلا ضریراً أتی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فقال: ادع اللّه أن یعافینی . فقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خیر . قال: فادعه! فأمره ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن یتوضّأ فیحسن وضوءه، ویصلی رکعتین. ویدعو بهذا الدعاء: «أللّهمّ إنّی أسألک وأتوجه إلیک بنبیک نبی الرحمة، یا محمد إنی أتوجه ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الزمر: الآیة ۳ . (۲۳۳)

بک إلی ربی فی حاجتی لتقضی، أللّهمّ شفّعه فیّ» قال ابن حنیف: واللّه ما تفرّقنا وطال بنا الحدیث، حتّی دخل علینا کأن لم یکن به ضر. کلمات حول سند الحدیث

قال ابن تیمیة: وقد روی الترمذی حدیثاً صحیحاً عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أنه علّم رجلا أن یدعو فیقول: «أللّهمّ إنّی أسألک وأتوسل بنبیک... وروی النسائی نحو هذا الدعاء(۱) . وقال الترمذی: هذا حدیث حق حسن صحیح . وقال ابن ماجة: هذا حدیث صحیح . وقال الرفاعی: لا شکّ أنّ هذا الحدیث صحیح ومشهور...(۲) . نعم حاول السید محمد رشید رضا، مؤلف المنار، الّذی علق علی کتاب مجموعة الرسائل والمسائل، تألیف ابن تیمیة، أن یضعف الحدیث بحجة أنه ورد فی سنده أبو جعفر، وأنه غیر أبی جعفر الخطمی(۳) . ولکن المحاولة فاشلة، فإنّ إمام مذهبه أحمد فی مسنده وصفه بالخطمی، ونقل الرفاعی عن نفس ابن تیمیة أنّه جزم بأنّه هو أبو جعفر الخطمی، وهو ثقة(۴) ووصفه الحافظ سلیمان بن أحمد الطبرانی فی معجمه بـ(الخطمی المدنی) . ولأجل أن یقف القاریء علی مظانّ الحدیث فی الصحاح نذکره مصادره: ۱- سنن ابن ماجة، الجزء الأول، ص ۴۴۱ رقم الحدیث ۱۳۸۵

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۳ .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۱۵۸ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل ص ۱۳ قسم التعليقة .

۴ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۲۲۸ . (۲۳۴)

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، نشر دار إحياء الكتاب العربى، وقد عرفت تنصيصه بأنه حديث صحيح . ۲- مسند أحمد، ج ۴ ص ۱۳۸ عن مسند عثمان بن حنيف، طبع المكتب الإسلامى مؤسسة دار صادر، وقد روى هذا الحديث عن ثلاثة طرق . ۳- صحيح الترمذى ج ۵، كتاب الدعوات، الباب ۱۱۹، الحديث برقم ۳۵۷۸، وقد عرفت كلمته فى حق الحديث . ۴- مستدرك الصحيحين للحاكم النيسابورى، الجزء الأول ص ۳۱۳ طبع حيدر آباد الهند . قال بعد ذكر الحديث: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه . ۵- المعجم الكبير للطبرانى: الجزء التاسع باب (ما أسند إلى عثمان بن حنيف) ص ۱۷ برقم ۸۳۱۱، قال المعلق فى ذيل الصفحة: ورواه فى الصغير ۱/۱۸۳ ـ ۱۸۴ وقال: لم يروه عن روح بن أبى القاسم إلاّ شبيب بن سعيد المكى، وهو ثقة، وهو الّذى يحدث عنه أحمد بن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلى، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر الخطمى ـ واسمه عمير بن يزيد ـ وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس بن شعبة، والحديث صحيح . وبعد هذا كله لا مجال للمناقشة فى سند الحديث أو الطعن فيه، كيف والخصم الّذى يحاول أن يضعف كل صحيح، فشلت محاولته فى حقه، فسلم سنده، ولكن مضى يناقش فى دلالته، وسيوافيك أنها أيضاً محاوله فاشلة . دلالة الحديث

إنّ الحديث يدلّ بوضوح على أنّ الأعمى توسل بذات النبى بتعليم منه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فهو وإن طلب الدعاء من النبى الأكرم فى بدء الأمر، ولكنّ النبى علّمه دعاء تضمّن التوسل بذات النبى، وهذا هو المهم فى تبيين معنى الحديث . (۲۳۵)

وبعبارة ثانية: الّذى لا ينكر عند الإمعان فى الحديث أمران: الأول: إنّ الراوى طلب من النبى الدعاء، ولم يظهر منه توسل بذات النبى . الثانى: إنّ الدعاء الّذى علّمه النبى تضمّن التوسل بذات النبى بالصراحة التامة، فيكون دليلا على جواز التوسل بالذات، وإليك الجمل الّتى هى صريحة فى المقصود:

۱-اللّهمّ إنّى أسألك وأتوجّه إليك بنبيك . إنّ كلمة «بنبيك» متعلقة بفعلين: «أسالك» و «أتوجه إليك» والمراد من النبى نفسه المقدسة وشخصه الكريم، لا دعاؤه . إنّ من يقدّر كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيك» ويصوّر أنّ المراد: أسألك بدعاء نبيك، أو أتوجه إليك بدعاء نبيك، فهو يتحكم بلا دليل، ويؤوّل بلا جهة، ولو أنّ محدثاً ارتكب مثله فى غير هذا الحديث لرموه بالجهمية والقدرية .

۲- «محمد نبى الرحمة» . لكن يتضح أنّ المقصود هو السؤال من اللّه بواسطة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وشخصيته جاءت بعد كلمة (نبيك) جملة «محمد نبى الرحمة» لكن يتضح الهدف بأكثر ما يمكن . ۳- إنّ جملة «يا محمد إنى أتوجه إلى ربى» تدل على أنّ الرجل ـ حسب تعليم الرسول ـ اتخذ النبى نفسه وسيلة لدعائه، أى أنه توسل بذات النبى لا بدعائة . ۴- إنّ قوله: «وشفّعه فىّ»: معناه يا ربّ اجعل النبى شفيعى وتقبّل شفاعته فى حقى، وليس معناه تقبّل دعاءه فى حقى . ۵- فإنَّه لم يرد فى الحديث أنّ النبى دعا بنفسه حتّى يكون معناه: استجب دعاءه فى حقى، ولو كان هناك دعاء من النبى لذكره الراوى، إذ (۲۳۶)

ليس دعاؤه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ من الأُمور غير المهمة حتّى يتسامح الراوى فى حقه . نعم، إنّ الراوى طلب الدعاء من النبى، والنبى وعده بالدعاء حيث قال: إن شئت دعوت، ولكن النبى لمّا علّمه دعاء مؤثراً فى قضاء حاجته، وسكت عن دعاء نفسه، صار هذا قرينة على أنّ وعده بالدعاء، كان أعم من الدعاء المباشرى أو التسبيبى. فالدعاء الّذى وعد به النبى هو نفس الدعاء الّذى علمه الضرير، فكان دعاء له ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ بالتسبيب كما كان دعاء للضرير بالمباشرة . فالنقطة المركزية فى هذا التوسل هى شخص رسول اللّه وشخصيته الكريمة، لا دعاؤه، وإن كان دعاؤه ـ فى سائر المواضع ـ أيضاً مؤثراً مثل التوسل بشخصيته، ومن تأمل فى ما ذكرنا من القرائن يجزم بأنّ المتوسل به بعد تعليم النبى، هو نفس الرسول و شخصيته . ۶- ولنفترض أنّ معنى قوله: «وشفّعه فىّ»: استجب دعاءه فى حقى، ونفترض أنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ـ مضافاً إلى ما علّمه من الدعاء ـ قام بنفسه أيضاً بالدعاء، ودعا

البارى سبحانه أن يرد إليه بصره، ولكن أيّة منافاة بين الدعاءين حتّى يكون أحدهما قرينة على التصرف فى الآخر . فهناك كان دعاء من النبى ولم يذكر لفظه، ودعاء آخر علمه الرسول للضرير وقد تضمّن هذا الدعاء التوسل بذات النبى وشخصه، وليس بين الدعاءين أى تزاحم وتعارض حتّى نجعل أحدهما قرينة على الآخر . تشكيك الرفاعى فى دلالة الحديث

إنّ الخصم قد عجز عن الدفاع عن مذهبه وهو يواجه هذه الرواية، فإنها بصراحتها تقاومه وتكافحه، فعاد يكرر ما ذكره شيخه فى رسائله، غير أنّ شيخه: نقله بصورة الاحتمال، ولكن الرفاعى ذكره بحماس. قال ابن تيمية: «ومن الناس من يقول: هذا يقتضى جواز التوسل بذاته مطلقاً، حياً وميتاً، ومنهم من يقول: هذه قضية عين وليس فيها إلّا (۲۳۷)

التوسل بدعائه وشفاعته، لا التوسل بذاته»(۱) . ترى أنّ شيخ الرفاعى ينسبه إلى الغير عن تردد وشك، ولكن الرفاعى عاد يكرر هذا المطلب بثوب جديد، ويدّعى أنّ السائل لم يقصد التوسل بذات الرسول بل بدعائه المستجاب، ويستدل على ذلك بالعبارات التالية: ۱- قول الأعمى لرسول اللّه: ادع اللّه أن يعافينى. ۲- جواب الرسول له: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت . ۳- إصرار الأعمى على طلب الدعاء منه بقوله: فادعه . ۴- قول الأعمى فى آخر دعائه الّذى علمه إياه رسول اللّه: اللّهمّ شفّعه فىّ. فاستنتج من ذلك كله أنّ المتوسل به هو دعاؤه . ولقد عزب عن المسكين أن الوجوه الثلاثة الأُولى لا تمت إلى مقصوده بصلة، لما عرفت من أنّ الأعمى فى محاورته مع الرسول لم يكن يخطر بباله إلّا طلب الدعاء، ولأجل ذلك طلب منه الدعاء، وأنّ الرسول لما خيره بين الدعاء والصبر على الأذى، اختار الدعاء ورفض الصبر، غير أنّ النقطة المركزية للاستدلال ليست هذه المحاورة، وإنّما هو الدعاء الّذى علّمه رسول اللّه الضرير، فإنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ علمه دعاء يتضمن التوسل بذات النبى: وبعبارة ثانية: كانت هناك حالتان: الأُولى: المحاورة الابتدائية الّتى وقعت بين النبى والضرير، فكان الموضوع هناك دعاء الرسول بلا شك . الثانى: الدعاء الّذى علمه الرسول، فإنه تضمن التوسل بذات النبى، فالتصرف فى هذا النص بحجة أن الموضوع فى المحاورة الأُولى هو الدعاء، تصرف عجيب، فإنّ الأعمى وإن لم يتردد فى خلده سوى دعاء الرسول المستجاب، ولكن الرسول علمه دعاء جاء فيه التوسل بذاته. ونحن نفترض أنه كان من الرسول، دعاء غير ما علمه للضرير، ولكن أية ضرورة تقضى بأن نؤوّل ما ورد فى العبارة التى علّمها للسائل؟ ________________

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۳ . (۲۳۸)

فما هذه الشبه والظنون الّتى يتمسك بها الرفاعى فى سبيل دعم مذهبه؟ باللّه عليك أيها الكاتب الوهابى الّذى يعيش عيشاً رغداً فى الرياض فى ظل الثروة الطائلة للسلطة، لولا أنّك من القائلين بمنع التوسل بذات النبى، هل كان يخلد ببالك أن المراد من الدعاء الّذى علمه للضرير، هو التوسل بدعاء النبى لا ذاته؟ ولولا أنك قد أخذت موقفاً مسبقاً فى الموضوع، هل كان يتردد فى ذهنك تأويل ذلك النص؟ وأنت وأشياخك ونظراؤك تصبّون القارعات على الذين يؤوّلون الصفات الخبرية كاليد والاستواء والوجه، وتصفونهم بالجهمية والمؤوّلة وغير ذلك من الألفاظ الركيكة، فكيف تسوّغون تأويل هذا النص الّذى لا يرتاب فيه إلّا من اتخذ رأياً مسبقاً؟ وأمّا قوله: «وشفّعه فىّ» فقد قلنا إنّ المراد: اجعله شفيعاً لى، وليس معناه استجب دعاءه فى حقى، وإلّا لما عدل عن اللفظ الصريح إلى هذا اللفظ الّذى ليس بواضح فى ما يريدون . والعجب أنّ الرفاعى يتمسك بالطحلب ويقول: «لو كان قصده التوسل بشخص الرسول أو بحقه أو بجاهه لكان يكفيه أن يبقى فى بيته، ويدعوا اللّه قائلاـ مثلاـ: اللّهمّ ردّ بصرى بجاه نبيك، دون أن يحضر ويتجشم عناء المشى... ولكن ليس هذا بعجيب ممن اتّخذ رأياً مسبقاً فى الموضوع، وذلك لأنّ الضرير لم يكن متذكراً هذا النوع من التوسل حتّى يجلس فى بيته ويتوسل به ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وإنّما علّمه النبى الأكرم، وما معنى هذا الترقب من الرجل؟. ثمّ إنّ الكاتب يدّعى أن لفظ الحديث ومفاهيم اللغة العربية وقواعدها كلها تشهد بأنّ معناه هو التوسل بدعاء النبى، ماذا يريد من لفظ الحديث؟ هل يريد المحاورة الأولى الّتى لا تمتّ إلى مركز الاستدلال وموضعه بصلة، أو يريد الدعاء الّذى علمه الرسول؟ فهو يشهد بخلافه ؟ (۲۳۹)

وماذا يريد من مفاهيم اللغة العربية وقواعدها، وأيّة قاعدة عربية تمنع الأخذ بظاهر الدعاء؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل!) . إنّك إذا

قرأت ما جاء به الكاتب من صخب وهياج فی ذيل كلامه، لتعجبت من عباراته الفارغة وكلماته الجوفاء، الّتی هی بالخطابة أشبه منها بالبرهان. * * * ۲- التوسل بالنبی بتعليم من الصحابی الجليل

روی الطبرانی عن أبی أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أنّ رجلا كان يختلف إلی عثمان بن عفان (رضی اللّه عنه) فی حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فی حاجته، فلقی ابن حنيف فشكا ذلک إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: «أللّهمّ إنّی أسألک وأتوجه إليک بنبينا محمد ـ صلّی الله عليه وآله وسلم ـ نبیّ الرحمة يا محمد! إنی أتوجه بک إلی ربی فتقضی لی حاجتی، فتذكر حاجتک، ورح حتّی أروح معک. فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتی باب عثمان بن عفان (رضی اللّه عنه) فجاء البواب حتی أخذ بيده فأدخله علی عثمان بن عفتان (رضی اللّه عنه) فأجلسه معه علی الطنفسة، فقال: حاجتک؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتک حتّی كان الساعة؟ وقال: ما كانت لک من حاجة فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقی عثمان بن حنيف، فقال له: جزاک اللّه خيراً، ما كان ينظر فی حاجتی، ولا يلتفت إلیّ حتّی كلّمته فیّ، فقال عثمان بن حنيف: واللّه ما كلمته، ولكن شهدت رسول اللّه ـ صلّی الله عليه وآله وسلم ـ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبی ـ صلّی الله عليه وآله وسلم ـ: فتصبر! فقال يا رسول اللّه. ليس لی قائد فقد شقّ علی. فقال النبی ـ صلّی الله عليه وآله وسلم ـ ائت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات... قال ابن حنيف: فواللّه ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتّی دخل علينا (۲۴۰)

الرجل كأنه لم يكن به ضرّ قط(۱) . ورواه فی المعجم الصغير فقال: لم يروه عن روح بن القاسم إلاّ شبيب بن سعيد، أبو سعيد المكی، وهو ثقة، وهو الّذی يحدث عنه أحمد (ابن أحمد) ابن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلی، وقد روی هذا الحديث شعبة عن أبی جعفر الخطمی واسمه عمير بن يزيد، وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح، وروی هذا الحديث عون بن عمارة عن روح بن القاسم، عن محمد بن المنكدر، عن جابر (رضی اللّه عنه) وهو فيه عون بن عمار، والصواب شبيب بن سعيد(۲). إنّ دلالة الحديث علی جواز التوسل بالنبی أظهر من الشمس وأبين من الأمس، ولكن الكاتب الوهابی أخذ يناقش فی الحديث من جوانب أُخری. فقال: «إنّ هذا الحديث تتجلی فيه آثار الصنع، ويدل عليه أُمور : ۱- إنّ ما ذكره لا يوافق سيرة عثمان بن عفان لما اشتهر عنه من الرقة واللين . ۲- إنّ معنی التوسل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسل به إلی اللّه تعالی بقضاء حاجة المتوسل، لا كما يعرفه القوم فی زماننا هذا من التوسل بذات المتوسل به . ۳- لو كان دعاء الأعمی الّذی علّمه رسول اللّه دعاء ينفع لكل زمان ومكان، لما رأينا أیّ أعمی علی وجه البسيطة» . يلاحظ عليه: أنّ كل واحد من هذه الوجوه ساقط جداً لا يمكن أن يستدل به علی جعل [وضع] الحديث . أمّا الأول: فلأنّ المعروف من الخليفة هو تكريم الأقربين والإحسان إليهم، خصوصاً بنی أبيه، لا تعميمه إلی الجميع. هذا هو التاريخ ضبط عطاءه ________________

۱ . المعجم الكبير، للحافظ أبی القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمی الطبرانی المتوفی سنة ۳۶۰ هـ ج ۹ ص ۱۶ ـ ۱۷، باب ما أسند إلی عثمان بن حنيف برقم ۸۳۱۰ .

۲ . المعجم الصغير للطبرانی ج ۱ ص ۱۸۳ ـ ۱۸۴، طبع دار الفكر . (۲۴۱)

لمروان بن الحكم خمس غنائم افريقية، والحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وقضی ما استقرضه الوليد بن عقبة من عبد اللّه بن مسعود الّذی كان أمين بيت المال فی عصر ولاية الوليد علی الكوفة، إلی غير ذلک من عطاياه إلی بنی أبيه وأقربائه(۱)وفی الوقت نفسه كان أبو ذر يعيش فی الربذة ويعانی من جوع أليم، ويليه فی الفقر وبساطة الحياة عبد اللّه بن مسعود، وعمار بن ياسر، فلا يمكن أن يقال إنّ الخليفة كان ينظر إلی الجميع بعين واحدة، وقد كان عمله هذا هو الّذی أجهز عليه وانتكث عليه فتله. هذا هو الإمام علیّ ـ عليه السّلام ـ يصف ذلک العصر بقوله: «إلی أنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضمُونَ مَالَ اللّه خِضْمَةَ الإبلِ نَبْتَةَ الرّبيعِ»(۲) .

وفی رسالته إلی عثمان بن حنيف عامله علی البصرة يقول: (أوْ أبيتَ مِبْطاناً وَحولی بُطونٌ غَرْثَی وأكْبادٌ حَرّی، أو أكُونَ كَمَا قَالَ القَائِلُ: وَحَسْبُكَ دَاءً أنْ تَبِيتَ بِبِطْنَة * وَحَوْلَكَ أكْبادٌ تَحِنُّ إلی القِدّ(۳)

. وهو يشير بذلك إلی الأوضاع السائدة فی عصره وعصر من تقدمه . وأمّا الثانی فهو من: غرائب الكلام، فقد جعل مذهبه دليلا علی ضعف الرواية، وهو أنّ معنی التوسل عند الصحابة ـ هو التوسل بدعاء الشخص لا بذاته ـ فمن أين يدّعی أن هذا مذهب الصحابة، وما هو المصدر لذاك الحصر؟ مع أنّ الحديثين المرويين من طريق ذلك الصحابی الجليل، يدلان علی خلافه . ______________

۱ . لاحظ فی ذلك تاريخ أبی الفداء ج ۱ ص ۱۶۸، والمعارف لابن قتيبة، ص ۸۴، والأنساب للبلاذری ج ۵ ص ۵۲ ولاحظ الغدير ج ۸ ص ۲۸۶، تجد فيه قائمة من عطايا الخليفة الهائلة لبنی أبيه .

۲ . نهج البلاغة الخطبة ۳ .

۳ . نهج البلاغة قسم الكتب رقم ۴۵ . (۲۴۲)

وأمّا الثالث فهو إطاحة بالوحی وازدراء به، ولو صحّ فلقائل أن يقول: لو صحّ قوله سبحانه: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونی أسْتَجِب لَكُمْ)(۱) يجب أن لا يبقی علی وجه البسيطة ذو حاجة . ولو صحّ قوله: (أمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء...)(۲) يجب أن لا يبقی علی وجه البسيطة مضطرّ أو فقير، مع أنّ البسيطة مليئة بالمضطر والمحتاج . نعم، إنّ الدعاء سبب لنزول الرحمة ودفع الكربة، ولكن ليس تمام السبب لإنجاح المقصود، بل له شروط ومعدات، وله موانع وعوائق، ولأجل ذلك نری أنّ كثيراً من الأدعية لا تستجاب مع أنّه سبحانه يحث عباده علی الدعاء، وأنّه يستجيب إذا دعاه ويقول:(وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَكُم). هذا كله حول مناقشاته فی متن الرواية ومضمونه.. هلمّ معی نستمع مناقشته فی السند: يقول: إنّ فی سند هذا الحديث رجلا اسمه (روح بن صلاح) وقد ضعّفه الجمهور، وابن عدیّ، وقال ابن يونس: يروی أحاديث منكرة. يلاحظ عليه: أنّ الطبرانی نقل الرواية بهذا السند: «حدثنا طاهر بن عيسی بن قريش المصری المقری، ثنا أصبغ بن الفرح، ثنا ابن وهب عن أبی سعيد المكی، عن روح بن القاسم، عن أبی جعفر الخطمی المدنی، عن أبی أُمامة بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف»(۳) . كما نقله بهذا السند فی المعجم باختلاف يسير لا يضرّ بوحدة السند . ______________

۱ . سورة غافر: الآية ۶۰ .

۲ . سورة النمل: الآية ۶۲ .

۳ . المعجم الكبير للطبرانی ج ۹ ص ۱۷ وفی المعجم الصغير أصبغ بن الفرج مكان (الفرح) . (۲۴۳)

ورواه البيهقی بالسند التالی: «أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبی عثمان الزاهد ـ رحمه اللّه ـ أنبأنا الإمام أبوبكر محمد بن علی بن إسماعيل الشاشی القفال، قال: أنبأنا أبو عروبة، حدثنا العباس بن الفرج، حدثنا إسماعيل بن شبيب، حدثنا أبی عن روح بن القاسم، عن أبی جعفر المدينی...(إلی آخر السند) (۱) . وأنت تری أنه ليس فی طريق الرواية «روح بن صلاح» بل الموجود هو روح بن القاسم، والكاتب صرّح بأن الرواية رواها الطبرانی والبيهقی، وهذا يعرب عن أنّ الكاتب لم يرجع إلی المصادر وإنّما اعتمد علی تقوّل الآخرين . نحن نفترض أنه ورد فی سند الرواية روح بن صلاح، ولكن ما ذكره من أنّ الجمهور ضعّفوه أمر لا ـ تصدقه المعاجم الموجودة فيما بأيدينا، وإنما ضعّفه ابن عدی، وفی الوقت نفسه وثّقه ابن حبان والحاكم. وسيوافيك الكلام فی حقه فی حديث فاطمة بنت أسد، فانتظر. أهكذا أدب نقد الرواية يا شيخ؟ هداك اللّه إلی النهج القويم . وفی الختام نقول: إنّ السبكی نقل الرواية عن المعجم الكبير للطبرانی بنفس السند الّذی نقلناه، وهذا يكشف عن صحة المطبوع(۲) . * * * ۴- توسل الخليفة بعم النبی

قبل أن نذكر نص توسل الخليفة عمر بعم النبی: نتبه علی أمر وهو: إنّ سيرة المسلمين فی حياة النبی وبعد وفاته تعرب عن أنهم كانوا يتوسلون بأولياء اللّه، من دون أن يتردد فی خلد واحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أبو بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء النبی والصالحين رمزاً إلی التوسل بالنبی ومنزلته وشخصيته، فإنه لو كان لدعائه أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه ______________

۱ . دلائل النبوة ج ۶ ص ۱۶۸ .

۲ . لاحظ: شفاء السقام ص ۱۳۹ ـ ۱۴۰ . (۲۴۴)

وطهارة ذاته، ولولاها لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء النبى والتوسل بشخصه وذاته؟ حتّى يكون الأول نفس التوحيد، والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه؟ لم يكن التوسل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد اللّه أمراً جديداً بين الصحابة، بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك، وإليك البيان: استسقاء عبدالمطلب بالنبى وهو رضيع

إنّ عبد المطلب استسقى بالنبى الأكرم وهو طفل صغير، حتّى قال ابن حجر: إنّ أبا طالب يشير بقوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل إلى ما وقع فى زمن عبدالمطلب حيث استسقى لقريش والنبى معه غلام(۱) . استسقاء أبى طالب بالنبى وهو غلام

أخرج ابن عساكر عن أبى عرفة، قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام يعنى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذ النبى أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما فى السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وها هنا وأغدق واغدودق، وانفجر له الوادى، وأخصب النادى، والبادى، وفى ذلك يقول أبوطالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل(۲) وقد كان استسقاء أبى طالب بالنبى وهو غلام، بل استسقاء عبدالمطلب ـــــــــــــــــــــ

۱ . فتح البارى ج ۲ ص ۳۹۸ ودلائل النبوة ج ۲ ص ۱۲۶ .

۲ . فتح البارى ج ۲ ص ۴۹۴ والسيرة الحلبية ج ۱ ص ۱۱۶ . (۲۴۵)

به وهو صبى أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبى طالب فى هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس . ويظهر من الروايات أنّ استسقاء أبى طالب بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كان موضع رضا منه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس فجاءالمطر وأخصب الوادى فقال النبى: لو كان أبو طالب حياً لقرّت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام علىّ ـ عليه السَّلام ـ وقال: يا رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كأنك أردت قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل(۱) إنّ التوسل بالأطفال فى الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع ;هذا هو الإمام الشافعى يقول فى آداب صلاة الاستسقاء: «وأحب أن يخرج الصبيان، و يتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهن ;ولا أحب خروج ذات الهيبة، ولا آمر بإخراج البهائم(۲). ما هو الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات فى السن، إلاّ استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح الستنزال الرحمة وكأن المتوسل يقول: ربى وسيدى، الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن فى السن أسيرك فى أرضك، وكلتا الطائفتين أحق بالرحمة والمرحمة. فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتّى تعمّنا فى ظلّهم . إنّ الساقى ربما يسقى مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة، وفى ظلها تسقى الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيدة. وعلى ضوء ذلك تقدر على تفسير توسل الخليفة بعمّ الرسول: العباس بن عبدالمطلب، الّذى سنتلوه عليك، وأنه كان توسلا بشخصه وقداسته وصلته بالرسول، وأنه كان امتداداً للسيرة المستمرة قبل هذا، ولا ـــــــــــــــــــــ

۱ . إرشاد السارى ج ۲ ص ۳۳۸ .

۲ . الأم ج ۱ ص ۲۳۰ . (۲۴۶)

يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلة، وإنما هو شىء اخترعه الوهابيون لحفظ موقفهم المسبق فى هذه المباحث . التوسل بعم النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

ما تعرفت عليه سابقاً كان تقدمة لدراسة هذا الحديث الّذى يرويه البخارى فى صحيحه ويقول: «كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا

استسقى بالعباس بن عبدالمطلب (رضى اللّه عنه) وقال: أللّهمّ إنّا كنّا نتوسل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا. قال: فيسقون»(۱) . هـذا نص البخارى، وهو يـدل على أنّ عمر بن الخطـاب عنـد دعـائه واستسـقائه توسـل بعم النبى وشخصه وشخصيته، وقداسـته وقرابته من النبى، لا ـ بـدعائه، ويـدل على ذلـك أُمور: ۱- قول الخليفـة عنـد الـدعاء.. قـال: «أللّهمّ إنّـا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسـقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسـقنا». وهـذا ظاهر فى أنّ الخليفة قام بالدعاء فى مقام الاستسـقاء، وتوسل بعم الرسول فى دعائه، ولو كان المقصود هو التوسل بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عم رسول اللّه كنّا نطلب الدعاء من الرسول فيسقينا اللّه، والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا. ۲- روى ابن الأثير كيفية الاستسـقاء فقال: استسـقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتدّ القحط، فسقاهم اللّه تعـالى به، وأخصـبت الأـرض، فقال عمر: هـذا واللّه الوسـيلة إلى اللّه والمكان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقـد تتابع جـدبنا * فسـقى الغمام بغرة العباس عمّ النبى وصـنو والده الذى * ورث النبى بذاك دون الناس أَحَيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد إلياس ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين(۲). ______________

۱ . صحيح البخارى، باب صلاة الإستسقاء ج ۲ ص ۳۲ .

۲ . الجزرى: أُسد الغابة ج ۳ ص ۱۱۱ طبع مصر. (۲۴۷)

أمعن النظر فى قول الخليفة: هذا واللّه الوسـيلة . ۳- ويظهر من شـعر حسان أنّ المستسقى كان هو نفس الخليفة وهو الداعى حيث قال: «سأل الإمام...» وكان العباس وسـيلته لاسـتجابة الدعاء . وأظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحة لا تبقى شكاً ولا ريباً فى خلد أحد فى جواز التوسل بالصالحين . تشكيك الرفاعى فى دلالة الحديث

يقول الرفاعى: «لا ريب فى أنّ هـذا الحديث صـحيح، وما ظنك بحديث يرويه الإمام البخارى» ولكنه بصـلافة خاصة به يدَّعى أنه من قبيل توسل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن، ويقول: إنّ الحديث يخبرنا أنّ أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب (رضى اللّه عنه) كلّف العباس أن يستسـقى للمسـلمين ويدعو اللّه تعالى أن يستسـقيهم الغيث ;وبيّن الأسـباب الموجبة لتكليف العباس، فقال: أللّهمّ إنّا كُنّا نتوسل إليك بنبيّنا فتسـقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا(۱). ثم أضاف: أنّه لو كان قصـده ذات العباس لكانت ذات النبى ـ صـلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل وأعظم وأقرب إلى اللّه من ذات العباس بلا شك ولا ريب، فثبت أن القصد كان الدعاء ولم تكن ذات الرسول مقصودة عندما كان حياً(۲) . لا أظن أنّ أحداً يحمل شـيئاً من الإنصاف تجاه الحقيقة يسوغ لنفسه أن يفسـر الحديث بما ذكره، فمن أين يقول: إنّ عمر بن الخطاب كلّف العباس أن يستسقى للمسلمين، بل الخليفة قام بنفسه بالاستسقاء متوسلا بعم النبى ______________

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۲۵۳ .

۲ . التوسل إلى حقيقـة التوسل، ص ۲۵۳ و ۲۵۶ وقـد أخذه من ابن تيمية حيث قال: «وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسـلوا به، ويقولوا فى دعائهم فى الصـحراء: نسألك ونقسم عليك بأنبيائك أو نبيك أو بجاههم، مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۲ . (۲۴۸)

العباس حيث قال: «أللّهمّ إنّا نتوسل..» فإنّ الاستسـقاء وظيفة الإمام، وكان الإمام هو الخليفة نفسه لا العباس وقد عقد البخارى باباً وقال: (باب إذا استشفعوا إلى الإمام يستسقى لهم لم يردهم)(۱) . ويؤيد أنّ المستسـقى هو الامام ومن كان معه فى المصلى، ما رواه المؤرخ الكبير ابن الأثير فقال: استسـقى عمر بن الخطاب بالعباس، عام الرمادة، لما اشتـد القحط، فسقاهم اللّه تعالى به وأخصبت الأرض، فقال عمر: هـذا واللّه الوسـيلة إلى اللّه والمكـان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقـد تتابع جـدبنا * فسـقى الغمام بغرة العباس عم النبى وصـنو والـده الـذى * ورث النبى بـذاك دون النـاس أحيى الإلـه به البلاد فأصبحت * مخضـرة الأجناب بعـد الياس ولما سـقى الناس طفقوا يتمسـحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين(۲) . يقول القسـطلانى: إنّ عمر لما استسقى بالعباس قال: أيها الناس إنّ رسول اللّه يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدو به فى عمه، واتخذوه وسيلة إلى اللّه تعالى . ثم إنّ الاستسقاء وإن كان يتم بصرف الدعاء، ولكن أفضلـه هو الاستسـقاء بركعتين من الصـلاة. وروى البخارى أنّ النبى استسقى فصلى ركعتين، وقلب رداءه . وروى أيضاً أنّ النبى

خرج إلى المصلّى يصلّى، وأنّه لمّا دعا أو أراد أن يدعو استقبل القبلة وحوّل رداءه(۳). ولو كان الاستسقاء بإقامة الصلاة، فكانت الإمامة للخليفة، والإئتمام للباقين . ______________

۱ . صحيح البخارى ج ۲ ص ۲۰ .

۲ . أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ۳ ص ۱۱۱ طبع مصر.

۳ . صحيح البخارى ج ۲ ص ۳۱، أبواب الإستسقاء . (۲۴۹)

ولو تحقق بصورة الدعاء، فكان الدعاء من الخليفة، و المرافقة بالتأمين من غيره. ولا ينافى ذلك أن يكون لكل من المأمومين دعاء على حدة، وراء الدعاء الّذى يدعو به الإمام، وقد ضبط متن الدعاء الّذى دعا به العباس، وقد نقلوا أنه كان من دعائه : أللّهمّ لم ينزل بلاء إلاّ بذنب، ولم يكشف إلاّ بتوبة، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث(۱) . ولقد ورد فى بعض الروايات عن أئمة أهل البيت استحباب إخراج الصغار الرضّع، والكبار الركّع إلى المصلى، ليكون الحال أنسب لنزول الرحمة الإلهية، فإنّ الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن فى السن أسير اللّه فى أرضه، وكلتا الطائفتين، أحق بالرحمة والمرحمة، فببركتهم تنزل الرحمة وتعم غيرهم، وبذلك يظهر الجواب عما ذكره الرفاعى من أنّه لو كان قصد الخليفة ذات العباس لكان النبى أولى وأقرب إلى اللّه من ذات العباس ـ لما عرفت ـ من أنّ الهدف من إخراج عم النبى إلى المصلى وضمه إلى الناس، هو استنزال الرحمة، قائلين بأننا لو لم نكن مستحقين لنزول الرحمة لكن عمّ النبى لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحهُ من أزمة القحط والغلاء وبالتالى تعم غيره ;ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلاّ بالتوسل بإنسان حى يكون شريكاً مع الجماعة فى المصير، وفى عناء العيش ورغده، لا مثل النبى الراحل الخارج عن الدنيا و النازل دار الآخرة، ولو توسل به أيضاً، فإنما هو بملاك آخر، ولم يكن مطروحاً فى المقام . * * * ۴- توسل الأعرابى بالنبى نفسه

روى جمع من المحدثين أنّ أعرابياً دخل على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وقال: لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبى يغط، ثم أنشأ يقول: ______________

۱ . إرشاد السارى، للقسطلانى، ج ۲ ص ۳۳۸ . (۲۵۰)

أتيناك والعذراء تدمى لبانها * وقد شغلت أُم الصبى عن الطفل ولا شىء مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل وليس لنا إلاّ اليك فرارنا * وأين فرار الناس إلاّ إلى الرسل؟ فقام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يجر رداءه حتّى صعد المنبر، فرفع يديه وقال: أللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً... فما رد النبى يديه حتّى ألقت السماء... ثم قال: للّه در أبى طالب، لو كان حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟ فقام علىّ بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ وقال: كأنّك تريد يا رسول اللّه قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل يطوف به الهُلاّك من آل هاشم * فهم عنده فى نعمة وفواضل فقال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : أجل . فأنشد علىّ ـ عليه السَّلام ـ أبياتاً من القصيدة، والرسول يستغفر لأبى طالب على المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول: لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبى المطر(۱) دلالة الحديث

إنّ الإمعان فى مجموع الرواية يعرب عن أنّ الأعرابى توسل بشخص النبى وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأُمور التالية: أ ـ أتيناك وما لنا بعير يئط . ب – أتيناك والعذراء تدمى لبانها . ج ـ وليس لنا إلاّ إليك فرارنا . ______________

۱ . السيرة الحلبية ج ۱ ص ۱۱۶، لاحظ فتح البارى ج ۲ ص ۴۹۴ والقصيدة مذكورة فى السيرة النبوية لابن هشام ج ۱ ص ۲۷۲ ـ ۲۸۰ . (۲۵۱)

د ـ واين فرار الناس إلاـ إلى الرسل؟ هـ ـ إنشاء علىّ بن أبى طالب شعر والده، وهو يتضمن قوله: «وأبيض يستسقى الغمام بوجهه» . روى ابن عساكر عن أبى عرفة قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا ابا طالب! أقحط الوادى وأجدب، فهلم واستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى، فأخذه ابو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام وما فى السماء قزعة، فأقبل

السحاب من هيهنا وهيهنا وأغدق واغدودق، انفجر له الوادی، وأخصب البادی والنادی، وإلی تلک الحادثهٔ يشير أبوطالب فی شعره: وأبيض يستسقی الغمام بوجهه * ثمال اليتامی عصمهٔ للأرامل(۱) فمماثلهٔ الحادثتين تحکم بأنّ التوسل کان بذات النبی، کما کان توسل أبی طالب بنفس النبی. و ـ قول رجل من کنانهٔ فی شعره، «سقينا بوجه النبی المطر» . کل ذلک يعرب عن أنّ التوسل کان من الأعرابی وغيره بنفس النبی . نعم إنّ النبی الأکرم قام بالدعاء، فلا يکون دعاء النبی قرينهٔ علی أنّ الأعرابی توسل بدعائه، إذ لا منافاهٔ بين أن يکون توسله بشخص النبی وکرامته وفضيلته، وبين أن يقوم النبی بقضاء حاجته (استنزال المطر) بطلبه من اللّه سبحانه . فمن يريد أن يؤوّل هذه النصوص ويجعلها من قبيل التوسل بالدعاء، فهو إنما يحاول دعم رأيه المسبق . نقد ما ذکره الرفاعی

إنّ الشيخ الرفاعی لکونه قد اتخذ موقفاً مسبقاً خاصاً فی التوسل بالأنبياء ـــــــــــــــــــــ

۱ . مر المصدر. (۲۵۲)

والصالحين، تجشّم عناء تأويل نصوص الأحاديث بما يتبناه، ولما کان الحديث صريحاً فی التوسل بنفس النبی صار يعترض علی هذه الدلالهٔ قائلا بأنّ الأعرابی جاء إلی النبی لأن يدعوا اللّه لهم بأن يستسقيهم الغيث، وإلاّ لبقی الأعرابی فی منزله، واکتفی أن يقول وهو فی بيته: اللّهمّ اسقنا الغيث بجاه نبيک، أو بذات نبيک، ولما تجشّم المجیء من أهله وبيته إلی النبی فی المدينهٔ(۱) . يلاحظ عليه: أنَّه لا ـ منافاهٔ بين الأمرين حتّی يکون أحدهما قرينهٔ علی الأُخری، حتّی يتصرّف فی النصوص بتفسيرها الخاص بالتوسل إلی الدعاء، فالأعرابی توسل بذات النبی، ولا يهمّه سوی قضاء حاجته من ای طريق کان، سواء أتحقق بدعاء النبی أم بإعجازه و کرامته، وأمّا أنه لماذا تجشم عناء المجی من أهله وبيته إلی النبی ولم يکتف بالتوسل نفسه فلأنه کان يری للمثول أمامه فضيلهٔ وکرامهٔ، أو أنّ توسله بشخصه إذا انضمّ إليه دعاء النبی يوجب قضاء حاجته ولا ـ يتحقق إلاّ ـ بالحضور لديه، فلأجل ذلک جاء إلی النبی وتوسل بشخصه وشخصيته، فصار ذلک سبباً لقيام النبی، ولا يعنی هذا أنه توسل بدعائه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ إذ لا منافاهٔ بين أن يتوسل الأعرابی بشخصه، وبين أن يکون هذا داعياً للنبی أن يقوم بالدعاء، فلا يکون دعاؤه قرينهٔ علی کيفيهٔ التوسل . وأخيراً يؤاخذ الرفاعی بأنه ذکر متن الحديث بصورهٔ مختصرهٔ، فترک ما ذکرناه من القرائن، ولم يشر إلی المصادر الکثيرهٔ الّتی نقلت هذا الحديث . المناقشهٔ فی سند الحديث

جاء الرفاعی يناقش فی سند هذا الحديث بأنّ فی سنده (مسلم الملائی)، ونقل عن علماء الرجال أنه متروک، وقال أحمد: لا يکتب حديثه. وقال يحيی: ليس بثقهٔ، وقال البخاری: يتکلمون فيه، وقال يحيی أيضاً: زعموا أنه اختلط، وقال النسائی وغيره: متروک، وقال الذهبی: إنّه روی ـــــــــــــــــــــ

۱ . التوصل إلی حقيقهٔ التوسل ص ۲۹۱ وقد أخذه من شيخه ابن تيميهٔ. لاحظ مجموعهٔ الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۳ . (۲۵۳)

حديث الطير الّذی أهدته أُم أيمن لرسول اللّه، وحديث الطائر موضوع عند أهل الحديث . أقول: إنّ ذيل العبارهٔ يکشف عن الدافع الّذی دفع هؤلاء إلی تضعيف الرجل، وهو ليس إلاّ کونه ناقلا لفضيلهٔ ساطعهٔ للإمام علیّ بن أبی طالب ـ عليه السَّلام ـ . روی أحمد بن حنبل بسنده عن سفينهٔ مولی رسول اللّه قال: أهدت امرأهٔ من الأنصار إلی رسول اللّه طيرين بين رغيفين، فقدمت إليه الطيرين، فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ : أللّهمّ ائتنی بأحب خلقک إليک وإلی رسولک، فجاء علیّ ـ عليه السَّلام ـ فرفع صوته، فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ : من هذا؟ قلت: علیّ، قال: فافتح له، ففتحت له فأکل من الطير مع النبی حتّی فنيا(۱) . وعلی ضوء هذا لا تقام لهذا التضعيف قيمهٔ . ۵- توسل المنصور بالنبی بتعليم مالک

إنّ المنصور الدوانيقی سأل مالک بن أنس، إمام المالکيهٔ، عن کيفيهٔ زيارهٔ رسول اللّه ـ صلَّی الله عليه وآله وسلم ـ والتوسل به، فقال لمالک: يا أبا عبداللّه، أستقبل القبلهٔ وأدعو. أم أَستقبل رسول اللّه؟ فقال مالک فی جوابه: لم تصرف وجهک عنه وهو وسيلتک ووسيلهٔ أبيک آدم إلی اللّه يوم القيامهٔ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه اللّه، قال اللّه تعالی: (وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُم جاءُوکَ فَاستَغْفَروا اللّهَ واستغفرَ لَهُم الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً)(۲) . ـــــــــــــــــــــ

۱ . فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ج ۲ ص ۵۶۰ ورواه غيره لاحظ العمدة لابن البطريق ص ۲۴۲ ـ ۲۵۳.

۲ . وفاء الوفاء ج ۲ ص ۲۵۳، النساء: ۶۴ . (۲۵۴)

وقد نقل ابن حجر الهيثمى عن الإمام الشافعى هذين البيتين: آل النبى ذريعتى * وهمُ إليه وسيلتى أرجو بهم أُعطى غداً * بيدى اليمين صحيفتى(۱) هذه النقول و النصوص من أئمة الأمة و مشاهير تكشف عن أمرين: ۱- إنّ التوسل بالصالحين ـ وفى الطليعة الأنبياء العظام ـ كان أمراً رائجاً بين المسلمين، ولم يخطر ببال أحد أنّه شرك، كما لم يخطر ببالهم التفريق بين التوسل باشخاصهم وذواتهم، ولم يصنع هذا التفريق سوى الوهابيين الذين يسعون فى الحط من منزلة الصالحين ومكانتهم، ويجعلون التوسل بدعائهم كالتوسل بدعاء الأخ المؤمن، وإنّه لا فرق بين هذا وذاك، وهم وإن كانوا لا يصرحون بهذه التسوية، لكنهم يكنون ذلك ويضمرونه . ۲- إنّ هذه النصوص تفسّر لنا قوله تعالى: (يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسيلَةَ وَجَاهِدوا فى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ)(۲) . فإنّ الوسيلة سواء أفسّرت بمعنى القرابة والمنزلة والدرجة، كما عليه أكثر المفسرين مأخوذاً من قولهم توسلت إليه، أى تقرّبت . قال عنترة بن شداد: إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك تلجلجى وتحصنى ويقال: وسل إليه، أى: تقرّب. قال لبيد: بلى كل ذى رأى إلى اللّه واسل. وعليه فمعنى الوسيلة:الوصلة والقربة . أم فسرت بما يتقرب به إلى الغير ويجمع على الوسائل والوسل، كما عليه أهل اللغة، قال الجوهرى فى صحاحه: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل، وتوسل إليه بوسيلة أى: تقرُّب إليه بعمل . وفى القاموس: الوسيلة والواسلة: المنزلة عند الملك والدرجة والقربة. ________________

۱ . الصواعق المحرقة ص ۱۷۸ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۳۵ . (۲۵۵)

وفى المصباح: وسلت إلى اللّه بالعمل: رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة، وهى ما يتقرب به إلى اللّه، والجمع الوسائل، وعلى أى تقدير: فالتوسل بالصالحين بما لهم من مكانة ومنزلة عند اللّه، إمّا أنّه بذاته تقرب إلى اللّه تعالى، لأنّ إظهار المودة لمن يحبه اللّه محبوب وعمل صالح، أو وسيلة يتقرب به الإنسان إلى اللّه سبحانه، فهذه النقول تعرب عن مصداق للوسيلة فى عرض سائر المصاديق من الأعمال الصالحة والعبادات، خصوصاً الجهاد ضد العدو الداخلى والخارجى الّذى جاء فى ذيل الآية، فتخصيص الوسيلة بالعبادات والاستغفار تخصيص بلا جهة. إلى هنا تم الكلام حول التوسل بالصالحين أنفسهم وذواتهم، وبقى الكلام فى التوسل بمنزلتهم وكرامتهم وحقهم، وإليك البيان: (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُم وَمَا يُعْلِنُونَ)(۱) . ________________

۱ . سورة القصص: الآية ۶۹ . (۲۵۶)

التوسل إلى اللّه بحق النبى وحرمته ومنزلته

التوسل إلى اللّه بحق النبى وحرمته ومنزلته

إنّ من التوسلات الرائجة بين المسلمين منذ وقعوا فى إطار التعليم الإسلامى، التوسل بمنازل الصالحين وحقوقهم على اللّه. وليس معنى ذلك أنّ للعباد أو لبعضهم على اللّه سبحانه حقّاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه [عدم]الخروج عنه، بل للّه سبحانه الحق كلّه، فله على الناس حقّ العبادة والطاعة إلى غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة الّتى منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، وليس لأحد على اللّه حقّ إلاّ ما جعله اللّه سبحانه حقّاً على ذمّته لهم تفضّلا وتكريماً، قال سبحانه: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤمِنِينَ)(۱) . وسيوافيك تفصيل ذلك عند البحث عن أحلاف اللّه سبحانه بحق المخلوق، فانتظر . إنّ هذا النوع من التوسل لا يفترق عن التوسل بذات النبىّ وشخصه، فإنّ المنزلة والمقام مرآة لشخصه وذاته، فإنّ حرمة الشخص وكرامته ومنزلته نابعة من كرامة ذاته وفضيلتها، فلو صحّ التوسل بالأوّل كما تعرفت عليه من الأحاديث، يصحّ الثانى من دون إشكال أو إبهام . ويدلّ عليه من الأحاديث ما نذكره: ________________

۱ . سورة الروم: الآية ۴۷ . (۲۵۷) أ ـ التوسل بحق السائلين

روى عطية بن العوفى عن أبى سعيد الخدرى أنّ رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إنّى أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاى هذا، فإنّى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أن تعيذنى من النار وأن تغفر ذنوبى إنّه لايغفر الذنوب إلاّ أنت. إلاّ اقبل اللّه عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك»(۱) . فالحديث واضح مضموناً، ويدل على أن للإنسان أن يتوسل إلى اللّه بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم وجاههم، فيجعلها وسيلة لقضاء حاجته . إنّ الكاتب الوهابى الرفاعى، حيث لم يجد ضعفاً فى الدلالة، أخذ يضعف سند الحديث، قائلا بأنّ «فى سنده عطية العوفى وهو ضعيف»(۲) . أقول: إنّ الدافع الوحيد لتضعيف عطية، ذلك التابعى الشهير، كما وصفه به الذهبى فى ميزان الاعتدال هو تشيّعه وولاؤه لعلى وآله ـ عليهم السَّلام ـ ، ولأجل ذلك نرى أنّ الذهبى ينقل عن سالم المرادى: «كان عطية يتشيّع»، وإنّ التشيّع أحد وجوه التضعيف لدى القوم، ومع ذلك قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ضعيف، وقال ابن معين: صالح . وقال ابن حجر فى تقريب التهذيب: «عطية بن سعد بن جناده العوفى الجدلى الكوفى أبوالحسن صدوق يخطئ كثيراً، كان شيعياً مدلساً»(۳) وقال فى تهذيب التهذيب: قال ابن عدى: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبى سعيد أحاديث عدة، وعن غير أبى سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدّ من شيعة أهل الكوفة. قال الحضرمى: توفى سنة إحدى عشرة ومائة. ________________

۱ . سنن ابن ماجة، ج ۱ ص ۲۵۶، الحديث برقم ۷۷۸ ومسند الإمام أحمد، ج ۳، ص ۲۱.

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۱۲ .

۳ . تقريب التهذيب، ج ۲ ص ۲۴، برقم ۲۱۶ . (۲۵۸)

وقال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبّ علىّ ـ إلى أن قال ـ وكان ثقة إن شاء اللّه، وله أحاديث صالحة. كان أبو بكر البزار يعده فى التشيع، روى عن جلّة الناس. وقال الساجى: ليس بحجة، وكان يقدّم عليّاً على الكل(۱) . وهذه النصوص تعرب عن تضارب الأقوال فى حقه، كما تكشف عن أنّ الدافع المهم لتضعيفه، تشيّعه وحبّه وولاؤه وتقديمه علياً، وهل هذا ذنب؟ . إنّ لوضع الحديث دوافع خاصة يوجد أكثرها فى أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود والنصارى فى أبواب التجسيم والجهة والجنة والنار، وأمّا مثل هذا الحديث الّذى يعرب بوضوح عن أنه كلام إنسان خائف من اللّه سبحانه، ترتعد فرائصه من سماع عذابه، فبعيد عن الوضع والجعل

. ب ـ توسل النبى بحقه و حق من سبقه من الأنبياء

روى الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه، أنه لمّا ماتت فاطمة بنت أسد اُم على ـ رضى اللّه عنهما ـ دخل عليها رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك اللّه يا أُمى. كنت أُمى بعد أُمى، تجوعين وتشبعيننى، وتعرين وتكسيننى، وتمنعين نفساً طيباً وتطعميننى، تريدين بذلك وجه اللّه والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الّذى فيه الكافور، سكبه رسول اللّه بيده، ثم خلع رسول اللّه قميصه فألبسها إياه، وكفّنها ببرد فوقها، ثم دعا رسول اللّه أُسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى، وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلمّا بلغوا اللحد، حفره رسول اللّه بيده، وأخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخل رسول اللّه فاضطجع فيه وقال: «اللّه الّذى يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت، اغفر لأُمى فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك ________________

۱ . تهذيب التهذيب، ج ۷ ص ۲۲۷، برقم ۴۱۳ . (۲۵۹)

والأنبياء الذين من قبلى، فإنك أرحم الراحمين»، وكبر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبوبكر . رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (۲۶۰ ـ ۳۶۰ هـ) . والاستدلال به مبنى على تمامية الرواية سنداً و مضموناً، وإليك البحث فيهما معاً: ۱- رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط، ص ۳۵۶ ـ ۳۵۷، وقال: لم يروه عن عاصم إلاّ سفيان الثورى، تفرّد به «روح بن صلاح» . ۲- ورواه أبو نعيم من طريق الطبرانى فى حلية الأولياء: ۳/۱۲۱ . ۳- رواه الحاكم فى مستدركه، ج ۳، ص ۱۰۸، وهو لا يروى فى هذا الكتاب إلاّ

الصحيح على شرط الشيخين (البخارى و مسلم) . ۴- رواه ابن عبد البر فى الإستيعاب. لاحظ هامش الإصابة، ج ۴، ص ۳۸۲ . ۵- نقله الذهبى فى سير أعلام النبلاء، ج ۲، ص ۱۱۸ ـ برقم ۱۷ . ۶- ورواه الحافظ نور الدين الهيثمى المتوفى سنة ۷۰۸ هـ فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ۹ ص ۲۵۶ ـ ۲۵۷ . وقد جمع فيه زوائد مسند الإمام أحمد، وأبى يعلى الموصلى أبى بكر البزاز، ومعاجم الطبرانى الثلاثة، وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه روح بن صلاح وثقّه ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح . ۷- رواه المتقى الهندى فى كنز العمال، ج ۱۳، ص ۶۳۶، برقم ۳۷۶۰۸ . هؤلاء الحفاظ نقلوا الحديث فى جوامعهم، وصرّحوا بأنّ رجال السند رجال الصحيح، وأنه لو كان هناك ففى روح بن صلاح، وقد وثَّقهُ العلمان: ابن حبان والحاكم . (۲۶۰)

وقال الذهبى: روح بن صلاح المصرى، يقال له ابن سيابة، ضعّفه إبن عدى، يكنّى أبا الحارث، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات، وقال الحاكم: ثقة مأمون(۱) . ولكن الكاتب الوهابى المعاصر يقول فى سند الحديث: إنّ هذا الحديث غير صحيح لأنّ فى سنده رجلا هو روح بن صلاح وقد ضعّفه الجمهور، وقد روى أحاديث منكرة، كما صرح بذلك ابن يونس وابن عدى(۲) . وأنت خبير بأنّه إنما ضعّفه (ابن عدى) وأين هذا من قوله: وقد ضعّفه الجمهور، أليس ابن حبان من أعلام الحديث ورجاله؟ أو ليس الحاكم هو الحافظ الكبير الّذى استدرك على صحيحى الشيخين بما تركاه؟ إنّ الإنسان إذا اتّخذ موقفاً مسبقاً فى الموضوع، يحاول أن يضعف الصحيح والقوى، ويقوى ويصحح الضعيف، وعلى كل تقدير فليس لنا ترك هذا الحديث وعدم العمل به بمجرد تضعيف ابن عدى لتوثيق غيره . وأظن ـ وظن الألمعى صواب ـ أنّ الدافع إلى تضعيف نظراء روح بن صلاح هو ولاؤه ومودته لأهل بيت النبوة، حيث نقل هذه الدرة الباهرة فى حق أُم سيد الأوصياء. هذا كله حول السند، وأمّا الدلالة فلا أظن أنّ من يملك شيئاً من الإنصاف يشك فى دلالة الحديث على توسل النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ بحقه وحق أنبيائه . ج ـ توسل آدم بحق النبى

روى البيهقى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : لمّا اقترف آدم الخطيئة قال: ربى أسألك بحق محمد لما غفرت لى، فقال اللّه عزّوجلّ: يا آدم. كيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنك يا ______________

۱ . ميزان الاعتدال، ج ۲، ص ۸۵، رقم ۲۸۰۱ .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۲۷ . (۲۶۱)

رب لمّا خلقتنى بيدك ونفخت فىَّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه، فعلمت أنّك لم تضف إلى إسمك إلاّ أحب الخلق إليك، فقال اللّه ـ عزّوجلّ ـ : صدقت يا آدم. إنه لأحب الخلق إلىَّ وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك. ولو لا ـ محمد ما خلقتك . قال البيهقى: تفرد به عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، من هذا الوجه عنه، وهو ضعيف (واللّه أعلم) (۱) . إنّ الشيخ الرفاعى لما رأى صراحة الحديث فى التوسل بحق النبى أخذ يناقش فى الحديث من جهات أُخرى، وإليك بيانه: ۱- إنّ الحديث تضمّن الإقسام على اللّه بمخلوقاته، وهو أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على اللّه بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنه شرك لأنه حلف بغير اللّه، فالحلف على اللّه بمخلوقاته من باب أولى . يلاحظ عليه: أنّه سيوافيك جواز الحلف بالمخلوق، سواء حلف بمخلوق على مخلوق أو بمخلوق على اللّه، وأن القرآن مليء بالإقسام بالمخلوقات، فلو كان أمراً حراماً أو ذريعة إلى الشرك أو الشرك نفسه لما حلف سبحانه بمخلوقاته، وسيوافيك توضيحه، ولا يلازم الحلف بالمخلوق جعله فى مرتبة الخالق، بحجة «إنّا نحلف باللّه فلو حلفنا بمخلوقه يلزم من ذلك جعله فى مرتبة الخالق»، كيف ونحن نطيع اللّه سبحانه ونطيع رسوله، أفهل يتصور من ذلك أنّا جعلنا الرسول فى مرتبة الخالق؟ قال سبحانه: (أَطيعوا اللّهَ وَأَطيعُوا الرَّسولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم...)(۲)، قال سبحانه:(أَنِ اشْكُرْ لى وَلِوالِدَيكَ إِلَىَّ المَصيرُ)(۳)، أفيلزم من ذلك أن يكون الوالدان فى رتبة الخالق ______________

۱ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى (ت ۳۸۴ ـ م ۴۵۸ هـ) طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت، ج ۵، ص ۴۸۹ .

۲ . سورة النساء: الآیة ۵۹ .

۳ . سورة لقمان: الآیة ۱۴ . (۲۶۲)

لأنّه سبحانه أمر بشكر نفسه وشكر الوالدين . إنّ الحلف لا يستلزم أزيد من كون المحلوف به أمراً عظيماً عزيزاً لائقاً بالحلف به، وأمّا كونه في درجة الخالق فزعم عجيب واستدلال غريب . وأمّا كونه شركاً فقد عرفت أنّ المقصود هو الشرك في العبادة، والعنصر المقوم لتحققها هو الاعتقاد بكونها إلهاً أو ربّاً أو مفوضاً إليه فعله سبحانه، والمفروض عدمه . ترى أنّ الكاتب يجعل معتقده دليلا على بطلان الحديث وضعفه، أهكذا أدب النقد؟ . ۲- إنّ الحوار الوارد في الحديث كان بعد اقتراب الخطيئة، ولكنّه قبل أن يخطيء، علّمه اللّه الأسماء كلها، ومن جملة الأسماء كلها اسم محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وعلم أنه نبي ورسول، وأنه خير الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربي إنك أعلمتني به أنه كذلك، لمّا علمتني الأسماء كلها . يلاحظ عليه: أنَّ المسكين زعم أن المراد من الأسماء أسماء الموجودات، وغفل عن أن المراد هو العلم بحقائق الكون وقوانينه وسننه ورموزه بقرينة قوله سبحانه: «ثم عرضهم على الملائكة» فلو كان المراد الأسماء لكان الأنسب أن يقول: ثم عرضها، على أنّه لا فضيلة رابية في تعلّم أسماء الموجودات وألفاظها . سلمنا أن المراد ما ذكره، لكن الظاهر من الحديث أنه وقف على ذلك بعد الخلقة ونفخ الروح فيه، قبل أن يحظى بتعلّم الأسماء كلها، حيث قال: لمّا خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش... والمتبادر من العبارة أن هذا العلم كان علماً خاصاً جزئياً وقف عليه بعد فتح عينيه على الحياة في الجنة، قبل تعلمه جميع الأسماء، وأمّا هو فقد كان مرحلة أُخرى أوسع من هذا العلم، بل لا يقاس عليه . وبالجملة: إنّ الحديث لا غبار عليه من حيث الدلالة. نعم يقع الكلام (۲۶۳)

في السند. فقد ورد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعّفه الذهبي اعتماداً على تضعيف أحمد وغيره(۱) . ولكن الحاكم النيسابوري أورده في مستدركه، قائلا بصحته(۲) . وعلى ذلك فليس الخبر على حد يحكم عليه بالوضع والجعل، كما يصر عليه الرفاعي بل هو كسائر الأحاديث الّتي اختلف العلماء في تصحيحها، فلو لم يكن دليلا على المدعي يكون مؤيداً له، كيف وقد رواه جلال الدين السيوطي في تفسيره(۳) . وهناك نكتتان ننبه عليهما: الأُولى: إنّ أحاديث التوسل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة في أسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث في هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافيك، تذعن بتضافر المضمون أو تواتره . الثانية: نحن نفترض أنّ الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنه يعرب عن أنّ التوسل بالمخلوق والإقسام على اللّه بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعة إليه، بل ولا ـ حراماً . وذلك لأنّه لو كان شركاً وذريعة إليه أو حراماً، لما رواه الرواة الثقات واحد عن واحد، وهم أعرف بموازين الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء في المعاجم الحديثية، كالبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم في مستدركه، والسيوطي في تفسيره، والطبراني في المعجم الصغير، وأكابر ــــــــــــــــــــ

۱ . ميزان الاعتدال، ج ۲ ص ۵۶۴ .

۲ . المستدرك على الصحيحين، ج ۲ ص ۶۱۵ .

۳ . الدر المنثور، ج ۱ ص ۵۹، ونقله كثير من المفسرين عند تفسير الآية . (۲۶۴)

المفسرين في القرون الغابرة، لأنّ الشرك أمر بيّن الغيّ، فلا ـ معنى ولا ـ مسوّغ لنقله بحجة أنه رواية . فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة في توصيف الحلف على اللّه بمخلوقاته شركاً(۱) . * * * * (فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤمِنونَ)(۲) . ــــــــــــــــــــ

۱ . قد تركنا البحث عن التوسل بجاه النبي الوارد في كلام الرفاعي لأنه ليس قسماً ثالثاً، بل داخلا في القسم الثاني، أي التوسل بحقه .

۲ . سورة المرسلات: الآية ۵۰ .

التوسل بدعاء النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ

التوسل بدعاء النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

قد تعرفت فى صدر البحث على أنّ ابن تيمية وأتباعه يجوّزون التوسل بدعاء النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى حال حياته، ويجعلونه من التوسلات الجائزة الداخلة فى إطار «التوسل بدعاء الأخ المؤمن» ولكنهم يخصّونه بحال حياته، ويحرّمونه بعد رحلته، قال ابن تيمية: «أجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به حال حياته ويتوسلون بحضرته، وأمّا فى مغيبه أو بعد موته فلم ينقل عن أحد من الصحابة والتابعين، بل عمر بن الخطاب ومعاوية ومن كان يحضرهما من الصحابة والتابعين لما أجدبوا استسقوا بمن كان حياً كالعباس ويزيد بن الأسود، ولم ينقل عنهم أنهم فى هذه الحالة استشفعوا بالنبى عند قبره ولا غيره، بل عدلوا إلى خيارهم... ثم إنّ المسلمين بعد موته إنما توسلوا بغيره من الأحياء بدلا عنه، فلو كان التوسل به ـ حياً وميتاً ـ مشروعاً لم يميلوا عنه وهو افضل الخلق وأكرمهم على ربه، إلى غيره ممن ليس مثله. فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون، وهم أعلم منّا برسوله وبحقوق اللّه ورسوله، وما يشرع من الدعاء وما ينفع، وما لا يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم فى وقت ضرورة ومخمصة يطلبون تفريج الكربات، وتيسير العسير، وإنزال الغيث بكل طريق، دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه، ولهذا ذكر الفقهاء فى كتبهم فى الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أنّ التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن يدعو، فما زال المسلمون (۲۶۶)

يسألونه ليدعو لهم فى حياته، وأمّا بعد موته فلم يسأل الصحابة منه ذلك، لا عند قبره ولا عند غيره كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصحالين(۱) . وقد علق السيد محمد رشيد رضا مؤلف المنار على هذا الموضوع بقوله: «يزعم بعض الناس فى زماننا أنّه لا فرق فى طلب الدعاء والشفاعة منه بين هذه الحياة و الممات، لأنّه حى فى قبره وكأنهم يدعون أنهم أعلم من الصحابة وسائر أئمة السلف بذلك، فالصحابة ـ رضى اللّه عنهم ـ فرقوا بين الحالين، وإن شئت قلت بين الحياتين، والأُمور التعبّدية لا تشرع بالعقل ولا بالقياس(۲).

يلاحظ عليه: أنّ المعروف أنّ السنّة عبارة عن قول المعصوم وفعله وتقريره، فالحجة عبارة عن أحد هذه الأمور، ونحن نفترض أن الصحابة بأجمعهم من المعصومين. فإنّ أقصى ما يمكن أن يحتج به هو أنّ فعل الصحابة دليل على جواز الفعل، وأمّا أنّ تركهم دليل على حرمته، وعدم جوازه، فمن عجائب الأُمور وغرائبها، ولم يعهد هذا الاستدلال من أهل الفتوى والدليل. وأمّا عدول الصحابة عن التوسل بدعاء النبى فى حال مماته، إلى التوسل ببعض أهل بيته فقد ذكرنا وجهه، وهو: أنّ التوسل بالإنسان الصالح الحى لأجل إظهار أن ذلك الفرد يتّحد مع المتوسلين فى المصير، وأنه لولا نزول الرحمة لعمَّهُ الهلاك والدمار مثلهم، وبما أنه صالح لنزول الرحمة عليه، فلتنزل رحمتك عليه يا رب فإنه أهل لذلك، وإن كنا غير مستحقين لها . ومن المعلوم أنّ ترسيم هذا، الّذى هو أحد الأسباب لاستنزال الرحمة، إنما يتحقق بالصالح الحى دون غيره، لأنّ غير الحى ليس متحداً فى المصير مع الأحياء، ولأجل ذلك نرى الصحابة يتوسلون بالحى دون غيره، وما هذا إلّا

---

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل، ج ۱ ص ۱۴ .

۲ . المصدر نفسه . (۲۶۷)

لأجل ذلك. وقد أشار إلى ذلك «السبكى» وقال: ليس فى توسله بالعباس إنكار للتوسل بالنبى أو بالقبر، ولعل توسل عمر بالعباس لأمرين: أحدهما: ليدعو كما حكينا من دعائه . الثانى: إنَّه من جملة من يستسقى وينتفع بالسقيا وهو محتاج إليه، بخلاف النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى هذه الحالة فإنه مستغن عنها، فاجتمع فى العباس الحاجة وقربه من النبى وشيبه، واللّه يستحيى من ذى الشيبة المسلم، فكيف من عم نبيه، ويجيب دعاء المضطر فلذلك استسقى عمر بشيبته(۱) . هذا ويصرح الذكر الحكيم بأنه ما نفع إيمان قوم بعد إشراف العذاب عليهم، إلّا قوم يونس، قال سبحانه: (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُها اِلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْىِ فى الحَيَاةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِين)(۲) .

ذكر المفسرون: إنّ قوم يونس لما عاينوا العذاب، أشار إليهم العالم الموجود فيهم بقوله: افزعوا إلى اللّه فلعلّه يرحمكم ويرد العذاب

عنكم، فاخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوان وأولادها، ثم ابكوا وادعوا. ففعلوا فصرف عنهم العذاب(٣) . ولم يكن هذا العمل إلاّ لأجل استنزال الرحمة على النحو الّذى عرفت . نعم، ما ذكره فى آخر كلامه من أنه أمر عبادىّ يحتاج إلى الدليل فهو كلام متقن، ولكنّه ليس معناه أن يكون الدليل المطلوب دليلا بالخصوص، بل لو كان هناك عام أو إطلاق حول التوسل بدعاء النبى فيؤخذ بإطلاقه، سواء أكان النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى دار التكليف أم فى البرزخ، وإليك البيان:

---

١ . شفاء السقام: ص ١٤٣ ـ ١٤۴ .

٢. سورة يونس: الآية ٩٨ .

٣ . مجمع البيان: ج ٣ ص ١٣۵ . (٢۶٨)

وهو يتوقف على بيان أُمور: ١- بقاء الروح بعد الموت

دلّت الآيات القرآنية على بقاء الروح بعد الموت، وأنّ الموت ليس بمعنى فناء الإنسان، بل هو عبارة عن انخلاع الروح عن البدن، وبقائه مستقلا عنه، من غير فرق بين المسلم وغيره، والمقتول فى سبيل اللّه وغيره، والآيات فى ذلك متضافرة . قال سبحانه: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْياءٌ ولَكِنْ لا تَشْعُرونَ)(١)، وهناك آيات نشير إلى مواردها، ومن أراد التوسع فى الموضوع: فليرجع إليها(٢) . ٢- الحقيقة الإنسانية هى الروح

إنّ الإنسان وإن كان بحسب التحليل الظاهرى يتركب من شيئين: المادة والمعنى، والجسم والروح، ولكن الحقيقة الإنسانية عبارة عن نفس الإنسان وروحه، ولأجل ذلك يردّ الوحى الإلهى على من زعم أنّ البدن الإنسانى يضل فى العالم بعد الموت، حيث حكى عنهم قولهم: (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْق جَديد) فردّ عليهم بقوله: (قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)(٣) .

ومعنى التوفّى فى الآية هو الأخذ، ومعنى الآية أنّ تناثر أجزاء البدن فى أجواء العالم وثناياه، لا يضر بالمعاد، فإنّ الحقيقة الإنسانية وواقعيتها محفوظة عند اللّه، وأنّ ملك الموت يأخذكم، وليس المأخوذ إلاّ الروح .

---

١ . سورة البقرة: الآية ١۵۴ .

٢ . لاحظ: سورة آل عمران: الآية ١۶٩ ـ ١٧١، سورة يس : الآية ٢۵ ـ ٢۶، سورة غافر الآية ۴۶ .

٣ . سورة السجدة: الآية ١٠ ـ ١١ . (٢۶٩) ٣- إمكان الاتصال بالأرواح

إنّ الذكر الحكيم يصدق صحة اتصال الإنسان العائش فى الدنيا بالأرواح المتواجدة فى عالم البرزخ، ويصرّح بأنّ بعض الأنبياء كصالح وشعيب كلّموا أرواح أُممهم الهالكة، ويظهر ذلك بالإمعان فى الآيات التالية: يقول فى حق أُمة شعيب: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحوا فى دَارِهِمْ جاثِمينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها، الَّذينَ كَذَّبوا شُعَيباً كانُوا هُمُ الخَاسِرينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَد أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْم كافِرِينَ)(١) .

ترى أنّ قوله: «فتولّى عنهم» جاء بعد الإخبار بدمارهم وهلاكهم كما هو صريح سياق الآيات، وعندئذ خاطب الهالكين بقوله: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى...» . ويقول فى حق أُمة صالح: (فَعَقَروا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرسَلينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبِحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحينَ)(٢) .

وكيفية الاستدلال واضحة بعد التدبّر فى ما ذكرناه، فإنّ المخاطبة والمحاورة وقعت بعد هلاكهم، فلا يمكن لنا رفض سياق الآية والقول بأنه كلمهم فى حال حياتهم. إنّ الذكر الحكيم يأمر النبى بسؤال المرسلين ويقول: (وَاسْأَلْ مَنْ

---

١ . سورة الأعراف: الآية ٩١ ـ ٩٣ .

۲ . سورة الأعراف: الآیة ۷۷ ـ ۷۹ . (۲۷۰) أرْسَلنا مِنْ قَبْلِکِ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ)(۱) .

وتأویـل الآیـة بإرجاعهـا إلی سؤال علماء أهل الکتاب تأویل بلا دلیل، ولا منافاة بینهما حتّی یرجع أحـدهما إلی الآخر . إنّ المسـلمین جمیعاً یخاطبون النبی بالسـلام فی حال التشـهد، ویقولون: «السـلام علیک أیها النبی ورحمـة اللّه وبرکاته» وقد اتفق الفقهاء علی کونه جزءاً من التشهّد(۲) . وفی ضوء هذه الأُمور الثلاثة تثبت إمکانیة التوسل بالأرواح المقدسة، فالأولیاء والأنبیاء من جانب أحیاء یرزقون، من جانب آخر، إنّ حقیقة الإنسان هی النفس الباقیة بعد الموت أیضاً، ومن جانب ثالث، إنَّ الأنبیاء کلّموا أرواح أُممهم الماضیـة. کل ذلک یـدل علی إمکانیـة الاتصال بهم ووقوعه، وأنهم یسـمعون کلامنا وسـلامنا ومحاورتنا. بقی الکلام فی جواز التوسل شـرعاً، حتّی یکـون تعبـداً مع الـدلیل . إنّ الـذکر الحکیم یحثّ المـذنبین علی المجیء إلی النـبی وطلب الاسـتغفار منه یقـول: (وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُم جَاُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِیماً) (۳) والمتبادر إلی أذهاننا فی هـذا الزمان اختصاص الآیة بحـال حیـاة النبی، ولکن الصـحابة فهموا منه الأعم من حال الحیاة والارتحال إلی الرفیق الأعلی، ویـدل علی ذلک ما نـذکر: ۱- روی البیهقی عن مالـک قـال: أصـاب الناس قحط فی زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل إلی قبر النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ فقال: یا رسول اللّه. استسق اللّه لأُمتک فإنهم قد هلکوا، فأتاه رسول اللّه فی المنام وقال: ائت عمر ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الزخرف: الآیة: ۴۵ .

۲ . الخلاف، للشیخ الطوسی، ج ۱ ص ۴۷، وقد نقل صوراً مختلفة للتشـهد عن أئمة المذاهب والکل یشتمل علی خطاب النبی بالسلام .

۳ . سورة النساء: الآیة ۶۴ . (۲۷۱)

فاقرئه السـلام وأخبره أنهم مسقون(۱) . فالحـدیث یعرب عن أنّ التوسـل بـدعاء النبی بعـد رحلته کـان رائجاً، ولو کان عملا محرّماً أو بدعـة فلماذا توسل هـذا الرجل بـدعائه؟ ولماذا بکی الخلیفة بعد سـماع کلامه، کما هو فی ذیل الحدیث ؟ یقول السـمهودی بعد نقل الحـدیث: ومحل الاستشـهاد طلب الاستسـقاء منه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ وهو فی البرزخ، ودعاؤه لربه فی هذه الحالة غیر ممتنع، وعلمه بسؤال من یسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسـقاء وغیره منه کما کان فی الدنیا(۲) . ۲- روی ابن عساکر فی تاریخه، وابن الجوزی فی «مثیر الغرام الساکن» وغیرهما بأسانیـدهم إلی محمد بن حرب الهلالی قال: دخلت المدینة فأتیت قبر النبی ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ فزرته وجلست بحـذائه، وجـاء أعرابی فزاره ثم قـال: یا خیر الرسل! إنّ اللّه أنزل علیک کتاباً صادقاً قال فیه: (ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسـهم ـ إلی قوله: رحیمـاً) وإنی جئتـک مسـتغفراً ربک من ذنوبی متشـفعاً بک، وفی روایـة: «وقـد جئتک مسـتغفراً من ذنبی مستشـفعاً بـک إلی ربی» ثم بکی وأنشأ یقول: یاخیر من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طیبهن القاع والأکم نفسـی الفـداء لقبر أنت ساکنه * فیه العفاف وفیه الجود والکرم ثم استغفر وانصرف. ۳- وقال السمهودی: قال الحافظ أبو عبداللّه محمد بن موسی بن النعمان فی کتابه «مصـباح الظلام»: إنّ الحافظ أبا سـعید السـمعانی ذکر فیما روینا عنه عن علیّ بن أبی طالب ـ رضـی اللّه عنه – قال: قدم علینا أعرابی بعد ما دفنّا رسول اللّه بثلاثة أیام، فرمی بنفسه علی قبر النبی وحثا من ترابه علی ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . دلائل النبوة، ج ۷ باب ما جاء فی رؤیة النبی فی المنام، ص ۴۷ .

۲ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۷۱ . (۲۷۲)

رأسه وقـال: یـا رسول اللّه. قلت قسـمعنا قولـک، ووعیت من اللّه سـبحانه منـا وعینا عنک، وکان فیما أنزل علیک: (ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءُوکَ فاستغفروا اللّه...) وقد ظلمت وجئتک تستغفر لی(۱) . شبهات للکاتب الوهابی

إنّ للکاتب الوهابی، الرفاعی صـخباً وهیاجاً حول الحدیث، فقد أشکل علیه بوجوه ستة لا یهمنا ذکرها والإجابة عن جمیعها، لأنه غفل عن کیفیة الاستدلال بهذه النقول، وسنشیر إلیها. نعم، یهمنا أن نذکر بعض اعتراضاته: ۱- یقول: إنّ التوسل بدعاء النبی بعد موته رهن أن یسـمع الرسول أو یتکلم، أو یصـدر عنه أی عمل بعـد موته، مع أنه قـد انقطع عمله نهائیاً کما قال هو ـ علیه السَّلام ـ : «إذا مات ابن

آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» ولا شك أنّ رسول اللّه يشمله هذا الحديث . عزب عن المسكين مفاد الحديث، فإنه بصدد بيان انقطاع ابن آدم عن العمل الّذى يترتب عليه الثواب، بقرينة استثناء الأُمور الثلاثة، وقال أميرالمؤمنين فى هذا المجال: «وإنّ اليوم عمل ولا حسابن، وغداً حساب ولا عمل»(۲) . وقال أيضاً: «الا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب عن خطيئة قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟»(۳) . فكيف يمكن القول بانقطاع عمل الميت نهائياً مع أنّ الشهداء فى سبيل ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۶۱ .

۲ . نهج البلاغة ;الخطبة ۴۲ .

۳ . نهج البلاغة ;الخطبة ۲۸ . (۲۷۳)

اللّه يقومون بأعمال ينوّه بها الذكر الحكيم ويقول: (فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِم أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَفَضْل وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)(۱). أو ليس الفرح بما أوتوا من فضله سبحانه، والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم، والاستشعار بعدم الخوف والحزن، والاستبشار بنعم اللّه سبحانه، أفعالا للراحلين إلى دار الآخرة؟ مضافاً إلى ما ورد من أنهم يرزقون عند ربهم(۲) . ۲- يقول: إنّ الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلّا اللّه، فهى حياة مستقلة نؤمن بها ولاـ نعلم ماهيتها، وإنّ بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا فيستحيل الاتصال بينهم، لا ذاتاً ولا صفاتاً واللّه سبحانه يقول: (وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَومِ يُبْعَثُونَ)(۳) . عجيب واللّه أمر هذا الرجل، إنه يأتى بالشُّبه والأوهام بصورة البرهان، ويجتهد فى مقابل النص، وقد تعرفت على الآيات الّتى تحدثت عن محاورة الأنبياء أرواح أممهم الهالكة، وقد تعرفت على أنه سبحانه أمر النبى بالسؤال عن الأنبياء. فما هذا الاجتهاد فى مقابل النص؟ لقد تناسى الرجل حديث تكلم النبى مع أصحاب القليب المقتولين من كفرة قريش، وقد ذكره أصحاب الحديث والتاريخ، وإليك نص صحيح البخارى فى ذلك: وقف النبى على قليب بدر وخاطب الذين قُتلوا وأُلقيت أجسادهم فى القليب: لقد كنتم جيران سوء لرسول اللّه، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، وقد وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً. ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة آل عمران: الآية ۱۷۰ ـ ۱۷۱ .

۲ . سورة آل عمران: ۱۶۹ .

۳ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۲۶۷، سورة المؤمنون: الآية ۱۰۰ . (۲۷۴)

فقال له رجل: يا رسول اللّه ما خطاب لِهام سديت؟ فقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: واللّه ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلّا أن أعرض بوجهى ـ هكذا ـ عنهم(۱) . وروى ابن هشام عن أنس بن مالك، قال: لما سمع أصحاب رسول اللّه كلام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القليب، وياعتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام ـ فعدّد من كان منهم فى القليب ـ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول اللّه. أتنادى قوماً قد جيفوا؟(۲) قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى(۳) . لما وقعت الفتنة بالبصرة، خرج كعب بن سور، وكان قاضى البصرة لحرب خليفة رسول اللّه وإمام زمانه، ولما كان النصر حليفاً له ـ عليه السَّلام ـ مرّ على جسد كعب بن سور، فقال لمن حوله: أجلسوا كعب بن سور، فأجلسوه بين شخصين يمسكانه، فقال ـ عليه السَّلام ـ: يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: أضجعوه، وسار قليلا حتّى مرّ بطلحة بن عبيد اللّه، فقال: أجلسوا طلحة، فكلّمه بمثل ما كلّم كعب بن سور، فقال له رجل: يا أميرالمؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟ فقال ـ عليه السَّلام ـ: يا رجل واللّه لقد سمعا كلامى، كما سمع أهل القليب كلام رسول اللّه(۴) . ۳- يقول إنّ القرآن يخبر بأنّ النبى لا يستطيع إسماع الموتى ويقول: (إنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى)(۵)، وقال (وَمَا أَنْتَ بَمُسمِعٍ مَنْ فِى ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . صحيح البخاری: ج ۵، باب قتل أبی جهل، ص ۷۶ ـ ۷۷ .

۲ . قد جيفوا: أی قد صاروا جيفة .

۳ . السيرة النبوية لابن هشام، ج ۲ ص ۲۹۴، طبع دار إحياء التراث العربی ـ بيروت .

۴ . الجمل، للشيخ المفيد، ص ۲۱۰ ط النجف، حق اليقين للسيد شبر، ج ۲، ص ۷۳ .

۵ . سورة النمل: الآية ۸۰ . (۲۷۵) القُبُورِ)(۱)، والرسول بعد أن توفّاه اللّه هو من الموتى ومن أهل القبور، فثبت انه لا يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا(۲) .

ولكنّه غفل عن أنّ طرف المحاورة ليس الأجساد الخالية عن الأرواح، بل أرواح هذه الأبدان، فإنّ لها عيشة برزخية مقترنة مع بدن برزخی. وأمّا الوقوف على القبر ـ مع أنّ التكلّم مع أرواحهم لا ـ مع أجسادهم ـ فإنما هو لأجل تحصيل حالة نفسانية يستطيع معها الإنسان التوجه إلى أرواحهم، والالتفات إليهم حتّى يكلمهم بما يقصد . ومن عجيب الأمر أنه يقول: إنّ قوله سبحانه:(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...) يختص بالمنافقين، فعلى ما ذكره يكون المنافق أعز عند اللّه من المؤمن، حيث يجوز للأول، طلب الاستغفار منه دون المؤمن، فهو أشمل لرحمة اللّه من الثانی «فاقض ما أنت قاض» مع أنّ مورد الآية لا يخصّص إطلاقها، بل الآية عامة لكل من ظلم نفسه سواء أكان منافقاً أم غيره. هذا عمدة ما استدل به الكاتب على عدم صحة الاحتجاج بالرواية، وأمّا الإشكال على سنده، أو اشتمال متنه على الشذوذ فلا يضر أبداً، فلنفترض نحن أنّ السند ضعيف، وأنّ فی المتن بعض الإشكال، لكن لو كان التوسل بدعاء النبی بعد رحلته شركاً يوجب الخروج عن الدين، أو أمراً محرّماً يجب أن يتوب عنه المسلم، فلماذا قامت جموع كثيرة من المحدثين بنقله والاحتجاج به، أوَ ليس عاراً على محدّث إسلامی أن ينقل فی جامعه وكتابه أثراً يشتمل على الشرك والأمر المحرّم الواضح، ولا يعود عليه بشیء. ولنفترض أنّ الراوی وضع هذا الحديث ولم يكن له حقيقة، ولكن الواضع إنما يضع الحديث لأجل إلفات الناس إليه، فلو كان ذلك الأمر موجباً للشرك أو ما يقارنه، فالدواعی تكون عن وضعه مصروفة. كل ذلك يعرب ــــــــــــــــــ

۱ . سورة فاطر: الآية ۲۲ .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۶۸ . (۲۷۶)

عن أنّ هذا العمل كان أمراً مباحاً فجاء هذا الراوی ينقل هذا الأمر على عفو الخاطر . والاستدلال بهذه الرواية وما يأتی بعده بهذا الوجه، ولأجل ذلك لم نحاول أن نصحح السند . ۴- روى السمهودی عن الإمام محمد بن موسى بن النعمان فی كتابه «مصباح الظلام فی المستغيثين بخير الأنام» عن محمد بن المنكدر: أودع رجل أبی ثمانين ديناراً وخرج للجهاد، وقال لأبی: إنّ احتجت أنفقها إلى أن أعود. وأصاب الناس جهد من الغلاء، فأنفق أبی الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال أبی: عد إلیَّ غداً، وبات بالمسجد يلوذ بقبر النبی مرة وبمنبره مرة، حتّى كاد أن يصبح يستغيث بقبر النبی ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فبينما هو كذلك فإذا بشخص فی الظلام يقول: دونكها يا أبا محمد. فمدّ أبی يده، فإذا بصرّة فيها ثمانون ديناراً، فلمّا أصبح جاء الرجل فدفعها إليه(۱) . وقد نقل السمهودی فی هذا الفصل قصصاً كثيرة عن شخصيات إسلامية، فمن أراد فليرجع إليه(۲) . وقد تعرّفت أنّ كيفية الاستدلال بهذه القصص ليس على أساس صحة إسنادها أو خلو متونها عن الشذوذ، وإنما هو على أساس أنه لو كان هذا الأمر شركاً أو أمراً محرماً لما اهتم المحدثون والمؤرخون بنقلها، بل ولما قام الوضّاعون بوضعها، فإن الغرض من وضع الحديث هو بثّه بين المحدثين الواعين، ومن المعلوم أنه إذا كان التوسل بدعاء النبی بعد رحلته شركاً وبدعة على ما تدعيه الوهابية، لكانت الدواعی عن وضعها ونقلها مصروفة جداً، وهذا يعرب عن ان العمل كان مشروعاً وسائغاً بين المسلمين، فلأجل ذلك قام هؤلاء بنقل ــــــــــــــــــ

۱ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۸۰ .

۲ . نفس المصدر: ج ۴ ص ۱۳۸۰ ـ ۱۳۸۷ . (۲۷۷)

هذه الأحاديث، وقام المتوسلون ـ على فرض الصحة ـ بهذا العمل، أو قام الوضاعون على احتمال، بوضعها. إلى هنا تبيّنت أحكام

التوسل بأقسامه الثلاثـة : * التوسل بذوات الصالحين وأنفسـهم . * التوسل بحقهم ومنزلتهم ومكانتهم . * التوسل بدعائهم بعد رحلتهم ووفاتهم . وأرى أن بسط الكلام فى هذه المواضع أزيد من ذلك ضياع للوقت، ومن أراد الحق فيكفيه ما حررناه، فطوبى لمن يستمع القول ويتبع أحسنه، وتبّاً لقوم «نبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم كانهم لا ـ يعلمون» . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(۱) . ــــــــــــــ

۱ . سورة المائدة: الآية ۳۵ . (۲۷۸) (۲۷۹)

إبن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيعاً

إبن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيعاً

إتفق المسلمون عامة على شفاعة النبى الأ ـ كرم يوم القيامة، وإن اختلفوا فى معنى الشفاعة بين كونها سبباً لغفران الذنوب كما عليه الأشاعرة والإمامية وأهل الحديث، أو لترفيع الدرجة كما عليه المعتزلة. إنما الكلام فى طلب الشفاعة من النبى فى حال حياته ومماته، فالمسلمون إلى عهد ابن تيمية اتفقوا على جوازه حياً وميتاً، وهو من فروع طلب الدعاء من المشفوع له، إلى أن جاء ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى ورفع راية الخلاف بين المسلمين، وقال: «لا يجوز طلب الشفاعة من النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فهو يسلم بأن نبى الإسلام وسائر الأنبياء لهم حق الشفاعة فى الآخرة، ولكن يقول: لا يطلب الشفاعة إلاّ من اللّه، يقول ابن تيمية: «قد ذكر العلماء وأئمة الدين الأدعية المشروعة وأعرضوا عن الأدعية المبتدعة، ثم بيّن مراتب الأدعية المبتدعة على النحو التالى»: ۱- الدعاء لغير اللّه سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ أم غيرهم فيقال: يا سيدى فلان أغثنى، وأنا مستجيرك ونحو ذلك، فهذا هو الشرك باللّه... ۲- أن يقول للميت أو الغائب من الأنبياء: ادع اللّه لى، أو ادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا لا يستريب عالمٌ أنه غير جائز... ۳- أن يقول: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمته ونحو ذلك، فهو (۲۸۰)

الّذى تقدم عن أبى محمد أنه أفتى بأنه لا يجوز فى غير النبى، وأفتى أبو حنيفة وأبو يوسف وغيرهما أنه لا يجوز فى حق أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم...؟(۱) يلاحظ على مجموع ما ذكره:

أمّا القسم الأول، فإنّ عدّه شركاً، عجيب جداً، هذا هو القرآن الكريم يذكر عن شيعة موسى قوله: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ)(۲)، ومعه كيف يقول: إنّ قول القائل «يا سيدى فلان أغثنى» شرك سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، أوَ لم يكن موسى حياً حين استغاثه الّذى من شيعته؟ ولو خصّ الشرك بصورة كون المدعو ميتاً ـ فمع أنه مخالف لصريح كلامه ـ لا يكون سبباً للشرك، إذ لا معنى لكون خطاب فى حال، عين التوحيد، وفى أُخرى نفس الشرك، نعم، الموت والحياة يؤثران فى الجدوائية وعدمها. وأمّا القسم الثالث، أعنى قول القائل: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمته، فهو داخل فى القسم الثانى من التوسل الّذى قدمنا الكلام فيه، وذكرنا هناك توسل شخص النبى بحقه وحق الأنبياء . نعم، الكلام فى القسم الثانى، وهو أن يخاطب الأنبياء والصالحين بقوله: «ادع اللّه لى، أو ادع لنا ربك» وهذا هو الّذى ذكر فى حقه «أنه لا ـ يستريب عالم فى أنه غير جائز» مع أنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء من الشافعين فى حال حياتهم ومماتهم . ثم إنّ لأتباع محيى مسلك ابن تيمية فى القرن الثانى عشر، أعنى محمد بن عبدالوهاب، تعبيراً واضحاً فى ذلك المجال يقول: «إنّ طلب الشفاعة يجب أن يكون من اللّه لا ـ من الشفعاء بأن يقول:

---

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۲ .

۲ . سورة القصص: الآية ۱۵ . (۲۸۱)

اللّهمّ شفّع نبيّنا محمداً فينا يوم القيامة، أو اللّهمّ شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من اللّه لا منهم، فلا يقال: يا رسول اللّه أو يا ولى اللّه أسألك الشفاعة أو غيرها مما لا يقدر عليه إلاّ اللّه، فإذا طلبت ذلك فى أيام البرزخ كان ذلك من

أقسام الشرك(۱) . هكذا نرى أنّ الاتهام بالشرك أرخص وأوفر شيء في كتب الوهابية وشيخها ابن تيمية، ولتحقيق الحال نركّز على أمرين يبتني عليهما جواز طلب الشفاعة عن الأنبياء والصالحين في هذه الدنيا وهما: ۱- إنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء . ۲- إنّ طلب الدعاء من الصالحين أمر مستحب في الاسلام، وقد جوّزته الوهابية إذا كان المدعو حياً، وإليك بيانهما: أ ـ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء

إنّ شفاعة النبي وسائر الشفعاء هي الدعاء إلى اللّه وطلب المغفرة منه سبحانه للمذنبين، واللّه سبحانه أذن لهم في الدعاء في ظروف خاصة، فيستجاب فيما أذن، وهم لا ـ يدعون في غير ما أذن اللّه لهم . نعم، نحن لا نحيط بكنه الشفاعة في يوم القيامة، ولعلّ لها في ذلك اليوم مرتبة أُخرى، ولكن الدعاء إلى اللّه من مراتبها ومن أوضح مصاديقها، فقول القائل مقابل قبر النبي «يا وجيهاً عند اللّه اشفع لنا عند اللّه» لا يقصد إلاّ هذا المعنى. هذا هو المفسر المعروف النيسابوري يذكر عن مقاتل في تفسير قوله تعالى: (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصيبٌ مَنْهَا، وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)(۲):... الشفاعة إلى اللّه إنما هي دعوة اللّه لمسلم(۳) .

---

۱ . الهدية السنية، الرسالة الثانية: ص ۴۲ والرسالة لأحد أتباعه .

۲ . سورة النساء: الآية ۸۵ .

۳ . تفسير النيسابوري: ج ۵ ص ۱۱۸ بهامش تفسير الطبري . (۲۸۲)

وهذا هو الإمام الرازي يفسر الشفاعة بالدعاء والتوسل إلى اللّه، فقد قال في تفسير قوله سبحانه: (وَيَسْتَغْفِرون لِلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيء رَحْمَةً) هذه الآية تدل على حصول الشفاعة من الملائكة للمذنبين، وإذا ثبت هذا في حق الملائكة فكذلك في حق الأنبياء، لا ـ نعقاد الإجماع على أنه لا فرق(۱) . وقال أيضاً قال تعالى لمحمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤمِنينَ وَالْمُؤمِنَات) فأمر محمداً أن يذكر أوّلا الاستغفار لنفسه، ثم بعده يذكر الاستغفار لغيره، وحكى عن نوح ـ عليه السّلام ـ أنه قال: (رَبِّ اغْفِرْلي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بِيتِيَ مُؤمِناً وَلِلْمُؤمِنينَ وَالمُؤمِنات)(۲) . وعلى هذا فالشفاعة هي دعاء الشفيع للمذنب، وطلب الشفاعة منه هو طلب الدعاء منه، وقد سمي في الأحاديث: دعاء المسلم لأخيه المسلم شفاعة له، روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن النبي أنه قال: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لايشركون باللّه إلاّ شفّعهم اللّه فيه(۳) . فلو أنّ رجلا أوصى في حال حياته أربعين رجلا من أصدقائه الأوفياء على أن يقوموا بالدعاء له بعد موته وفوته، فقد طلب الشفاعة منهم . وقد أفرد البخاري في صحيحه باباً بعنوان «إذا استشفعوا إلى الإمام ليستسقي لهم لم يردهم» وأفرد باباً آخر بعنوان «إذ استشفع المشركون بالمسلمين عند القحط»(۴) . كل ذلك يدل على أنّ الشفاعة بمعنى الدعاء إلى اللّه، وطلبها هو طلب الدعاء .

---

۱ . مفاتيح الغيب: ج ۷ ص ۲۸۶ ـ طبع مصر، سورة غافر: الآية ۷ .

۲ . مفاتيح الغيب: ج ۸ ص ۲۲۰، سورة محمد: الآية ۱۹ و سورة نوح: الآية ۲۸ .

۳ . صحيح مسلم: ج ۳ ص ۵۴ .

۴ . صحيح البخاري ج ۲ ص ۲۹ ـ أبواب الاستسقاء . (۲۸۳) ب ـ طلب الدعاء من المؤمن ليس شركاً ولا حراماً

لا ـ يتصور أن يكون طلب الدعاء من المؤمن أو الصالح أو الأنبياء العظام شركاً سواء أكانوا أحياءً أمْ أمواتاً، أمّا الأحياء فقد صرح القرآن الكريم بجوازه، وأمر الظالمين بالمجيء إلى النبي وطلب الاستغفار منه. قال سبحانه: (وَلَو أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرو اللّهَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدوا اللّهَ تواباً رحيماً)(۱). وحكى عن ولد يعقوب أنهم قالوا لأبيهم (يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي)(۲) .

كما أنه لا ـ يكون شركاً، لا ـ يكون حراماً أيضاً، ونحن ننقل مجموعة من الأحاديث مما ورد فيه طلب الشفاعة: ۱- هذا هو الترمذي يروي في صحيحه عن أنس أنه قال: سألت النبي أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل. قلت: فأين أطلبك؟ قال: على الصراط(۳) .

والعجب من الشيخ الرفاعى الّذى يأتى بكل ما ذكره ابن تيمية ومحمد بن عبدالوهاب حرفاً بحرف، لكن بثوب جديد وصبغة جديدة، استشكل على الاستدلال بهذا الحديث بقوله: ٢- إنّه ليس من قبيل التوسل بالمخلوق، بل من قبيل التوسل إلى ربه بـدعاء أخيه المؤمن له . ٣- طلب أنس من الرسول أن يشفع له يوم القيامة، يفيد أن أَنَساً ـــــــــــــــــــــ

١ . سورة النساء: الآية ۶۴ .

٢ . سورة يوسف: الآية ٩٧ ـ ٩٨ .

٣ . سنن الترمذى: ج ۴ ص ۴٢، باب ما جاء فى شأن الصراط . (٢٨۴)

يقصـد أن يـدعو له اللّه تعالى أن يشفّعه به يوم القيامـة، أى يجعله فى جملـة الحـد الّـذى يحده له فيشـفع فيهم(١) . يلاحـظ عليه: أنّ الهدف من الاسـتدلال بالحديث هو إثبات جواز طلب الشـفاعة من المخلوق، لا التوسل بذوات المخلوقين، فإنه بحث آخر، وله حجج أُخرى قـدمناها. هـذا حول الإشـكال الأول . وأمّا الثـانى فهو تأويل لظاهر الحـديث دعماً للمـذهب الّـذى تبناه، فإنّ المتبادر من قوله: «سألت النبى أن يشـفع لى يوم القيامة» أى قلت له يا رسول اللّه اشـفع لى يوم القيامة، وأين هو من التأويل الّذى يذكره الرفاعى من أنه قصـد أن يـدعو اللّه تعـالى أن يشـفّعه به يوم القيامـة؟ ولو كان المقصود هـذا فإنّ أنساً من العرب العرباء، كان له أن يفصـح عن مراده ويقول: يـا رسول اللّه ادع اللّه تعـالى أن يشـفعك فىّ، يوم القيامـة . وليس هـذا التاويل وأمثاله الّـذى ارتكبه ذلك الكاتب إلاّ تحريفاً للكلم ليروج متاعه . ثمّ إنه استشـكل على الحديث بضـعف السند، فقال: «إنّ فى سنده أبا الخطاب حرب بن ميمون وهو ضعّف ووثّق» وإليك ما ذكره الذهبى فى حقه: حرب بن ميمون، ابو الخطاب الأنصارى، بصـرى صدوق يخطىء، قال أبو زرعة: ليّن، وقال يحيى بن معين: صالـح وثّقه على بن المدينى وغيره. وأمّا البخارى فذكره فى الضـعفاء(٢) . وقـال ابن حجر: «قال الخطيب فى المتفق والمفترق: كان ثقة . وقال الساجى فى حرب بن ميمون: الأصـغر، ضـعيف عنده مناكير، والأكبر ثقة، والوارد فى سـند الرواية هو الأكبر، وقال ابن حبان: فى الثقات، يخطىء . ـــــــــــــــــــــ

١ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ٣٢٠ .

٢ . ميزان الإعتدال: ج ١ ص ۴٧٠، رقم ١٧٧٣ . (٢٨۵)

وقرأت بخط الـذهبى: وثّقه ابن المـدينى ومات فى حدود الستين والمائة»(١) . ترى أنّ الأكثريـة الغالبـة وثّقته غير البخارى، وهو ذكره فى الضـعفاء، ومن المعلوم أنه لاـ يمكن ترك حـديثه بمجرد ذكر البخارى إياه فى الضـعفاء، ولم يعلم وجه كونه ضـعيفاً عنـده، ولعله لأجل كونه قـدرياً كما يظهر من ابن حجر فى تهـذيب التهذيب، أى قائلا بالاختيار الّذى هو على طرف النقيض من القول بالجبر، وهو موجب لقوّته لاـ لضـعفه، فالروايـة حجـة بلاـ إشـكال. كيف لا يجوز طلب الشـفاعة من الصالحين وهـذا هو الطبرانى روى فى المعجم الكبير أنّ سواد بن قـارب ـ رضـى اللّه عنه ـ أنشـد قصـيدته: وأشـهد أنّ اللّه لاـ ربّ غيره * وأنّـك مأمون على كل غائب وأنّك أدنى المرسـلين وسـيلة * إلى اللّه يابن الأكرمين الأطائب فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل * وإن كان فيما فيه شـيب الـذوائب وكن لى شـفيعاً يوم لاـ ذو شـفاعة * بمغن فتيلاـ عن سواد بن قارب(٢) والشاهـد هو البيت الأـخير حيث طلب الشـفاعة من النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ . إنّ الكـاتب الوهـابى الرفـاعى لم يجـد بـداً عن التسـليم لما يفيـده البيت الأخير وقال: «إنّ سواد بن قارب يخاطب رسول اللّه ويرجوه أن يدعو اللّه تعالى أن يكون له شـفيعاً يوم القيامة، والخطاب هذا لا شك كان فى حياته، وطلب الشفاعة منه فى حياته لا بأس به، لأنه طلب لدعائه لأن يكون سواد فى جملة من ـــــــــــــــــــــ

١ . تهذيب التهذيب: ج ٢ ص ٢٢۵ ـ ٢٢۶، رقم ۴١٨ .

٢ . دلائـل النبوة: ج ٢ ص ٢۴٨ ونقله الطبرانى فى المعجم الكـبير، ج ٧ ص ١٠٩ ـ ١١١ ورواه الحـاكم فى مسـتدركه، وابن كثير فى تاريخه ج ١ ص ٣۴۴ والهيثمى فى مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢۵٠ . (٢٨۶)

يشفعه فيهم يوم القيامة(١) . أقول: الّذى اعتذر به الرفاعى هو الّذى وصـفه بالشـرك شـيخ منهجه أحمد بن تيمية، قال: الدعاء لغير اللّه

سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً... فهذا هو الشرك باللّه(۲) . فما هذا التناقض بين كلامه وكلام شيخه، فالذى يجيزه، هو الّذى يصفه شيخه بالشرك، أبهذه المناقضات تكفّرون المسلمين وتدعون الناس إلى نهج الحق ومعين التوحيد؟ ثم إنّه نقل عن بعض الوهابيين أعنى إسماعيل الأنصارى أنه ضعّف سند الحديث، وذكر وجوهاً للضعف، وقد سبقه معلق مجمع الزوائد، غير أنه غفل عن وجه الاستدلال و هو ما ذكرناه فيما سبق: إنَّ هذا الحديث ونظائره على فرض الصدق وعدمه حجة على ما فى مدلوله، إذ لو كان صادقاً فهو وإن كان مجعولا فلماذا ذكره المحدّثون الكبار فى جوامعهم كالطبرانى فى معجم الكبير، والبيهقى فى دلائل النبوة وغيرهما؟ ولا يعنى من هذا أنهم لا يذكرون الأحاديث الضعاف فى جوامعهم حتّى يقال إنّ المحدثين بين ملتزم بنقل الصحيح وغيره، بل المقصود أنّه إذا كان طب الشفاعة شركاً على ما ذكره أحمد بن تيمية، أو مما لا يستريب عالم فى أنه غير جائز، فلماذا نقلوا الحديث الباطل من دون أن يناقشوا فى مضمونه ومتنه؟ إذ لا يصحّ لهؤلاء أن يمروا على خرافة شركية فى كتبهم، أو أمر محرّم لا يستريب فيه عالم، مرور الكرام . كل ذلك يعرب عن أنّ المضمون ليس عليه غبار، وأمّا ضعف السند فلا يكون دليلا على كذبه، فإليك السند الّذى رواه الطبرانى به، فقد ورد فيه هؤلاء: ______________

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۳۹۹ .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۲ . (۲۸۷)

حدثنا محمد بن محمد التمارة البصرى، ثنا: بشر بن حجر الشامى، ثنا على بن منصور، عن الأنبارى، عن عثمان بن عبدالرحمن الوقاصى، عن محمد بن كعب القرظى . ۳- كيف يكون شركاً وقد جاء فى التاريخ أنّ رجلا اسمه «تبع» قد بلغه أنّ نبى آخر الزمان سوف يظهر من مكة ويهاجر إلى المدينة، فكتب كتاباً ودفعه إلى بعض أقربائه كى يسلّموه إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وذكر فيه إسلامه وإيمانه، وأنّه من أُمة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ و مما جاء فى هذه الرسالة: «فإن لم أدركك فاشفع لى يوم القيامة ولا تنسنى» ومات الرجل، وكان الكتاب ينتقل من واحد إلى آخر، فلما قدم النبى المدينة دفعوا إليه الكتاب فقال: مرحباً بالأخ الصالح»(۱) . فهل يصحّ للنبى أن يصف المشرك بالأخ الصالح؟ أو أن تقرأ عليه الرسالة ويقف على ما طلبه منه من الأمر المحرم دون أن يرد عليه؟ كل ذلك يعرب عن أنّ طلب الدعاء وطلب الشفاعة من الصالحين والأنبياء ليس شركاً فى العبادة، ولا أمراً محرماً، ما هذا الجمود فى فهم الإسلام؟ وما هذه الظنون والشبه الّتى تعتمدون عليها؟ فإنّ الإسلام دين حنيف سهل . نعم لهم اعتراض على ما ذكرناه من الأدلة، بأنها ترجع إلى طلب الشفاعة من الأحياء، وأن البحث إنما هو فى طلبه من غيرهم، والجواب من وجهين: الأوّل: قد عرفت فى البحث السابق بوجوه قيمة من أنّ الطلب متوجه إلى الأرواح المقدسة الّتى لم تنقطع صلتها بنا، وقد جرت السنة على ذلك، وقد عرفت الأدلة على جواز التكلم مع الأرواح المؤمنة والمشركة، كما عرفت أنّ الأنبياء العظام كصالح وشعيب، والنبى الأكرم كلّموا قومهم بعد هلاكهم ودمارهم، غير أنّه تكميلا للبحث نذكر بعض ما ورد من الأثر فى ذلك ______________

۱ . المناقب، لابن شهر آشوب: ج ۱ ص ۱۶ . (۲۸۸)

المجال، أى طلب الدعاء بعد الالتحاق إلى رحمة اللّه . هذا ابن عباس يقول: لما فرغ أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ من تغسيل النبى، قال: «بأبى أنت وأُمى، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك»(۱) . ويروى أهل السنة أنه لما توفّى رسول اللّه جاء أبوبكر من سلع، ووقف على فوته وكشف عن وجهه وقبله وقال: بأبى أنت وأُمى طبت حياً وميتاً واذكرنا عند ربك»(۲) . فما معنى المعارضة مع هذه النصوص ومعاكستها؟ (فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ)(۳) . أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة

لقد تعرّفت فيما مضى على أنّ طلب الشفاعة يساوق طلب الدعاء، ولا يتصوّر أن يكون من أقسام الشرك فى العبادة، أو يكون طلبه من المخلوق عبادة له، إلاّ أن يكون طلب الدعاء من مخلوق شركاً وعبادة، وهو مما لم يقل به أحد حتّى الوهابيون . نعم لهم شبهة ربما يغتر بها البسطاء، وهى أنّ المشركين كانوا يطلبونها من أصنامهم، فسمّاه اللّه عبادة لهم وقال: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُم وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعَاؤنَا عِنْدَ اللّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّه بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمواتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(۴) .

والشاهد فى قوله: «ويعبدون من دون اللّه» مع ملاحظة ما فى ذيل ـــــــــــــــ

۱ . نهج البلاغة: الخطبة رقم ۲۳۵ ونقل السيد الأمين فى كشف الإرتياب، ص ۲۶۵ أنه قال: بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربك واجعلنا من همك، نقلا عن مجالس المفيد .

۲ . السيرة الحلبية: ج ۳ ص ۳۹۲ .

۳ . سورة الأعراف: الآية ۱۸۵ .

۴ . سورة يونس: الآية ۱۸ . (۲۸۹)

الآية: «ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه» وكان وجه عبادتهم لهم هو قولهم: «هؤلاء شفعاؤنا»(۱) . إنّ الاستدلال بالآية على كون طلب الشفاعة شركاً من غرائب الاستدلال وعجائبه، فإنّ الآية لو لم تدل على أنّ طلب الشفاعة يغاير عبادتهم لها، لا تدل على أنّ طلب الشفاعة عبادة للمدعو، وذلك أنه ورد فى الآية جملتان نسبتهما إلى المشركين: ۱- ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرّهم ولا ينفعهم . ۲- ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه . والعطف يدل على المغايرة، وأنّ هنا عبادة، وأنّ هناك أمراً آخر وهو طلب الشفاعة، وما هذا الخلط؟ ولنفترض أنّ طلب شفاعتهم كان عبادة لمعبوداتهم، وأنّ الجملة الثانية من قبيل عطف العام على الخاص ولكن أين طلب شفاعة المسلم الموحّد من سيد الموحدين، من طلب شفاعة عبدة الأصنام والأوثان، فالمشركون كانوا يعتبرون الأوثان مالكة للشفاعة والمغفرة، فكان اللّه فى معزل عنهما تماماً، ولا شك أنّ طلب الشفاعة من أىّ موجود مقروناً بهذا الاعتقاد يعد شركاً، لأنّ هذا الطلب مقرون بألوهية المدعو وربوبيته، فى حين أنّ الإنسان المسلم يطلب الشفاعة والدعاء من الشفيع باعتباره عبداً مقرباً إلى اللّه، وإنساناً وجيهاً عنده، أذن اللّه تعالى له فى شفاعة المجرمين، وادّخرها النبى لأهل الكبائر من أُمته، كما ورد عن النبى الأكرم، ورواه الفريقان . والمصدر لهذه التهمة هو أنّ القوم لم يضعوا حداً منطقياً جامعاً ومانعاً للعبادة حتّى يميزوا به الدعاء العبادى عن غيره، فجعلوا يخبطون خبط عشواء لا يميزون بين الصحيح والسقيم . نعم، إنّ الشفاعة حق خاص باللّه دل عليه الذكر الحكيم وقال: (أم ـــــــــــــــ

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۱۵ . (۲۹۰) اتَّخَذُوا مِنْ دونِ اللّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيئاً وَلاَ يَعْقَلُونَ * قُلْ لِلّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً)(۱) .

ولأجل كونه حقاً مختصاً باللّه، لا يشفع النبى الأكرم ولا الشفعاء الأُخر لأحد إلاّ بإذنه سبحانه، ولكن قوله «للّه الشفاعة جميعاً» ليس معناه أنه سبحانه هو الشفيع دون غيره، لبداهة أنّ اللّه لا يشفع لأحد عند أحد، بل معناه أنه مالكٌ لمقام الشفاعة، لا يملكه غيره ولا يشفع إلاّ ـ بإذنه . هذا وإنّ المشركين كانوا على خلاف ذلك كما يعرب عنه قوله سبحانه: «قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً» . وفى الختام نذكر النقطة الأخيرة من كلامهم، وهى أنّ النبى الأكرم بعد التحاقة بالرفيق الأعلى لا يسمع بدليل قوله سبحانه (إنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ)(۲) . وقوله: (إنَّ اللّه يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنْ فى القُبُورِ)(۳)، ولكنّك عرفت أنّ الآيتين لا تمتّان إلى طلب الشفاعة عن الأنبياء بصلة، فإنّ الأجساد الراقدة تحت التراب، غير قادرة على الإدراك والسماع، ولكن المخاطب هو الروح الطاهرة والحية الّتى تعيش بالجسد البرزخى فى عالم البرزخ، والخطاب لتلك الأرواح النورانية والشفاعة تطلب منها، وأمّا السعى إلى الحضور فى مقابرهم ومراقدهم فلأجل أنّ الحضور فيها يهيّىء أنفسنا للاتصال بأرواحهم المقدسة، وعند ذلك نجد فى أنفسنا دافعاً إلى التحدّث معهم وهم يستمعون إلينا. هذا هو الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ أحد الأئمة يعلّم شيعته كيفية زيارة أئمة أهل البيت بقوله: ـــــــــــــــ

۱ . سورة الزمر: الآية ۴۳ ـ ۴۴ .

۲ . سورة النمل: الآية ۸۰ .

۳ . سورة فاطر: الآية ۲۲ . (۲۹۱)

«عالماً أنّك تسمع كلامى وترد سلامى... فكن لى إلى اللّه شفيعاً، فما لى وسيلة أوفى من قصدى إليك وتوسّلى بك إلى اللّه»(۱) .

وجاء فی کلام آخر له ـ علیه السَّلام ـ: «اللّهمّ... وأعلم أنّ رسولک وخلفاءک ـ علیهم السَّلام ـ أحیاء عندک یرزقون، یرون مقامی ویسمعون کلامی ویردون سلامی، وأنک حجبت عن سمعی کلامهم، وفتحت باب فهمی بلذیذ مناجاتهم»(۲) . هذا وقد قال ابن تیمیة: وفی سنن أبی داود عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أنّه قال: ما من رجل مسلم سلّم علیّ إلاّ ردّ اللّه علیّ روحی حتّی أردّ علیه السلام، وفی موطأ الإمام مالک أنّ عبداللّه بن عمر ـ رضی اللّه تعالی عنهما ـ کان یقول: السلام علیک یا رسول اللّه، السلام علیک یا أبا بکر، السلام علیک یا أبه، ثم ینصرف، وکذلک أنس بن مالک وغیره من الصحابة رضی اللّه عنهم، نقل عنهم السلام علی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ (۳) . فأیّ فرق بین التسلیم علی المیت وبین طلب الدعاء منه؟ وإذا کان قادراً علی رد السلام، یکون قادراً علی الدعاء إلی اللّه، والشفاعة للداعی، ولو فرضنا أنّه قادر علی شیء واحد وهو رد السلام، ولیس قادراً علی الدعاء، یکون طلبه عندئذ لغواً، لا ـ شرکاً ولا محرماً، ویکون أشبه باعتقاد أثر فی نبات مع کونه خطأ. أو کون شخص قادراً علی إنجاز عمل ولم یکن کذلک. ولم یقل أحد بکون هذا النوع من الاعتقاد شرکاً . ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . بحارالأنوار: ج ۹۷، ص ۲۹۵ .

۲ . عدة الداعی لابن فهد الحلی، ۸۴۱ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۳ .

ابن تیمیة والنذر لأهل القبور

ابن تیمیة والنذر لأهل القبور

قال ابن تیمیة: وإذا کان الطلب من الموتی ـ ولو کانوا أنبیاء ـ ممنوعاً خشیة الشرک، فالنذر للقبور أو لسکان القبور نذر حرام باطل یشبه النذر للأوثان . ویقول: ومن اعتقد أنّ فی النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضالّ جاهل، ثم یقرر: إنّ ذلک نذر فی معصیة، وإنّ من یعتقد أنها باب الحوائج إلی اللّه، وأنها تکشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ العمر، فهو کافر مشرک یجب قتله(۱). أقول: إنّه قد ذیل کلامه بشیء لا یعتقد به أحد من المسلمین، حتّی یجعل ذلک ذریعة لقبول صدر کلامه. فأیّ مسلم یعتقد أن النبی یکشف الضرر ویفتح الرزق ویحفظ العمر؟ بل معتقَدُ جماهیر المسلمین هو أنّ کل الأُمور بیده سبحانه، وأنّ الناس هم الفقراء واللّه هو الغنی الحمید، قال سبحانه: (یَا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَی اللّهِ وَاللّهُ هُوَ الغَنِیُّ الحَمِیدُ)(۲) . ولو اعتقد أحد من المسلمین أن الأنبیاء والصالحین ربما یقومون بأُمور خارجة عن السنن العادیة فهو نفس الاعتقاد بأنهم أصحاب المعاجز والکرامات، وقد تواترت النصوص علی ذلک وأنهم یبرئون الأکمه والأبرص ـــــــــــــــــــــــــــ

۱ . قاعدة جلیلة فی التوسل والوسیلة، ص ۱۰۳ .

۲ . سورة فاطر: الآیة ۱۵ . (۲۹۳)

ویحیون الموتی بإذن اللّه(۱) . ومن یصف أحداً من الصالحین بباب الحوائج فإنما یصفه بهذا المعنی، یعنی أنه سبحانه یستجیب دعاءه إذا دعاه، أو أنّه سبحانه أعطاه مقدرة کبیرة مثل ما أعطی لمن کان عنده علم من الکتاب(۲) . فإذا صحّ ما فی القرآن من أنّ أُناساً من الأنبیاء وغیرهم کانوا أصحاب مقدرة کبیرة یقومون بخوارق العادات وعجائب الأعمال بإذن اللّه، لصحّ التصدیق فی غیرهم ممن لم یجیء عنهم ذکر فی القرآن، فما معنی الإیمان ببعض والکفر ببعض؟ وأمّا النذر للأموات، فتحقیقه یتوقف علی بیان مقدمة: النذر معناه أن یلزم الإنسان نفسه بأداء شیء معیّن إذا تحقق هدفه وقضیت حاجته، فیقول: للّه علیَّ أن أفعل کذا، إذا کان کذا. مثلا یقول: للّه علیَّ أن اختم القرآن إذا نجحت فی الامتحانات الدراسیة . هذا هو النذر الشرعی، ویجب أن یکون للّه، فإذا قال الناذر: نذرت لفلان، ففی قوله مجاز لغایة الاختصار، والمعنی نذرت للّه علی أن أفعل شیئاً یکون ثوابه لفلان، وثواب النذر یقع علی ثلاثة أقسام: ۱- أن یکون الثواب لنفس الإنسان الناذر . ۲- أن یکون لشخص میت . ۳- أن یکون لشخص حی . وهذه الأقسام الثلاثة کلها جائزة،

ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قضيت حاجته، وقد مدح اللّه سبحانه أهل البيت، لأجل الوفاء بالنذر. قال ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة آل عمران: الآية ۴۹ وسورة المائدة: الآية ۱۱۰ .

۲ . قـال سـبحانه: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ... قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدّ إلَيكَ طَرفُكَ)سورة النمل: الآية ۳۹ ـ ۴۰ . (۲۹۴)

تعالى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً)(۱)، هـذا هو النذر . وقد تعارف بين المسـلمين أنّ النذر للّه وإهداء ثوابه لأحد أولياء اللّه وعباده الصالحين، وكانت عليه السيرة بين المسـلمين، إلى أن جاء الـدهر بابن تيمية فحرّم ذلك كما عرفت من عبارته، وقد نقل عنه أيضاً العبارة التاليـة، وقال: «من نـذر شـيئاً للنبى أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبـح ذبيحة، كان كالمشـركين الـذين يـذبحون لأوثانهم وينـذرون لها، فهو عابد لغير اللّه، فيكون بذلك كافراً»(۲) . عجيب جـداً حكم ابن تيمية وتكفيره المسـلمين بحجـة أنّ عمل الناذر يشـبه عمل المشـركين، أيصـحّ فى ميزان النصـفة الحكم بتكفير المسـلمين الذين أرسوا قواعد التوحيد، وحملوه جيلاـ بعـد جيـل إلى عصـر ابن تيميـة، بمجرد أنّ عمـل الذابـح والناذر يشـبه عمل المشـركين . فلو كان هـذا ملاكاً للتكفير فابن تيمية والوهابيون وحماةُ هـذه البـدع من أعظم المشـركين! فإنّ كثيراً من مناسك الحـج و فرائضه (الّتى يقوم بها المسـلمون من غير فرق بين الوهابى وغيره) تشـبه فى ظاهرها أعمال عبـدة الأصـنام، فقـد كانوا يطوفون حول أصـنامهم ويقبّلونها، ونحن أيضاً نطوف حول الكعبة المشـرفة ونقبّل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونقرّب القرابين فى منى يوم عيد الأضحى، كما كانوا يذبحون لأصنامهم، أفيصح تكفير الجميع لأجل هـذه المماثلـة؟ أو المقياس هو النيـة القلبية، وأنّ المعيار هو النية والضـمائر دون المشابهة والظواهر، وقد قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : إنما الأعمال بالنيات(۳) . ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الإنسان: الآية ۷ .

۲ . نقله عنه شـهاب الـدين ابن حجر الهيثمى فى كتـاب «الجوهر المنظم فى زيارة القبر الشـريف النبوى المكرم» كما فى فرقان القرآن للعزامى القضاعى، ص ۱۳۲ .

۳ . صحيح البخارى: ج ۱، كتاب الإيمان ص ۱۶ . (۲۹۵)

ولا يصـحّ التسـرّع فى الحكم بمجرد المماثلـة، لأنّ كل من ينـذر لأحد من الأولياء فإنما يقصد النذر للّه، وإهداء الثواب للولى الصالح ليس إلّا، ولا تجد فى أديم الأرض من يسـجّل اسـمه فى ديوان المسلمين إلّا وينوى ذلك، نعم شذّ عنهم ابن تيمية ومن أحيى مسلكه حيث اتّهموا المسـلمين بغير ذلك . يقول الشـيخ الخالـدى رداً على ابن تيميـة: «إنّ المسألـة تـدور مـدار نيات الناذرين، وإنما الأعمال بالنيات، فإن كان قصـد الناذر الميت نفسه، والتقرّب إليه بـذلك، لم يجز ـ قولا واحداً ـ وإن كان قصده وجه اللّه تعالى وانتفاع الأحياء بوجه من الوجوه به، وإهـداء ثوابه لـذلك المنـذور له، وسواء عيّن وجهـاً من وجوه الإنتفـاع، أو أطلق القول فيه، وكان هناك ما يطرد الصـرف فيه فى عرف الناس، أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك، ففى هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور»(۱) . قال العزامى: «...ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسـلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للأموات ـ من الأنبياء والأولياء ـ إلّا الصدقة عنهم، وجعل ثواباها لهم، وقد علموا أنّ إجماع أهل السـنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات، واصلة إليهم، والأحاديث فى ذلك صحيحة مشـهورة. فمنها: ما صحّ عن سـعد أنّه سأل النبى ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ قال: يا نبىّ اللّه إنّ اُمّى قد افتلتت، وأعلم أنها لو عاشـت لتصـدّقت أفإن تصـدّقتُ عنها أينفعها ذلك؟ قال ـ صـلَّى الله عليه وآله وسـلم ـ : نعم. فسأل النبى: أىّ الصدقـة انفع يا رسول اللّه؟ قال: الماء . ــــــــــــــــــــ

۱ . صلح الأخوان: للخالدى، ص ۱۰۲ وما بعده . (۲۹۶)

فحفر بئراً وقال: هذه لأُم سـعد(۱) . وقـد أخطأ محمـد بن عبـدالوهاب فادّعى أن المسـلم إذا قال: «هـذه الصدقة للنبى أو للولى: فاللام بنفسـها هى اللام الموجودة فى قولنا: «نـذرت للّه» يراد منها الغاية» . بل العمل للّه، بينما لو قال: للنبى، يريد بها الجهة التى يصـرف فيها

الصدقة من مصالح النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فی حیاته ومماته. وفی هذا الصدد یقول العزامی ـ بعد ذکر قصة سعد ـ: «اللام فی هذه لأُم سعد»، هی الام الداخلة علی الجهة الّتی وجهت إلیها الصدقة لا ـ علی المعبود المتقرب إلیه، وهی کذلک فی کلام المسلمین، فهم سعدیون لا وثنیون، وهی کاللام فی قوله تعالی: (إنّما الصّدقات للفرقاء) لا کاللام فی قوله سبحانه: (رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مَا فی بَطْنی مُحرَّراً)(۲) أو فی قول القائل: صلّیت للّه ونذرت للّه، فإذا ذبح للنبی أو الولی أو نذر الشیء له فهو لا یقصد إلاّ أن یتصدق بذلک عنه، ویجعل ثوابه إلیه، فیکون من هدایا الأحیاء للأموات، المشروعة، المثاب علی إهدائها، والمسألة محرّرة فی کتب الفقه وفی کتب الردّ علی الرجل ومن شایعه»(۳) . وهکذا ظهر لک ـ أیها القاریء ـ جواز النذر للأنبیاء والأولیاء من دون أن تکون فیه شائبة شرک، فیثاب به الناذر إن کان للّه وذبح المنذور باسم اللّه: فقول القائل «ذبحت للنبی» لا یرید أنه ذبحه للنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ بل یرید أن الثواب له، کقول القائل: ذبحت للضیف، بمعنی أن النفع له والفائدة له، فهو السبب فی حصول الذبح . ویوضح ذلک ما روی عن ثابت بن الضحاک قال: ________________

۱ . لاحظ: فرقان القران ص ۱۳۳ .

۲ . سورة آل عمران: الآیة ۳۵ .

۳ . فرقان الفرقان: ص ۱۳۳ . (۲۹۷)

«نذر رجل عهد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن ینحر إبلا بـ «بوانة» فأتی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فأخبره، فقال النبی: هل کان فیها من یعبد من أوثان الجاهلیة؟ قالوا: لا . قال: فهل کان فیها عید من أعیادهم؟ قالوا: لا . قال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ للسائل: أوف بنذرک، فإنّه لا وفاء فی معصیة اللّه، ولا فیما لا یملک ابن آدم»(۱) . وروی أیضاً: «إنّ امرأة أتت النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فقالت: یا رسول اللّه... إنی نذرت أن أذبح بمکان کذا وکذا، کان یذبح فیه أهل الجاهلیة . فقال النبی: الصنم؟ قالت: لا . قال: الوثن؟ قالت: لا. قال: فی بنذرک»(۲) . وعن میمونة بنت کردم أنّ أباها قال لرسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ: یا رسول اللّه إنی نذرت إن ولد لی ذکر، أن أنحر علی رأس بوانة «فی عقبة من الثنایا» عدة من الغنم.. قال «الراوی عنها»: لا أعلم إلاّ أنها قالت: خمسین . ________________

۱ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۰.

۲ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۱. (۲۹۸)

فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ: هل من الأوثان شیء. قالت: لا . قال: فأوف بما نذرت به لله...»(۱) . أرأیت أیّها القاریء ـ کیف یکرر النبی ـ ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ السؤال عن جود الأصنام فی المکان الّذی تذبح فیه الذبائح؟ إنّ هذا دلیل علی أنّ النذر الحرام هو النذر للأصنام، حیث کان ذلک عادة أهل الجاهلیة، کما قال تعالی: (وَمَا ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ... ذَلِکُمْ فِسْقٌ)(۲) . ومن اطّلع علی أحوال الزائرین للعتبات المقدسة ومراقد أولیاء اللّه الصالحین یعلم جیداً أنهم ینذرون لله تعالی ولرضاه، ویذبحون الذبائح باسمه عزّوجلّ، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها، وبذلک تعرف سقوط کلمة محمد بن عبدالوهاب فی اتّهام المسلمین بأنهم ینحرون للنبی، وزانَ النحر لله سبحانه، حیث یلقّن أتباعه الحجة ویقول: «فقل: فإذا عملت بقول اللّه تعالی: «فصل لربک» وأطعت اللّه ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلا بد أن یقول: نعم، فقل له: فإن نحرت لمخلوق: نبی أو أجنبی أو غیرهما، هل أشرکت فی هذه العبادة غیر اللّه؟ فلابد أن یقرّ ویقول: نعم» (۳) . والمسلمین تخیّل أنّ اللام فی «هذا للنبی» نفس اللام فی «نذرت لله» وقد عرفت أن إحداهما للغایة، والأُخری للإنتفاع . وختاماً لهذا الفصل نذکر کلمة للخالدی ـ بعد أن ذکر ما رواه أبو داود فی سننه ـ قال: ________________

۱ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۱.

۲ . سورة المائدة: الآیة ۳ .

۳. صلح الإخوان للخالدى، ص ۱۰۹. (۲۹۹)

«وأمّا استدلال الخوارج بهذا الحديث على عدم جواز النذر فى اماكن الأنبياء والصالحين. زاعمين بأنّ الأنبياء والصالحين أوثان ـ والعياذ باللّه ـ وأعياد من أعياد الجاهلية، فهو من ضلالاتهم وخرافاتهم وتجاسرهم على أنبياء اللّه وأوليائه، حتّى سمّوهم أوثاناً، وهذا غاية التحقير لهم، خصوصاً الأنبياء، فإنّ من انتقصهم ولو بالكناية ـ يكفر ولاـ تقبل توبته ـ فى بعض الأقوال ـ وهؤلاء المخذولون بجهلهم، يسمّون التوسل بهم عبادة، ويسمونهم أوثاناً، فلا عبرة بجالهة هؤلاء وضلالاتهم، واللّه أعلم»(۱) . (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمَاً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسكِينَاً وَيَتِيمَاً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً)(۲) .

---

۱. كشف الشبهات، ص ۸.

۲. سورة الإنسان: الآية ۷ - ۹. (۳۰۰)

ابن تيمية والحلف بغير اللّه تعالى

ابن تيمية والحلف بغير اللّه تعالى

إنّ من المسائل المهمة عند الوهابيين هو الحلف بغير اللّه، وذهب ابن تيمية إلى كونه شركاً، اعتماداً على ما رواه الترمذى: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك» وتحقيق الحق يتوقف على توضيح الأُمور التالية: ۱- هل اليمين الفاصل فى الدعاوى هو الحلف باللّه، أو يعمه وغيره؟ ۲- هل ينعقد اليمين بالحلف بالنبى مثلا، بحيث لو حنث لزمته الكفارة أو لا؟ ۳- هل يجوز الحلف بغير اللّه سبحانه أولا؟ وإليك نقل أقوال أئمة المذاهب الفقهية فى المجالات المتقدمة: أ - ما هو الحلف الفاصل فى الخصومات؟

أمّا فقهاء الشيعة فقد اتفقت كلمتهم على أن اليمين الفاصل فى الخصومات هو الحلف باللّه وأسمائه. قال المحقق الحلى: لا يستحلف أحد إلاّ باللّه ولو كان كافراً، فلا يجوز الإحلاف بغير أسماء اللّه سبحانه، كالكتب المنزلة، والرسل المعظمة، والأماكن المشرفة(۱) وأمّا السنّة فلم أجد لهم نصاً فى خصوص هذه المسألة فى الكتب الفقهية، نعم يعلم حكمها مما سنذكره عنهم فى المسألتين التاليتين .

---

۱. جواهر الكلام، فى شرح شرائع الإسلام، ج ۴۰ ص ۲۲۵. (۳۰۱) ب ـ هل ينعقد الحلف بغيره سبحانه؟

قال ابن تيمية: وقد اتفق العلماء على أنّه لا ينعقد اليمين بغير اللّه، ولو حلف بالكعبة أو بالملائكة أو بالأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لم تنعقد يمينه، ولم يقل أحد إنه ينعقد اليمين بأحد من الأنبياء، فإنّ عن أحمد فى انعقاد اليمين بالنبى روايتين، لكن الّذى عليه الجمهور كمالك والشافعى، وأبى حنيفة أنه لا ينعقد اليمين به، كإحدى الروايتين عن أحمد، وهذا هو الصحيح(۱) . وقال ابن قدامة فى المغنى: ولاـ تنعقد اليمين بالحلف بمخلوق كالكعبة والأنبياء وسائر المخلوقات، ولاـ تجب الكفارة بالحلف فيها... وهو قول أكثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول اللّه يمين موجبة للكفارة، وروى عن أحمد أنه قال: إذا حلف بحق رسول اللّه وحنث فعليه الكفارة. قال أصحابنا: لأنه أحد شرطى الشهادة، فالحلف به موجب للكفارة، كالحلف باسم اللّه(۲) . وبالإمعان فى كلام ابن قدامة يظهر عدم صحة ما ذكره ابن تيمية من أنه «اتفق العلماء على أنه لا ينعقد اليمين بغير اللّه» وأين هو من قول ابن قدامة: «قال أصحابنا: الحلف برسول اللّه يمين موجبة للكفارة؟ وهو وابن قدامة كلاهما حنبليان، وبما أن المسألة فقهية لا نستعرضها أزيد من ذلك، وإنما نركز البحث على المسألة الثالثة . ج ـ هل يجوز الحلف بغير اللّه أو لا؟

هذه المسألة هى الّتى عقدنا الفصل لبيان حكمها. قال ابن تيمية: «لا يشرع ذلك بل ينهى عنه إمّا نهى تحريم وإمّا نهى تنزيه، وإنّ للعلماء فى ذلك قولين، والصحيح أنه نهى تحريم، وفى الصحيح عنه (صلى اللّه عليه وآله) أنه قال: من كان حالفاً فليحلف باللّه أو ليصمت، وفى الترمذى أنه قال: من

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۰۹ .

۲ . المغنی لابن قدامة: ج ۱۱ ص ۱۷ . (۳۰۲)

حلف بغیر اللّه فقد أشرک(۱) . وقال الصنعانی: إنّ الحلف بغیر اللّه شرک صغیر(۲)، وقال ابن قدامة: ولا ـ یجوز الحلف بغیر اللّه وصفاته، نحو أن یحلف بأبیه أو الکعبة أو صحابی أو إمام. قال الشافعی: أخشی أن یکون معصیة. قال ابن عبد البر: وهذا أصل مجمع علیه، وقیل ;یجوز ذلک لأنّ اللّه تعالی أقسم بمخلوقاته فقال: «والصّافّات صفّاً، والمرسلات عرفاً، والنازعات غرقاً»، وقال النبی للأعرابی السائل عن الصلاة: «أفلح وأبیه إن صدق» وفی حدیث أبی الشعراء: «وأبیک لو طعنت فی فخذها لأجزاک» ثم إن لم یکن الحلف بغیر اللّه محرّماً فهو مکروه، فإن حلف فلیستغفر اللّه تعالی، أو لیذکر اللّه تعالی، کما قال النبی: من حلف باللاّت والعزّی فلیقل: لا إله إلاّ اللّه(۳) . أنت تری أنّ ابن تیمیة وتلمیذ منهجه الشیخ الصنعانی أفتیا بالحرمة، ولکن الظاهر من عبارة ابن قدامة أن المسألة مما اختلف فیه الفقهاء، فهم بین محرّم ومجوّز، حتّی أنّ الشافعی قال: أخشی أن یکون معصیة، وإذ کانت المسألة علی هذا المستوی من الاختلاف، فهل یجوز تکفیر الحالف بمثل هذه المسألة؟ مع أنّ أکثر الفقهاء قائلون بالجواز. قال فی الفقه علی المذاهب الأربعة: «إذا قصد الحالف إشراک غیر اللّه معه فی التعظیم ففیه تفصیل فی المذاهب، ثم ذکر التفصیل بالنحو الآتی»: «الحلف بالطلاق نحو: علیّ الطلاق: إن فعلت کذا، جائز بدون کراهة، ویلزمه الطلاق إذا کان الغرض منه الوثیقة، أی وثوق الخصم بصدق الحالف، جاز بدون کراهة. وإذا لم یکن الغرض منه ذلک، أو کان حلفاً علی الماضی فإنه یکره، وکذلک الحلف (بنحو وأبیک ولعمرک) . وقالت الشافعیة: یکره الحلف بغیر اللّه إذا لم یقصد شیئاً مما ذکر فی أعلی الصحیفة، ویکره الحلف بالطلاق . ______________

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۱۷ .

۲ . تطهیر الاعتقاد، ص ۱۴ .

۳ . المغنی لابن قدامة: ج ۱۱ ص ۱۶۳ (کتاب الأیمان) طبع دارالکتاب العربی ـ بیروت . (۳۰۳)

وقالت الحنابلة: یحرم الحلف بغیر اللّه وصفاته، ولو بنبی أو ولی، ویکره الحلف بالطلاق والعتاق والمشهور الحرمة»(۱) . فعلی ضوء هذا فقد أفتی الحنابلة من بین المذاهب الأربعة بالحرمة، وذهبت الحنفیة والشافعیة إلی الجواز وللمالکیة قولان . هذه هی الأقوال فی المسألة، وإلیک تحلیلها فقهیاً واجتهاداً: عرض المسألة علی القرآن

إنّ القرآن الکریم هو الثقل الأکبر والقدوة العلیا والمثل الحی لکل مسلم، نری فیه الحلف بغیر اللّه فی غیر واحد من السور، فقد أقسم تعالی فی سورة الشمس وحدها بغیر ذاته وصفاته، أعنی الشمس وضحاها، والقمر والنهار واللیل، والسماء والأض، والنفس الإنسانیة، وأقسم سبحانه فی سورة النازعات بأمرین: المرسلات والناشرات، کذلک ورد الحلف بغیر اللّه فی سورة «الطارق» و «القلم» و «العصر» و «البلد» وغیرها. وإلیک نماذج من آیات الحلف بغیر اللّه سبحانه الواردة فی غیر هذه السور: (وَالتِّینِ وَالزَّیتُونِ * وَطُورِ سِینِینَ * وَهَذَا البَلَدِ الأمینِ)(۲) . (وَاللیلِ إذَا یَغْشَی * وَالنَّهارِ إذَا تَجَلّی)(۳) . (وَالفَجْرِ * ولَیال عَشْر * والشَّفْعِ وَالوَتْرِ * وَاللیلِ إذَا یَسْرِ)(۴) . (وَالطُّورِ * وَکِتاب مَسْطُور * فِی رَقٍّ مَنْشور * وَالبَیتِ المَعْمُورِ * والسَّقْفِ المَرفُوعِ * وَالبَحْرِ المَسجُورِ)(۵) . ______________

۱ . الفقه علی المذاهب الأربعة، ج ۲ (کتاب الیمین)، ص ۷۵ .

۲ . سورة التین: الآیة ۱ـ۳ .

۳ . سورة اللیل: الآیة ۱ـ۲ .

۴ . سورة الفجر: الآیة ۱ـ۴ .

۵ . سورة الطور: الآیة ۱ـ۶ . (۳۰۴)

إذا کان القرآن کتاب هدایة للبشر والناس یتخذونه قدوة وأُسوة، فلو کان هذا النوع من الحلف حراماً علی العباد، وأمراً خاصاً باللّه سبحانه، لکان المفروض أن یحذّر منه القرآن، ویذکر بأن هذا من خصائصه سبحانه . ومن هنا یعلم أنّ توصیف الحلف بغیر اللّه بکونه

شرکاً صغیراً یستلزم نسبة الشرک إلی اللّه سبحانه، وإذا کانت ماهیة الحلف بغیر اللّه ماهیة شرکیة فلا یفرق بینه وبین عباده، فإذا کانت ماهیة الشیء ظلماً وتجاوزاً علی البریء، فاللّه وعباده فیه سیان، قال تعالی: (قُلْ إنَّ اللّهَ لاَ یَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَی اللّهِ مَا لا تَعْلَمونَ)(۱) . إنّ الحلف بهذه العظائم کما یتضمن الدعوة إلی التدبّر والدقة فی صنعها، والنوامیس السائدة علیها، واللطائف الموجودة فیها، وبالتالی یحتج بها علی صانع لها عالم وقادر وحی و...، کذلک یتضمن جواز الحلف بها إذا کان موجوداً مقدساً، کما حلف سبحانه بحیاة النبی وقال: (لَعَمْرُکَ إنَّهُم لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمِهُونَ)(۲) . عرض المسألة علی الأحادیث

هذا بالنسبة إلی القرآن، وإلیک عرض المسألة علی سنة النبی الأکرم، أعنی قوله وفعله وتقریره، فقد حلف بغیر اللّه فی موارد عدیدة منها: ۱- روی مسلم فی صحیحه: «جاء رجل إلی النبی فقال: یا رسول اللّه أیّ الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما وأبیک فننبئّنّک: أن تصدَّق وأنت صحیح شحیح، تخشی الفقر وتأمل البقاء»(۳) . ۲- روی مسلم أیضاً: ________

۱ . سورة الأعراف: الآیة ۲۸ .

۲ . سورة الحجر: الآیة ۷۲ .

۳ . صحیح مسلم، ج ۳، کتاب الزکاة ـ باب أفضل الصدقة، ص ۹۴ . (۳۰۵)

«وجاء رجل إلی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ـ من نجد ـ یسأل عن الإسلام، فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : خمس صلوات فی الیوم واللیل . فقال: هل علیّ غیرهن؟ قال: لا... إلاّ أن تطّوّع، وصیام شهر رمضان . فقال: هل علیّ غیره؟ قال: لا... إلاّ أن تطّوّع، وذکر له رسول اللّه الزکاة. فقال الرجل: هل علیَّ غیرها؟ قال: لا... إلاّ أن تطّوّع . فأدبر الرجل وهو یقول: لا أزید علی هذا ولا أنقص منه . فقال رسول اللّه: أفلح وأبیه(۱) إن صدق . أو قال: دخل الجنة ـ وأبیه ـ إن صدق»(۲) . ۳- وروی الحدیث فی مسند أحمد بن حنبل، وفی نهایته: أنّ النبی قال له: «... فلعمری لئن تتکلم(۳) بمعروف و تنهی عن منکر، خیر من أن تسکت»(۴) . وهناک أحادیث أُخری لا یسع الکتاب ذکرها(۵) . وقد أقسم الإمام علیّ ـ علیه السَّلام ـ ـ ذلک النموذج البارع فی التربیة

____

۱ . أی حلفاً بأبیه، فالواو واو القسم .

۲ . صحیح مسلم، ج ۱ باب ما هو الإسلام، ص ۳۲ .

۳ . أی تتکلم ـ للمخاطب ـ کما فی قوله تعالی: «فأنت له تصدی» «أی تتصدی» .

۴ . مسند أحمد، ج ۵ ص ۲۲۵ .

۵ . راجع مسند أحمد: ج ۵ ص ۲۱۲، وسنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۵۵ وج ۴ ص ۵۹۵ . (۳۰۶)

الإسلامیة والقیم العالیة ـ بنفسه الشریفة مرات فی خطبه ورسائله وکلماته(۱) . وهذا أبوبکر بن أبی قحافة یقول للسارق الّذی سرق حلی ابنته، فقال: «وأبیک ما لیلک بلیل سارق»(۲) . ولا أری البحث أکثر من هذا إلاّ تطویلا بلا طائل، وبما أنّ الوهابیین یتمسکون ببعض الأحادیث فلا بأس بدراستها: ۱- إنّ رسول اللّه سمع عمر و هو یقول: وأبی، فقال: إنّ اللّه ینهاکم أن تحلفوا بآبائکم، ومن کان حالفاً فلیحلف باللّه أو یسکت(۳) . یلاحظ علی الاستدلال: بأنّ وجه النهی عن الحلف بالآباء، أنّ أباءهم فی الغالب کانوا مشرکین وعبدة الأصنام، فلم تکن لهم حرمة ولا کرامة حتّی یحلف أحد بهم، ویؤید ذلک ما روی عن النبی أنه قال: «ولا تحلفوا بآبائکم ولا بأُمهاتکم ولا بالأنداد»(۴) وروی أیضاً: «لا تحلفوا بآبائکم ولا بالطواغیت»(۵) . علی أنّه یحتمل أن یکون النهی عن الحلف بالأب فی مقام فصل الخصومات و حسم الخلافات، وقد عرفت أنّ الفاصل فی هذا المجال هو الحلف باللّه وصفاته . وأکثر ما یمکن أن یقال: إنّ النهی تنزیهی لا تحریمی بشهادة ما سبق من الحلف بغیر اللّه فی حدیث الرجل النجدی . ۲- جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالکعبة؟ قال له: لا، ولکن احلف برب الکعبة، فإنّ عمر کان یحلف بأبیه، فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ

____

۱ . نهج البلاغة: تعلیق محمد عبده: الخطبة رقم ۲۲ و۲۵ و۵۶ و۸۵ و۱۶۱ و۱۶۸ و۱۸۲ و۱۸۳ و۱۸۷ والرسالة رقم ۶ و۹ و۵۴ .

۲ . الموطأ، أخرجه فی باب الحدود برقم ۲۹ .

۳ . سنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۷۷، سنن الترمذی: ج ۴ ص ۱۰۹ وغیرهما.

۴ . سنن النسائی ج ۷ ص ۹ .

۵ . سنن النسائی: ج ۷ ص ۷، سنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۷۸ ـ والطواغیت هی الأصنام . (۳۰۷)

لا تحلف بأبیک فإنّ من حلف بغیر اللّه فقد أشرک(۱) . یلاحظ علی الاستدلال: أنّ الحدیث یتألف من أُمور ثلاثة: ۱- إنَّ رجلا جاء إلی ابن عمر فقال: أحلف بالکعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولکن احلف برب الکعبة . ۲- إنَّ عمر بن الخطاب کان یحلف بأبیه، فنهاه النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عن ذلک . ۳- إنَّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ علل ذلک بقوله: «من حلف بغیر اللّه فقد أشرک» . والمتبادر من کلام الرسول حیث وقع تعلیلا لنهی عمر عن الحلف بوالده ـ الکافر ـ ما إذا کان المحلوف به شیئاً غیر مقدس کالکافر والصنم، وأما إذا کان المحلوف به مقدساً وذا فضیلة وکرامة کالکعبة، فکلام الرسول منصرف عنه، وإنما اجتهد ابن عمر حیث حمل کلام الرسول حتّی علی الحلف بالمقدس، کالکعبة، واجتهاده حجة علی نفسه لا علی غیره . وهناک جواب آخر، وهو أنه یحتمل وقوع التحریف فی الخبر، وأن قوله فقال: «رسول اللّه» مصحّف قوله: وقال رسول اللّه، وعندئذ یکون کلام الرسول مستقلا، لا تعلیلا بشیء حتّی النهی عن الحلف بالکافر، وعلی هذا فالحدیث مرکب من أُمور ثلاثة جمعها ابن عمر فی حدیث واحد . والّذی یعرب عن أنّ کلام الرسول کان کلاماً مستقلا غیر واقع فی ذیل النهی عن الحلف بالأب، ما رواه إمام الحنابلة عن ابن عمر، قال: «کان یحلف أبی، فنهاه النبی وقال: من حلف بشیء دون اللّه فقد أشرک»(۲) فلو کان کلام الرسول مصدّراً بنهی عمر عن الحلف بأبیه کان اللازم أن یقول: «فقال» مکان «قال» وعلی فرض استقلاله ووروده بدون ________________

۱ . السنن للبیهقی: ج ۱ ص ۲۹، وقریب منه فی مسند أحمد: ج ۲ ص ۶۹ .

۲ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۳۴ . (۳۰۸)

«الفاء» یکون القدر المتیقن منه الحلف بالأصنام . ویشهد علی ذلک ما رواه النسائی: أن النبیَّ ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ قال: «من حلف فقال فی حلفه باللات والعزی فلیقل لا إله إلاّ اللّه»(۱) . والحدیث یعرب عن أن رواسب الجاهلیة کانت باقیة فی بعض النفوس، فکانوا یحلفون بأصنامهم المعبودة، فأمرهم النبی أن یقولوا بعد الحلف: «لا إله إلاّ اللّه» لیقضی علی تلک الرواسب الجاهلیة . وحصیلة الجوابین: إنَّ قول النبی: «من حلف بغیر اللّه فقد أشرک» إمّا مختص بغیر المقدسات کالحلف باللات والعزی والکافر، أو مختص بالأصنام والأوثان فقط، ولا یعم الکافر فضلا عن المقدسات . ________________

۱ . سنن النسائی: ج ۷ ص ۸ . (۳۰۹)

ابن تیمیة والحلف علی اللّه بحق الأولیاء

ابن تیمیة والحلف علی اللّه بحق الأولیاء

إنّ من نقاط الاختلاف بین جماهیر المسلمین والوهابیین هی مسألة الحلف علی اللّه بحق الأولیاء . قال ابن تیمیة: التوسل فی لغة الصحابة: أن یطلب من النبی الدعاء والشفاعة فیکونون متوسلین و متوجهین بدعائه وشفاعته، ودعاؤه وشفاعته من أعظم الوسائل عند اللّه، وأمّا فی لغة کثیر من الناس: أن یسأل بذلک، ویقسم علیه بذلک، واللّه تعالی لا یقسم علیه بشیء من المخلوقات، بل لا یقسم بها بحال، فلا یقال أقسمت علیک یا رب بملائکتک، ونحو ذلک، بل إنما یقسم باللّه وأسمائه وصفاته... وأمّا أن یسأل اللّه ویقسم علیه بمخلوقاته، فهذا لا أصل له فی الإسلام . وقال: وقوله: «اللّهمّ إنّی أسألک بمعاقد العز من عرشک، ومنتهی الرحمة من کتابک، وباسمک وجدک الأعلی وکلماتک التامة» مع أنّ فی جواز الدعاء به قولین للعلماء: فجوّزه أبو یوسف وغیره، ومنع منه أبو حنیفة

وأمثاله، فينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية المشروعة الّتى جاء بها الكتاب والسنة(۱) . ترى أنّ ابن تيمية يفتى بالحرمة من دون أن يذكر لها مصدراً، بل يفتى على خلاف النص كما ستعرفه . ______________

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۱ . (۳۱۰)

وجاء الرفاعى يتفلسف فى تبيين حرمة الحلف على اللّه بمخلوقه، ويقول: إنّ الإقسام على اللّه بمخلوقاته أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على اللّه بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنّه شرك لأنّه حلف بغير اللّه، فالحلف على اللّه، بمخلوقاته من باب أولى، أى جعلنا المخلوق بمرتبة الخالق، والخالق بمرتبة المخلوق، لأنّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، ولذلك كان الحلف بالشىء دليلا على عظمته، وأنّه أعظم شىء عند المحلوف عليه(۱) . ومن هنا كان الحلف بالمخلوق على اللّه شركاً باللّه، لأننا خصصنا هذه المكانة العليا بالمخلوق، مع أنها هى بالخالق أولى(۲) . يلاحظ عليه: أنّ كلامه يشتمل على أمرين: ۱- إنَّ الحلف بغير اللّه شرك . ۲- إنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، فلازم الحلف بالمخلوق على اللّه كونه أعظم من اللّه . وكلتا الدعويين باطلتان، أمّا الأُولى فقد عرفت فى البحث السابق أن الحلف بغير اللّه ليس بحرام، بل هو سنة متبعة بين المسلمين، فقد حلف رسوله ووصيه بغير اللّه، وأن الكتاب قدوة وأسوة، فقد حلف بعمر النبى وحلف بالقرآن الكريم وقال: «يس والقرآن الحكيم» فما هذا الإفتاء به دليل، والتشريع بلا برهان؟ (قُلْ ٰآللّه أذِنَ لَكُمْ أمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرونَ)(۳) . ______________

۱ . تلاحظ أن هذا لا ينسجم مع ما سبق منه: «إنّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه» وفى النسخة بعد لفظة «عليه» لفظة «به» .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۲۱۷ ـ ۲۱۸ .

۳ . سورة يونس: الآية ۵۹ . (۳۱۱)

و أمّا الثانية فالمصيبة فيها أعظم، فإن لازم الحلف بشىء على اللّه، أن يكون المحلوف به محترماً عند اللّه و مقبول الشفاعة والدعاء، لا كونه أعظم من المحلوف عليه، فالرجل لم يفرق بين كونه أكرم عند الّه وبين كونه أعظم من اللّه، والحاصل أنّ هذه التفلسفات لا تكون مدركاً للتشريع والإفتاء بالحرمة، فيجب اتّباع النص وتعليل المسألة فى ضوء القواعد الفقهية، فها هنا مقامان: ۱- هل الحلف بمخلوق على اللّه شرك؟ ۲- هل هناك ما يدل على حكم هذا الحلف؟ أمّا الشرك فقد حددناه ووضعنا له حداً منطقياً، وهو الخضوع عن اعتقاد بألوهية المخضوع له وربوبيته، أو كونه قائماً بفعله سبحانه، وهل ينطبق هذا الحد على الحلف بالمخلوق على اللّه؟ إنّ الذكر الحكيم يصف بعض عباد اللّه ويقول: (الصّابِرينَ والصَّادِقينَ والقَانِتينَ والمُنْفِقِينَ وَالمُسْتَغْفِرينَ بِالأسْحَارِ)(۱) .

فلو أنّ إنساناً قام فى هزيع من الليل وصلّى لربه ركعات، ثم تضرع إلى اللّه قائلا: «اللّهمّ إنّى أسألك بحق المستغفرين فى الأسحار، اغفرلى ذنبى» فهل يصحّ لنا أن نعده مشركاً، وأنه أشرك الغير فى عبادة اللّه، مع أنه رفع يديه إلى اللّه سبحانه ودعاه بالضراوة؟ إنّ القرآن الحكيم ذكر مقياساً للتمييز بين المشرك والموحّد فقال: (إنَّهُم كَانُوا إذا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إلاّ اللّه يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقولُونَ أئِنّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشَاعِرِ مَجْنُون)(۲) . ______________

۱ . سورة آل عمران: الآية ۱۷ .

۲ . سورة الصافات: الآية ۳۵ ـ ۳۶ . (۳۱۲)

وقال: (وَإذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإذَا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)(۱)وقال سبحانه: (ذَلِكُم بِأنَّهُ إذَا دُعِىَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُم، وَإنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤمِنُوا فَالحُكْمُ لِلّهِ العَلِىِّ الكَبير)(۲) . فهل ينطبق هذا المقياس المركز عليه فى الذكر الحكيم على من أحلف اللّه بحبيب من أحبائه، أو شهيد من شهداء دينه؟ فهل هو من الذين إذا دعى اللّه وحده كفر، وإن أشرك به آمن؟ كلاّ وألف كلاّ . إنّ أرخص شىء وأوفره فى سوق الوهابيين هو البذاءة فى اللسان، وتكفير المسلمين واتهامهم بالشرك، فكأنهم لا يوجد فى علبتهم إلاّ السب والكلام البذىء والاتهام بالشرك، معرضين عن قوله سبحانه: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلقَى

إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً)(٣)

وكأنه سبحانه خوّل تفسير الشرك إلى الوهابيين ليفسروه كيف يشاؤون، فيعتبروا جماعة مشكرين وأُخرى موحدين . أمّا المقام الثانى، أعنى استخراج حكم المسألة من الكتاب والسنة، فيكفى فى ذلك : ١- ما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إنّى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى...(۴) . ٢- ما رواه البيهقى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : ________________

١ . سورة الزمر: الآية ۴۵ .

٢ . سورة غافر: الآية ١٢ .

٣ . سورة النساء: الآية ٩۴ .

۴ . لاحظ ص ٢۵٧، ٢۶١، ٢٣٢، ٢۵٨ من هذا الجزء . (٣١٣)

لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلاّ غفرت لى..»(١) . ٣- وما رواه عثمان بن حنيف عن رسول اللّه من دعاء الرسول للضرير وفيه «اللّهمّ إنّى أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبىّ الرحمة...» (٢) . ۴- وما روى من دعاء النبى عند دفن فاطمة بنت أسد، قال: اغفر لفاطمة بنت أسد ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى» (٣) . إنّ هذه الأحاديث وإن خلت من لفظ القسم بعينه، لكن مضمونه موجود لمكان الباء فيها، والمعنى: أقسم عليك بحقّهم . هذا ما روى عن النبى الأكرم، وإليك ما روى عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ . ۵- هذا إمام المتقين أميرالمؤمنين على ـ عليه السَّلام ـ يقول فى دعائه بعد صلاة الليل: «اللّهمّ إنى أسألك بحرمة من عاذ بك منك، ولجأ إلى عزّك، واستظلّ بفيئك، واعتصم بحبلك، ولم يثق إلاّ بك» (۴). ۶- ويقول فى دعاء علّمه لأحد أصحابه... «وبحق السائلين عليك، والراغبين إليك، والمتعوذين بك، والمتضرعين إليك، وبحق كل عبد متعبّد لك فى كل برّ أو بحر أو سهل أو جبل، أدعوك دعاء من اشتدّت فاقته» (۵) . ٧- وهذا أبو الشهداء الإمام الحسين بن علىّ ـ عليهما السَّلام ـ يقول فى دعائه: «اللّهمّ إنى أسالك بكلماتك، ومعاقد عزك، وسكان سماواتك وأرضك، وأنبيائك ورسلك أن تستجيب لى، فقد رهقنى من أمرى عسر، ________________

(١، ٢، ٣) المصدر السابق .

(۴، ۵) الصحيفة العلوية: ص ٣٧٠ . (٣١۴)

فأسألك أن تصلى على محمد وآل محمد، وأن تجعل من أمرى يسراً». ٨- وهذا هو الإمام زين العابدين يقول فى دعائه يوم عرفة وهو يناجى ربّه: «بحقّ من انتخبت من خلقك، بمن اصطفيته لنفسك، بحقّ من اخترت من بريّتك، ومن اجتبيت لشأنك، بحقّ من وصلت طاعته بطاعتك، ومن نيطت معاداته بمعاداتك»(١) . وهذا هو الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ يقول عندما زار مرقد جده الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ : «اللّهمّ استجب دعائى، واقبل ثنائى، واجمع بينى وبين أوليائى بحق محمد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين»(٢) . ولعلّ القارىء يسأل: هل للوهابيين على تحريم هذا النوع من الحلف دليل؟ والجواب: نعم، إنّ لهم شُبهاً وظنوناً فحسب، وإليك البيان: ١- إنّ الإقسام على اللّه بمخلوق منهى عنه باتفاق العلماء(٣) . إنّ معنى الإجماع على حكم هو اتفاق علماء الإسلام فى جميع الأعصار، أو فى عصر واحد على حكم . وأيضاً نسأل من أين وقف هذا الناقل للإجماع على اتفاق علماء الإسلام على التحريم؟ ونحن نسامحه ونقول: هل أفتى خصوص أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة؟ فأين هذه الفتاوى؟ دلونا على محلها ومصادرها وكتبها!. ثم ما قيمة هذه الفتاوى المدّعاة تجاه النصوص والأحاديث الصحيحة ________________

١ . الصحيفة السجادية: الدعاء ۴٧ .

٢ . مصباح المتهجد: ص ۶٨١ .

٣ . الهدية السنية، المنسوب إلى عبدالعزيز بن محمد بن مسعود كما فى كشف الارتياب، ص ٣٢٩ . (٣١۵)

والآثار المروية عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ، أو ليسوا من السلف الصالح والقادة الأعلين؟ . ۲- إنّ المسألة بحق المخلوقين لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق على الخالق . إنّ هذا الاستدلال عجيب جداً. هذه هی الآيات القرآنية تثبت حقوقاً على اللّه سبحانه لعباد اللّه الصالحين، وكذلك الأحاديث الشريفة: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤمِنِينَ)(۱) . (وَعْداً عَلَيهِ حَقّاً فِی التَّوراةِ وَالإنجيلِ)(۲) . (كَذَلِكَ حَقّاً عَلَينَا نُنْجِ المُؤمِنينِ)(۳) .

وبالإضافة إلى ما سبق من الآيات الكريمة... هناك مجموعة كبرى من الأحاديث الشريفة فی هذا المجال، وإليك نماذج منها: ألف ـ قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «حقٌّ على اللّه عون من نكح التماس العفاف مما حرم اللّه»(۴) . ب ـ «ثلاثة حق على اللّه عونهم: الغازی فی سبيل اللّه، والمكاتب الّذی يريد الأداء، والناكح الّذی يريد التعفف»(۵) . ج ـ «أتدری ما حق العباد على اللّه...»(۶)

.

نعم إنّ من الواضح أنه ليس لأحد بذاته حق على اللّه، فعندئذ، ربما يُسأل عن معنى هذا الحق؟ ________

۱ . سورة الروم: الآية ۴۷ .

۲ . سورة التوبة: الآية ۱۱۱ .

۳ . سورة يونس: الآية ۱۰۳ .

۴ . الجامع الصغير، للسيوطی: ج ۲ ص ۳۳ .

۵ . سنن ابن ماجة: ج ۲ ص ۸۴۱ .

۶ . النهاية لابن الأثير، مادة حق . (۳۱۶)

الجواب: إنّ المقصود من الحق هو المنزلة الّتی يمنحها اللّه تعالى لعباده مقابل طاعتهم وانقيادهم له، وهو مزيد من التفضل والعناية منه تعالى حقاً، فهذا هو الحق الّذی نقسم به على اللّه، حق جعله اللّه ومنحه لعبده، لا أنّ للعبد حقاً على اللّه ذاتاً، وهذا مثل القرض الّذی يستقرضه سبحانه من عباده ويقول: (مَنْ ذَا الَّذِی يُقْرِضُ اللّهَ قَرضاً حَسَناً)(۱).

وهذا النوع من التعبير لطف من اللّه سبحانه وعناية فائقة بعباده، حيث يعتبر نفسه المقدسة مدينة وعباده دُيّاناً، فلما أعظم لطفه، مع أنّه سبحانه هو المالك، والعباد خلفاؤه . قال: (آمِنُوا باللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنِفقُوا مَمّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)(۲). ترى أنّ مالك الملوك يستقرض من خلفائه ونوابه . ۳- عن جندب بن عبداللّه قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: قال رجل: واللّه لا يغفر اللّه لفلان، فقال اللّه عزّوجلّ: «من ذا الّذی يتألى علیّ أن لا أغفر لفلان؟ إنی قد غفرت له وأحبطت عملك» . رواه مسلم: وقد استدل به الشيخ عبدالرَّحمان حفيد الشيخ محمد بن عبدالوهاب فی كتابه «قرة عيون الموحدين»(۳) . ولم يذكر كيفية الاستدلال، وذيّل كلامه بحديث أبی هريرة الّذی رواه أبو داود عنه قال: سمعت رسول اللّه يقول: كان رجلان فی بنی إسرائيل ________

۱ . سورة البقرة: الآية ۲۴۵ .

۲ . سورة الحديد: الآية ۷ .

۳ . ص ۳۳۳، طبع لاهور . (۳۱۷)

متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد فی العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: اقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: اقصر، فقال: خلنی وربی، أبُعثت علیّ رقيباً؟ واللّه لا يغفر اللّه لك ولا يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكتب بی عالماً؟ أو على ما فی لِدَی قادراً؟ فقال للمذنب: أذهب فادخل الجنة برحمتی، وقال للآخر: إذهبوا به إلى النار(۱) . والحديث الثانی يفسر الحديث الأول، وأنّ المراد من قوله: «يتألى علّی أن لا أغفر لفلان» هو الحلف بلا علم على اللّه، كما ورد فی الحديث الثانی: «أكنت بی عالماً، أو على ما فی يدی قادراً»؟ . ________

۱ . قرة عيون الموحدين: ص ۲۳۳، والحديث فى التعليقة وفى المتن إشارة إليه .

ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء اللّه ووفياتهم

ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء اللّه ووفياتهم

إنّ من المنكرات والبدع عند ابن تيمية وابن عبدالوهاب هو تكريم مولد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ بالاحتفال وقراءة القرآن و إنشاد القصائد والأشعار، والإحسان إلى المؤمنين بالإطعام، إلى غير ذلك مما يعد مجلى لحب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وتكريمه ورفعه، كما رفعه اللّه سبحانه وقال: (وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَك)(۱) . وقد عرفت فى ترجمة ابن تيمية أنّ مسلكه يشتمل على أبعاد أربعة، وأحد الأبعاد هو الحط من كرامة النبى وعظمته الّتى جاءت فى الكتاب والسنة، فجاء يحقق بغيته بتحريم الاحتفال بالمواليد والتأبين فى الوفيات، مع أنه لا ـ يشك ذو مسكة أنّه ليس عبادة للنبى، لما عرفت من أنّ العنصر المقوم للعبادة هو الاعتقاد بألوهية المعبود أو ربوبيته أو كونه مفوضاً إليه فعل الرب، وليس فى الاحتفال شىء من ذلك . وكما أنه ليس عبادة، ليس بدعة، لأنه تجسيد للأصل الوارد فى الذكر الحكيم، وهو حب النبى ومودته على وجه يكون النبى مقدماً على الإنسان ونفسه ونفيسه، وقد قام به السلف طيلة قرون، وإجماع العلماء فى عصر حجة، فكيف فى قرون، ومع ذلك فابن تيمية يظهر ما يضمره عن طريق تحريم هذه الاحتفالات ويقول: ـــــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الانشراح: الآية ۴ . (۳۱۹)

إنّ اتخاذ هذا اليوم عيداً محدث لا أصل له، فلم يكن فى السلف لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذ ذلك عيداً، حتّى يحدث فيه أعمالا، إذا الأعياد شريعة من الشرائع، فيجب فيها الإتباع لا الإبتداع، وللنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ خطب وعهود، ووقائع فى ايام متعددة، يذكر فيها قواعد الدين، ثم لم يوجب ذلك أن يتخذ أمثال تلك الأيام أعياداً، وإنما يفعل مثل هذا، النصارى الذين يتخذون أمثال أيام حوادث عيسى ـ عليه السَّلام ـ أعياداً، أو اليهود، وإنما العيد شريعة، فما شرعه اللّه أتبع، وإلاّ لم يحدث فى الدين ما ليس منه . وكذلك ما يحدثه بعض الناس إمّا مضاهاةً للنصارى فى ميلاد المسيح ـ عليه السَّلام ـ ، وإمّا محبة للنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وتعظيماً له، واللّه قد يثيبهم على هذه المحبة، والاجتهاد، لا على البدع من اتخاذ مولد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عيداً مع اختلاف الناس فى مولده، فإنّ هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضى له، وعدم المانع منه، ولو كان هذا خيراً محضاً أو راجحاً لكان السلف ـ رضى اللّه عنهم ـ أحق به منّا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وتعظيماً له منّا، وهم على الخير أحرص(۱) . إنّ هذه البذرة الّتى بذرها ابن تيمية استغلّها تلميذه ابن القيم وبعده الوهابية، وإليك بعض نصوصهم: قال ابن القيم: «نهى رسول اللّه عن اتّخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج، واشتد نهيه فى ذلك حتّى لعن فاعله، ونهى عن الصلاة إلى القبور، ونهى أن يتخذوا عيداً»(۲) . وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ: «وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور الّتى تعبد من دون اللّه، ويسمونها عيداً كمولد البدوى بمصر وغيره، بل هى أعظم لما يوجد فيها ـــــــــــــــــــــــ

۱ . اقتضاء الصراط المستقيم: ص ۲۹۳ - ۲۹۴ .

۲ . زاد المعاد فى هدى خير العباد: ج ۱ ص ۱۷۹ . (۳۲۰)

من الشرك والمعاصى العظيمة»(۱) . وقال محمد حامد الفقى: «والمواليد والذكريات الّتى ملأت البلاد باسم الأولياء، هى نوع من العبادة لهم وتعظيمهم»(۲). وقد استدلوا بما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلّوا علىَّ فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنت»(۳) . وملاحظة هذه الكلمات تفيد أنهم يستدلون على التحريم بأُمور: الأول: إنَّها عبادة للأولياء وأصحاب الذكريات . الثانى: إنَّها بدعة، وإنَّها مما لم يشرعه الشارع الشريف . الثالث: لو كان هذا خيراً لأقامه السلف . الرابع: الاستدلال برواية أبى هريرة من النهى عن اتخاذ قبر النبى عيداً .

هـذه هى الوجوه المهمـة الّتى يسـتدل بها ابن تيمية وأتباعه على تحريم تكريم المواليد، ونحن ندرس كل واحد من هذه الأدلة واحداً بعد آخر : أ ـ هل الاحتفال بالمواليد شرك؟

قد عرفت أنّ محمد حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية أفتى بكونه شـركاً، وقال: هو نوع من العبادة للأولياء وتعظيمهم. ولكنّه كعامـة الوهـابيين لم يفرّق بين التكريم والعبادة، ولـذلك عطف التعظيم على العبادة، وهـذا هو الـداء العياء فى دعايـة الوهابيين وكتبهم وخطبهم، وأرخص شىء عندهم هو الشرك فى العبادة، فلا تميل يميناً ولا يساراً ________________

۱ . قرة العيون، كما فى فتح المجيد: ص ۱۵۴ .

۲ . تعليق فتح المجيد: ص ۱۵۴ .

۳ . مسند أحمد: ج ۳ ص ۲۴۸ . (۳۲۱)

إلاّ وتسمع من الجماعة المتسمين بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر يصرخون فى وجهك «يا حاج! هذا شرك» وهم لم يحددوا للعبـادة حـداً منطقيـاً حتّى يميزوا فى ضوئه العبـادة عن التعظيم، فعادوا يسـمّون كل تعظيم شـركاً، ولو كان تعظيم وخضوع عبادة، للزم كفر المملـوك والزوجـة، والولـد والخـادم، والأجير، والرعيـة، والجنـود، بإطـاعتهم وخضـوعهم للمـولى والزوج والأب والمخـدوم والمسـتأجر والملك والأمراء، وجميع الخلق لإطاعتهم بعضهم بعضاً، بل كفر الأنبياء لإطاعتهم آباءهم وخضوعهم لهم، وقد أوجب اللّه طاعـة أوامر الأبوين، وخفض جناح الـذل لهما، وقال لرسوله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ)(۱)، وأمر بتعزير(۲) النبى وتوقيره، وأمر بإطاعـة الزوجة لزوجها، وأوجب إطاعة العبيد لمواليهم وسـمّاهم عبيداً(۳) . وقد عرفناك على أنّ العنصـر المقوم لكون التعظيم عبادة، هو الاعتقاد بألوهية المعظَّم له، أو ربوبيته، أو كونه مالكاً لمصـير المعظّم، وأنّ بيده عاجله وآجله، ومنافعه و مضارّه، ولا اقل مغفرته وشـفاعته، وأمّا إذا خلا التعظيم عن هذه العناصـر، وقام بالاحتفال بذكرى رجل ضحّى بنفسه ونفيسه من أجل استقلال أُمته وإخراجهـا عن نير الاسـتعباد، وهيّأ لهم أسـباب الاسـتقلال، فلا يعـد ذلك عبادة له، وإن كان هناك احتفال أو احتفالات، وأُلقى فيها عشـرات القصائـد والخطب فلاـ صـلة لهـذابالعبادة. نعم يـدور أمر كـل ذلـك بين الحلاـل والحرام، وهـل الشـارع رخص ذلك أو لم يرخص، وسـيوافيك أنّ بـاذر هـذه الشـكوك ابن تميـة، يرى أن الأصـل فى العادات عـدم الخطر، إلا ما حظره اللّه(۴). نعم، الاحتفال بمولـد النبى ليس من العـادات، ولاـ يقـام بمـا أنه أمر عـادى بـل بمـا هو أمر قربى له أصل فى الكتاب والسـنة كما مرّ وسـيأتى أيضاً .

---

۱ . سورة الشعراء: الآية ۲۱۵ .

۲ . إشارة إلى قوله سبحانه:(فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوه النور الّذى أُنزل معه)سورة الأعراف:الآية ۱۵۷

۳ . كشف الارتياب، ص ۱۰۳ وللكلام صلة مفيدة جداً فمن أراد فليرجع إليه .

۴ . المجموع من فتاوى ابن تيمية: ج ۴ ص ۱۹۵ . (۳۲۲) ب ـ هل الاحتفال بالمواليد بدعة؟

إنّ القوم يعدّون الاحتفال شـركاً تارة، وبدعة ثانياً، وقد عرفت أنه ليس بشرك لفقدان العنصر المقوم للشرك فيه، وأمّا كونه بدعة فقد عرفت بطلانـه عنـد البحث عن أنه عبـارة عن إحـداث أمر بـاسم الـدين، وليس له فيه نصّ أو أصل، والاحتفال، وإن لم يكن فيه نص، لكن له أصـلا فى الكتـاب والسـنة، وهو حبّ النبى ومودته وإظهـاره ;فليست هـذه الاحتفالا ـت إلاّ تجسـيداً للحب لا للعـداء والنصـب والبغضاء، نعم، المنع عنه إظهار للضغينة الكامنة فى القلوب . هلمّ معنا ندرس دليلهم الثالث: ج ـ لو كان خيراً لأقامة السلف

هـذا هو الـدليل الثالث الّذى يركن إليه المانع، وهو من أعجب الدلائل، فكأنّ السـلف مقياس الحق والباطل فى الفعل والترك معاً، فلو تركوا شيئاً دل ذلك على أنه باطل يجب تركه، نحن نفترض أنّ السـلف لم يقيموه ولم يحوموا حوله، ولكن الخلف أبناء الـدليل، فلو كان له أصل فى القرآن والسـنة لا يعبأ بترك السـلف. على أنّ هذا ما يقوله القائل، ونحن إذا رجعنا إلى التاريخ نجد أنّ السـلف أقامه عبر القرون والأجيال قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك . هذا مؤلف تاريخ الخميس يقول: ولا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده،

ويعملون الولائم ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات، يظهرون السرور، ويزيدون فى المبرّات، يعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عميم(۱) . وقال القسطلانى: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ـ عليه السَّلام ـ ، ويعملون الولائم ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات، ـــــــــــــــــــــ

۱ . تاريخ الخميس، ج ۱ ص ۳۲۳ للديار بكرى . (۳۲۳)

ويظهرون السرور، ويزيدون فى المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم. ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم... فرحم اللّه امرأً اتخذ ليالى شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشدّ علّةً على من فى قلبه مرض وأعياه داء . ولقد أطنب ابن الحاج فى «المدخل» فى الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع و الأهواء، والغناء بالآلات المحرمة فى العمل بالمولد الشريف، واللّه تعالى يثيبه على قصده الجميل(۱) . وقال ابن عباد فى رسائله الكبرى: «وأمّا المولد فالذى يظهر لى أنه عيد من أعياد المسلمين، وموسم من مواسمهم، وكل ما يفعل فيه مما يقتضيه وجود الفرح والسرور بذلك المولد المبارك... أمر مباح لا منكر»(۲) . كلمة أخيرة

إنّ المانعين عن الاحتفال بمولد النبى يقولون: إنّ أول من احتفل بمولد النبى هو الأمير أبو سعيد مظفر الدين الاربلى عام ۶۳۰ هـ ، وربما يقال: أول من أحدثه بالقاهرة، الخلفاء الفاطميون، أولهم المعز لدين اللّه، توجه من المغرب إلى مصر فى شوال ۳۶۱ هـ ، وقيل فى ذلك غيره(۳) وعلى أى تقدير فقد احتفل المسلمون حقباً وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أىّ ابن أُنثى، وعلى أىّ حال فقد تحقق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يتولد باذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟ مع أن اتّفاق الأُمة بنفسه أحد الأدلة، وكانت السيرة على تبجيل مولد النبى إلى أن جاء ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، وابن رجب، والشاطبى فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أنّ الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرون، أو ليس انعقاد الإجماع فى عصر من العصور حجة بنفسه ؟

---

۱ . المواهب اللدنية: ج ۱ ص ۲۷ .

۲ . لاحظ المواسم والمراسم، نقلا عن القول الفصل فى الاحتفال بمولد خير الرسل ص ۱۷۵ .

۳ . المواسم والمراسم: ص ۲۰ . (۳۲۴) الدليل الأخير «لا تجعل قبرى وثناً يعبد»

آخر ما فى كنانة القوم من نبال مرشوقة إلى المؤمنين المحتفلين بمولد النبى الأكرم، ما روى أبو هريرة، قال: قال رسول اللّه: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلّوا علىّ فإنّ صلاتكم تبلغنى حيث كنتم» . وفى الاستدلال بالحديث مجال للنظر: أولا: إنّ إمام الحنابلة رواه فى مسنده عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة. عن النبى أنه قال: «اللّهمّ لا تجعل قبرى وثناً. لعن اللّه قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(۱) . ورواه فى كنز العمال بالنحو التالى: «اللّهمّ لا تجعل قبرى وثناً يصلّى إليه، فإنّه اشتدّ غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(۲) . وفى الوقت نفسه رواه إمام الحنابلة عن أبى هريرة: قال رسول اللّه: «لا تتخذوا قبرى عيداً، ولاـ تجعلوا بيوتكم قبوراً، وحيثما كنتم فصلّوا علّى فإنّ صلاتكم تبلغنى»(۳) . وروى أبو داود فى صحيحه عن أبى هريرة نفس هذا المتن(۴) . ومن المتحمل جداً طروء التصحيف على الرواية، فبدل «وثناً» إلى «عيداً» ويؤيد ذلك ذيل الرواية، أعنى قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً» فإنه يناسب قوله: «لاـ تجعل قبرى وثناً» . وثانياً: إنّ العيد فى اللغة هو الموسم، وهو كل يوم فيه اجتماع أو تذكار

---

۱ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۲۴۶ .

۲ . كنز العمال: ج ۲ برقم ۳۸۰۲ .

۳ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۳۶۷ .

۴ . سنن أبى داود: ج ۲ ص ۲۱۸، طبع دار إحياء التراث العربى . (۳۲۵)

لذى فضل، أو حادثة مهمة، سمّى عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح مجدد. فعلى هذا لا يصحّ أن يقع خبراً لقوله: «قبراً» إذا لا معنى لجعل

القبر عيداً، فإنما يصحّ جعل موسم أو يوم مشخّص عيداً، فهو يقع خبراً أو صفة للزمان لا للمكان، ولو صحّ جعله صفة للمكان فإنما هو باعتبار اليوم الّذى يجتمع الناس فيه فى ذلك المكان، فالتعبير الوارد فى الحديث لا يوافق الذوق العربى السليم، فكيف يمكن نسبته إلى أشرف من نطق بالضاد، ولو أُريد منه ما يحاول المستدل أن يثبته كان الأولى أن يقول: لا تتخذوا مولدى عيداً، لا قبرى عيداً، أو يقول: لا تتخذوا مولدى حول قبرى عيداً. وحصيلة الكلام أنّ يوم العيد هو يوم الفرح ويوم الزينة، ولا يمكن تطبيق هذا المعنى على القبر، إلاّـ بارتكاب مجاز متكلف فيه . وثالثاً: إنّ الرواية لم يعمل بها الصحابة حيث جعلوا بيت النبى قبوراً، إذ دفن فيه النبى الأكرم، وبعده أبو بكر وعمر، فصار بيته قبوراً. وأمّا الاعتذار بأنّ للأنبياء خصوصية ليست لغيرهم وهى أنهم يدفنون حيث يقبضون، لا يدفع الإشكال، إذ ليست هذه الخصوصية فى غيرهم كصاحبيه «أبى بكر وعمر» فلماذا جعل بيت النبى قبوراً . ورابعاً: إنّ الحديث يحتمل معانى مختلفة وراء ما يرتئيه المستدل . ١- منها ما ذكره الحافظ المنذرى من أنه يحتمل أن يكون المراد به الحث على كثرة زيارة قبر النبى، وأن لاـ يهمل حتّى يكون بمثابة العيد(١) . ٢- ومنها ما ذكره السبكى حيث قال: «ويحتمل أن يكون المراد: لا تتخذوا وقتاً مخصوصاً لا تكون الزيارة إلاّ فيه، كماترى أنّ كثيراً من المشاهد، لزيارته يوم معين كالعيد، وزيارة قبره ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ليس لها يوم بعينه، بل أى يوم كان(٢) ——————

١ . شفاء السقام: ص ٦٧، نقلا عن زكى الدين المنذرى (أى: يزار بين المدة الطويلة كالعيد الّذى لا يكون فى كل عام إلاّ يوماً واحداً أو يومين) .

٢ . المصدر نفسه . (٣٢٦)

٣- ومنها ما ذكره أيضاً من أنه يحتمل أن يراد أن يجعل كالعيد فى العكوف عليه، وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل فى الأعياد، بل لا يؤتى إلاّ للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه . وقال العلامة السيد جعفر مرتضى العاملى: «يحتمل قوياً أن يكون المراد أنّ اجتماعهم عند قبره ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ينبغى أن يكون مصحوباً بالخشوع والتأمل والاعتبار، حسبما يناسب حرمته واحترامه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فإنّ حرمته ميتاً كحرمته حياً، فلا يكون ذلك مصحوباً باللهو واللعب والغفلة والمزاح وغير ذلك مما اعتادوه فى أعيادهم، ثم عقبه بقوله: ولعل هذا مراد السبكى»(١) . وخامساً: إنّ الحديث بكلتا صورتيه (وثناً ـ عيداً) ضعيف . أمّا الصورة الأُولى فقد وقع فى السند «سهيل بن أبى صالح» وهو ليس بالقوى فى الحديث، والحديث ليس بحجة ; قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقد كان اعتلّ بعلّة فنسى بعض حديثه، وقال ابن المدينى: مات أخ لسهيل ووجد عليه فنسى كثيراً من الحديث، وقال ابن أبى خيثمة: ابن معين يقول: لم يزل أصحاب الحديث يثقون بحديثه، وقال مرة: ضعيف(٢) . وأمّا الصورة الثانية فقد وردت فى مسند الإمام أحمد وأبى داود «عبداللّه بن نافع» قال البخارى: يعرف حفظه وينكر، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن صاحب حديث، وكان ضعيفاً فيه، ولم يكن فى الحديث بذاك، وقال أبو حاتم الرازى: ليس بالحافظ، هو لين يعرف حفظه وينكر، ووثّقه يحيى بن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال ابن عدى: روى عن مالك غرائب، وهو فى رواياته مستقيم الحديث(٣) . هذا هو حال الحديث الّذى يحتج به ابن تيمية ومن يلعق قصعته من ——————

١ . المواسم والمراسم: ص ٧١ .

٢ . ميزان الاعتدال: ص ٢٤٣ - ٢٤٤، ونقل أقوال الآخرين فى توثيقه، فالرجل مختلف فيه جداً .

٣ . شفاء السقام: ص ٦٦ . (٣٢٧)

الوهابية، وبذلك أفتوا بحرمة الاحتفال بذكرى النبى الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ . وهذه هى أدلة المانعين وشواهدهم، وقد عرفت ضعفها وعدم دلالتها على ما يرتأون، ولنختم البحث بذكر أُمور: الأول: إنّ الاحتفال بالمواليد يجب أن يكون بعنوان أنّه تطبيق للأصل القرآنى من لزوم تكريم النبى وتوقيره وتعظيمه، ولأجل ذلك يصحّ إيقاعه فى كل شهر وأُسبوع ويوم، وعند ما يقام الاحتفال بمولده فإنما يقام بما أنّه جزئى لذلك بالتكريم بالخصوص، حتّى يكون الاحتفال تجسيداً لهذا الأمر، فهو بدعة لا يصار إليها، ولا

أرى أحداً يدّعى أنّه ورد الأمر بالخصوص بمولده . الثانى: يجب أن يكون الاحتفال مطابقاً للسنن الإسلامية، خالياً عما يستقبح فعله فى الشريعة، كعزف المعازف، واتخاذ القيان، واختلاط الرجال بالنساء، فلو فرض أنه اقترنت بعض هذه الاحتفالات بالمحرمات، فلا يكون دليلا ـ على حرمة نفس الاحتفال، ولا ـ يكون سبباً للمنع عنه، فالنّ بعض الفرائض ربما تكون ذريعة لما هو أعظم من هذه المحرمات . الثالث: ليست لإقامة الاحتفال كيفية خاصة، بل ينبغى أن يكون الكل فى إطار الشريعة الغراء، ويكون فى طريق تكريم النبى وتعظيمه، وإظهار الحب، وأحسن الطرق هو تلاوة الآيات الواردة فى حقه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ثم الإيعاز إلى الجهود الّتى بذلها الرسول فى طريق إنقاذ البشر، وبلغ بهم إلى أعلى مراتب العز والعظمة، ثم دعوة المسلمين عن طريق إلقاء الخطب بالتمسك بالكتاب والسنة، والسعى لتطبيق وتجسيد مبادئها فى الحياة، ودعم الصحوة الإسلامية للنهوض والوقوف فى وجه القوى الكبرى الّتى تتربص بهم الدوائر، إلى غير ذلك من الأُمور الّتى فيها خير وسعادة المسلمين كافة، فى عاجلهم وآجلهم .

يقول العالم الجليل السيد محمد علوى بن عباس المالكى المكى الحسنى: (۳۲۸)

«إنّنا نرى أنّ الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ليست له كيفية مخصوصة لا بد من الالتزام وإلزام الناس بها، بل إنّ كل ما يدعو إلى الخير ويجمع الناس على الهدى ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم فى دينهم ودنياهم، يحصل به تحقيق المقصود من المولد النبوى، ولذلك فلو اجتمعنا على شىء من المدائح الّتى فيها ذكر الحبيب ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وفضله، وجهاده، وخصائصه، ولم نقرأ قصة المولد النبوى الّتى تعارف الناس على قراءتها، واصطلحوا عليها حتّى ظن بعضهم أن المولد النبوى لا يتم إلّا بها، ثم استمعنا إلى ما يلقيه المتحدثون من مواعظ وإرشادات، وإلى ما يتلوه القارىء من آيات ;أقول: لو فعلناه فإنّ ذلك داخل تحت المولد النبوى الشريف، ويتحقق به معنى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، وأظنّ أنّ هذا المعنى لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان» انتهى(۱) . ومن المؤسف جداً أنّ الوهابية قامت بشن حملة شعواء على هذا الكتاب، ولم تراع أدب الكتابة والمناظرة إلى حد اعتراف الكاتب بأسوله القاسى فى المحاورة، وينتهى فى خاتمة كتابه إلى قوله: «ونكرر أسفنا وتأثرنا من القسوة الّتى آثرنا أن يشتمل عليها أسلوبنا فى رد ترهاته، وأباطيله، ويعلم اللّه أن الباعث لهذا الأسلوب القاسى، الغيرة لحق اللّه(۲) . ويؤاخذ عليه أن الغيرة لحق اللّه يجب أن تكون فى إطار الأدب الّذى ندب إليه الذكر الحكيم وقال: (ادْعُ إلى سِبِيلِ رَبِّكِ بِالحِكْمِةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)(۳) . وكان الإمام أميرالمؤمنين علىّ ـ عليه السَّلام ـ يؤدب أصحابه عند مقابلة الشاتمين من الشاميين، من أصحاب معاوية القاسطين بقوله: إنِّى أَكْرَهُ لَكُمْ أن تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَو وَصَفْتُم أعْمَالَهُم وَذَكَرتُم حَالَهُمْ، كَانَ أصْوَبَ فى القَولِ، وأبلَغَ فِى العُذْرِ، وَقُلتُم مَكَانَ سَبِّكُمْ إيَّاهُمْ: اللَّهُمّ احْقِن دِمَاءَنَا ـــــــــــــــــــــــ

۱ . حوار مع المالكى، تأليف عبداللّه بن سليمان بن منيع، ص ۱۶۸ .

۲ . حوار مع المالكى، ص ۱۹۰ .

۳ . سورة النحل: الآية ۱۲۵ . (۳۲۹)

وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِم وَاهْدِهِم مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ حَتّى يَعْرِفَ الحَقُّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرعَوِىَ عَنِ الغَيِّ وَالعُدْوانِ مِن لهج به(۱) . الرابع: روى أهل السنة عن الإمام علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ أنّ رجلا كان يأتى كل غداة فيزور قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ويصلّى عليه، ويصنع من ذلك ما انتهره عليه علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ فقال له: ما يحملك على هذا؟ قال: حبّ التسليم على النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ، فقال علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ : هل لك أن أُحدّثك حديثاً عن أبى؟

قال: نعم، فقال له علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ : أخبرنى أبى عن جدى أنه قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : لا تجعلوا قبرى عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا علىّ وسلّموا حيثما كنتم فسيبلغنى سلامكم وصلاتكم(۲) . ولو صحّ الحديث فلعل انتهاره كان لأجل أنّ الرجل زاد فى الحدّ وخرج عن الحد الأوسط، ولا صلة له بنفى الزيارة بتاتاً، كما لا صلة له بإقامة الاحتفال والذكريات . إنّ هذه الرواية ظاهرة فى أنه عليه الصلاة والسلام قد لاحظ أنّ ذلك الرجل قد ألزم نفسه بأمر شاق، وهو المجى، يومياً

للصلاة عليه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وزيارته، فأراد ـ عليه السَّلام ـ التخفيف عنه وإفهامه أنّ بإمكانه الصلاة و التسليم عليه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ حيثما كان، فسيبلغه ذلك، فلا داعى لإلزام نفسه بما فيه كلفة ومشقّة، ولم ينهه عن الصلاة والدعاء عند قبره ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ (٣) * * * * * * ______

١ . نهج البلاغه، الخطبة: ٢٠۶ .

٢ . رواه السبكى عن عبدالرزاق عن القاضى إسماعيل فى كتاب فضل الصلاة على النبى، بسنده إلى على بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ ورواه عبدالرزاق فى مصنفه بسنده إلى الحسن بن على ;لاحظ شفاء السقام، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ .

٣ . المواسم والمراسم: ص ٧٣ . (٣٣٠)

إلى هنا تمّ تبيين عقائد ابن تيمية ومحيى مسلكه ابن عبدالوهاب فبقى الإلماع إلى حياة المحيى وناصره، وهو ما سيوافيك فى البحث التالى . «والحمد لله رب العالمين» * * * * * (٣٣١) محمد بن عبدالوهاب مؤسس الحركة الوهابية

نشأته ووفاته استشفاف بوادر الضلال من كلماته اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود بدء الدعوة ونشرها صِدام بين ابن عبدالوهاب وأمير عيينة تكفير محمد بن عبدالوهاب جميع المسلمين حروبه مع المسلمين (٣٣٢) (٣٣٣)

تاريخ الوهابية

تاريخ الوهابية مؤسسها، ناصرها وتطورها

قد وقفت فى الفصول السابقة على العقائد الوهابية عن كثب، وأنها لم تكن شيئاً جديداً سوى ما ابتدعه أحمد بن تيمية فى القرن الثامن الهجرى وقد كاد أن يصير نسياً منسياً، ويذهب أدراج الرياح، غير أنّ بذورها لما كانت تقبع فى طيات كتبه ورسائله، قام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى بتجديد العهد بها، وإحيائها مرة أُخرى بفضل سيف آل سعود فى الشطر الثانى من القرن الثانى عشر إلى أوليات القرن الثالث عشر الهجرى، أى من سنة ١١۶٠ إلى سنة ١٢٠٧ هـ الّتى وافاه الأجل فيها، ثم تعاهد أبناؤه من بعده مع أبناء بيت قبيلة آل سعود فترة بعد فترة، على أن تكون الدعوة والإرشاد والتخطيط على أبنائه، والتطبيق والتنفيذ والسلطة على كاهل آل سعود، فلم تزل هذه المعاهدة باقية إلى يومنا هذا، غير أنها اتخذت فى هذه الآونة لنفسها شكلا آخر، وهو أن القوة والسلطة كانت فى بدء التأسيس آلة طيّعة بيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكنه فى عصرنا هذا تبدلت رأساً على عقب، فأصبحت السلطة الدينية أداة طيعة فى يد آل سعود، يأتمرون بكل ما يلقى إليهم من البلاط السعودى والملك الحاكم من قبلهم على شبه الجزيرة العربية. وهذه إحدى الصور الّتى تحكى لنا عن تراجع الوهابية عن مبادئها الأولية الّتى قامت على أعتابها يوم تأسيسها، وسنوافيك بما يحكى لك المزيد من ذلك . (٣٣۴) نشأته ووفاته

اختلف المؤرخون فى عام ولادته ووفاته، فمن قائل(١) بأنه ولد سنة ١١١١ هـ وتوفى عام ١٢٠٧ هـ فيكون عمره ستاً وتسعين ;إلى آخر(٢) بانه ولد عام ١١١۵ هـ وتوفى ١٢٠٧ هـ فيكون قد ناهز إحدى وتسعين، نشأ وترعرع فى بلده «العيينة» فى نجد، وتلقى دروسه بها على رجال الدين من الحنابلة، ثم غادر موطنه ونزل المدينة المنورة ليكمل دروسه، يقول أحمد أمين المصرى: «سافر الشيخ إلى المدينة ليتم تعلمه، ثم طاف فى كثير من بلاد العالم الإسلامى، فأقام نحو أربع سنين فى البصرة، وخمس سنين فى بغدادن وسنة فى كردستان، وسنتين فى همدان، ثم رحل إلى إصفهان، ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوّف، ثم رحل إلى «قم» ثم عاد إلى بلده، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة»(٣) . وقد ذكر كثير من المؤرخين تجواله وترحاله فى هذه البلاد، منهم عبد الرزاق الدنبيلى فى كتابه «مآثر سلطانية»(۴)، والشيخ أبو طالب الإصفهانى الّذى كان معاصراً للشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقد ذكر سفر الشيخ إلى إصبهان وإلى أكثر بلاد العراق وإيران، حتّى إلى «غزنين» الّذى هو بلد فى أفغانستان(۵) .

استشفاف بوادر الضلال من كلماته

إنّ الإنسان مهما كان ذكياً مواظباً على ستر عقيدته لا يتمكن من إخفائها فى الفترة الّتى يكون فيها الوعى غائباً والذهن خاملا، وعند ذلك يبدو على صفحات وجهه وفلتات لسانه ما يكتمه ويخفيه فى الأوعية، قال أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ : ـــــــــــــــــــ

۱ . زينى دحلان: الدرر السنية: ص ۴۲ طبع الآستانة وغيره .

۲ . أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، ص ۱۰ بيروت، وقد أرّخ الآلوسى ولادته بـ ۱۱۱۱ هـ لكنه أرّخ وفاته بـ ۱۲۰۶ هـ .

۳ . نفس المصدر السابق: ص ۱۰ .

۴ . مآثر سلطانية: ص ۸۲ و...

۵ . ميرزا أبو طالب سفرنامه: ص ۴۰۹ و... (۳۳۵)

«ما أضمر أحد شيئاً إلاّ فى ظهر فلتات لسانه وصفحات وجهه»(۱) وقد كان محمد بن عبدالوهاب ممن يتفرّس مشايخه وأساتذته فيه الضلال، حيث كان عندما يتردد إلى مكة والمدينة لأخذ العلم من علمائهما، وعندما كان يدرس على الشيخ محمد بن سليمان الكردى، والشيخ محمد حيات السندى كانا يتفرسان فيه الغواية والإلحاد، بل يتفرس غيرهما فيه مثل ذلك، وكان ينطق الكل بأنه سيضل اللّه تعالى هذا، ويضل به من أشقاه من عباده، حتّى أنّ والده عبدالوهاب ـ وهو من العلماء الصالحين ـ كان يتفرس فيه الإلحاد ويحذّر الناس منه، حتّى أنّ أخاه الشيخ سليمان ألف كتاباً فى الرد على ما أحدثه من البدع والعقائد الزائفة، وكان محمد بن عبدالوهاب بادىء بدء كما ذكره بعض المؤلفين مولعاً بمطالعة أخبار من ادّعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب وسجاح، والأسود العنسى، وطليحة الأسدى وأضرابهم(۲). يكتب ميرزا أبو طالب الإصفهانى وهو معاصره ويقول: أخذ فى أول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة، وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبدالوهاب من العلماءالصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً، يحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً فى الرد عليه، وكان فى أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدّعى النبوة كمسيلمة و...»(۳) . لو صحّ هذا فهو يعرب عن أنّ محمد بن عبدالوهاب كان يضمر فى مكامن ذهنه شيئاً يشاكل فعل هؤلاء المتنبئين، فصبّ ما أضمره فى الدعوة الجديدة إلى التوحيد، وعاد يكفّر رجال الدين عامة فى كافة العصور، وينسبهم إلى الجهل والضلال، وهذه سمة المبتدعين عامة. انتقال عبد الوهاب إلى «حريملة»

ترك أبوه «العيينة» ونزل بلدة «حريملة» وبقى فيها إلى أن وافته المنيّة ـــــــــــــــــــ

۱ . نهج البلاغه، قسم الحكم ۲۶۰ .

۲ . صدقى الزهاوى: الفجر الصادق ص ۱۷ والسيد أحمد زينى دحلان: فتنة الوهابية ص ۶۶ .

۳ . ميرزا أبو طالب: سفرنامه، ص ۴۰۹ . (۳۳۶)

سنة ۱۱۴۳(۱) ولم يكن راضياً عن ابنه، وطالما زجره ونهاه، ولمّا توفّى الوالد تجرّأ عليه أهل «حريملة» وهمّموا بقتله، فلم يجد بداً من الهرب إلى «العيينة» وهى مسقط راسه ودار نشأته، وقد تعاهد هو وأميرها «عثمان بن معمر» على أن يشد كلُّ أزر الآخر، فيترك الأمير للشيخ الحرية فى إظهار الدعوة والعمل على نشرها، لقاء أن يقوم محمد بن عبد الوهاب بدوره بشتى الوسائل لسيطرة الأمير على نجد بكاملها، وكانت يومذاك موزعة إلى ست أو سبع إمارات منها إمارة العيينة(۲) ولكن لكى تقوى الروابط بين الاثنين زوّج الأمير أُخته «جوهرة» من الشيخ، فقال له الشيخ: «إنى لآمل أن يهبك اللّه نجداً وعربانها»(۳) . هكذا بدأ التآلف بين الشيخ والأمير، واحدة بواحدة... مساومة ثم أخذ وعطاء، والثمن هو الدين والشعب، أمّا زواج الشيخ من «جوهرة» فتثبيت للتحالف، وضمان للوفاء... لقد سخر محمد بن عبد الوهاب الدين لأجل الدنيا، وتطوع لتعزيز حكمه دون أن يكون على يقين من عدله، أو يأخذ منه موثقاً لتحسين الأوضاع وراحة الناس، والعمل للصالح العام، بل على العكس، فقد وعده بملك نجد وعربانها... ولكن لا بالاقتراح وحرية تقرير المصير، بل بالحرب والغزو وبأشلاء الضحايا(۴) . أبعد ذلك يصحّ أن يعدّ الشيخ من المصلحين المجددين، وممّن له رسالة إنسانية كما عدّه نفر منهم أحمد أمين فى كتابه زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، ومهما كان فإنّ التحالف بين الشيخ والأمير لم يطل عمره

ولم يتم أمره، وما تمخّض إلاّ عن زواج الشيخ بجوهرة، وهدم قبر زيد بن الخطاب، وإثارة الفتن والقلاقل فقط ـ لم يطل عمر التحالف بين ابن عبد الوهاب والأمير ابن معمر ـ لأنّ سليمان الحميدى صاحب الأحساء والقطيف أمر عثمان بن معمر ـ وكان أقوى منه ـ أن يقتل الشيخ . ________________

۱ . محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية ص ۱۱۱ .

۲ . الآلوسى ـ السيد محمود: تاريخ نجد، ص ۱۱ .

۳ . فيلبى ـ عبداللّه: تاريخ نجد، ص ۳۶ .

۴ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية ص ۱۱۲ . (۳۳۷)

يقول عبداللّه فيلبى فى تاريخ نجد: «قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه، فطلب منه أن يختار المكان الّذى يريد الذهاب إليه، فاختار «الدرعية»، فأرسل عثمان معه رجلا اسمه فريد: وكلفه أن يقتل ابن عبد الوهاب فى الطريق، ولكن فريداً خذلته إرادته، وترك الشيخ وقفل راجعاً دون أن يمسه بسوء(۱) . ويذكر السيد محمود شكرى الآلوسى انتقال الشيخ من «عينية» إلى «حريملة» نحو ما مرّ ويزيد: خرج إلى «الدرعية» سنة: ۱۱۶۰ هـ وهى بلاد مسيلمة الكذاب(۲) . اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود

ورد الشيخ إلى الدرعية فى العام الّذى عرفت، وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود جد السعوديين، وتمّ الاتفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قد تمّ بينه وبين ابن معمر فى «العيينة»، فقد وهب الشيخ نجد وعربانها لابن سعود، كما وهبهما من قبل لابن معمر، ووعده أن تكثر الغنائم عليه والأسلاب الحربية الّتى تفوق ما يتقاضاه من الضرائب(۳) على أن يدع الأمير للشيخ ما يشاء من وضع الخطط لتنفيذ دعوته . وتقول الرواة: إنّ الأمير سعود بايع محمد بن عبد الوهاب على القتال فى سبيل اللّه... ومعلوم انهما لم يفتحا بلداً غير مسلم فى الشرق أو فى الغرب، وإنما كانا يغزوان ويحاربان المسلمين الذين لم يدخلوا فى طاعة ابن سعود، ولأجل ذلك قال الأمير لابن عبدالوهاب: «أبشر بالنصر لك ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، لكن أُريد أن اشترط عليك اثنين: أولا: إذا قمنا بنصرتك وفتح اللّه لنا ولك، أخشى أن ترحل عنّا وتستبدل بنا غيرنا فعاهده الشيخ أن لا يفعل . ________________

۱ . فيلبى ـ عبداللّه: تاريخ نجد، ص ۳۹۰ ط المكتبة الأهلية بيروت .

۲ . كشف الارتياب ص ۱۳ ـ ۱۴ نقلا عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى الآلوسى .

۳ . فيلبى: تاريخ نجد ص ۳۹ . (۳۳۸) ثانياً: إنّى أتقاضى من أهل «الدرعية» مالا وقت الثمار، وأخاف أن تمنع ذلك، فقال الشيخ: لعل اللّه يفتح الفتوحات فيعوضك اللّه من الغنائم ما هو أعظم منها»(۱) .

وعلى هذا تم الاتفاق بين أمير «الدرعية» والشيخ . إنّ بعض المستشرقين مثل «فيليب حتّى»(۲) و «جولد تسيهر»(۳) وغيرهما يذكرون أنه قد تقوّت الروابط بين الاثنين بمثل ما تقوّت بينه وبين أمير «عيينة» وزوّج محمد بن سعود ابنه عبدالعزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب، ولا يزال العهد بين آل سعود وعائلة عبد الوهاب مستمراً إلى يومنا هذا، وإن اختلف مضمونه مع استمرار التزاوج على نطاق وسيع(۴) . بدء الدعوة نشرها

شعر محمد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف الجديد، وأن الامارة السعودية اصبحت تناصره وتؤازره، فلأجل ذلك جمع الشيخ أنصاره وأتباعه وحثهم على الجهاد، وكتب إلى البلدان المجاورة المسلمة أن تقبل دعوته، وتدخل فى طاعته، وكان يأخذ ممن يطيعه عشر المواشى والنقود والعروض، ومن أبى غزاه بانصاره، وقتل الأنفس ونهب الأموال، وسبى الذرارى، وكان شعارهم: «ادخل فى الوهابية وإلاّ فالقتل لك، والترمّل لنسائك، واليتم لأطفالك» هذا هو بالذات مبدأ الوهابية الّذى لا تتنازل عنه لأية مصلحة، ومن أجله تحالف مع ابن معمر فى «العيينة»، ثم مع ابن سعود فى «الدرعية»، وكان على أتم استعداد أن يتحالف مع أية قوة يستعين بها على ذلك(۵) . ________________

۱ . أبو علية ـ عبد الفتاح: محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى ص ۱۳ ـ ۱۴ .

۲ . فيليب حتّى: تاريخ العرب ج ۲ ص ۹۲۶ المترجم إلى الفارسية .

۳ . العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ۲۶۷ ط مصر الطبعة الثانية .

۴ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ط الرياض ص ۲۳.

۵ . محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية، ص ۱۱۴ . (۳۳۹)

كان الشيخ يغزو بأنصاره وأتباعه عربان نجد، يسلبونهم مصدر حياتهم، ثم ينتقلون إلى الدرعية بعد أن يتركوا وراءهم أشلاء الضحايا، والخرائب والأرامل والأيتام، ويوزع الشيخ عليه أربعة أخماس الغنائم والأسلاب من المسلمين الآمنين، ويخص الخمس بالخزينة الّتى يشرفون عليها هو و الأمير السعودى . يقول عبداللّه فيلبى فى تاريخ نجد: «وقد أدخل الإمام فى عقول طلابه مبادىء فريضة الجهاد المقدس، فوجد الكثير منهم فى الجهاد أقدس تعاليمه، إذ أنه يتفق مع ما اعتاد عليه العرب - يريد أنّ العرب قد اعتادوا على السلب والنهب ـ ، كما خصص الشيخ خمس الأسلاب لخزينته المركزية الّتى كان الأمير والإمام يتقاضيان منها ما يقوم بأودهما... وهكذا كان سلطان الشيخ فى تصرف شؤون البلاد بعد مرور سنة أو سنتين، وقد أصبح شريكاً مؤسساً. الوهابية أو السيف

ربما يستغرب القارىء عند ما يسمع أنّ الوهابية تحصنت فى بدء دعوتها بهذا الشعار، وطبقته فى حياتها سنين، ولكنه لعمر اللّه حقيقة لامرية فيها، فقد ارتفع صرح الإمارة السعودية يوم انتشارها إلى العصر الحاضر على هذا الأصل، فإن السعودية آنذاك ويوم تعاهدها مع محمد بن عبدالوهاب تعيش حياة البؤس، ولم يكن ابن سعود متمكناً حتّى من تأمين الأغذية لأعز تلاميذ محمد بن عبد الوهاب، الّذى يمارس تأثيره بقوة الإقناع فقط(۱) . وبعد أُولى غزوات الدرعيين على جيرانهم، وزعت الغنائم بالعدل طبقاً لأحكام الوهابية: الخمس لابن سعود، والباقى للجند ;ثلث للمشاة، وثلثان للخيالة ;وكان التمسك بالوهابية يكافأ مادياً، وإذا كان الغزو فى السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحول الآن إلى انتزاع أموال المشركين! وإحالتها إلى المسلمين الحقيقيين! ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۱۳ . (۳۴۰) صِدام بين ابن عبد الوهاب وأمير «العيينة»

قد تعرفت أنّ التحالف بين الشيخ وأمير «العيينة» لم يلبث إلاّ برهة قليلة، وأنه اعتذر عن ضيفه وسمح له أن يغادر الامارة ويذهب إلى أية نقطة شاء، ولما التحق محمد بن عبدالوهاب بأمير «الدرعية» وبزغ نجمه، أحسّ عثمان بن معمر أمير «العيينة» بتمخض خطر من جانب السعوديين، فلم يجد مناصاً من إظهار التودد والمداراة معهم، إلى أن انتهى به الأمر إلى تزويج ابنته من ابن عبد العزيز بن محمد بن سعود، الّذى بلغ الوهابيون فى عهده أوج قوتهم(۱). إلاّ أنّ العداء حتّى الموت بين الأقارب ظاهرة عادية تماماً فى الجزيرة العربية، فلا داعى للدهشة من تطور الأحداث لاحقاً، وكان لموقف محمد بن عبد الوهاب ـ الّذى لم ينس أنّ أمير «العيينة» نفاه منها ـ أهمية حاسمة فى التنافس بين حكام «الدرعية» و «العيينة»، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتّى اتّهم أمير «العيينة» بأنه أجرى مراسلات سرية مع حاكم الأحساء «محمد بن عفالق» وأعد العدة للخيانة(۲) . ـ ولأجل ذلك ـ أرسلوا بعض المرتزقة، ومنهم حمد بن راشد، وإبراهيم بن زيد إلى عثمان بن معمر حاكم «العيينة» فاغتالوه أثناء أدائه لصلاة الجمعة . ومما جاء فى كتاب أصدره آل سعود وآل الشيخ تحت عنوان: تاريخ نجد، ونقله عن رسائل محمد بن عبدالوهاب، الشيخ حسين بن غنا، وأشرف على طباعته عبدالعزيز بن باز مفتى الديار السعودية، العبارة التالية: إنّ عثمان بن معمر مشرك كافر، فلمّا تحقق أهل الاسلام من ذلك تعاهدوا على قلته بعد انتهائه من صلاة الجمعة، وقتلوه وهو فى مصلاه بالمسجد فى رجب سنة ۱۱۶۳ هـ وفى اليوم الثالث من مقتله جاء محمد بن عبدالوهاب إلى «العيينة» وعين عليهم مشارى بن معمر، وهو من أتباع محمد بن عبد ـــــــــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۲۳ .

۲ . فاسيليف: فصول من تاريخ العربية السعودية - ص ۲۸ . (۳۴۱)

الوهاب (۱) . هكذا كانوا يحكمون على الموحدين المصلين فى محراب العبادة بالشرك والخروج عن التوحيد «وما نقموا منهم» «إلاّ أن قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا» ولم يخضعوا للسلطة الّتى أسسها محمد بن عبد الوهاب . ثم إنّ محمد بن عبد الوهاب نحّى «مشارى»

عن منصة الحكم وأسكنه «الدرعية» مع عائلته، وعين شخصاً آخر للشغال الحكم، حتّى يكون الحاكم أطوع له كطوع الظل لذى الظل، ولم يكتف بذلك حتّى جاء إلى قصر آل معمر وأمر بتدميره(٢) . إنّ هذه العلمية تسفر عن عقيدة محمد بن عبد الوهاب فى حق عامة أهل نجد دون استثناء، لأنه لو كان ابن معمر كافراً فقد كان سكنة نجد كلهم على دينه، فهم حينئذ كفرة تباح دماؤهم ونساؤهم وممتلكاتهم، والمسلم هو من آمن بالطريقة التى يسير عليها محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود(٣) . لم يبرح زمن على سلطة آل سعود على «العيينة» حتّى ثاروا على النظام الّذى فرض عليهم من جانب محمد بن عبدالوهاب، ولكن لم يكتب لانتفاضتهم النجاح، فعاد السعوديون إلى «العيينة» فدمّروا البلد على آخره، فهدموا الجدران، وردموا الآبار، وأحرقوا الأشجار، واعتدوا على أعراضهم وبقروا بطون الحوامل من النساء، وقعطوا أيدى الأطفال، وأحرقوهم بالنار، وسرقوا المواشى وكل ما فى البيوت، وقتلوا كل الرجال . هكذا خربت «العيينة» وما زالت مخروبة منذ عام ١١٦٣ هـ حتّى يومنا هذا، وما زالت الوهابية يبررون أعمالهم بما قاله محمد بن عبد الوهاب: إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد صبّ غضبه على العيينة وأهلها وأفناهم تطهيراً لذنوبهم، وغضباً على ما قاله حاكم العيينة، عثمان بن معمر، فقد قيل لحاكمها ــــــــــــــ

١ . تاريخ نجد، ص ٩٧ .

٢ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ٤٣ ـ ابن غنام: تاريخ نجد، ج ٢ ص ٥٧ .

٣ . تاريخ نجد، ص ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١ . (٣٤٢)

بأن الجراد آت إلى بلادنا و نحن نخشى أن يأكل الجراد زراعتنا، فأجاب الحاكم ساخراً من الجراد: سنخرج على الجراد دجاجاً فتأكله، وبهذا غضب اللّه سبحانه لسخرية الحاكم بالجراد، وهو آية من آيات اللّه لا يجوز السخرية منها، ولهذا أرسل اللّه الجراد على بلدة العيينة فأهلكها عن آخرها(١) . نحن نفترض أنّ أمير العيينة استهزأ بآية من آيات اللّه فكفر، فيجب ضرب عنقه بسيف الجلادين، فهل كفر الآخرون، وهل تزر وازرة وزر أُخرى، وما هى إلاّ خدعة يمّوه بها الأمر على الصبيان وأشباههم. فلما قضى محمد بن عبد الوهاب وآل سعود على مناوئيهم فى المنطقة، قويت الإمارة السعودية من طريق الدين باتّباعها محمد بن عبدالوهاب، وقويت دعوة ابن عبد الوهاب بطريق السيف باتّباع ابن سعود له وانتصاره به، فكان ابن سعود الأمير الحاكم، وابن عبد الوهاب الزعيم الدينى، وصارت ذرية كل منهما تتولى مرتبة سلفها. لقد قوّى انتصار القبيلة السعودية على حاكم «العيينة» عزيمتهم على توسيغ نطاق حكومتهم، مغبة أمر محمد بن عبد الوهاب بالجهاد وحث اتباعه عليه، وأول جيش تم تأليفه له من سبع ركائب(٢) ومعلوم أنّ هذه الجيوش والركائب لم تغز بلاد الكفار والمشركين، ولا الرومان، وإنما غزوا بلاد المؤمنين، بلاد القائلين بـ(لا إله إلاّ اللّه، محمد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ) ولما أحس ابن عبد الوهاب بسلطة وقدرة، كتب إلى أهل نجد (وهم المسلمون بزعمهم) على الدخول فى مذهب التوحيد، فأطاع بعضهم بينما امتنع آخرون، فأمر أهل «الدرعية» بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد والأحساء مراراً، حتّى دخل بعضهم فى طاعته طوعاً أو كرهاً، وصارت جميع إمارة نجد لآل سعود بالقهر والغلبة»(٣) . ــــــــــــــ

١ . ناصر السعيد: تاريخ آل سعود، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

٢ . محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية، ص ١١٧ نقلا عن ابن بشر عثمان، عنوان المجد فى تاريخ نجد .

٣ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب ص ١٣ ـ ١٤ نقلا عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى الآلوسى . (٣٤٣) سراب لا ماء

قد كان اللحركة الوهابية فى عصر مؤسسها صدى ودوى، والقريب منها يستشف الحقيقة عن كثب، ويرى أنها قد بنيت على القتل الذريع، والسفك المروع، وأن محمد بن عبدالوهاب يهتف بأنه لا عدل ولا سلم، ولا رحمة، ولا إنسانية، ولا حياة، لا شىء أبداً إلاّ الوهابية أو السيف . وهذه السنّة الّتى استنّها محمد بن عبدالوهاب يتحمل وزرها منذ يومه إلى يوم القيامة، لأنها كماترى دعوة تقوم على الحرب والضحايا، وتتطبع بطابع الدم والفوضى، ويكفى فى ذلك قول أخيه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب فى كتاب الصواعق الإلهية مخاطباً لأخيه وأتباعه: «فانتم تكفّرون بأقل القيل والقال، بل تكفّرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفّرون بصريح الإسلام، بل

تكفّرون من توقف عن تكفير من كفّرتموه»(۱) . ولم يكن أخوه فريداً فى القضاء، فقد رجع عن طريقته بعض المنصفين المنخدعين بدعوته، وهذا هو السيد محمد بن إسماعيل الأمير لمّا بلغه من أحوال الشيخ النجدى، الدعوة إلى التوحيد، فأنشا قصيدته المشهورة: سلام على نجد ومن حلّ فى نجد * وإن كان تسليمى على البعد لا يجدى ثم حقق الأحوال من بعض من وصل إلى اليمن، ووجد الأمر على عكس ما روى له، فأنشأ يقول فى قصيدته ثانياً عما قاله أولا: رجعت عن القول الّذى قلت فى نجد * فقد صحّ لى عنه خلاف الّذى عندى حكى عن محمد بن إسماعيل أنه قال فى شرح القصيدة المذكورة المسماة بـ «محو الحوبة فى شرح أبيات التوبة»: لمّا بلغت قصيدتى الأُولى نجداً التى مدحت فيها الحركة الوهابية، جاء إلينا بعد أعوام رجل كان يعرّف نفسه بـ «الشيخ مربد بن أحمد التميمى» وذلك فى صفر سنة ألف ومائة وسبعين، ________________

۱ . الصواعق الإلهية، ص ۲۷ ـ ۲۹، ط ۱۳۰۶ . (۳۴۴)

وحمل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه، ثم عاد إلى وطنه فى شوال تلك السنة، وكان من تلاميذ ابن عبد الوهاب الّذى وجهنا إليه القصيدة، وقد قدم إلينا قبله الشيخ الفاضل عبد الرحمان النجدى، ووصف لنا من حال ابن عبد الوهاب أشياء أنكرناها عليه من سفكك الدماء ونهب الأموال والتجرى على قتل النفوس، ولو بالاغتيال، وتكفيره الأُمة المحمدية فى جميع الأقطار، فبقى فينا تردد فيما نقله ذلك الشيخ، حتّى قدم إلينا الشيخ «مربد» وله نباهة، ومعه بعض رسائل ابن عبدالوهاب الّتى جمعها فى وجه تكفير أهل الإيمان، وقتلهم ونهبهم، وحقق لنا أحواله، فعرفنا أحوال رجل عرف من الشريعة شطراً ولم يمعن النظر ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية، ويدله على العلوم النافعة ويفقّهه، بل طالع بعض مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقلدهما من غير إتقان، مع أنهما يحرمان التقليد(۱) . يقول العلامة السيد محسن الأمين العاملى: هذا يدل على أن محمد بن إسماعيل رجع عن مغالاته فى التوهب، ولعل رجوعه كان بعد تأليفه رسالة «تطهير الإعتقاد عن أدران الإلحاد» فإنّ تلك الرسالة لا تقصر عن كتب ابن عبدالوهاب فى المغالاة(۲) .

أهل البيت أدرى بما فيه

هذه لمحة خاطفة عن حياة محمد بن عبدالوهاب، جئنا بها ليكون القارىء الكريم على اطلاع بحقيقة حاله على جهة الإجمال، ولكن هناك الكثير الكثير فى الزوايا والخبايا ذكرت فى تاريخ حياته أغفلنا ذكرها روما للاختصار، ولكن ما يجب ذكره فى المقام كلمة أخيه فى حقه، وهو من أهل بيته وأدرى بحاله منّا ومن كل كاتب. يقول فى كتاب أسماه «الصواعق الإلهية» رداً على آراء أخيه: «فإنّ اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة، ويستنبط من علومهما، ولا يبالى من خالفه . ________________

۱ . كشف الارتياب، ص ۸ .

۲ . السيد محسن: كشف الارتياب: ص ۱۶ - ۱۹ . (۳۴۵)

وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم تكن فيه خصلة واحدة من فعال أهل الاجتهاد ولا واللّه، ولا واللّه عشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهّال، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، الأُمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم فى كلمة بل كلهم كفار وجهال! أللّهمّ اهد هذا الضال وردّه إلى الحق...»(۱) ويقول ايضاً: إنّ هذه الأُمور (الّتى يكفر بها محمد بن عبد الوهاب) حدثت من قبل زمان الإمام أحمد فى زمن أئمة الإسلام، حتّى ملأت بلاد الإِسلام كلها، ولم يُرْوَ عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفّروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدون، ولا أمروا بجهادهم، ولا ـ سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفّرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها، وتمضى قرون على الأئمة من ثمانمائة عام، ومع هذا لم يُرْوَ عن عالم من علماء المسلمين أنه كفر، بل ما يظن هذا عاقل، بل واللّه لازم قولكم أن جميع الأُمة بعد زمان الإمام أحمد ـ رحمة اللّه تعالى ـ، علماؤها وأُمراؤها وعامتها كلهم كفار مرتدّون، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، واغوثاه إلى اللّه! ثم واغوثاه أن تقولوا كما يقول بعض عامتكم إنّ الحجة ما قامت إلاّ بكم، وإلاّ ـ قبلكم لم يعرف دين الإسلام(۲) . وهذه العبارة من أخيه صريحة فى أنه كان يكفّر جميع طوائف المسلمين، ويعتبر بلادهم بلاد حرب . تكفير محمد بن

عبد الوهاب جميع المسلمين

ولعلّ القارىء ينتابه الاستغراب مما نسبه إليه أخوه، ولكنه إذا رجع إلى مبادىء دعوته يسهل له التصديق بالنسبة، وإليك خلاصة رسالته تحت أربع قواعد: ______________

۱ . سليمان بن عبدالوهاب النجدى: الصواعق الإلهية، ص ۳ ـ ۴ .

۲ . نفس المصدر السابق، ص ۳۸ . (۳۴۶) الأُولى: إنّ الكفار الذين قاتلهم رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ مقرّون بأنّ (اللّه) هو الخالق الرازق المدبر، ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لقوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأرضِ أمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصَارَ... فَسَيَقُولُونَ اللّه فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)(۱) . الثانية: إنهم يقولون: ما دعونا الأصنام وما توجهنا إليهم الاّ لطلب القرب والشفاعة لقوله تعالى: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أولياءَ مَا نَعْبُدُهُم اِلاّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللّه زُلفَى)(۲). وقوله: (وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّه مَالا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّه)(۳) . الثالثة: إنّه ظهر (صلّى اللّه عليه وآله) على قوم متفرقين فى عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم. الرابعة:إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن أولئك يشركون فى الرخاء، ويخلصون فى الشدة، وهؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: (فَإذا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم إلَى البَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ)(۴) .

وهو لا يريد من قوله «إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً...» إلاّ المسلمين عامة، وذلك لأنهم يتوسلون بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى شدتهم ورخائهم، ولذلك صاروا عنده أغلظ من مشركى عهد الرسالة . ومما يؤخذ عليه فيما ذكره فى القاعدة الثانية، وهى المحور الرئيس للضلالة، أنّ هناك فرقاً جلياً بين المسلمين وعبدة الأوثان والأصنام، فإنّ ______________

۱ . سورة يونس: الآية ۳۱ .

۲ . سورة الزمر: الآية ۳ .

۳ . سورة يونس: الآية ۱۸ .

۴ . محمد بن عبد الوهاب: رسالة أربع قواعد ص ۱ – ۴ ط مصر المنار، سورة العنكبوت: الآية ۶۵ . (۳۴۷) المسلمين يعبدون اللّه وحده، ولا يتوجّهون إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إلاّ بقصد أن يدعو لهم عند اللّه، ويشفع لهم عنده، وأين هو من عبدة الطاغوت الذين كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون اللّه، ويتوجهون إليها على أنها آلهة تملك ضرهم ونفعهم، وما هذه إلاّ مغالطة مفضوحة، وقد تكررت هذه الظاهرة فى أكثر رسائله وكتبه، فإليك نتفاً منها فى كتابه الآخر المسمى بكشف الشبهات الّذى فرض تدريسه على علماء الحرمين فى بعض الفترات الّتى شهد لها التاريخ، حيث يقول فى حق النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : ۱– «أرسله إلى أُناس يتعبّدون ويحجّون ويتصدقون ويذكرون اللّه كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات بينهم وبين اللّه، يقولون نريد منهم التقرب إلى اللّه، ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة و عيسى و مريم وأُناس غيرهم من الصالحين(۱) . وفى هذه العبارة من المغالطة مالا يخفى، فقد حاول تزييف الحقيقة وقال: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين اللّه، فقد ركز على التوسيط، مع أنهم عبدوهم أولا، واتخذوهم وسائط ثانياً، فالممنوع هو عبادة الغير لا توسيطه، فالشيخ يركز على مجرد الوساطة الّتى ليست ملاكاً لشركهم، ويترك ما هو الملاك لكفرهم، أعنى عبادتهم. وعمل المسلمين على اتخاذ الوسيلة لا على عبادتها . ۲– يقول فى موضع آخر ما نصه: «إنّ التوحيد الّذى جحدوه هو توحيد العبادة، الّذى يسميه المشركون فى زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون اللّه سبحانه ليلا و نهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من اللّه ليشفعوا له، أو يدعو رجلا صالحاً مثل اللات، أو نبياً مثل عيسى(۲) . فتراه كيف يستر الحقيقة فيقول: «ثم منهم من يدعو الملائكة أو يدعو ______________

۱ . كشف الشبهات: ص ۳ .

۲ . محمد بن عبدالوهاب: كشف الشبهات، ص ۴، ط مصر بتصحيح محب الدين الخطيب . (۳۴۸)

رجلا صالحاً فيركز على الدعوة الّتى هى أعم من العبادة، مع أنّ منهم من يعبد الملائكة، أو يعبد رجلا صالحاً، وليس كلّ دعوة عبادة، وإلاّ فلا يوجد فوق البسيطة من يصحّ تسجيل اسمه فى ديوان الموحدين، والرجل لأجل إثبات أنّ المسلمين فى دعوة النبى والصالحين كهؤلاء المشركين فى عبادة الملائكة والصالحين، يركز على كلمة «يدعو» ويترك كلمة «يعبد» فهناك فرق بين الدعوة والعبادة، وليس كل دعوة عبادة، ولا كل عبادة دعوة، بل بينهما من النسب عموم و خصوص من وجه، فلو كانت الدعوة تنبثق من ألوهية المدعو وربوبيته فتتّسم بالعبادة، ولو كان انبثاقها من أنه عبد من عباد اللّه ولكنه عبد عزيز عند اللّه تستجاب دعوته إذا دعا، فلا تكون الدعوة عبادة، بل يدور الأمر بين كونه مفيداً إذا كان مستجاب الدعوة، وغير مفيد، إذا لم يكن كذلك . ۳- يقول أيضاً: «تحققت أنّ رسول اللّه قاتلهم ليكون الدعاء كله للّه، والذبح كله للّه، والنذر كله للّه، والاستغاثة كلها باللّه» . أمّا كون الدعاء كله للّه فإن كان المراد به العبادة فلا غبار عليه، والمسلمون على هذا عن بكرة أبيهم، وإن كان المراد هو القسم الّذى لا يراد به العبادة فليس بمنحصر فى اللّه، وما أكثر دعاء إنسان لإنسان وهذا هو الدعاء ورد فى القرآن الكريم فى غير مورد العبادة. قال سبحانه: (قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيلا وَنَهَاراً)(۱) .

وأمّا النذر فلا شك أنّ المسلمين ينذرون للّه سبحانه، ويذكرون لفظ الجلالة فى إنشاء صيغته الدالة عليه، وقد أسهبنا القول فى ذلك فيما مضى، والشيخ خلط بين اللام للغاية واللام للانتفاع، فلو استعملت فى بعض الموارد لفظة اللام فإنما يراد منه الانتفاع، فلو قيل هذا نذر للنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أو للروضة المباركة، فالمراد هو إهداء ثوابه إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أو انتفاع الروضة به . ________________

۱ . سورة نوح: الآية ۵ . (۳۴۹)

۴- ويقول أيضاً: «إنّ المشركين يقرّون بالربوبية وإن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء» . يؤاخذ عليه أن كفرهم إنما لعبادتهم الملائكة والأنبياء لا لتعلقهم بها إذ ليس مجرد التعلق مع الاعتراف بعبوديتهم وعدم تفويض الأمر إليهم موجباً للتكفير . ۵- ويقول أيضاً: «إنّ الذين قاتلهم رسول اللّه مقرّون بأن أوثانهم لا تدبّر شيئاً وإنما أرادوا منها الجاه والشفاعة»(۱). فترى أنه كيف يقلب الحقيقة، فلم يكن تكفيره لهم لأجل طلب الشفاعة، بل لعبادتهم أولا، ثم طلب الشفاعة منهم ثانياً، قال سبحانه: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُم وَيَقُولُون هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّه)(۲) .

۶- ويقول: «إنّ اللّه كفّر من قصد الأصنام، وكفّر من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول اللّه» . كلاّ، إنّ رسول اللّه كفّر من عبد الصالحين، لا من قصدهم، فمن قصد الصالحين لطلب العلم والمال والدعاء لا يكون كافراً . ۷- ويقول أيضاً ـ وهو يعلّم أتباعه كيف يناظرون المخالف ـ : اقرأ عليه: (ادعوا ربّكم تضرعاً وخفيةً إنه لا يحبّ المعتدين) فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة للّه؟ فلا بد أن يقول نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ثم دعوت تلك الحاجة نبياً أو غيره، هل أشركت فى عبادة اللّه غيره؟ فلابد أن يقول نعم»(۳) . ________________

۱ . نفس المصدر السابق، ص ۶ .

۲ . سورة يونس: الآية ۱۸ .

۳ . نفس المصدر السابق . (۳۵۰)

والمغالطة فى كلامه واضحة، فإنّ الدعاء فى قوله: «ادعوا ربكم» مساوق للعبادة لا بمعنى أن الدعاة بمعنى العبادة، بل معناه أن الدعوة إذا انبثقت من الاعتقاد بالألوهية والربوبية تصير مصداقاً للعبادة، وجزءاً من جزئياته، كما أن المراد من قوله: «والدعاء مخ العبادة» هو أن الدعاء مخ العبادة، أو دعاء من يعتقد أنه ند للّه فى جميع الشؤون أو بعضها مخ العبادة، وأين هو من دعوة الأنبياء والصالحين الذين لا يُدعَوْن إلاّ بعنوان أنهم عباد صالحون لا يعصون اللّه ما أمرهم وهم بأمره يعملون، ولا يملكون شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً إلاّ بإذن اللّه، أفهل تكون الدعوتان متماثلتين حتّى تشتركا فى الحكم؟ وإنك إذا تتبعت كلماته وجمله فى هذا الكتاب يظهر لك

أنه يحاول التضليل من طريق تشبيه توسل المسلمين ودعائهم، بعمل المشركين وعبدة الأوثان، بالتمسك بمشابهات ومشاركات بعيدة، وتناسى ما هو البون الشاسع بين الأُمتين والدعوتين . قال زينى دحلان: كان محمد بن عبدالوهاب يخطب للجمعة فى مسجد الدرعية ويقول فى كل خطبة: ومن توسل بالنبى فقد كفر، وكان أخوه الشيخ سليمان ينكر عليه إنكاراً شديداً، فقال لأخيه يوماً: كم أركان الإسلام يا محمد؟ فقال: خمسة(۱) فقال أنت جعلتها ستة: السادس: من لم يتبعك فليس بمسلم، هذا عندك ركن سادس للإسلام . وقال رجل آخر: كم يعتق اللّه كل ليلة فى رمضان؟ فقال له: يعتق فى كل ليلة مائة ألف، وفى آخر ليلة، يعتق مثل ما أعتق فى الشهر كله، فقال له: لم يبلغ من اتّبعك عشر ما ذكرت، فمن هؤلاء المسلمون الذين يعتقهم اللّه تعالى، وقد حصرت المسلمين فيك وفى من اتّبعك؟ فبهت الّذى كفر . ولما طال النزاع بينه وبين أخيه فخاف على نفسه، فارتحل إلى المدينة المنورة، وألّف رسالة فى الرد على محمد بن عبدالوهاب وأرسلها له، فلم ـــــــــــــــ

۱ . يشير إلى ما رواه البخارى فى كتاب الإيمان . (۳۵۱)

ينته، وألّف كثير من علماء الحنابلة وغيرهم رسائل فى الردّ عليه وأرسلوها إليه، فلم ينته(۱) . ويقول جميل صدقى الزهاوى: كان محمد بن عبدالوهاب يسمى جماعته من أهل بلده، الأنصار ;وكان يسمى متابعيه من الخارج، المهاجرين ;وكان يأمر من حج حجة الإسلام قبل اتّباعه أن يحج ثانياً قائلا إنّ حجتك الأُولى غير مقبولة لأنك حججتها وأنت مشرك، ويقول لمن أراد أن يدخل فى دينه: اشهد على نفسك أنك كنت كافراً، واشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان (يسمى جماعة من أكابر العلماء الماضين) أنهم كانوا كفاراً. فإن شهد بذلك قبله، وكان يصرّح بتكفير الأُمة منذ ستمائة سنة، ويكفّر كل من لا يتبعه وإن كان من أتقى المسلمين، ويسميهم مشركين، ويستحل دماءهم وأموالهم، ويثبت الإيمان لمن اتّبعه . وكان يكره الصلاة على النبى بعد الأذان، وينهى عن ذكرها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنابر، ويعاقب من يفعل ذلك عقاباً شديداً، حتّى أنه قتل رجلا أعمى مؤذناً لم ينته عن الصلاة على النبى بعد الأذان، ويلبس على أتباعه أن ذلك كله محافظة على التوحيد . كان قد أحرق كثيراً من كتب الصلاة على النبى، كدلائل الخيرات وغيرها، وكذلك أحرق كثيراً من كتب الفقه والتفسير والحديث مما هو مخالف لأباطيله(۲) . قال أحمد زينى دحلان: إنّ الوهابيين أرسلوا فى دولة الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ۱۱۶۵ هـ ثلاثين نفراً من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم علماء الحرمين، فناظروهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضى الشرع حجة بكفرهم فأمر بسجنهم، فسجن بعضهم وفرّ الباقون . ثم فى دولة الشريف أحمد المتوفى سنة ۱۱۹۵ هـ أرسل أمير الدرعية بعض ـــــــــــــــ

۱ . السيد أحمد بن زينى دحلان: الدرر السنية فى الرد على الوهابية، ص ۳۹ ـ ۴۰ .

۲ . صدقى الزهاوى: الفجر الصادق، ص ۱۷ ـ ۱۸ . (۳۵۲)

علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم بالحج(۱) . وقال أيضاً: لما منع الناس من زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ خرج ناس من الأحساء وزاروا النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وبلغه خبرهم، فلما رجعوا مرّوا عليه بالدرعية، فأمر بحلق لحاهم، ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء . وبلغه مرة أن جماعة قصدوا الزيارة والحج، وعبروا على الدرعية، فسمعه بعضهم يقول لتابعيه: خلّوا المشركين يسيرون طريق المدينة، والمسلمون (أتباعه) يخلفون معنا(۲) . تكفير المسلمين شعارهم الوحيد

من رجع إلى كتب محمد بن عبد الوهاب وما ألّف فى الفترة المتاخمة إلى عصره يقف على أنهم اتفقوا على تكفير المسلمين قاطبة، سنّيهم وشيعيّهم ولم تكن المحاربة وقتل الأنفس وسفك الدماء فى عصره وما بعده إلاّ على أساس أن غيرهم مشركون، لا حرمة لدمائهم وممتلكاتهم، يجب تويبهم قسراً، وإلاّ فإنه ستهدر دماؤهم، ويشهد على ذلك ما كتبه الآلوسى صاحب تاريخ نجد الّذى له مع السعوديين أُلفة وطيدة حيث يقول بعد التطرق لذكر سعود بن عبد العزيز(۳): إنه قاد الجيوش وأذعنت له صناديد العرب و رؤساؤهم، بيد أنه منع الناس عن الحج، وخرج على السلطان وغالى فى تكفير من خالفهم، وشدّد فى بعض الأحكام، وحمل أكثر الأُمور على ظواهرها، كما غالى الناس فى قدحه، والإنصاف، الطريق الوسطى، لا التشديد الّذى ذهب إليه علماء نجد من تسمية

غاراتهم على المسلمين بالجهاد فى سبيل اللّه، ومنعهم الحج، ولاـ التساهل الّذى عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما(۴) .

---

۱ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب، ص ۱۵ ـ نقلا عن خلاصة الكلام .

۲ . الشيخ أحمد بن زينى دحلان: الدرر السنية، ص ۴۱ .

۳ . سعود بن عبدالعزيز بن محمد وهو حفيد أول من بايع محمد بن عبدالوهاب، وسيتم التعرض لتاريخ حياته .

۴ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب، ص ۹ نقلا عن تاريخ نجد . (۳۵۳)

فهذا الاـعتراف الصريح من موالى الوهابيين يدل على أنهم كانوا فى فترة من الزمن على تكفير المخالفين، وتسمية الغارة على المسلمين جهاداً فى سبيل اللّه . نعم فى الفترة الأخيرة الّتى أخذ فيها أزمّة الحكم فى نجد والحرمين الشريفين عبد العزيز، ثم خلفه أبناؤه من بعده سعود وفيصل وخالد وفهد اليوم، تنازلوا عن تكفير المسلمين علانية، ولاترى هذه التهمة فى صفحات وسائلهم الإعلامية السمعية والبصرية، فتغير موقفهم بالنسبة إلى جميع الطوائف الإسلامية، فيرون الحرمة لبلادهم ودمائهم وممتلكاتهم، إلاّ الشيعة، فهم موقفهم السابق منهم، وخصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران فقد تأججت نار أحقادهم وحميتهم العصبية عليهم، فلا تمر برهة زمنية إلاّ وينتشر كتاب ضد الشيعة بأقلام المأجورين فى مختلف أنحاء العالم، ويبذلون مال اللّه ليصدّوا الناس عن طريقه . سؤال وجواب

إنّ الوهابية امتداد فكرى لما بذره أحمد بن تيمية فى أوائل القرن الثامن وتعتبر حركتهم الهدامة انعكاساً جذرياً لمبادئه الضالة، ويتمخض عن ذلك، سؤال يستثيره نجاح محمد بن عبدالوهاب النسبى فى تطبيق وإقرار مبادىء دعوته، دون مؤسس المنهج أحمد بن تيمية، فقد أخفق فى دعوته، وأخمدت فى بادىء بدئها، وإن كان قد تبعه بعض الناس فلم تكن متابعتهم له عن علم بمبادئه وغاياته . وهذا ابن كثير الشامى التابع لمنهج ابن تيمية يقول: كان الناس يتبركون بجنازته(۱) مع أنّه عنده شرك، والشرك من أعظم الجرائم عند ابن تيمية، فلم تكن متابعة جماعة من الناس له عن إحاطة ودراية، بل مخالفته للحكم السائد فى الشام، وإبعاده منها إلى مصر ثم سجنه، صارت سبباً لاستمالة قلوب الناس ــــــــــــــــ

۱ . البداية والنهاية، ج ۱۴، حوادث عام ۷۲۸ . (۳۵۴)

إليه من دون وعى بمعتقده، وهذا بخلاف محمّد بن عبد الوهاب، فقد تكللت دعوته بالنجاح النسبى، فياترى ما هو السبب؟ . نجيب بكلمة واحدة، إنّ ابن تيمية افتقد الأرضية الكفيلة بإنجاح دعوته لأنّه بثّها بين أوساط علمية، كان فيهم كبار العلماء والفقهاء، فأخمدوا ضوضاءها بالاستدلال والبرهنة، فثاروا فى وجهه ثائرة أخمدت دعوته وأبطلت كيده، وكانت السلطة أيضاً ناصرت العلماء فى مجابهتهم له، فلم يكن لبذرة الفساد نصيب سوى الكمون فى ثنايا الكتب، أو النجاح فى مرضى القلوب . وأمّا ما يرتبط بدعوة محمّد بن عبد الوهاب فقد ساعد على إنجاحها وجود أرضية خصبة مليئة بالأُمية والجهل بمبادىء الإسلام، تضاف إلى ذلك مناصرة سلطة آل سعود وتحالفهم معه فى تطبيق دعوته، على أن يكون التخطيط من الشيخ، والإنجاز من السلطة بالقوة والإغارة والفتك والتخويف . يقول الزهاوى: لمّا رأى ابن عبد الوهاب أنّ قاطبة بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة، لم يزالوا على البساطة والسذاجة فى الفطرة، وقد ساد عليهم الجهل حتّى لم تبق للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج، وجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن تزرع فيه بذور الفساد، مما كانت نفسه تنزع إليه وتمنيه به من قديم الزمان، وهو الحصول على رئاسة عظيمة ينالها باسم الدين - إلى أن قال ـ: فلم يجد للحصول على أُمنيته طريقاً بين أولئك إلاّ أن يدّعى أنّه مجدد فى الدين، مجتهد فى أحكامه ;فحمله هذا الأمر على تكفير جميع طوائف المسلمين، وجعلهم مشركين بل أسوأ حالا وأشدّ كفراً وضلالا، فعمد إلى الآيات القرآنية النازلة فى المشركين فجعلها عامة شاملة لجميع المسلمين، الذين يزورون قبر نبيّهم ويستشفعون به إلى ربّهم(۱) . الرادّون على محمّد بن عبد الوهاب

هذا غيض من فيض من حياة محمّد بن عبدالوهاب المليئة بالإجرام والإفساد والتضليل، وشق عصا المسلمين، فمن أراد التوسع فى

دراسة حياته ـــــــــــــــــــ

۱ . جميل صدقى: الفجر الصادق، ص ۱۴ . (۳۵۵)

وما جرّه على المسلمين من حروب وويلات، فليرجع إلى الكتب المؤلفة حول الوهابية ومؤسسها، وتاريخ نجد والسلطة القبلية الحاكمة فيه منذ عصر محمّد بن عبدالوهاب إلى يومنا هذا . إلاّ أنّ العلماء الواعين فى الحرمين الشريفين فى عصره وما بعده، وفى سائر الأقطار الإسلامية، قد أدوا ما عليهم من وظائف رسالية تجاه هذه الحركة الهدامة، فترى كيف أنّهم قد بذلوا الجهود المضنية فى سبيل ردّ دعوتهم وإثبات بطلانها، وإليك قائمة من الردود المؤلفة فى إبطالها، نأتى بأسمائها وأسماء مؤلّفيها: ۱- «مقدمة شيخه محمّد بن سليمان الكردى الشافعى»الّتى قرّظ بها رسالة أخيه سليمان بن عبدالوهاب، وقع فى نحو ثلاث ورقات، وقد تضمّنت ما يشير إلى ضلاله ومروقه عن الدين، على نحو ما حكى فى ذلك عن شيخه الآخر محمّد حياة السندى، ووالده عبد الوهاب . ۲- «تجريد سيف الجهاد لمدّعى الاجتهاد» لشيخه العلامة عبد اللّه بن عبد اللطيف الشافعى . ۳- «الصواعق والرعود» للعلامة عفيف الدين عبداللّه بن داود الحنبلى . قال العلامة علوى بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقاريظ أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء وغيرهم، تأييداً له وثناء عليه . ثم قال: ولو وقفت عليه قبل هذا ما ألفت كتابى هذا . ولخصه محمّد بن بشير قاضى رأس الخيمة بعجمان . ۴- «تهكّم المقلدين بمن ادّعى تجديد الدين» للعلاّمة المحقق محمّد بن عبدالرحمن ابن عفالق الحنبلى، وقد ترصّد فيه لكل مسألة من المسائل الّتى ابتدعها وردّ عليها بأبلغ رد، وقد ضمّن كتابه هذا ملحقاً يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية، كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها إلى محمد بن عبد الوهاب، منهاشطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «والعاديات» ، (۳۵۶)

وألمح فى ذيلها إلى عجزه عن الجواب عن أدناها فضلا عن أجلّها. ۵- رسالة للعلامة أحمد بن على القبانى البصرى الشافعى، وتقع فى نحو عشر كراريس عقد فصولها كافة للرد على معتقداته وتزييف أباطيله . ۶- رسالة للعلامة عبدالوهاب بن أحمد بركات الشافعى الأحمدى المكى . ۷- «الصارم الهندى فى عنق النجدى» للشيخ عطاء المكى . ۸- رسالة للشيخ عبد اللّه بن عيسى المويسى . ۹- رسالة للشيخ أحمد المصرى الأحسائى . ۱۰- السيوف الصقال فى أعناق من أنكر على الأولياء بعد الانتقال، لأحد علماء بيت المقدس. ۱۱- السيف الباتر لعنق المنكر على الأكابر، للسيد علوى بن أحمد الحداد، طبع فى نحو مائة ورقة . ۱۲- رسالة للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبداللطيف الأحسائى . ۱۳- تحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، للعلامة عبداللّه بن إبراهيم مير غنى الساكن بالطائف . ۱۴- رسالة للشيخ محمد صالح الزمزمى الشافعى، تقع فى نحو عشرين كراساً، حكى السيد علوى بن أحمد الحداد أنّه رآها أمام مقام إبراهيم بمكة . ۱۵- «الانتصار للأولياء الأبرار» للعلامة طاهر سنبل الحنفى، حكى السيد علوى المذكور آنفاً أنّه رآه عند مؤلفه بالطائف . ۱۶- مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً لأكابر علماء المذاهب الأربعة، لا ـ يحصون، من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها. حكى عنها السيد علوى أيضاً وذكر أنّه أتى بها إليه رجل من آل ابن عبد الرزاق الحنابلة، الذين يقطنون الزيارة والبحرين . (۳۵۷)

۱۷- كتاب ضخم يحتوى على جملة من الأسئلة والأجوبة، كلها من علماء أهل المذاهب الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، حدّث به أيضاً السيد المذكور، كلها فى الرد على محمّد بن عبد الوهاب . ۱۸- قصيدة للسيد المنعمى ردّ بها على ابن عبد الوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤسهم، مطلعها: أفى حلق رأس بالسكاكين «الحدّ» * حديث صحيح بالأسانيد عن جدى ۱۹- «مصباح الأنام وجلاء الضلام فى رد شبه البدعى النجدى التى أضل بها العوام» للعلامة السيد علوى بن الحداد المتقدم، طبع سنة ۱۳۲۵ هـ بالمطبعة العامرية، وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه . ۲۰- «الصواعق الإلهية» لأخيه سليمان بن عبدالوهاب «مطبوع» . ۲۱- كتاب لشيخ الإسلام بتونس المحقق إسماعيل التميمى المالكى المتوفى سنة ۱۲۴۸، وهو فى غاية التحقيق والإحكام، نقض فيه رسالة لابن عبدالوهاب طبعت فى تونس . ۲۲- رسالة مسجعة محكمة للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسى، طبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين فى الردّ على الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لابن عبدالوهاب . ۲۳- رسالة للعلامة المحقق السيد داود البغدادى الحنفى، مطبوعة .

۲۴- قصيدة للشيخ غلبون الليبى، ردّ بها على قصيدة الصنعانى الّتى مدح بها ابن عبد الوهاب، تقع فى أربعين بيتاً، مطلعها: سلامى على أهل الإصابة والرشد * وليس على نجد ومن حلَّ فى نجد وهى مذكورة فى سعادة الدارين . ۲۵- قصيدة أخرى للسيد مصطفى المصرى البولاقى، يرد فيها أيضاً على قصيدة الصنعانى الّتى ذكرت فى المصدر السابق، تقع فى مائة وستة وعشرين بيتاً، مطلعها: (۳۵۸)

بحمد ولىِّ الحمد، لا الذم أستبدى * وبالحق لا بالخلق، للحق أستهدى ۲۶- قصيدة ثالثة للسيد الطباطبائى البصرى، يرد فيها على قصيدة الصنعانى، وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر فى إرجاع الصنعانى عن غيه الّذى وقع فيه، حتّى بلغ به الأمر إلى إنشاد قصيدة يعلن فيها توبته مما بدر منه: مستهلها: رجعت عن القول الّذى قلت فى نجدِ * فقد صحّ لى عنه خلاف الّذى عندى ۲۷- «سعادة الدارين فى الرد على الفرقتين ـ الوهابية والظاهرية ـ للعلامة الشيخ إبراهيم السمنودى المنصورى المتوفى فى العقد الثانى من هذا القرن، وقد طبع فى مجلدين . ۲۸- «الدرر السنية فى الرد على الوهابية» لمفتى مكة السيد أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ۱۳۰۴ هـ وهو مطبوع . ۲۹- «شواهد الحق فى التوسل بسيد الخلق» للشيخ يوسف النبهانى. طبع فى مجلد . ۳۰- «الفجر الصادق» لجميل صدقى الزهاوى، مطبوع . ۳۱- «إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبى والولى الصدوق» للشيخ المشرفى المالكى الجزائرى . ۳۲- رسالة فى جواز التوسل، للشيخ المهدى الوازنانى مفتى فاس، ردّ فيها على محمّد بن عبد الوهاب فى منعه ذلك . ۳۳- «غوث العباد (فى) بيان الرشاد» للشيخ مصطفى الحمامى المصرى، مطبوع . ۳۴- «جلال الحق فى كشف أحوال أشرار الخلق» للشيخ إبراهيم الحلبى القادرى الاسكندرى، وهو كتاب جيد طبع فى الاسكندرية سنة ۱۳۵۵ هـ . (۳۵۹)

۳۵- «البراهين الساطعة» للعلامة الشيخ سلامة العزامى المتوفى سنة ۱۳۷۹ هـ . ۳۶- «النقول الشرعية فى الردّ على الوهابية» للشيخ حسن الشطى الحنبلى الدمشقى، مطبوع . ۳۷- رسالة أُخرى له أيضاً فى تأييد مذهب الصوفية والردّ على من ناوأهم، مطبوعة . ۳۸- رسالة فى حكم التوسل بالأنبياء والأولياء، للشيخ محمّد حسنين مخلوف، مطبوعة. ۳۹- «المقالات الوفية فى الردّ على الوهابية» للشيخ حسن قزبك، مطبوعة . ۴۰- «الأقوال المرضية فى الردّ على الوهابية» وهى رسالة صغيرة للشيخ عطا الكسم الدمشقى . والردود على الوهابية أكثر مما ذكر، وقد اكتفينا بهذا العدد المبارك، وفيه غنى وكفاية، وكلّها لأهل السنة والجماعة، وأمّا الشيعة فحدث عنها ولا حرج، وأول من ردّ عليه، الفقيه الشيخ جعفر كاشف الغطاء الأكبر بكتاب أسماه بـ «منهج الرشاد لمن أراد السداد» كتبه ردّاً على الرسالة الّتى بعثها سعود بن عبد العزيز إليه يشرح فيها مواقف الوهابية فى المسائل الراجعة إلى التوحيد والشرك، وقد طبع فى النجف الأشرف عام ۱۳۴۳ هـ ، ثم توإلى النقد من علماء الشيعة بعد تدمير قباب البقيع عام ۱۳۴۴ هـ ، إلى يومنا هذا، ونشير إلى قليل من كثير مما طبع وانتشر باللغة العربية: ۱- الآيات البينات فى قمع البدع والضلالات، للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (۱۲۹۴ ـ ۱۳۷۳ هـ) طبع بالنجف الأشرف ۱۳۴۵ هـ . ۲- الآيات الجلية فى ردّ شبهات الوهابية، للشيخ مرتضى كاشف الغطاء (م ۱۳۴۹ هـ). (۳۶۰)

۳- إزاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة، للشيخ عبد اللّه بن محمد حسن المامقانى (ت ۱۳۵۱ هـ) طبع فى النجف الأشرف مع كتابه مخزن المعانى . ۴- البراهين الجلية فى دفع شبهات الوهابية، للسيد محمد حسن القزوينى الحائرى (ت ۱۳۸۰ هـ) طبع بالنجف (۱۳۴۶ هـ) . ۵- التبرك، للشيخ على الأحمدى الميانجى، طبع فى بيروت . ۶- دعوى الهدى إلى الورع فى الأفعال والفتوى، للشيخ محمد جواد البلاغى (ت ۱۳۵۲ هـ) .طبع فى النجف الأشرف (۱۳۴۴ هـ) . ۷- الرد على الوهابية، للشيخ محمّد على الغروى الأردوبادى، طبع سنة (۱۳۴۵ هـ) . ۸- الرد على الوهابية للسيد حسن الصدر الكاظمى (ت ۱۳۵۴ هـ)، طبع فى بغداد (۱۳۴۴ هـ) . ۹- كشف الارتياب فى أتباع محمد بن عبد الوهاب، للسيد محسن الأمين العاملى (ت ۱۳۷۳ هـ) طبع فى صيدا . ۱۰- المواسم المراسم، للسيد جعفر مرتضى العاملى، يبحث عن مشروعية إقامة مراسم الاحتفال فى الأعياد، أو مظاهر الحزن فى المآتم ـ طبع فى طهران . ۱۱- هذه هى الوهابية، للشيخ محمد جواد مغنية العاملى (ت ۱۴۰۰ هـ) طبع فى بيروت . ۱۲- مع الوهابيين فى خططهم وعقائدهم، لمؤلف هذا الكتاب، طبع فى طهران، عام (۱۴۰۶ هـ) . ۱۳- الوهابية فى الميزان، له أيضاً، طبع فى قم المشرفة عام (۱۴۰۷ هـ) . (۳۶۱)

۱۴- وأخير الردود لا آخرها ـ التوحيد والشرك فى القرآن الكريم، له أيضاً، استعرض فيه الآيات الواردة حولهما بإمعان ودقة، وفند جميع مستمسكات الوهابيين فيه . ولنكتف بهذا المقدار، وإلّا فاردود عليها من الشيعة بألسنة مختلفة كثيرة . * * *

«فاحتفظوا بكتبكم فإنّكم سوف تحتاجون إليها» الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ (۳۶۲)

تاريخ الإمارة القبلية السعودية

الفترة الأُولى

الفترة الأُولى

وقد تصدى للحكم فيها من عام ۱۱۳۷ إلى ۱۲۳۳ الأُمراء التالية أسماؤهم: ۱- محمد بن سعود ۲- عبدالعزيز بن محمد بن سعود ۳- سعود بن عبدالعزيز ۴- عبد اللّه بن سعود . الفترة الثانية ۱۲۴۰ ـ ۱۳۰۹

۵- تركى ابن أخى عبد العزيز ۶- مشارى بن عبدالرَّحمن ۷- فيصل بن تركى ۸- خالد بن سعود ۹- عبداللّه بن ثنيان ۱۰- فيصل بن تركى ۱۱- عبداللّه بن فيصل التركى ۱۲- سعود بن فيصل التركى ۱۳- عبدالرَّحمن بن فيصل . الفترة الثالثة ۱۳۱۹ ـ..

۱۴- عبد العزيز بن عبدالرَّحمن ۱۵- سعود بن عبدالعزيز ۱۶- فيصل بن عبدالعزيز ۱۷- خالد بن عبدالعزيز ۱۸- فهد بن عبدالعزيز . ويعلم اللّه من سيتحكم فى الديار المقدسة بعد هذا الرجل . (۳۶۳) تاريخ الإمارة القبلية السعودية

قد تعرفت على أنّ آل سعود وعلى رأسهم محمّد بن سعود كانوا هم الحماة لدعوة محمّد بن عبد الوهاب، وقد تمخض عنها إبرام اتفاقية بين ابن عبد الوهاب وأمير العائلة السعودية، وهذه الاتفاقية لا تزال باقية إلى يومنا هذا وإن تبدلت بأشكال مختلفة، غير أن الوقوف على كيفية توسع نطاق دعوة ابن عبد الوهاب يتوقف على دراسة تاريخ حياة هذه القبيلة بعد هذه الاتفاقية، كيف أنّهم سلّوا سيوفهم فى طريق نشرها إلى حدّ خضبوا وجه الأرض بإراقة دماء الصالحين والمؤمنين، وقتل الأطفال فى حجور أُمهاتهم، وتدمير الأبنية، وإحراق الأشجار والنخيل، إلى غير ذلك ممّا يكلّ البيان عن وصفه والقلم عن الإحاطة به، والقارىء إذا استطلع ما سنذكره مؤيداً بمصادر موثقة، يقف على أنّه لم تكن هناك رسالة دينية ولا إنسانية، بل كانت الدعوة الوهابية واجهة وغطاء لما تربّوا عليه وألفوه فى حياتهم القبلية من النهب والغارة والقتل والسفك، وتوسيع نطاق السلطة، إلى غير ذلك مما كانوا يمارسونه قبل قبول الدعوة الوهابية، الّتى تركز بزعمهم على رفض الشرك وزيادة رقة الموحدين، وكانت فكرةً اغترّ بها البسطاء وانطلت على عقولهم الساذجة، لأنّهم كانوا يعيشون فى واحات الصحارى منقطعين عن الأُمم المتحضرة، فلأجل ذلك تمكنت الدعوة الوهابية من النفوذ إلى أذهانهم بيسر وسهولة، فصار البدو أداة طيعة بيد الأمير وصاحب الدعوة، فأشاعا الفساد بما أوتيا من قوة. إنّ تاريخ العائلة السعودية حسبما يذكره المؤرخون تتلخص فى فترات ثلاث: الفترة الأُولى: وهى تبتدىء من عام ۱۱۳۷ هـ إلى ۱۲۳۳ هـ . الفترة الثانية: تبتدىء من عام ۱۲۴۰ هـ إلى ۱۳۰۹ هـ . الفترة الثالثة: تبتدىء من عام ۱۳۱۹ هـ إلى عصرنا هذا . (۳۶۴)

الفترة الأولى لحياة العائلة

الفترة الأولى لحياة العائلة

۱- إمارة محمد بن سعود: (۱۱۳۷ هـ ـ ۱۱۷۹ هـ) . إنّ محمد بن سعود هو أول من صافح محمد بن عبد الوهاب و كان معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة فى العام الآنف الذكر، وقد حصل صدام بينه وبين عثمان بن معمر شيخ «العيينة»، وقد خشى عثمان من امتداد السلطة السعودية فعقد حلفاً مع «ثرمدة» و «ابن سويط» شيخ الظفير، ولكنه باء بالفشل واغتيل على يد الوهابيين عند خروجه من المسجد، فانضمت «العيينة» بعد ذلك إلى الحكم السعودى، وقد آل معمر دورهم السياسى فى نجد(۱) . يقول زينى دحلان: «كان

ابتداء ظهوره أمره (ابن عبد الوهاب) فى الشرق سنة ۱۱۴۳ هـ، واشتهر أمره بعد الخمسين وألف ومئة بنجد وقراها، فتبعه وقام بنصرته أمير الدرعية محمد بن سعود، وجعل ذلک وسيلة إلى اتساع ملکه ونفاذ أمره، فأحمل أهل «الدرعية» على متابعة محمد بن عبدالوهاب فيما يقول، فتبعه أهل «الدرعية» وما حولها، ومازال يطيعه على ذلک کثير من أحياء العرب، حى بعد حى، وقبيلة بعد قبيلة، حتّى قوى امره فخافته البادية، فکان يقول لهم إنما أدعوکم إلى التوحيد، وترک الشرک باللّه، ويزين لهم القول وهم بَواد فى غاية الجهل لا يعرفون شيئاً من أُمور الدين، فاستحسنوا ما جاءهم به، وکان يقول لهم إنّى أدعوکم إلى الدين، وجميع من هو تحت السبع الطباق مشرک على الإطلاق ومن قتل مشرکاً فله الجنة، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة، وکان محمد بن عبدالوهاب بينهم کالنبى فى أمته، لا يترکون شيئاً مما يقول، والذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا الأمير محمد بن سعود الخمس، واقتسموا الباقى، وکانوا يمشون حينما مشى، ويأتمرون له بما شاء، والأمير محمد بن سعود ينفذ کل ما يقول، حتّى اتسع له الملک .

---

۱ . أبو عليه، عبدالفتاح: محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية، ص ۱۶ . (۳۶۵) البعثة الوهابية إلى مکة

تولى ولاية مکة الشريف مسعود من عام ۱۱۴۶ إلى عام وفاته ۱۱۶۵ هـ ، وقد أرسل محمد بن سعود عندما استحفل أمر محمد بن عبدالوهاب ثلاثين عالماً إلى مکة يستأذنونه فى الحج، ولکن کان هدفهم هو الدعوة إلى الوهابية ونشرها فى أوساط أهل الحرمين، وقد کان أهلهما قد سمعوا بظهورهم فى نجد وإفسادهم عقائد البوادى، ولم يعرفوا حقيقتهم بعد عن کثب، فلما وصلت بعثته أمر الشريف مسعود أن يناظرهم علماء الحرمين، فإذا بهم فوجئوا بعقائد غريبة، فأقاموا عليهم الحجة والبرهان، فقبض على جماعة منهم، بينما فرّ بجلدته البعض الآخر(۱) . الصدام مع حاکم الرياض

کان دهام بن دواس حاکماً على الرياض، وکان من ألد الأعداء للدعوة الوهابية، وقد دامت الحروب بين الرياض والدرعية زهاء سبعة وعشرين عاماً على الرغم من قرب المسافة بينهما، وکانت سجالا، فلم تمرّ سنة إلاّ وقعت فيها غزوة بين البلدين، وفى إحدى هذه الهجمات قتل ولدا محمد بن سعود، أعنى فيصلا وسعوداً(۲) . وظل أمير الرياض المنافس الرئيسى لمحمد بن سعود، وکانت الغزوات بين الدرعية والرياض تدور رحاها کل عام تقريباً . ففى عام ۱۱۷۸ هـ اتفق أبناء «يام» من أهالى نجران وقبيلتى العجمان و «بنى خالد» وتحالفوا على سحق محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب . فقد تحالف بنو يام على أن يسيروا من نجران بقيادة السيد حسن بن هبة اللّه، وأن يسير بنو خالد والعجمان من الأحساء بقيادة حاکمها آنذاک باسم الخالدى، وتواعد الجميع على الزحف على الدرعية، فصارت جموع من ---

۱ . الدرر السنية، ص ۴۳ ـ بتصرف .

۲ . أبو علية، عبدالفتاح: محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى، ص ۱۹ ـ ۲۰ . (۳۶۶)

نجران والأحساء، ولکن قائد نجران قد وصل إلى ضواحى «الدرعية» قبل وصول العجمان وبنى خالد، وبوحدتهم تمکنوا من سحق الجند السعودى واختفى محمد بن سعود، وکاد ينتهى أظلم حکم دخيل عرفته شبه الجزيرة العربية على أيدى أهالى نجران الأبطال، لو لم يلجأ محمد بن عبدالوهاب إلى المکر والخداع، فقد رفع راية الصلح على أن يقف أهالى نجران عند حدهم ويمتنعوا من دخول «الدرعية»، وأنّ يسلّموا ما تحت أيديهم من الأسرى السعوديين، ويتعهد کل من محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود بدفع عشرة آلاف جنيه ذهب کتعويض لأهالى نجران عن رحتلهم هذه، وأن لا يتعدى محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب حدود «الدرعية»، وبهذا شهد محمد بن عبدالوهاب ببطلان دعوته أمام أهالى نجران . ولما وصلت قوات الخالدى المسلحة بالمدافع إلى ضواحى «الدرعية»، وکان قد انضمّ إليها الکثير من النجديين فوجئوا بهذا الصلح، والقبوله تمشياً مع ما اتّخذه أبناء عمهم من أبناء نجران، ولم يکن سبب فشلها الاّ التصرفات الفردية للشيخ حسن بن هبة اللّه، وإلاّ لقضى على الوجود السعودى فى ذلک الوقت، وقد کان عنف الهجوم وإيجاد الرعب على حد أُصيب محمد بن سعود بإسهال، ومرض مرضاً شديدياً من جزاء ما انتابه من رعب شديد حينما شاهد

أنّ أبناء یام یحاصرون «الدرعیة»، بعد سحقهم للجند السعودی، وقد تسبب ذلک هلاک محمد بن سعود من جراء المرض الّذی أصابه من ذلک الحادث، ومات عام ۱۱۷۹ هـ (۱) . * * * ۲- عبدالعزیز بن محمد بن سعود (۱۱۷۹ ـ ۱۲۱۸ هـ)

اختار محمّـد بن سعود ولده عبدالعزیز ولیّاً للعهد من بعده، باقتراح من محمد بن عبدالوهاب، فکان أول أمیر یبایع بولایة العهد من السعودیین، ومنذ ذلک الحین أصبحت الإمارة تنتقل بالمبایعة بولایة العهد، تماماً کما فعل ـــــــــــــــــــــــ

۱ . ناصر السعید: تاریخ آل سعود، ص ۳۰ . (۳۶۷)

معاویة مع ولده یزید، وهذه واحدة من بدع الشیخ محمد بن عبدالوهاب، وقد تزوج عبدالعزیز ابنة محمد بن عبدالوهاب، وامتزج النسب بعضه ببعض أکثر من ذی قبل(۱) . ولم تکن سیرة عبدالعزیز خیراً من سیرة أبیه بل شرّاً منه، وقد نجمت فی عهده حروب دامیة سفکت فیها دماء الأبریاء بما یتجاوز حد الوصف، وإن کنت فی شک مما نقول فعلیک بقراءة ما أسجله لک من وثائق موثقة: احتلال الأحساء عام ۱۲۰۷ هـ

تشکل الأحساء وسواحلها وموانئها جزءاً من البلاد المطلة علی الخلیج، والّتی یتنازع علیها العثمانیون وولاة العراق ومصر. کانت الأحساء فی القرن الثانی عشر (۱۱۰۰ ـ ۱۲۰۰) تخضع لنفوذ قبائل بنی خالد، وهی قبائل نجدیة کبیرة منتشرة علی شاطیء الخلیج تحت حکم شیخهم محمد آل حمید، الّذی أنذر عثمان بن معمر شیخ العیینة بطرد محمد بن عبد الوهاب من قریته، لما أساءت تعالیمه إلی القری المجاورة، وکان ذلک من أسباب العداء بین بنی خالد وآل سعود، بالإضافة إلی رغبة هؤلاء فی التوسع، وأدی ذلک إلی سقوط الأحساء فی ید الوهابیین عام ۱۷۸۵ م «حوالی ۱۲۰۷ هـ» . وفی خریف ۱۷۰۳ م «حوالی ۱۲۱۵ هـ» توجه سعود بن عبدالعزیز مع قوات کبیرة إلی الأحساء، ونهبت قواته البدویة کل ما صادفته فی طریقها، وقتلت دون رحمة کل من أبدی مقاومة، ودمرت بساتین النخیل واستأثرت بمحاصیل التمور، ورعت الماشیة فی الحقول، وأعربت الأحساء کلها عن خضوعها لهم، وعیّن براک بن عبدالمحسن أمیراً للأحساء(۲) ولکنه حاول فی ربیع ۱۷۹۶ م أن یتخلص من سلطة الوهابیین، ولکنه اطّلع علیه سعود بن عبدالعزیز

---

۱ . المصدرالسابق، ص ۳۰ .

۲ . ابن غنام: تاریخ نجد، ج ۲ ص ۱۵۸ ـ ۱۶۶ . (۳۶۸)

فجاء بجیش قوی إلی الأحساء وقمع الحرکة فیها من جدید(۱) . یقول ابن بشر فی کیفیة إخضاع الأحساء: فلما أصبح الإصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح، فلما استووا علی ظهور رکائبهم وقربوا من الأحساء، أطلقوا رصاص بنادقهم دفعة واحدة، فاسقط الکثیر من النساء الحوامل ما فی بطونهم لهول الموقف، فاحتلها، ثم نزل سعود فأمرهم بالخروج إلیه، فخرج فأقام هناک مدة أشهر یقتل من أراد قتله، یجلی من أراد إجلاءه، ویحبس من أراد حبسه، ویأخذ من الأموال، یهدم من المحالّ، ویبنی ثغوراً ویهدم دوراً، وضرب علیهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم، وذلک لما تکرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمین وأکثر فیها القتل (إلی أن یقول) فلما أراد ابن سعود الرحیل من الأحساء أمسک عدة رجال من رؤساء أهلها... فاستقدمهم إلی «الدرعیة» وأسکنهم فیها، واستعمل فی الأحساء أمیراً باسم (ناجم) وهو رجل منهم(۲) . تدمیر کربلاء والتصفیة الجسدیة

وفی سنة ۱۲۱۶ هـ جهز سعود بن عبد العزیز بن محمد جیشاً جراراً من أعراب نجد، وغزا به العراق، وحاصر کربلاء ثم دخلها عنوة، وأعمل فی أهلها السیف، ولم ینج منهم إلاّ من فرّ هارباً، أو اختفی فی مخبأ من حطب ونحوه فلم یعثروا علیه، وهدم قبر الحسین ـ علیه السَّلام ـ واقتلع الشباک الموضوع علی القبر الشریف، ونهب جمیع ما فی خزانة المشهد، ولم یرع لرسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ولا لذریته أدنی حرمة، وجدد بجریمته النکراء مأساة واقعة کربلاء ویوم الحرة، وجرائم بنی أُمیة وبنی العباس . ویتناول کوران سیز وصف تلک الواقعة بقوله: وقد جرت العادة أن یحتفل الشیعة کل عام بعید الغدیر فی یوم الغدیر فی ـــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن غنام: تاریخ نجد: ج ۲ ص ۱۷۴ ـ ۱۷۵ .

۲ . نفس المصدر: ج ۲، ص ۱۷۴ – ۱۷۵ ـ ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱، ص ۱۰۵ ـ ۱۰۶ . (۳۶۹)

النجف الأشرف، فخرج أهالی کربلاء من بلدتهم، فانتهز الوهابیون فرصة غیابهم عن البلدة واقتحموها، وهم حوالی اثنی عشر ألف جندی، ولم یکن فی البلدة إلّا عدد قلیل من الرجال المستضعفین، قتلهم الوهابیون ولم یبقوا أحداً منهم حیّاً، ویقدر عدد الضحایا خلال یوم واحد بثلاثة آلاف، وأمّا السلب فکان فوق الوصف، ویقال إنّ مائتی بعیر حملت فوق طاقاتها بالمنهوبات الثمینة، فقد استولی الوهابیون علی کل الکنوز والأموال، وجردوا القبة من صفائح النحاس المطلیة بالذهب(۱) . وقال «فیلبی» فی تاریخ نجد: اقتحم سعود بجیش أبیه کربلاء، وبعد حصار قصیر أعمل السیف فی رقاب أهلها، ودمر ضریح الحسین ـ علیه السَّلام ـ ، ونهب المجوهرات الّتی کانت تغطی الضریح، وجمع کل شیء ذا قیمة فی المدینة... والحق أن یقال إنّ عمله هذا هزّ العالم کله، فضلا عن الشیعة، فقد کان منعطفاً تاریخیاً للثورة علی الوهابیین، کما أدّی فیما بعد إلی عواقب وخیمة علی سلطة هذه الإمارة الضالة(۲) . ویقول العلاّمة السید جواد العاملی مؤلف مفتاح الکرامة: «... فأغار سعود بن عبدالعزیز فی سنة ۱۲۱۶ هـ علی مشهد الحسین ـ علیه السَّلام ـ وقتل الرجال والأطفال، وأخذ الأموال، وعاث بالحضرة المقدسة، وخرب بنیانها وهدم أرکانها، ثم إنّه بعد ذلک استولی علی مکة المکرمة والمدینة المنورة، وفعل بالبقیع ما فعل، ولم یستثن من ذلک إلّا قبر النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ »(۳) . ـــــــــــــــــــــــ

۱ . الدکتور منیر العجلانی: تاریخ البلاد العربیة، ص ۱۲۶ ـ ۱۲۷ . ۲ . فیلبی: تاریخ نجد، ص ۹۹ .

وهذا الکاتب، أعنی فیلبی کان رجلا إنکلیزیاً باسم «سنت جون فیلبی» فقد أظهر الإسلام وأقام مدة مدیدة فی نجد، وکان له علاقة وطیدة مع السعودیین ثم توترت علاقته معهم بسبب تسجیله هذه الحوادث التاریخیة المریرة الّتی أصبحت وصمة عار فی جبین الأسرة السعودیة إلی الأبد .

۳ . العاملی، السید جواد: مفتاح الکرامة، ج ۵ ص ۵۱۲ . (۳۷۰)

کان تدمیر کربلاء أفدح هزیمة منی بها سلیمان باشا والی بغداد، مما زاد فی تدهور وضع الوالی . احتلال الطائف عام ۱۲۱۷ هـ

قال الجبرتی: فی أواخر سنة ۱۲۱۷ هـ أغار الوهابیون علی الحجاز، فلما قاربوا الطائف خرج إلیهم الشریف غالب فهزموه، فرجع إلی الطائف وأحرقت داره وهرب إلی مکة، فحاربوا الطائف ثلاثة أیام حتّی دخلوها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم فی من یحاربهم، وهدموا قبة ابن عباس فی الطائف(۱) . یقول زینی دحلان: فدخلوا البلد عنوة فی ذی القعدة سنة ۱۲۱۷ هـ فقتلوا الناس قتلا عاماً حتّی الأطفال، وکانوا یذبحون الطفل الرضیع علی صدر اُمه، وکان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلک هاربین، فأدرکتهم الخیل وقتلت أکثرهم، وفتشوا علی من تواری فی البیوت وقتلوه، وقتلوا من فی المساجد ـ إلی أن قال ـ : وصارت الأعراب تدخل کل یوم إلی الطائف وتنقل المنهوبات إلی الخارج حتّی صارت کأمثال الجبال، فأعطوا خمسها للأمیر واقتسموا الباقی، ونشروا المصاحف وکتب الحدیث والفقه والنحو فی الأزقة، وأخبروا أن الأموال مدفونة فی المخابیء فحفروا فی موضع فوجدوا فیه مالا، وعندها حفروا جمیع بیوت البلد حتّی بیوت الخلاء والبالوعات . استیلاء الوهابیین علی مکة فی سنة ۱۲۱۸ هـ

عزم الوهابیون فی سنة ۱۲۱۷ هـ علی الاستیلاء علی مکة المکرمة وإخضاعها لسیطرتهم ونفوذهم، فأعدّوا العدة وحشدوا الحشود المکثفة لذلک فی أول الأشهر الحرم، فشاع خبرهم فی الآفاق وبلغ مسامع الناس وهم فی موسم الحج، وقد کان ممن حج فی ذلک العام، إمام مسقط: سلطان بن سعید ونقباء وأمراء حجیج مصر والشام وغیرهما، فاستنجد بهم الشریف غالب ـــــــــــــــــــــــ

۱ . غالب محمد أدیب: أخبار الحجاز ونجد فی تاریخ الجبرتی، ص ۹۳ . (۳۷۱)

أمیر مکة فأبوا علیه، ودعاهم إلی الجهاد ضد الوهابیة بعد انقضاء مناسک الحج فأعرضوا عنه، وتعللوا بعلل واهیة، وأکثر الإلحاح علیهم فلم یجد فیهم اُذناً صاغیة، فاضطرّ إلی الجلاء عن مکة برفقة أتباعه وخزائنه وذخائره، وکثیر من أهالی مکة إلی مدینة جدة، للأمن من غائلة سطوة الوهابیین . ووصل ابن سعود بقواته مشارف مکة المکرمة یومة العاشر من المحرم، فدخلها من دون مقاومة تذکر، ففعل بها وبأهلها ما فعله جنده بأهل الطائف(۱) . وفرض ابن سعود علی علمائها تلقّی أفکار ابن عبد الوهاب ومدارسة کتبه،

كما منع مسلمى الآفاق من أداء الحج والعمرة، فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل إليهم من الصدقات، أو أسباب التجارة الّتى كانوا يتعيشون منها(٢) . وبعد استيلائهم على مكة، قدمت جموع غفيرة من نجد من الوهابيين، فتوجهت حشودهم بتخطيط مسبق إلى الأضرحة والمزارات ذات القباب الّتى شيدت لتكريم شخصيات صدر الإسلام فهدموها، وكذا فعلوا بدار مولد النبىّ وقبّة السيدة خديجة وقبة زمزم(٣)، فما مضت عليهم إلاّ ـ ثلاثة أيام حتّى محوا جميع آثار صدر الإسلام ومعالمه، وآثار الصالحين، فأزالوها عن بكرة أبيها(۴) . طرد الوهابيين من مكة المكرمة

كانت الوهابية مسيطرة على الحرم الشريف على نحو ما مرّ ذكره، فدفعت جرائمهم الّتى ارتكبوها بمكة الشريف غالب إلى تصميمه على تجديد العهد بها لتطهيرها من دنس الوهابيين، فسار برفقة الشريف باشا حاكم جدة ـــــــــــــــــــــ

١ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۴ ـ تاريخ الجبرتى، ص ٩٣ .

٢ . أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى، ص ٩٣ .

٣ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ١ ص ١٢٢ .

۴ . تاريخ الجبرتى، ص ١١٨ بتصرف . (٣٧٢)

وكثير من العسكر والعبيد، وتمكنوا من اقتحام متاريس الوهابيين المحيطة بها، فدخلوها وأحكموا السيطرة عليها، بعد أن طردوا منها كل ما تبقى من شراذم الوهابيين. ثم أخذ الشريف غالب يحارب كل من كان يوالى الوهابيين ممن جاور مكة من القبائل بالغارة عليهم، حتّى تمكن من استئصالهم والقضاء على تبعيتهم وعمالتهم لهم. هذا غيض من فيض من جرائم عبدالعزيز بن محمّد آل سعود، وهذه كلها حروب وفتن، وتدمير وتخريب وضحايا، ونهب وسلب وهتك للمقدسات الدينية، وغارات متصلة ليل نهار على المسلمين الآمنين . وظلّ على هذه السيرة إلى عام ١٢١٨ هـ حتّى اغتاله رجل. قال جبران شامية الكاتب الوهابى: وانتقم الشيعة من غزوة كربلاء بعد سنتين باغتيال الإمام عبد العزيز وهو يصلّى فى المسجد عام ١٢١٨ هـ وقال فيلبى: لقد تنكّر القاتل بزى «درويش» وذهب إلى «الدرعية» وبقى فيها أياماً يصلّى خلف عبد العزيز، وفى ذات يوم ألقى بنفسه على عبد العزيز وهو يصلّى، وطعنه بمدية فى ظهره اخترقت به إلى بطنه، وعجلت به إلى مقره الأخير، وتكاثر الناس على القاتل وقتلوه(١) . وقال ابن بشر: كان مقتل أمير الدرعية عبدالعزيز ضربة جديدة للوهابيين، ففى خريف عام ١٨٠٣ م قتل فى مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردى من إحدى قرى الموصل، وكان هذا الدرويش قد حلّ ضيفاً على البلاط، وعندما سجد عبدالعزيز أثناء الصلاة هجم هذا الدرويش الّذى كان فى الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنة من خنجر، ثم جرح أخاه عبداللّه، وتفيد بعض المعلومات أن قاتل عبد العزيز شيعى هلك كل أفراد عائلته اثناء غزو كربلاء(٢) . ـــــــــــــــــــــ

١ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۴ .

٢ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۵۴ . (٣٧٣)

وبذلك طويت صفحات حياته السوداء، وقد اقتصرنا فى التعرض لتاريخ حياته على ما هو الجدير بالذكر منها، وإلاّ فقد قال أحمد بن زينى دحلان: إنّ الشريف غالباً (أمير مكة) غزا الوهابيين ما ينوف عن خمسين غزوة، من سنة ١٢٠۵ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ وكانت أكثر هذه الحروب أيام سلطة عبد العزيز آل سعود، ومن اراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «خلاصة الكلام فى أُمراء البلد الحرام» وكتاب «كشف الارتياب» للسيد الأمين، وقد ذكر الأخير نبذاً من هذه الحروب . * * * ٣- سعود بن عبدالعزيز (١٢١٨ ـ ١٢٢٩ هـ)

استولى سعود على السلطة فى الإمارة القبلية السعودية بعد وفاة والده، وكان أول عمل قام به غزو بلدتى الزبير والبصرة، وأعمل فيهما القتل والسلب وهدم قبرى طلحة والزبير، وتوسعت رقعة النفوذ السعودى فى عهده إلى أوجها، فقد كثف الغزوات والغارات بقصد الاحتلال والسلب والنهب، بشكل رهيب لم يكن له سابقاً فى تاريخ دويلتهم، وقد تمخّض عن تلك الأغراض التوسعية ضم جميع نواحى نجد والأحساء وسواحل البحر الأحمر إلى نفوذهم، واستمر حكمه أحد عشر عاماً(١) . وإليك بعض حروبه وغاراته على جدة،

والحرمين الشريفين على وجه الاختصار: محاصرة الوهابيين جدة ۱۲۱۹ هـ

ثم دخلت سنة ۱۲۱۹ هـ فاقبلت جيوش الوهابيين وعلى رأسها ابن شكبان والمضايفى باثنى عشر ألف مقاتل لحصار جدة، فأراد الشريف غالب تحصين مكة لعلمه بعدم قدرتهم على جدة، فنادى بالنفير العام، فخرج الناس على طبقاتهم إلى «الزاهر» حاملين السلاح، وبقوا هناك سبع ليال . ______________

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم ص ۶۲ ـ ۶۳ بتصرف . (۳۷۴)

أمّا الذين حاصروا جدة فبقوا ثلاثة أيام يحملون عليها حملة واحدة، فيفرقهم المدفع ويقتل منهم فينهزمون إلى خيامهم، حتّى قتل الكثيرون منهم وامتلأت الحفر والقنوات من جيفهم، وكانوا يدفنون العشرة فى محل واحد، فلما رأوا ذلك ارتحلوا، وقتلوا فى طريقهم حيّاً من الأعراب، وأخذوا إبلا للشريف غالب، فجهز الشريف جيشاً بقيادة الشريف حسين للانتقام منهم، فهجموا عليهم فى منطقة تسمى «الليث» فغلبوهم، وقتل كثير من الوهابيين فى تلك الملحمة، واستهشد الشريف حسين، فعاود الشريف غالب إرسال الجند والكتائب عليهم حتّى يترصدوا لهم كل موضع، فهزموهم هزائم ساحقة، واقتطعوا الكثير من رؤوسهم، وعلقت على أبواب مكة للعبرة(۱) . محاصرة مكة والمدينة سنة ۱۲۲۰ هـ ثانياً

يقول زينى دحلان: ودخلوا مكة فى أواخر ذى القعدة سنة ۱۲۲۰ هـ وتملكوا المدينة المنورة، على ساكنها أفضل السلام، وانتهبوا الحجرة (النبوية) وأخذوا ما فيها من الأموال، وفعلوا أفعالا ـ شنيعة، وجعلوا على المدينة أميراً منهم يدعى «مبارك مزيان» واستمر حكمهم سبع سنين ومنعوا دخول الحاج الشامى والمصرى مع المحامل مكة، وصاروا يصنعون للكعبة ثوباً من العباء، وأكرهوا الناس على الدخول فى دينهم، وهدموا القباب الّتى على قبور الأولياء، وكانت الدولة العثمانية فى تلك السنة فى ارتباك كثير وشدّة قتال مع النصارى، وفى اختلاف فى خلع السلاطين وقتلهم(۲) . وقال الكاتب جبران شامية: إنّ سعود بن عبد العزيز حاصر المدينة المنورة وفعل بها ما فعله بالطائف ومكة(۳) . وقال السيد جواد العاملى: فى سنة ۱۲۲۱ هـ فى الليلة التاسعة من شهر ______________

۱ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۲۵ ـ ۲۶ .

۲ . زينى دحلان: فتنة الوهابية ص ۷۲، تاريخ الجبرتى ص ۱۱۶ ـ ۱۱۸ .

۳ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۵ نقلا عن خطط الشام . (۳۷۵)

صفر قبل الصبح بساعة، هجم علينا بالنجف الأشرف ونحن فى غفلة، حتّى بعض أصحابه صعدوا السور وكادوا يأخذون البلد، فظهرت لأميرالمؤمنين الكرامات الباهرة، فقتل من جيشه الكثير، ورجع خائباً، وله الحمد على كل حال(۱) . وقال أيضاً: جاء سعود بن عبدالعزيز عام ۱۲۲۳ هـ فى شهر جمادى الآخرة من نجد بما يقرب من عشرين ألف مقاتل، أو أزيد، فجاءتنا النذر بأنّه يريد أن يدهمنا فى النجف الأشرف غفلة، فتحذرنا منه، وخرجنا جميعاً إلى سور البلد، فأتانا ليلا فرآنا على حذر قد أحطنا بالسور بالبنادق والأطواب، فمضى إلى الحلة فرآهم كذلك، ثم مضى إلى مشهد الحسين على حين غفلة نهاراً، فحاصرهم حصاراً شديداً فثبتوا له خلف السور، وقتل منهم وقتلوا منه، ورجع خائباً، ثم عاث فى العراق فقتل من قتل، وبقينا مدة تاركين البحث والنظر على خوف ووجل، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلى العظيم، وقد استولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعطل الحج سنين وما ندرى ما يكون(۲) . ويظهر من غير واحد من المؤرخين أنّ الحج انقطع من العراق أربع سنين، ومن الشام ثلاث سنين، ومن مصر سنتين، ولا يعلم هل انقطع بعد ذلك أو لا. غزو الوهابيين لبلاد الشام

وقد غزا سعود منطقتى عسير وتهامة، ثم انسحب منهما وغزا كربلاء مرة ثانية عام ۱۲۲۳ هـ ، فاستعصت عليه لأنّ أهلها حصنوها بعد الغزوة الأُولى، ثم هاجم البصرة والزبير وغنم بعض الأموال(۳) . وفى هذه السنة هجم ولد عبداللّه بن سعود على بلاد حوران فنهب

____

۱ . العاملى ـ السيد جواد: مفتاح الكرامة، ج ۵ ص ۵۱۲ .

۲ . نفس المصدر ج ۶ ص ۴۳۵ .

۳ . جبران شامیة: آل سعود ماضیهم ومستقبلهم ص ۶۵ . (۳۷۶)

الأموال، وأحرق الغلال، وقتل الأنفس البریئة، وسبی النساء وقتل الأطفال، وهدم المنازل وعاث فی الأرض فساداً(۱) . ویقول صلاح الدین المختار، وهو من المعجبین بآل سعود: فی السادس من ربیع الثانی عام ۱۲۲۵ هـ (۱۸۰۹ م) سار الأمیر سعود بثمانیة آلاف مقاتل إلی الدیار الشامیة، وقد بلغه أن عشائر سوریا من عنزة وبنی صخر وغیرهما قد نزلوا فی نقرة الشام، فلما وصلها لم یجد فیها أحداً، فتوجه بقواته إلی «حوران» وهاجم القری والدساکر وبصری، واستولی علی ما عثر علیه من مال ومتاع وطعام، وکان أهلها قد هربوا إلی مختلف النواحی عند ما سمعوا بقدومه، ثم هاجم الأمیر قصر المزریب فاستعصی علیه، وارتحل إلی بصری لیلا ومنها قفل عائداً إلی بلده ومعه غنائم کثیرة. وقال السید جواد العاملی: وفی سنة ۱۲۲۵ هـ قد أحاطت الأعراب من عنیزة القائلین بمقالة الوهابی بالنجف الأشرف ومشهد الحسین ـ علیه السَّلام ـ وقد قطعوا الطرق ونهبوا زوار الحسین ـ علیه السَّلام ـ بعد منصرفهم من زیارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جمعاً غفیراً، وأکثر القتلی من العجم، وربما قیل إنّهم مائة وخمسون، وقیل اقل، وبقی جملة من زوّار العرب فی الحلّة ما قدروا أن یأتوا إلی النجف، فبعضهم صام فی الحلّة، وبعضهم مضی إلی الحسکة، ونحن الآن کأنّا فی حصار، والأعراب إلی الآن ما انصرفوا وهم من الکوفة إلی مشهد الحسین بفرسخین أو أکثر(۲) . وقد بلغ تعصب الوهابیین إلی حدّ حملهم علی قطع العلاقات التجاریة مع غیرهم، وکانت التجارة إلی عام ۱۲۶۹ هـ مع الشام والعراق محرمة(۳) . وکانوا إذا وجدوا تاجراً فی طریق یحمل متاعاً إلی المشرکین صادروا ماله(۴) . ________________

۱ . الشهابی: لمع الشهاب، ص ۲۰۱ .

۲ . مفتاح الکرامة .

۳ . فاسیلیف: تاریخ العربیة السعودیة، ص ۱۰۵ .

۴ . ابن بشر: عنوان المجد فی تاریخ نجد، ج ۱، ص ۱۲۲ . (۳۷۷)

وفی سنة ۱۲۲۶ هـ أرسل محمد علی باشا، والی مصر ولده طوسون لتحریر الحجاز من الوهابیین، فصدوه فی الکرّة الأُولی، وتغلّب علیهم فی الثانیة، واستولی علی مکة والمدینة، وحاول أن یفتح نجداً، فلم یستطع. یقول ابن بشر: «وصلت النجدات المصریة عام ۱۲۲۷ هـ فزحف طوسون علی المدینة، وانضم إلیه کثیر من عرب جهینة وحرب، فحاصرها وقطع عنها المیاه، وکان فیها سبعة آلاف من أهل نجد، فدخل المصریون البلد، وقتل من النجدیین نحو أربعة آلاف(۱) . ثم تابع طوسون حتّی دخل مکة والطائف بمساعدة الشریف غالب من دون قتال عام ۱۲۲۹ هـ (۱۸۸۳ م) . وفی سنة ۱۲۲۸ هـ حج محمد علی باشا وعزل الشریف غالباً وأرسله منفیاً إلی سلانیک، وعیّن مکانه الشریف محمّد بن عون، فانتقلت الإمارة من فرع إلی آخر من أُسرة الأشراف، ومحمد بن عون هو جدّ الشریف حسین أبی فیصل ملک العراق وعبد اللّه ملک الأردن. یقول العلامة الشیخ محمّد جواد مغنیة: إنّ سعود بن عبدالعزیز أقام هیئة باسم الآمرین بالمعروف ومهمتها التجول فی الأسواق أوقات الصلاة، تخضّ الناس علی أدائها، وما زالت هذه الطریقة متبعة إلی الیوم عند السعودیین، واصبحت تحمل العصا وتجول فی الأسواق والشوارع تنهال ضرباً بها علی حلیق الذقن و من یلمس قبر الرسول، أو قبر إمام من أئمة البقیع، وغیر ذلک مما یخالف العقیدة الوهابیة، بل کانوا إلی الأمس القریب یضربون المدخنین علناً وإن کانوا غرباء عن الدیار(۲) . وقد هلک سعود فی الدرعیة عام ۱۲۲۹ هـ وهو فی الثامنة والستین من ________________

۱ . ابن بشر، عثمان: عنوان المجد، ص ۱۶۰ .

۲ . مغنیة، محمد جواد: هذه هی الوهابیة، ص ۱۲۷ . (۳۷۸)

عمره، وکانت ولایته إحدی عشرة سنة أی من سنة ۱۲۱۸ هـ إلی سنة ۱۲۲۹ هـ وبذلک طویت صحیفة عمره السوداء وکانت حیاته کلها ملیئة بالحرب والدمار . * * * ۴- عبداللّه بن سعود (۱۲۲۹ هـ ـ ۱۲۳۴)

وتولى بعد سعود ابنه عبداللّه، ونازعه عمه عبداللّه بن محمد، وانقسمت الأسرة على نفسها، وفى هذه السنة ارسل الباشا عساكر كثيرة إلى ناحية القنفذة برّاً وبحراً، فاستولوا عليها وهرب من كان فيها من الوهابيين، وفى أول سنة ۱۲۳۰ هـ عاد إلى الطائف، ووقعت بينه وبين الوهابيين حروب كان النصر له فيها عليهم، واستولى عر تبة وبيشة ورينة، وقتل الكثير من الوهابيين، فاستسلم أهلها، ومنها استولى على تربة، وقضى فيها على آخر مقاومة وهابية، ثم عاد إلى مكة ومنها إلى القاهرة(۱) . بقى طوسون فى الحجاز بعد حملته إلى نجد .

تدمير الدرعية

وفى أوائل سنة ۱۲۳۴ هـ أرسل محمد على باشا ولده إبراهيم باشا إلى الحجاز، لإكمال محاربة الوهابيّين والاستيلاء على «الدرعية»، فتوجه بعساكر وأموال وذخائر كثيرة حتّى دخل مكة، ثم خرج منها بالعساكر قاصداً «الدرعية»، وجعل يملك كل أرض وصلها بلا معارضة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم وغنم خياماً ومدفعين(۲) . وفى سنة ۱۲۳۳ هـ ملك بلداً من بلاد الوهابيين وقبض على أميره، ثم استولى على الشقراء، وكان بها عبداللّه بن سعود، فخرج هارباً إلى «الدرعية» ليلا، وبينها وبين الشقراء يومان، ثم استولى إبراهيم باشا على بلد كبير من ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۸ .

۲ . الأمين، السيد محسن: كشف الإرتياب، ص ۴۵ . (۳۷۹)

بلادهم ولم يبق بينه وبين «الدرعية»، إلاّ ثمان عشرة ساعة، ثم زحف على «الدرعية»، فملك جانباً منها، وحاصر الوهابيين وأحاط بهم(۱) . وقال جبران شامية: استمر الحصار خمسة أشهر، فكانت تتوإلى على إبراهيم باشا النجدات والذخيرة من مصر، والأرزاق والمواشى من البصرة والمدينة، وبقيت قبائل البدو التى انضمن إليه تناصره مادامت عطاياه مستمرة، وفى نهاية الشهر الخامس من الحصار، أى فى سنة ۱۲۳۴ هـ ، استسلم عبداللّه بن سعود لإبراهيم باشا فأرسله أسيراً للقاهرة ثم للآستانة، حيث طوفوه فى الأسواق ثم أعدموه، وقتل فى «الدرعية»، عدد كبير من آل سعود وآل الشيخ، ونفى قسم منهم إلى مصر، وبذلك انتهت الدولة السعودية الأُولى(۲) . ثم اقام إبراهيم باشا فى «الدرعية» سبعة أشهر، ثم أمر بتدميرها فاصبحت أثراً بعد عين(۳). وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة، وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من اقرباء الإمام بمن فيهم ثلاثة من إخوانه، وكتب إبراهيم باشا إلى القاهرة والآستانة بأنّ الوهابيين خسروا ۱۴ ألف من القتلى، و ۶ آلا من الأسرى، ومن بين الغنائم ۶۰ مدفعاً(۴) . بسبب هزيمة الوهابيين جرت فى القاهرة احتفالات بهية، أطلقت فيها نيران المدافع، وأجريت الألعاب النارية، وكان الناس يسرحون ويمرحون، وأعرب شاه إيران (فتح على شاه) فى رسالة إلى محمد على باشا عن تقديره لدحر الوهابيين(۵) . وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية فى هذا المجال: ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . المصدر السابق .

۲ . جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم ص ۶۹ .

۳ . المصدر السابق .

۴ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۱۳۱ ـ نقلا عن ارشيف السياسة الخارجية لروسيا .

۵ . الجبرتى، طبع مصر، ص ۶۳۶ . (۳۸۰)

«وطغى إبراهيم باشا وبقى فى البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبدالوهاب، وأجلى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم من الديار، ونفى الكثير منهم إلى مصر، وكان هذا جزاء وفاقاً لما فعلوه من قبل بأُمّة محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ من المظالم والمآثم، وما ارتكبوه من الخيانة للّه وكتابه، وللنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وسنّته: وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلى بأظلم وأغشم(۱) . * * * (فَاعْتَبِرُوا يا أُولى الأَبصارِ)(۲) . ـــــــــــــــــــــــــ

۱ . الشيخ محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية، ص ۱۲۹ .

۲ . سورة الحشر: الآية ۲ . (۳۸۱) الفترة الثانية للإمارة القبلية السعودية

قد هرب كثير من كبار الوهابيين عندما ملك إبراهيم باشا «الدرعية»، فلما ارتحل عنها رجعوا إليها، منهم عمر بن عبدالعزيز وتركى ابن أخى عبدالعزيز، ومشارى بن سعود، فعمروا «الدرعية» ورجع أكثر أهلها، فجهّز محمد على باشا عسكراً بإمرة حسين بك، فقبضوا على مشارى الّذى كان قد انتخب رئيساً لـ «الدرعية» وأرسلوه إلى مصر فمات فى الطريق، وتحصّن الباقون فى قلعة الرياض، بينها وبين «الدرعية» أربع ساعات، فحصارهم حسين بك ثلاثاً فطلبوا الأمان فآمنهم فخرجوا (إلّا تركياً فهرب من القلعة ليلا) فقيدهم وأرسلهم إلى مصر. ۵- تركى ابن أخى عبدالعزيز (۱۲۳۹ ـ ۱۲۵۰ هـ)

عاش تركى ابن أخى عبدالعزيز مختفياً طوال عدة سنوات فى المناطق الجنوبية، وكان يتجول فى صحراء نجد داعياً العربان إلى إحياء مجد الأسلاف، وتزوج أثناء تجواله بامرأة من آل تامر، ولدت له ذكراً أسماه جلوى، فتجمع حول تركى ثلاثون رجلا ثم انضمت إليه بعض القبائل، وفى تلك الأثناء بدأت فى القسيم انتفاضة ضد المصريين إلى حدٍّ ألجأهم إلى الجلاء إلى الحجاز، وتركوا حاميتين فى الرياض ومنفوخة(۱) . ــــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۲، ص ۱۲ . (۳۸۲)

وانتهز تركى فرصة ضعف المواقع المصرية فى نجد فى عامى ۱۲۳۹ و ۱۲۴۰ هـ فوسّع نفوذه فى المنطقة المحيطة بالرياض ومنفوخة، وعزل الحاميتين المصريتين، وبعد عدة شهور سقطت الرياض بيد تركى، وتمّ جلاء المصريين عن نجد، وأعلنت بعض مناطق القصيم عن اعترافها بحكم تركى، فتركى إذاً هو الأمير السعودى الوهابى الأول من الفرع الثانى لمحمد بن سعود، وبه انتقلت الإمارة من سلالة عبدالعزيز بن محمد بن سعود إلى سلالة أخيه عبداللّه بن محمد بن سعود، وما زالت فيها إلى اليوم(۱) . ولكنه نشب خلاف فى العائلة السعودية، فتمرد مشارى بن عبدالرَّحْمن بن مشارى بن سعود مع بعض أفخاذ قبيلة قحطان على الأمير، فكبر على نسل عبد العزيز أن تخرج الإمارة منهم، فدبّر مشارى أمر اغتيال تركى، وتم له ذلك، ونادى مشارى بنفسه أميراً . ۶- مشارى بن عبدالرحمن (۱۲۵۰ هـ)

قال جبران شامية: انتهت ولاية الإمام الخامس تركى بن عبد اللّه اغتيالا على يد ابن عمّه مشارى بن عبد الرحمان، الّذى استولى على السلطة وأصبح الإمام السادس، ودام حكم مشارى أربعين يوماً، إذ زحف فيصل بن تركى من الهفوف إلى الرياض بمساعدة عبداللّه، وعبيداللّه، من آل الرشيد شيوخ حائل، واستولى على المدينة وأعدم مشارى، وأصبح فيصل الإمام السابع فى العائلة السعودية. ۷- فيصل بن تركى (۱۲۵۰ ـ ۱۲۵۳ هـ)

تولى فيصل بن تركى الحكم بعد أبيه وهو فى حوالى الأرِبعين من العمر، فى أوج نضوج قابلياته الجسمانية والروحانية، وأصبح يتقبل البيعة من أهالى العاصمة، ولكن محمد على باشا لم يمهله طويلا، فأرسل حملة كبرى إلى نجد ومعها خالد بن سعود، الّذى كان مع السعوديين المنفيين بمصر، فدخل جيش ــــــــــــــــــــــــ

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۲ ص ۲۶ ـ ۳۰ . (۳۸۳)

محمد على باشا واستولى على العاصمة بلا مقاومة، بعد أن فرّ منها فيصل، ثم أسر ونفى إلى مصر، وأقام المصريون فيها خالد بن سعود حاكماً مكان فيصل، وكان ذلك سنة ۱۲۵۳ هـ . وكانت الحجاز لم تزل بيد محمد على، وكان من أعوانه خالد أصغر أبناء سعود الكبير، وأخو الإمام عبد اللّه الّذى استسلم لإبراهيم باشا فى الحملة المصرية الأُولى وأُعدم فى استنبول . ۸- خالد بن سعود (۱۲۵۳ ـ ۱۲۵۵ هـ)

نشأ خالد بن سعود فى القاهرة فى كنف محمد على، الّذى أعدّه ليتولى الحكم فى الجزيرة العربية نيابة عنه، وكان لخالد أنصاره الذين لم يرضوا عن انتقال الإمامة عن أولاد سعود الكبير إلى أولاد عبد اللّه بن محمد(۱) . وجد فيصل أنّ أهل الرياض وقبائل كثيرة مالت إلى الأمير خالد، لأنّه كان يمثّل نزعة دينية بحكم تثقفه فى القاهرة، وذلك ممّا دعا فيصل إلى ترك الرياض، ودخل الأمير خالد الرياض سنة ۱۲۵۳ هـ . فأعاد الحكومة إلى فرع سعود الكبير، وأصبح الأمير الثامن، فاستمر خالد فى الإمارة سنتين . ۹- عبد اللّه بن

ثنيان (۱۲۵۵ ـ ۱۲۵۸ هـ)

ثم ثار عليه عبد اللّه بن ثنيان مع النجديين، فأرادوا الفتك به فهرب إلى مكة، ثم مات(۲) . ولمّا بلغ ذلك فيصلا وهو محبوس بمصر، استطاع أن يهرب ليلا من القلعة ومن معه، حتّى وصلوا جبل شمر مقر عمارة ابن الرشيد، فأكرمهم وتوجهوا إلى القصيم فانضاف إليهم كثير منهم. إلى أن استطاع بعون أهالى عنيزة أن يقاتل ابن ثنيان فى الرياض ، ________

۱ . أبو علية، عبد الفتاح: الدولة السعودية الثانية، ص ۴۱ .

۲ . الأمين، السيد محسن: كشف الارتياب ص ۴۷ ـ نقلا عن خلاصة الكلام لزيني دحلان . (۳۸۴)

فقبضوه وحصروا عليه، ثم قتل فى الحبس خنقاً فى سنة ۱۲۵۸ هـ . ۱۰- فيصل بن تركى (۱۲۵۸ ـ ۱۲۷۸ هـ)

صار بعد ذلك فيصل سيداً فى دياره لمدة تقرب من عشرين عاماً، وفى سنة ۱۲۶۲ هـ صدر الأمر من الدولة العثمانية بتجهيز العساكر لمحاربة فيصل بن تركى أمير الرياض، لأنّه استفحل أمره ويخشى أن يقع منه ما وقع من أسلافه، وأن يكون ذلك برأى الشريف محمد بن عون أمير مكة المكرمة، فتوجه الشريف مع العساكر من المدينة حتّى وصل جبل شمر، فسار معه أميره ابن الرشيد بكثير من القبائل، ولما وصلوا القصيم أطاعهم أهله، فخاف فيصل فأرسل لأهل القصيم أن يتوسط فى الصلح على تأدية عشرة آلاف ريال فى كل سنة، فتم الصلح، ورجع الشريف بالعساكر، واستمرّ فيصل يدفع ذلك حتّى مات سنة (۱۲۸۲ هـ)(۱) . ولكنه بعد ما أُصيب بالشلل وقد البصر، سلّم الأُمور لابنه عبداللّه، وبعدما مات نشبت حرب أهلية بين أولاده الأربعة، وهم عبداللّه وسعود ومحمد وعبدالرَّحمن، وعمّت الفوضى البلاد. ۱۱- عبداللّه بن فيصل التركى (۱۲۷۸ هـ ـ ۱۲۸۴ هـ)

كان فيصل قد بايع ولده الأكبر عبداللّه بولاية العهد مطابقاً للتقاليد المتّبعة فى البيت السعودى، ولكن نشبت الحروب الأهلية بين أولاده الأربعة وهم: عبداللّه وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمّت الفوضى فى البلاد، وقد نازع سعود أخاه عبداللّه وثار عليه، واستمرت الحروب الأهلية بين الطرفين، ونشبت الفتن والقلاقل واستمرت ۲۵ عاماً، ممّا أدى إلى ضعف الإمارة وذهاب سلطانها، وانتفاضة حكام المقاطعات عليها، واستقلال كلّ بدويلته واحتل الأتراك الأحساء والقطيف(۲) واستمرّ الصراع داخل أُسرة آل سعود، وظهر عبداللّه فى الأراضى المحتلة من قبل الأتراك، وطرد سعود من الرياض موقتاً، ________

۱ . جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ۷۸ .

۲ . وهبة ـ حافظ: خمسون عاماً فى جزيرة العرب، ص ۲۴ . (۳۸۵)

ففى سنة ۱۲۸۳ هـ عاد عبداللّه من جديد إلى الرياض إلاّ أنّ الوضع فى الإمارة كان ميؤوساً منه فالمجاعة مستمرة، وكان الناس يأكلون جيف الحمير ويحرقون جلود الماعز ويدقونها، بل كانوا يدقون العظام ويأكلون مسحوقها، ومع هذا فمن لم يمت بالسيف مات جوعاً(۱) . ۱۲- سعود بن فيصل تركى (۱۲۸۴ هـ ـ ۱۲۹۱ هـ)

وفى العام القادم ۱۲۸۴ هـ عاد سعود مجدداً إلى الرياض، واستمرت المعارك سجالا بين الأخوين واقترنت كالعادة بالنهب والقتل، ولكن عبداللّه بن فيصل كان يعتمد على الأتراك، بينما يعتمد سعود على الإنجليز، حتّى أنّهم أرسلوا أغذية له، وبعد طائفة من الأحداث استتب الأمر إلى سعود، ودخل الرياض فى محرم ۱۲۹۰ هـ و توفى بعده بعام ۱۲۹۱ هـ وأمّا عبدالله فقد تنازل عن الحكم وترك الرياض هو وأخوه محمد، ورحل إلى مقربة من الكويت واستقرّ فى بادية قحطان، ثم تركها بعد أن رفضوا الخوض فى معركة جديدة يكونون حطبها بلا فائدة، ولما توفى سعود أخذ الحكم مكانه أخوه عبد الرَّحمن الّذى كان يميل إلى سعود بعكس محمد، فحكم لمدة عامين، ثم تلاها حرب بينه وبين أخيه محمد الّذى كان يكبره سناً، فوقعت معركة بينهما فى ثرمدا فى غرب الرياض، وعاد الأمر من جديد للتوتر، حتّى وافق الاثنان على أن يتولى الحكم أخوهم الكبير عبداللّه، فعاد هذا الأخير من البادية واستلم الحكم عام ۱۲۹۳ هـ حتّى عام ۱۳۰۵ هـ ولم يقبل أبناء سعود أن يتولى عمّهم الكبير عبداللّه، فغادروا الرياض احتجاجاً على ذلك، واستقروا فى «الخرج». وعندئذ توجه عبد الرحمن خوفاً من أبناء أخيه إلى عبداللّه، فقرر الإخوة الثلاثة (عبداللّه ـ محمد - عبدالرحمن) تشكيل

جبهة واحدة بزعامة عبداللّه ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع، ثم فرّ أولاده ودخل عبداللّه الرياض من جديد، وبقى فيها إلى أن مات عام ۱۳۰۵ هـ . ________________

۱ . الريحانى ـ أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ۹۹ . (۳۸۶) ۱۳- عبدالرحمن بن فيصل

ولما توفى عبداللّه أخذ أخوه عبدالرحمن الأمر بيده، وأعلن نفسه أميراً خلفاً لأخيه عبداللّه، ولم يطل الوقت حتّى اختلف عبدالرحمن مع أولاد سعود، ومن جانب آخر جنحت قبائل نجد لمحمد بن الرشيد مع أنّه لم يكن وهابياً بل كان حليفاً للخليفة العثمانى، الّذى يتبع المذهب الحنفى ويستمد منه المال والسلاح(۱) . ولما رأى عبدالرحمن قوة ابن الرشيد شعر أنّه بين أمرين: إمّا أن يحارب ابن الرشيد وإمّا أن يخضع له كموظف عنده، ولا طاقة له على الأُولى ولا تطيقه نفسه على الثانية، فلم يبق أمامه إلاّ الرحيل، فرحل عن نجد بأهله سنة ۱۳۰۹ هـ وظل منتقلا فى الأمصار، فذهب أولا إلى الأحساء، ثمّ إلى الكويت، ثمّ إلى قبائل بنى مرة قرب الربع الخالى، ثم إلى قطر ومنها عاد إلى الكويت، واستقرّ فيها مع عائلته وأولاده ;وكان عمر ولده عبدالعزيز عشر سنوات، وعين له أمير الكويت الشيخ محمد بن الصباح مرتباً إلى أن خصصت له الدولة العثمانية ستين ليرة عثمانية فى الشهر(۲) . فقطع ابن الصباح عنه المرتب، وعاش هو وأفراد عائلته فى شدة وضيق(۳) وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية . يقول بعض المؤرخين: «إنّ الوهابية فقدت صيتها وبريقها لما توسّعت فوق طاقتها فانهزمت، وهكذا خسروا الأرض والحركة الوهابية». لم يكرم الشيخ مبارك الصباح ضيافة آل سعود فى الكويت، فسكنوا ثلاث غرف من طين فى أحد أزقة الكويت، ومع ذلك كان آل سعود خلال إقامتهم فى الكويت مدة سبعة أو ثمانية أعوام متعاونين مع الشيخ مبارك حسبما تمليه مصالحهم، لقد كانت مجالس الشيخ مبارك بالنسبة إلى الشاب عبدالعزيز ________________

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۸۱ ـ ۸۲ .

۲ . الريحانى: تاريخ نجد الحديث، ص ۹۱ .

۳ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية، ص ۱۳۲ ـ ۱۳۳ . (۳۸۷)

مدرسة تلقى مما يدور فيها من الأحداث، ولعلّ أهم درس وعاه هو الحذر عند التعامل مع القوى الدولية، والنظر بعين الاعتبار لمركز بريطانيا المتفوق(۱) . ________________

۱ . السعدون ـ خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ۶۷ .

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

ذات يوم جاء الفتى عبدالعزيز إلى الشيخ مبارك وقال له: أريد أن أنقذ نجداً من ابن الرشيد فهل تساعدنى بالمال والعتاد؟ فأعطاه الشيخ مائتى ريال وثلاثين بندقية وأربعين جملا وبعض الزاد، فأخذها ومضى هو وأرحامه وأصحابه، ورافق عبدالعزيز أخوه محمد وابن عمه عبداللّه بن جلوى وبعض أتباعهم وعددهم نحو أربعين رجلا(۱) . سارت الجماعة متخفّية حتّى وصلت ضواحى الرياض وغافلت حراسها، وذلك فى ۳ شوّال سنة ۱۳۱۹ هـ ، ودخلت المدينة خلسة، وقتلت قائد الحامية الشمرى عبدالرَّحْمن بن ضبعان، فاستسلم رجاله وخضعت الواحة لآل سعود، فأرسل عبدالعزيز ناصر بن سعود إلى الشيخ مبارك مبشراً وطالباً المدد، ثم بنى سوراً حول الرياض، ثم دامت مساعدات شيخ الكويت واستتبّ له الأمر. ۱۴- عبدالعزيز بن عبدالرحمن (۱۳۱۹ ـ ۱۳۷۳ هـ)

وبعد هذا صار عبدالعزيز حاكماً للرياض وهو فى الثانية والعشرين، وظل أبوه مستشاراً رئيسياً له وإماماً للمسلمين(۲).

____

۱ . السعدون خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ۶۸ .

۲ . المصدر السابق . (۳۸۹)

اتصلت الدولة العثمانية بعبد العزيز بن سعود بواسطة الشيخ مبارك ودعته لإرسال والده عبدالرّحْمن لمفاوضة والى البصرة، ولبّى عبدالرّحمن الدعوة ووصل إلى الكويت ومنها إلى الزبير برفقة الشيخ مبارك، حيث عقدت الجلسة الأُولى من المباحثات عام ١٣٢٢ هـ وتوصل الفريقان إلى اتفاق تضمن إقرار العثمانيين بسيطرة عبدالعزيز على مناطقه بوصف أنّه موظف عثمانى برتبة قائم مقام، وتعهّد العثمانيون بمنع آل الرشيد عن التدخل فى شؤون إمارة آل سعود(١) . عبدالعزيز يتحالف مع الإنكليز

انتهز عبدالعزيز الفرصة فاجتمع لأول مرة فى سنة ١٣٢٨ هـ برسمى بريطانى هو المعتمد فى الكويت، أعنى «ويليم شكسبير» ونشأت بينهما مودة وتقدير متبادل، واجتمعا ثانية سنة ١٣٣٠ هـ ، وكذلك فى ربيع الأول ١٣٣١ هـ وشرح عبدالعزيز لمندوب بريطانيا بأنّ الوقت مناسب لتخليص نجد والأحساء نهائياً من السيطرة العثمانية . تمكّن شكسبير من إجراء مباحثات سياسية مع عبدالعزيز، فوضع مسودة معاهدة التزم الإنكليز بموجبها بضمان مواقع أمير الرياض فى نجد والأحساء، وحمايته من الهجمات العثمانية المحتملة من جهة البحر والبر إذا التزم بمساعدة الحلفاء، وتخلى الإنكليز عن سياستهم القديمة، والتزموا بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية، والتزم عبدالعزيز بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأُخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية، وتبين الدراسة التى أجراها «تلولير» لوثائق الأرشيفات الإنكليزية، أن عبدالعزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية فى الجزيرة العربية(٢) . وجاء فى المعاهدة أنّ ابن سعود يتعهّد أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية، وأنّ أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن ـــــــــــــــــ

١ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٢١٥ .

٢ . الأمين، السيد محسن: كشف الارتياب، ص ٤٨ . (٣٩٠)

الأراضى أو جزء منها، ولا أن يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأىّ شكل، ولا أن يقدمها على سبيل الامتياز إلى أيّة دولة أجنبية، أو إلى أحد من رعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وجاء فى المادة السادسة أنّ ابن سعود يتعهّد كما تعهّد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل فى أرض الكويت والبحرين وأراضى مشايخ (قطر) وعمّان وسواحلها، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية الإنكليز، والذين لهم معاهدات معها، ولم يرد فى المعاهدة شىء عن الحدود الغربية لنجد، وهكذا فرضت هذه المعاهدة، الحماية البريطانية على نجد وتوابعها، وصارت هذه المعاهدة جزءاً من شبكة النفوذ البريطانى الّتى أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من الشرق الأوسط، وعلى أيّة حال على الجزيرة العربية كلّها بعد الحرب العالمية الأولى . ثم استلمت نجد من عام ١٣٤٤ هـ مقابل توقيع المعاهدة مؤونة شهرية بمبلغ ٥ آلاف جنيه استرلينى مع إرساليات معينة من الرشاشات والبنادق(١) . وكما كان ابن الرشيد حليفاً مخلصاً للأتراك، فقد كان عبدالعزيز حليفاً دائماً وصديقاً وفيّاً للإنكليز، فكان يذكرها ويشكرها فى خطبه وغيرها، وهذا مثال من أقواله «بحق الانكليز» جاء فى خطبة ألقاها بمكة المكرمة عام ١٣٦٢ هـ . «ولا يفوتنى فى هذا الموقف أن أتمثّل بأنّ من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه، فأثنى على الجهود الّتى قدّمتها الحكومة البريطانية بتقديم بواخر الحجاج وتسهيل سفرهم، كما أثنى على مساعدتها ومساعدة الحلفاء القيمة، ومتابعتهم تموين البلاد بما يحتاجه الأهالى من أسباب المعيشة وغيرها، وكذلك لابدّ من الإشارة إلى أنّ سيرة البريطانيين معنا طيبة من أول الزمن إلى آخره» . يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية بعد نقل هذا الكلام :

---

١ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ . (٣٩١)

«ويعلم الصغير والكبير أنّ الإنكليز والحلفاء وأية دولة استعمارية يستحيل أن تفعل شيئاً بقصد الخير والإنسانية، وإذا فعلت مع بلد أو بلدان ما يبدو كذلك فإنّما تتخذ منه وسيلة إلى التسرب إلى أسواقه والسيطرة على مقدراته. إنّ الاستعمار يوافق ويتصنع ليمتص دماء الشعوب . وغريب أن تخفى هذه الحقيقة على الملك عبدالعزيز، وأن يقول ـ وهو الوهابى الّذى يصلّى فى أول الوقت حتّى فى بيت عدوه عجلان ـ من لم يشكر الناس (أى الإنكليز) لم يشكر اللّه، وهذا مع العلم بأنّ الوهابية تقول بفساد الصلاة عند قبر نبى أو ولى،

لأنّها تكون مشوبة بعبادة صاحب القبر، إذاً كيف ربط الملك عبد العزيز شكر اللّه بشكر الإنكليز بحيث لا يقبل الأول بدون الثانى، وبعد أن ضعف الإنكليز حلّ محلهم الأمريكيون(۱) . التوسع السعودى بعد التعاون مع بريطانيا

ترافقت هذه الفترة مع تطورات دولية عملت لمصلحة آل سعود، فقد انتهت الحرب العالمية الأُولى واستسلمت تركيا عام ۱۳۳۷ هـ ، وتبعتها ألمانيا، فانقطع دور تركيا فى الجزيرة العربية، وانفردت بريطانيا بالتحكم بشؤون المنطقة . ومن ناحية أُخرى نجد بريطانيا قد خانت وعودها للهاشميين بإنشاء الدولة العربية الكبرى فى الشمال، وصارت تسعى للتخلص منهم ومن وعودها لهم، فتوجه عبدالعزيز ضدهم فى هذه الفترة الّتى شهدت احتلال آل سعود للحائل، ثم للحجاز وعسير، واختلطت السياسة بالدين(۲) . هجوم الوهابيين على الحجاز

فى سنة ۱۳۴۰ هـ غزا الوهابيون عرب الفرع من قبيلة حرب فى عقر دارهم فى الحجاز، ونهبوا المواشى، فجاء النذير إلى أهل الفرع فلحقوهم ـــــــــــــــــــ

۱ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية، ص ۱۳۵ – ۱۳۶ .

۲ . جبران شامية ـ آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۱۴ ـ ۱۱۵ . (۳۹۲)

واستخلصوا منهم ما نهبوه، وقتلوا منهم، وغنموا جميع ما معهم وولوا منهزمين، ومن جملة ما غنموه أعلام وبيارق، فدفعوها إلى الملك حسين وانقطع مجىء أعراب نجد إلى الفرع لاكتيال التمر، فحصل بذلك ضيق على أهل الفرع بسبب كساد تمورهم الّتى كان يشتريها النجديون»(۱) . قتل الوهابيون الحجاج اليمانين سنة ۱۳۴۱ هـ

فى هذه السنة التقى الوهابيون بالحجاج اليمانين وهم عزل من السلاح وجميع آلات الدفاع، فسايروهم فى الطريق وأعطوهم الأمان، ثم غدروا بهم لمّا وصلوا إلى سفح جبل، مشى الوهابيون فى سفح الجبل واليمانيون تحتهم، فعطفوا على اليمانيين وأطلقوا عليهم الرصاص حتّى قتلوهم عن بكرة أبيهم، وكانوا ألف إنسان، ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال(۲). هجوم الوهابيين على الحجاز عام ۱۳۴۳ هـ

وقد هجم الوهابيون فى هذه السنة على الحجاز وحاصروا الطائف، ثم دخلوها عنوة وأعملوا فى أهلها السيف، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتّى قتلوا منهم ما يقرب من الفين، بينهم العلماء والصلحاء، وأعملوا فيها النهب، وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر منها الجلود، نظير ما عملوه فى المرة الأولى، حتّى أنّ السلطان عبد العزيز بن سعود لما سئل عنها لم ينكر وقوعها، لكنه اعتذر بما وقع من خالد بن الوليد يوم فتح مكة، وقول النبىّ: اللّهمّ إنّى أبرأ إليك مما صنع خالد(۳) . أصبح الحجاز بعد معركة الطائف مفتوحاً أمام عبدالعزيز، لكنه تباطأ بالزحف على مكة حتّى يستكشف نوايا الإنكليز الذين كانوا أنذروه وطلبوا منه التوقف عن القتال، لكن سياسة بريطانيا كانت قد تغيرت خلال هذه المدة، ـــــــــــــــــــ

۱ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۰ .

۲ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۴ .

۳ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۲ . (۳۹۳)

وأصبحوا يريدون التخلص من الملك حسين وأولاده فى الحجاز، حتّى يكفوا عن مطالبتهم بتنفيد تعهداتهم لعرب الشمال، وكانت وسيلتهم المفضلة أن يضربوا العرب بالعرب، وكان عبدالعزيز أداتهم فى تلك السياسة(۱). هجوم الوهابيين على شرقى الأردن

وفى سنة ۱۳۴۳ هـ هجمت جماعة من الوهابيين فجأة على أعراب شرقى الأردن الآمنين، فهجموا على أُم العمد وجوارها، فقتلوا ونهبوا، ومالبثوا أن ارتدّوا مدحورين مأسورين، وإنّ الدبابات والطائرات الإنكليزية اشتركت فى قتالهم مع عرب شرقى الأردن، وانجلت المعركة عن قتل ثلاثمائة من الوهابيين بأمر من الإنكليز . استيلاء الوهابيين على مكة المكرمة سنة ۱۳۴۳ هـ

كان الملك حسين يظن أنّ الإنكليز سيتدخلون لإنقاذه على نحو ما فعلوا فى شرقى الأردن فى الشهر الماضى، فأرسل برقية إلى المستر

بولارد القنصل البريطانى فى جدة ذكر فيها أنّ الحالة حرجة، وأنّ علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود، وتجنّب ما وقع فى الطائف، وهو يأمل منها النظر فى طلبه باسرع ما يمكن، فأبرق القنصل إلى حكومته فى لندن فوافاه الجواب أن الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها فى عدم التدخل فى الأُمور الدينية ـ وهى لذلك ـ لا تريد أن تتدخل فى أى نزاع بشأن امتلاك الأماكن المقدسة فى الإسلام(۲) . وفى الوقت نفسه كتب الدكتور «ناجى الأصيل» مندوب الحسين فى لندن رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيها: «إنّ صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية ـ طبقاً لروح المعاهدة الّتى هى تحت المفاوضة ـ أن تتدخل لوضع حدّ للاعتداء الوحشى الّذى يقوم به الوهابيون ضد الأماكن المقدسة، وإخراجهم من الطائف . ______________

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۴ .

۲ . دائرة الوثائق العامة فى لندن (أف، أو رقم ۳۷۱ ـ ۱۰۰۱۴) . (۳۹۴)

فوافاه الجواب: إنّ الحكومة البريطانية لا تريد أن تتورط فى النزاع القائم بين أُمراء عرب مستقلين، حول امتلاك الأماكن المقدسة فى الإسلام» . ثم رد ناجى الأصيل على جواب وزراة الخارجية فى ۲ تشرين الأول وقال: إنّ ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى فى تأييد بريطانيا فى الحرب العامة يستدعى من بريطانيا مساعدتها له فى إنقاذ مكة من ويلات الحرب، وإنّ العالم الإسلامى لا يرضى أن تقع الأماكن المقدّسة ولو لفترة قصيرة جدّاً فى أيدى طائفة كالوهابية(۱) . تنازل الحسين عن العرش لصالح ولده على

ارتأت الحكومة البريطانية حفاظاً على مصالحها فى المنطقة خلع الأُسرة الهاشمية عن الحرمين الشريفين، حتّى تحلّ محلّها السلطة الوهابية، ولأجل ذلك استعملت بريطانيا جميع وسائل الضغط لتجبر الملك حسين على التنازل عن العرش، وعلى رأسها قطع المساعدات المالية عنه، حتّى عجز عن دفع رواتب الضباط والجنود(۲) . أصبح وضع الحسين ميؤوساً منه، فاجتمع أعيان الحجاز ومنهم أشراف مكّة وعلماء الدين وكبار التجار فى جدة، وقرروا خلع الحسين لترضية ابن سعود، وبعد أخذ ورد، وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده الّذى نصب ملكاً على الحجاز فى ۶ تشرين الأول (عام ۱۹۲۴ م) الموافق ۱۳۴۳ هـ، وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع أمتعته إلى جدة لكن الحكومة البريطانية تضايقت من وجوده هناك، فأرسلت إليه إنذاراً بمغادرة المدينة تلبية لطلب عبد العزيز، وابلغته بأنّ عليه أن يسافر إلى قبرص، حتّى مات هناك عام ۱۹۳۱ م ۱۳۵۰ هـ ونقلت جنازته إلى الأردن فدفن فى المسجد الأقصى، وانتهت بذلك حقبة محزنة من تاريخ العرب(۳) . ______________

۱ . نفس المصدر .

۲ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۵ .

۳ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۵ . (۳۹۵)

دخل الوهابيون مكة بغير قتال بعدما خرج الملك حسين وولده منها إلى جدة، فنهبوا داره واستولوا على جميع ما يؤول إليه، ثم قامت الحرب بينهم وبين الملك على المتحصن فى جدة، وانقطع الحج فى تلك السنة، وعين خالد بن لؤى حاكماً على مكة ثم انطلق الوهابيون وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات فى اليوم، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوى وزيارة القبور، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه، وربما ساقوه إلى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة(۱) . دخل عبد العزيز مكة المكرمة، واستعرض الجيش، واجتمع مع العلماء وفرض عليهم اعتناق الأُصول الّتى جاء بها محمد بن عبدالوهاب، وكان يقول وهو يحارب الملك علياً: إنّه ما جاء إلى الحجاز إلاّ لينقذه من ظلم الأشراف، ولا يريد تملكه وإنّما يجعل مصيره إلى رأى عموم المسلمين . وهذا هو الأسلوب الماكر لجميع الدهاة إذا تغلبوا على قطر من الأقطار، حتّى أنّ دولة إسرائيل الغاشمة بعدما استولت على أراض جديدة عام ۱۹۶۷ م كانت تقول بأنّها لا تريد الاستيلاء عليها . اكتساح قبور البقيع

لما استتبّ الأمر لعبد العزيز وملك الحجاز قاطبة، عمد إلى تخريب المعالم الإسلامية فى مكّة وجدّة والمدينة، فخربوا فى مكة قباب عبدالمطلب جدّ النبىّ، وأبى طالب عمّه، وخديجة أُم المؤمنين، وخربوا مولد النبى ومولد فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ ، ولما دخلوا

جدّة هدموا قبّة حواء، وخربوا قبرها بل خربوا فی هذه البلاد کل القباب والمزارات والأمکنة الّتی یتبرک بها، ولما حاصروا المدینة هدموا مسجد حمزة ومزاره، لوقوعهما خارج المدینة المنورة(۲) . یقول الدکتور علی الوردی أُستاذ علم الاجتماع فی جامعة بغداد:

---

۱ . الریحانی .

۲ . الأمین، السید محسن: کشف الارتیاب ص ۵۵ . (۳۹۶)

کان البقیع مقبرة المدینة فی عهد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وما بعده، دفن فیه العباس والخلیفة عثمان، وزوجات النبی والکثیر من الصحابة والتابعین، کما دفن فیه أربعة من أئمة أهل البیت ـ علیهم السَّلام ـ هم الحسن بن علیّ، وعلیّ بن الحسین، ومحمّد بن علیّ وجعفر بن محمّد، وقد صنع الشیعة لقبور هؤلاء الأربعة ضریحاً باهراً یشبه الأضرحة المعروفة فی العراق وإیران، لکن علی نطاق أصغر، واعتاد الشیعة أن یزوروا هذا الضریح فیقبلونه ویتبرکون به ویصلّون عنده، علی نحو ما یفعلون فی أضرحة العراق وإیران(۱) . ظلّت هذه القبور سلیمة أکثر من أربعة أشهر دون أن یمسّها أحد بسوء، ولکن اتّهم ابن سعود فی تنفیذ مبدأ الوهابیة لإبقائه علیها، فاضطر ابن سعود فی شهر رمضان سنة ۱۳۴۴ هـ إلی إرسال کبیر علماء نجد عبداللّه بن بلیهد من مکة إلی المدینة للعمل علی هدم القبور، وعندما وصل ابن بلیهده إلی المدینة اجتمع بعلمائها ووجه إلیهم الاستفتاء التالی: «ما قول علماء المدینة ـ زادهم اللّه فهماً وعلماً ـ فی البناء علی القبور واتّخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا کان غیر جائز بل ممنوع منهی عنه نهیاً شدیداً، فهل یجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا کان البناء فی مسبلة کالبقیع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنی علیها، فهل هو غصب یجب دفعه لما فیه من ظلم المستحقین ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما یفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع اللّه، والتقرب بالذبح والنذر لها، وإیقاد السرج علیها، هل هو جائز أم لا؟ . وما یفعل عند حجرة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من التوجه إلیها عند الدعاء وغیره، والطواف بها وتقبیلها والتمسح بها، وکذلک ما یفعل فی المسجد من الترحیم والتذکیر بین الأذان والإقامة وقبل الفجر ویوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا ـ؟ أفتونا مأجورین وبیّنوا لنا الأدلة المستند إلیها لا زلتم ملجأ للمستفیدین»(۲) . تری أنّ الأسئلة طرحت بشکل أدرج فیها الجواب، وألزم المفتین علی

---

۱ . الوردی ـ علی: لمحات اجتماعیة، ملحق الجزء السادس ص ۳۰۵ .

۲ . الوردی ـ الدکتور علی: لمحات اجتماعیة، ص ۳۰۵ ـ ۳۰۶ . (۳۹۷)

الإجابة بما یرتأیه السائل، ولأجل ذلک جاء الجواب بالشکل التالی: «أمّا البناء علی القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحادیث الواردة فی منعه، ولهذا أفتی کثیر من العلماء بوجوب هدمه مستندین فی ذلک بحدیث علیّ قال لأبی الهیاج: ألا أبعثک علی ما بعثنی علیه رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن لا تدع تمثالا إلاّ طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلاّ سویته؟» (رواه مسلم). وأمّا اتّخاذ القبور مساجد والصلاة فیها وإیقاد السرج علیها فممنوع، لحدیث ابن عباس: «لعن اللّه زائرات القبور المتخذین علیها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن، وأمّا ما یفعه الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب إلیها بالذبائح والنذور، ودعاء أهلها مع اللّه فهو حرام ممنوع شرعاً لا یجوز فعله أصلا . وأمّا التوجه إلی حجرة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عند الدعاء فالأولی منعه، کما هو معروف عن معتبرات کتب المذهب، ولأنّ أفضل الجهات جهة القبلة، وأمّا الطواف والتمسح بها وتقبیلها فهو ممنوع مطلقاً، وأمّا ما یفعل من التذکیر والترحیم والتسلیم فی الأوقات المذکورة فهو محدث، هذا ما وصل إلیه علمنا(۱) . وعلی أثر صدور هذه الفتوی هدمت القبور، فأحدثت هذه الجریمة ضجّة مدوّیة فی أقطار العالم الإسلامی، خصوصاً الشیعیة منها، فقرّر علماء الشیعة علی أثر تلقّیهم هذا الخبر إعلان الحزن العام وإظهار الحداد وترک التدریس، وعقد فی صحن الکاظمیة إجتماع حضرته جماهیر کثیرة، وتلیت فیه البرقیات والرسائل الواردة فی هذا الشأن، کما نظمت البرقیات الّتی قرّر إرسالها إلی ملوک وعلماء العالم الإسلامی فی أقطارهم المختلفة، وجری مثل ذلک فی کربلاء والنجف(۲) .

۱ . الوردى ـ الدكتور على: لمحات، ص ۳۹۶ ـ نقلا عن كشف الإرتياب، ص ۳۴۹ ـ ۳۶۰ ولقد عرفت فى الفصول السابقة أنها فتاوى فارغة عن البرهانية، فلاحظ .

۲ . نفس المصدر السابق، ص ۳۰۸ . (۳۹۸)

وفى ذلك يقول الدكتور الوردى: وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات فى التنديد بابن سعود وشجب أعماله، فقد كتبت جريدة «العراق» فى مقالة افتتاحية لها تقول: «قضى الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة، فقام بأكبر خدمة لسيده ابن سعود، ولم يعلم بأنّ مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الإسلامى فآلمه أيما ألم» كما نشرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها «الطامة الكبرى والأماكن المقدسة فى الحجاز» وورد فيها ما نصّه: «أيّها المسلمون، ما هذا السبات وما هذا الجمود الّذى أدّى بكم إلى السكون وإلى عدم الاكتراث بهذه القضايا المؤلمة، والأدوار المخزية الّتى يمثلها ذلك الطاغية فى البلاد المقدسة؟»(۱) . يقول الوردى: نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلانى نقيب أشراف بغداد، أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع وذكر أن بناء القبب على القبور ليس مخالفاً للسنة النبوية، لأنّ النبى نفسه دفن فى حجرة عائشة وهى حجرة ذات جدران وسقف كقبة، وذكر أيضاً أنّ تقبيل الأضرحة هو من باب تقبيل المحبوب، وهو أمر غير ممنوع فى الإسلام . ونشرت صحيفة «العراق» بعندئذ ثلاثة أبيات من الشعر، طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها وهى: لعمرى إنّ فاجعة البقيع * يشيب لهولها فود الرضيع وسوف تكون فاتحة الرزايا * إذا لم نَصْحُ من هذا الهجوع أما من مسلم للّه يرعى * حقوق نبيّه الهادى الشفيع(۲) ________

۱ . المصدر السابق. نقلا عن عددها الصادر فى ۲۹ أيار، ۱۹۲۶ م.

۲ . الوردى ـ على: لمحات، ص ۳۰۹ ولم يذكر الوردى قائل الشعر وناظمه، وهو للعلامة الفقيد الراحل آية اللّه السيد صدر الدين الصدر العاملى، المتوفى عام ۱۳۷۳ هـ وهو والد الإمام السيد موسى الصدر المختطف . (۳۹۹)

حلّ شهر محرّم عام ۱۳۴۴ هـ فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيّات المواكب الحسينية تدور فى معظمها حول فاجعة البقيع، وتطالب الانتقام من ابن سعود، إنّ يوم ۸ شوال أصبح يوم حداد فى السنوات التالية فى النجف وكربلاء، حيث تغلق فيه الأسواق وتخرج مواكب اللطم(۱) . الصراع الداخلى بين عبدالعزيز وأتباعه

بعدما استتبّ الأمر لعبد العزيز بتأييد من بريطانيا، وطرد الملك حسين وولده الأمير على من الحجاز، فصار سلطان نجد سلطان الحجاز اليوم، كما صار الأمير ملكاً للقطرين، ولكن أتباعه الذين يعبر عنهم فى تاريخ المملكة بالإخوان أورثوا له مشكلة خاصة، وهى الإصرار على تطبيق مبادىء الوهابية، فرموه بموالاة الكفار الإنكليز والتساهل فى الدين، وأنكروا عليه ألقاب السلطان والملك، وتطويل شاربه وثوبه، ولبس العقال، وإرساله ولده سعود لزيارة مصر للعلاج، لأنّه بلد الكفار، وإرسال ابنه فيصل لزيارة البلاد الأوربية لأنّها أكثر كفراً، ورأوا أنّ استخدام السيارات وأجهزة اللاسلكى والهاتف بدع لأنّها من صنع الفرنج، وأنّه يجب محاربة الدول المجاورة كالعراق والأردن واحتلالها ونشر الوهابية بين سكانها، وقد أحرقوا أول شاحنة ظهرت فى مدينة (الحول) وكاد سائقها يلقى المصير ذاته، إلى غير ذلك مما عليه بنى المذهب الوهابى(۲) . قال أمين الريحانى: إنّ الإخوان فيما ظهر من بسالتهم اورثوا عبدالعزيز مشكلا آخر، فقد طغى الإخوان وتجبّروا، فضج الناس، وراح الإخوان يحاربون من لم يتبعهم من البدو، ويكفّرون وينهبون ويقتلون ويقولون أنت يا بدوى مشرك، والمشرك حلال الدم والمال، وقد انتشرت من جراء ذلك الفوضى فى البلاد، وكاد يقطع حبل الأمن والسلام(۳) .

____

۱ . المصدر السابق .

۲ . أبو علية: الإصلاح الاجتماعى فى عهد الملك عبدالعزيز، ص ۱۶۰ ووهبة حافظ، الجزيرة العربية فى القرن العشرين، ص ۲۲۹ .

۳ . الريحانى ـ أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ۲۶۰ . (۴۰۰)

كـان الإخوان كـارهين للعلم والتقـدم، فـاعتبروا أى نوع من أنواع التكنولوجيـا الحديثـة شرّاً وكفراً، كالهـاتف والتلغراف والسـيارات والساعات والكهرباء، وقالوا إنّها سـحر من عمل الشـيطان، فقاوموا استخدامها ونشرها وأخّروا تقدّم البلاد(١) . وفى مطلع عام ١٣۴۵ هـ اجتمع رؤسـاء الإخوان، ومن أبرزهم فيصـل الـدويش وابن حثلين وابن بجـاد فى الغطغط، وأعـدّوا قائمـة ذكروا فيهـا ما يؤاخـذون به عبدالعزيز ومن جملته: ١- سـفرة ابنه سعود إلى مصر . ٢- سـفرة ابنه فيصل إلى لنـدن للتفاوض مع الإنجليز، وهو يعنى التعاون مع بلد الشرك . ٣- استخدام التلغراف والهاتف والسيارة فى أرض إسلامية . ۴- فرض رسوم جمركية على مسلمى نجد، وكان هذا فى الواقع احتجاجاً على تشديد استغلال السكان عن طريق الضرائب . ۵- منع قبائل الأردن والعراق حق الرعى فى أراضـى المسلمين . ۶- حظر المتاجرة مع الكويت لأنّهم كفّار لم يأخذوا بمبادىء الوهابية . ٧- التسامح مع الخوارج (الشيعة) فى الأحساء والقطيف، فيجب عليه أن يهديهم إلى الإسـلام أو يقتلهم(٢) . هـذه بعض القرارات الّتى اتّخـذها مؤتمر الإخوان، وكان عبـدالعزيز آنـذاك فى الحجاز، فأسـرع بالسـفر إلى نجـد عن طريق المدينـة محاولا علاج غضب الإخوان بالحيل والدجل، ولما وصل إلى الرياض عقد فيها مؤتمراً بتاريخ ٢۵ رجب سـنة ١٣۴۵ هـ وحضـر الـدعوة جميع زعمـاء الإخـوان، إلاّ سـلطان بن بجاد، وهو القائـد الّذى اسـتولى على الحجاز، وبرر عـدم حضوره بقوله: «إنه ــــــــــــــــــــ

١ . المانع محمد: توحيد المملكة العربية السعودية، ص ١۵ .

٢ . ابن هذلول: تاريخ ملوك آل سعود، ص ١٨٠ . (۴٠١)

لم يثق بعبـد العزيز وأقواله، وخاصـة بعـد أن اتخـذنا قراراتنـا بتجريمه وتكفيره وعزله» وفى هـذا الإجتمـاع قال عبـدالعزيز عن نفسه إنه خادم الشـريعة، يحافظ عليها أتم المحافظة، وهو الّذى يعهدونه من قبل ولم يتغير كما يتوهم الناس، ولا يزال ساهراً على مصالح العرب والمسلمين . وفى عام ١٣۴۶ هـ قررت الحكومة العراقية التفاوض لإقامة مخافر للشـرطة مجهزة باللاسلكى والسيارات المصفحة بالقرب من الحـدود النجديـة، للإشـراف على تنقلات البـدو، ومنع الغزو، وفى أثناء إنشاء المخافر هاجم الإخوان مخفر البصـية فقتلوا عدداً من العمال والشـرطة الـذين كانوا فيه، ثم عادوا من حيث أتوا، وتقـدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشـرين كان من بينهم امرأة واحدة. كان الإخوان يشـنون غاراتهم على العشائر العراقيـة ويعيثون فيها نهباً وقتلا، إلى أن اضـطرت الطائرات الإنجليزيـة بإصـرار من الحكومة العراقيـة إلى إلقاء منشورات على الباديـة تنذر الإخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة أربعمائة ميل، ولكن لم يهتم الإخوان بهذه المنشورات، فـانتهت بقصف تجمعاتهم وقواهم(١) . إنّ قصف الطـائرات وضع ابن سـعود بين نارين: نار الإنجليز ونار الإخوان، ووجد ابن سـعود أن الأفضـل أن يتفـاوض مع الإنـجليز بـدلا من محاربتهم، فجرت مفاوضات فى جـدة مرتين، وكان يمثل الجانب البريطانى (سـرجلبرت كلاـيتون) ورجع عبـدالعزيز بعـد ذلـك إلى الرياض واجتمع مع الإخوان، فأخـذ يهـدىء روعهم، وطلب منهم أن يعرضوا شكـاواهم عليه، فـذكرو اله منهـا علاـقته بالكفار وصـداقته مع الأنجليز، واسـتعمال مخترعاتهم الشـيطانية كالسـيارات وأجهزة الهاتف، وتساهله تجاه المخافر الّتى يبنيها الكفار على الحدود، ومنع المسـلمين من الجهاد لإعلاء كلمة اللّه ونصر دينه، وفى هذا المؤتمر حاول ابـن سـعود أن يقنعهـم بـأن جهـاد الكفـار يجـب أن يكـون فى حـدود الطاقـة، وأن هـذه الآلاـت ليست من السـحر وعمـل الشـيطان .

١ . فيلبى عبداللّه: تاريخ نجد، ص ٣۵٩ . (۴٠٢) ثورة الإخوان

إنّ النتيجة الّتى انتهى إليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها الرؤساء الثلاثة فيصل الدويش وسـلطان بن بجاد وابن حثلين، فصاروا ينشـرون الإشاعات السيئة ضد ابن سعود، وأنه بصدد هدم الدين وموالا الكفار وطلب الملك، ويقطعون الطريق على القوافل، ويهاجمون عشائر العراق . كان عدد الثائرين نحواً من خمسة آلاف رجل فأعدّ عبدالعزيز جيشاً كبيراً لقتالهم يربو على خمسة عشـر ألفاً، ووقعت المعركة بين الفريقين فى صباح ٣۵ آذار سـنة ١٩٢٩ الموافق سـنتة ١٣۴٩ هـ وانتهت بهزيمـة الإخوان وانتصار عبـدالعزيز . يقول الـدكتور على الوردى: إنّ معظم بناة الدول يقتلون من ساعدهم على بنائها، وسـبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا البانى فى ثمرة

بنائه، بينما هو لا ـ يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة، فينشب النزاع بينهم، وربما ينتهى إلى القضاء على أولئك المساعدين، وقد صدق من قال: السياسة لا أب لها. ويبدو أنّ هزيمة الإخوان كانت بسبب أن المشايخ والعلماء كانوا مع عبد العزيز، وهذا مما أدى إلى الوهن فى عزيمة الإخوان، وقلل من فدائيتهم وحماسهم الدينى(۱). لمّا تخلّص عبدالعزيز من حركة الإخوان، أنشأ جيشاً تحت إشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثمانى واستورد السيارات وأجهزة اللاسلكى، وأنشأ مدارس حديثة فى بلاده، وهو وإن تخلّص من شرّ الإخوان لكنه ابتلى بشر علماء الدين النجديين، فقد أوجد فتح المدارس الإبتدائية فى الحجاز ضجة بينهم، فاحتجوا على عبد العزيز بأنه يجرى تعلم الرسم أولا، واللغات الأجنبية ثانياً، والجغرافيا ثالثاً فى تلك المدارس الحديثة . ـــــــــــــــــــ

۱ . صادق حسن السودانى: العلاقات العراقية السعودية، ص ۳۰۸ والوردى، على، لمحات ص ۳۳۵ . (۴۰۳)

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة الّتى ترد إلى البلاد، فاستنكروا الحاكى والسينما والأنوار الكشافة والطائرات، فهم يعتقدون فى الطائرات مثلا أن ركابهم يتحدَّون ربهم بها(۱) . وحين بدأ الأمريكيون ينقبون عن النفط فى منطقة الظهران، قال المشايخ لابن سعود: لا يجوز دخول الكفار البلاد لأنهم يفسدون الرجال والنساء، ويدخلون الخمر والفوتوغراف وما شاكل ذلك من الأمور الشيطانية إلى داخل البلاد، ومن الطرائف الّتى تروى فى هذا الصدد أن جماعة من البريطانيين زاروا ابن فى قصره فى الرياض، وبينما هم فى القصر حلّ وقت الصلاة، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف إمام لهم، فقرأ الإمام فى الركعة الأولى قوله تعالى: (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ) وأعاد قراءة الآية فى الركعة الثانية، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود من مكانه نحو الإمام وأشبعه وخزاً وركلا، وهو يؤنبه قائلا: «ما لك بالسياسة يا خبيث، وما الّذى تقصده من ترديد هذه الآية فى كل ركعة؟ أفلا توجد آيات غيرها»(۲) . فلم تُجْدِ اعتراضات الإخوان ومعارضة المشايخ نفعاً . وهنا يقف القارىء على تطور الوهابية فى سيرها التاريخى، فمبادىء الوهابية هى الّتى كان الإخوان يطلبونها، فقضى عليهم عبد العزيز بالسيف والنار، ثم ما يطلبه المشايخ من تحريم العلم الحديث والاختراعات الحديثة وإيقاف المجتمع على ما كان عليه من السذاجة والبساطة، وهؤلاء يستنكرون، وعبد العزيز كان يعمل بقوة وقدرة، ويستقطب الرأى العالم لصالحه، فلم يجد المشايخ بدّاً من السكوت. وأين هذه المبادىء الّتى تسوق إلى الأُمية من وهابية اليوم الّتى يدرس مشايخها فى الجامعات الحديثة وينالون الدرجات العلمية الرائجة فى الغرب، ويأكلون ويلبسون ويسافرون مثل الإفرنج، حتّى أنّ مفتى المملكة تذاع خطبه مباشرة عن طريق وسائل الإعلام السمعية والبصرية، وها هنّ البنات يدرسن فى الجامعات فى مختلف العلوم، ـــــــــــــــــــ

۱ . فيلبى، عبداللّه: تاريخ نجد، ص ۳۵۶ .

۲ . المميز، أمين: المملكة العربية السعودية كما عرفتها، ص ۱۲۶ ـ ۱۲۹. (۴۰۴)

وهذه المقاهى ودور السينما والأفلام المبتذلة الخليعة، وأشرطة الأغانى والموسيقى: هذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على أنه لم يبق من مبادىء الوهابية إلاّ ما يمت إلى الأولياء وقبورهم ومراسم إحياء مواليدهم، لم يبق شىء منها، سوى ما يرجع إلى الحط من مقامات الأولياء وتوقيرهم واحترامهم، فبناء القباب على مشاهد الصالحين محرم، والتوسل بهم محظور، لكن الربا جائز والحلف مع الكفّار سائغ، وتسليطهم على بلاد المسلمين لدعم عرش السلطة أمر لابد منه، والأغانى الّتى تشيع الخلاعة وتدفع الشباب إلى الميوعة والتسيب الخلقى مباحة ومشروعة، وهكذا دواليك . (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مَمّا يَكْسِبُونَ)(۱) . ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة البقرة: الآية ۷۹ . (۴۰۵) أزمة ثالثة يواجهها عبدالعزيز

قد قضى عبدالعزيز على فتنة الإخوان، وكافح محالفة مشايخ الدين، ولكنه قد واجه عام ۱۳۴۹ هـ وما بعدها أزمة خاصة، وهذه السنوات كانت منحوسة على أمير الحجاز، حيث إنّ الأزمة الاقتصادية قد خيمت بكابوسها على الحجاز ونجد، وقلّ مجىء الحجاج إلى الحجاز، فبعد ما كان عدد الحجاج فى السنوات السابقة يقدر بمائة ألف انخفض إلى أربعين ألفاً فى عام ۱۳۵۰ هـ وإلى ثلاثين ألفاً فى عام ۱۳۵۱ هـ وإلى عشرين ألفاً فى العام المتأخر عنها، فساد البؤس والحرمان فى أنحاء الحجاز، وأصبح الكثير من سكانه على

حافة المجاعة، وأينما سار الحجاج يحيط بهم المتسولون من كل جانب للاستجداء، وإذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الأطفال متكالبين من شدة الجوع(۱) . وهذا فيلبى يذكر فى مذاكراته: بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز، فأعرب عن قلقه فى ذات يوم، وقال بأنّا سنواجه كارثة اقتصادية تحل بالبلاد، ويضيف فيلبى: قلت له إن بلدك ملىء بالكنوز الدفينة من نفط وذهب، وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك، ولا تسمح للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك، فقال عبد العزيز: لو وجدة من يدفع لى مليون جنيه فإننى سأمنحه كل ما يريده من امتيازات فى بلادى(۲) . ______________

۱ . خيرى حماد، عبداللّه فيلبى، ص ۲۰۸ ـ بيروت، ۱۹۶۱ م.

۲ . نفس المصدر . (۴۰۶)

لمّا وقف الغرب على وجود الكنوز فى أراضى نجد، حصل التنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط بين شركتين: إحداهما أمريكية والأخرى بريطانية، وقد تمكنت الشركة الأمريكية من الحصول على الامتياز عام ۱۳۵۳ هـ ووقعت الاتفاقية فى جدة، من قبل مستر هاملتون والشيخ عبداللّه سليمان ممثل الحكومة السعودية .(۱) وكانت هذه هى الخطوة الأولى الّتى مكنت الأمريكيين من السيطرة على منابع الثروة فى شبه الجزيرة العربية. وبعد فترة من الزمن، وبشكل تدريجى تمكن الأمريكيون من إعمال نفوذهم، والسيطرة على جميع مصادر الثروة بالحد الّذى نشاهده اليوم، ولا نطيل الكلام فى ذلك، ونحيل القراء الكرام إلى مطالعة الصحف اليومية الّتى تصدر من أجهزة الإعلام العالمى، والتى تحكى مراراً وتكراراً أخبار خيانة آل سعود لشعوب العالم الإسلامى، وسعيهم الحثيث لاستنزاف مصادر الثروة لصالح الأمريكيين . زوجاته وأولاده

يقول الوردى: كان عبدالعزيز مزواجاً إلى درجة يندر أن يكون له مثيل فى عصرنا، وكان مولعاً بزيادة نسله حتّى بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً، مات منهم عشرة وبقى منهم خمسة وثلاثين، وأما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً، وقد تولد آخر ولده فى عام ۱۳۶۸ هـ وكان فى الواحدة والسبعين من عمره، وقد ناهز عدد أولاد وأحفاده بما فيهم من البنات عند وفاته الثلاثمائة . إنّ هذا العدد الكبير من الأُمراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير فى المملكة السعودية، فقد صاروا طبعة متميزة تعيش فوق القانون، وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد لا يحصى، ولا ______________

۱ . الوردى ـ على: لمحات، ص ۳۵۱ . (۴۰۷)

حاجة إلى القول بأن اجتماع هذين العاملين ـ التميز الطبقى وتوافر المال – لابد أن يؤدى بطبيعته إلى الترف الباذخ والانهماك فى الشهوات بلا حدود(۱) . نهاية العهد

بدأت تظهر على عبدالعزيز منذ سنة ۱۳۶۷ هـ أعراض الشيخوخة والانحلال، وزاد الألم فى ركبتيه فلم يعد يقوى على المشى، ولجأ إلى الاستعانة بكرسى متحرك، وعاد لا يميز الأشياء على الرغم من ارتداء النظارات، إلى أن لفظ أنفاسه فى ثانى شهر ربيع الأول سنة ۱۳۷۳ هـ عن سبعة وسبعين عاماً، ونودى بسعود بن عبدالعزيز ملكاً، وبفيصل ولياً للعهد، وبعدما عُزل سعود عن العرش جرت البيعة لفيصل ملكاً، ولخالد ولياً للعهد، فلما قتل فيصل جرت البيعة لخالد بن عبدالعزيز ملكاً، ولفهد ولياً للعهد، وبعد موت خالد ألقيت مقاليد الملوكية بيد فهد، وصار عبداللّه بن عبدالعزيز ولياً للعهد ;وإليك لمحة خاطفة عن حياة هؤلاء إكمالا للبحث(۲) . ۱۵ ـ سعود بن عبدالعزيز (۱۳۷۳ ـ ۱۳۸۴ هـ)

ولد سعود بن عبدالعزيز عام ۱۳۲۰ هـ وهو الابن الثانى لعبد العزيز، وولد فيصل عام ۱۳۲۴ هـ من الزوجة الثانية لعبد العزيز، وهى من آل الشيخ، وقد جرى بين الأخوين غير الشقيقين تنافس مستمر لم ينقطع حتّى بعد موت عبدالعزيز، بالرغم من اليمين الّذى أقسماه، وقد أدلى سعود فى أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسى الأول بوصفه أنه ملك، وأنّ من أهدافه تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض، وتحسين الخدمات الطبية، وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات(۳) . ولكن كان لسعود وفيصل تاريخ من المنافسة حتّى دعاهما أبوهما إلى غرفة نومه الّتى أمضى فيها آخر شهور حياته، وقال لهما: أمسكا بأيديكما وأقسما بأن

۱ . الوردى، على: لمحات، ص ۳۲۲ .

۲ . جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۶۶ .

۳ . أمين سعيد: تاريخ المملكة السعودية، ج ۳ ص ۱۶ . (۴۰۸)

تعملا معاً حينما أموت، وأن لا تتجادلا فيما بينكما بحيث لا يسمع العالم عدم توافقكما، ولكن ما مضى شيء من موت الوالد حتّى بدأت الخلافات تظهر بسرعة، وتزايدت الانشقاقات بأكثر مما كان يتصور(۱) . سقط الملك سعود عام ۱۳۸۱ هـ مريضاً بسبب قرحة فى الأمعاء، وأشار الأطباء الأمريكيون عليه بالذهاب للعلاج إلى أمريكا، ولما عاد سعود إلى البلاد بعد بضعة أشهر استغرقت علاجه فى الخارج، وبعد أن استحوذ فيصل على كل شيء من أجهزة الدولة، وكادت أن تقع مصادمات عنيفة بين الأخوين لولا أن تدخلت العائلة، حيث أثمرت تسوية بين الأخوين على أن يتقاسما الوزارة . وفى خريف عام ۱۳۸۲ هـ قصد سعود أوربا للعلاج، فأخذ فيصل يعمل بنشاط لإحكام سيطرته على السلطة، وعيّن أخاه غير الشقيق قائداً للحرس الوطنى، وأخاً آخر حاكماً للرياض، فلما عاد سعود فوجيء بالتغييرات الأخيرة، فاضطر إلى الرضوخ لما أملاه عليه أخوه من الظهور بمظهر الملك، دون صلاحية للتدخل فى الشؤون الداخلية للبلاد . وانتهى بعد خلافات واسعة إلى خلع سعود بن عبدالعزيز عن الملك، وحلّ فيصل بن عبدالعزيز ملكاً مطلقاً على المملكة، وصدرت الفتوى (الشرعية) اللازمة من الشيخ محمد إبراهيم مفتى الديار السعودية فى ۱۶ من شهر جمادى الثانية عام ۱۳۸۲ هـ واضطر سعود إلى مغادرة البلاد والانتقال إلى مصر، فحل فى القاهرة ضيفاً على عبد الناصر أيام كانت العلاقات بين مصر والجزيرة العربية متوترة، إلى أن مات فيها عام يراجع المصدر وقد كان ذا ثروة طائلة بذلها لاسترداد عرشه، ولكنه خسر فى هذه المحاولة . يقول جبران شامية: ما من رجل استطاع أن يبذل هذه الأموال فى مثل هذا الوقت القصير، وبمثل هذه النتائج الضئيلة كسعود(۲) .

۱ . القحطانى ـ فهد: صراع الأجنحة فى العائلة السعودية، ص ۸۰، ط لندن .

۲ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۷۹ ـ ۱۸۰. (۴۰۹) ۱۶- فيصل بن عبدالعزيز (۱۳۸۴ ـ ۱۳۹۵ هـ)

قد تسنّم فيصل منصة العرش بعد خلع أخيه سعود من الحكم وهو يعلم أن الضمان الوحيد للإبقاء عليه على منصة الحكم هو إظهار الولاء للأمريكيين، فاتصل بسفير أمريكا ورؤساء شركة آرامكو مراراً ليقنعهم بأنه أجدى لهم وأبقى لمصالحهم من سعود، وفى عام ۱۳۸۵ هـ سافر إلى أمريكا ومكث مدة مبدياً للمسؤولين الأمريكان تذمره من سعود، واجتمع بوزير خارجية أمريكا آنذاك (جون فوستر دالاس) وبالرئيس الأمريكى السابق (أيزنهاور) شاكياً لهما سوء تصرفات سعود(۱). وقال فيصل: إننى أقول لكم بصراحة: إنّ هناك من الأمريكان المسؤولين عندما يكتب لكم ضدى ويزعم أن سعوداً أكثر إخلاصاً لأمريكا منى لكنهم على خطأ، فإننى أصدق صديق لأمريكا(۲). وجهت مجلة «المصور» لفيصل الأسئلة التالية التى أقحم فيها تعبيره عن حبه لأمريكا بطريقة غير مستقيمة: س ـ ما سبب رحلة سموكم إلى أمريكا؟ ج ـ السبب هو أننى أصدق صديق لأمريكا، لكن الأمريكان مع الأسف الشديد لم يقدروا هذه الصداقة حتّى الآن. ونشرت له مجلة المصور أيضاً بتاريخ (۱۷/۸/۱۹۵۸) تصريحاً قال فيه: يعتقد الأمريكان أنى عدو لهم، مع أنهم لو أدركوا معنى نصحى لهم لعرفوا أنى أصدق صديق لهم . وعقد «جون فوستر دالاس» وزير خارجية أمريكا مؤتمراً صحيفاً أعلن فيه بكل صراحة عندما سئل عن رأيه بتولى فيصل لمناصبه، قائلا: إننى مطمئن كل الإطمئنان بكل ما حدث فى السعودية، نحن قد تفاهمنا مع الأمير فيصل فى ذلك عندما كان فى أمريكا(۳) .

۱ . السعيد، ناصر: تاريخ ال سعود، ص ۶۶۱ ـ ۶۶۲ .

۲ . مجلة المصور المصرية فى عددها الصادر بتاريخ ۱۳/۷/۱۹۵۸ م .

۳ . ناصر السعيد: تاريخ آل سعود نقلا عن مجلة المصور المصرية . (۴۱۰)

قد وجه وفد مبعوث عن التلفزیون البریطانی سؤالاـ عن إمکان قیام نظام دیمقراطی فی السعودیة، فأجاب فیصل: فی اعتقادنا أن فی المملکة فی وقتها الحاضر أحسن وأجود نظام دیموقراطی، ونحن فی بلادنا لا نشعر بأن هناک أی فوارق أو ممیزات لفئة أو لأشخاص دون أشخاص، وإن الجمیع متساوون فی الحق أمام الحکم العادل، ولذلک نعتقد أننا نمثل أعلی دیموقراطیة(۱) . وفی الوقت الّذی یجیب فیه عن الأسئلة بهذه الصورة بکل صلف وشراسة، نجد أن المملکة الواسعة صارت ملکاً لقبیلة واحدة تملک کل شیء، ولیس هناک مجلس للنواب ولاـ مجلس للشیوخ، ومع ذلک فهم یمثلون أجود نظام دیموقراطی، وأقصی ما عندهم مجلس الوزراء، وهم الطبقة الأولی من هذه العائلة یمثلون الوزارة! کان فیصل یملک ویحکم إلی أن قتل بید ابن أخیه فیصل بن مساعد بن عبدالعزیز، حیث دخل مکتبه مع الوفد النفطی الکویتی الّذی قدم للقاء فیصل، وحین وصل دوره للسلام علی الملک وانحنی لتقبیل کفه، أخرج من معطفه مسدساً أطلق منه ثلاث رصاصات وجهت لرأس الملک وصدره، وبذلک طویت صحیفة عمره، وقد کثرت التعالیق السیاسیة علی هذا القتل حتّی رمی القاتل بالجنون مع أنه أجری علیه القصاص! ۱۷- خالد بن عبدالعزیز (۱۳۹۵ ـ ۱۴۰۲ هـ)

اجتمعت العائلة السعودیة وأفراد الأُسرة المالکة وبایعوا خالداً أخاه بالملک، وفهد کولی لعهده، وقد جاءت المبایعة بسرعة لاستباق الأحداث، ولکن منذ الیوم الأول لإعلان البیعة لخالد کانت الأنظار متوجة إلی فهد کملک غیر متوج، وکان خالد یملک ولا یحکم، وهو یحکم ولاـ یملک، إن الأمریکیین کانوا یرغبون فی وصول فهد إلی الملک، ففهد هو الّذی یلقی بیانات الملک خالد وکلماته وخطبه، وهو الّذی تفرد بالزیارات الرسمیة، فزار الکویت والعراق، ثم إیران وفرنسا ولندن وسوریا والأردن ومصر .

---

۱ . ناصر الشمرانی: فیصل القاتل والقتیل، نقلا عن کتاب فیصل بن عبدالعزیز من خلال أقواله وأعماله، صلاح الدین المجد، ص ۲۰۴

. (۴۱۱) زلزال جهیمان فی مکة

وفی مطلع القرن الخامس عشر الهجری فی شهر محرم، سیطرت مجموعات من الأشخاص الذین ینتمون إلی حرکة «الإخوان» علی الحرم المکی الشریف، یرافقهم فی ذلک نساؤهم وأطفالهم، وحاول النظام السعودی إخفاء ما حدث، وقام بعدة إجراءات ابتدأت بالصمت وانتهت بغلق المطارات وقطع الأتصالات الهاتفیة بالخارج، ولکن لما تسرب الخبر إلی الخارج، اضطر آل سعود إلی إعلان النبأ مشوهاً، ومنعوا الصحفیین من الدخول إلی البلاد، وقال فاسیلیف: «أعلنت منظمة حرکة الثوار المسلمین فی شبه الجزیرة العربیة، الّتی لم تکن معروفة آنذاک، أنها تتولی قیادة الأنتفاضة، وأعلن الزعیم الروحی للثوار وهو محمد القحطانی الّذی قال عن نفسه إنه المهدی المنتظر، أن هدف الحرکة یتمثل فی تحریر البلد من زمرة الکفار (العائلة المالکة ورجال الدین المرتزقة الذین لا همّ لهم سوی التمسک بمناصبهم وامتیازاتهم) . أما الزعیم السیاسی للحرکة فهو الجهیمان العتیبی البالغ من العمر ۴۷ عاماً، فقد ندّد فی خطبه بأن الحکومة تدعی من جهة أنها مرکز الدین الحنیف فی العالم، ولکنها من الجهة الأخری تناصر الظلم والفساد والرشوة، وندد جهیمان بالأمراء الذین یستولون علی الأراضی ویبذرون أموال الدولة، ونعتهم بـ «السکیرین» الذین یعیشون حیاة الفسق والفجور فی البیوت والقصور الفخمة . ولم یکن فی وسع العائلة المالکة القبول بشروط المنتفضین للتفاوض إذ أنها تضمنت مطالب بإجراء تعدیلات فی الوزارة، منها إقصاء کبار الأمراء عن مناصبهم، وإعادة النظر جذریاً فی سیاسة استخراج وتسویق النفط، وطلب المنتفضون بوقف بیع النفط إلی الغرب عموماً، والعودة إلی أحکام الإسلام الخالص، وطرد جمیع المستشارین العسکریین الأجانب من البلد . وأضاف فاسیلیف: عاد ولی العهد فهد من تونس، وأصر علی قمع الأنتفاضة بالقوة، وقد استخدمت قوات الحکومة القنابل المسیلة للدموع (۴۱۲)

والمدافع والطائرات لإرغام المتنفضین علی الأنسحاب من المسجد الحرام، وردّ المنتفضون بإطلاق النار من السطوح والمنائر، واستمرت المقاومة الضاریة الّتی أبداها زهاء ألف شخص أسبوعین، وأدت کما تقول السلطات، إلی مصرع عشرات الأشخاص، بینما یقول شهود العیان إن القتلی کانوا یعدون بالمئات، وکان بین القتلی «المهدی» ذاته، أما الزعیم السیاسی للحرکة (جهیمان العتیبی) فقد

أعدم مع ۶۲ شخصاً من رفاقه، في ۹ كانون الثاني (يناير) ۱۹۷۰ م، وكان بين من أعدموا علاوة على السعوديين مصريون ويمنيون وكويتيون وعرب آخرون...(۱) . فتوى وعّاظ السلاطين ضد المستأمنين بحرم اللّه

اجتمع الملك خالد مع عدد من العلماء المتواجدين في الرياض بعد وقوع الحادثة، وأطلعهم على ما جرى، فقدم لهم معلومات مصطنعة عن تعداد الرهائن وقتل المصلين والحجاج وغير ذلك، فاستفتاهم في كيفية حل الأزمة، فوافاه الجواب بالنحو التالي: «بسم اللّه الرحمن الرحيم»: أما بعد، ففي يوم الثلاثاء اليوم الأول من شهر محرم عام أربعمائة وألف من الهجرة، دعانا نحن الموقعين أدناه جلالة الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود وأخبرنا أن جماعة في فجر هذا اليوم بعد صلاة الفجر مباشرة دخلوا في المسجد الحرام مسلحين، وأغلقوا أبواب الحرم وجعلوا عليها حراساً مسلحين، وأعلنوا طلب البيعة لمن سموّه المهدى، ومنعوا الناس من الخروج من الحرم، وقاتلوا من مانعهم، وأطلقوا النار على أناس داخل المسجد وخارجه، وقتلوا بعض رجال الدولة وأصابوا غيرهم، وإنهم لا يزالون يطلقون النار على الناس والمسجد، واستفتانا في شأنهم وما يعمل معهم فأفتيناه أن الواجب دعوتهم إلى الإستسلام ووضع السلاح، فإن فعلوا قبل منهم وسجنوا حتّى ينظر في أمرهم شرعاً، وإن امتنعوا وجب اتخاذ كافة الوسائل للقبض عليهم ولو أدى إلى قتالهم وقتل من لم يحصل القبض عليه ________________

۱ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۵۱۶ ـ ۵۱۷ . (۴۱۳)

منهم، ولا يستسلم إلا بذلك، لقوله تعالى: (وَلا تُقاتِلُوهُم عِندَ المَسجِد الحَرام حتّى يُقاتِلوكُم فِيه فإن قاتَلوكُم فَاقتلوهم كَذلك جزاءُ الكافِرين).

ولقول النبي ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «من أتاكم جمع يريد يفرق جماعتكم ويشق عصاكم فاضربوا عنقه...» . هذه الفتوى أُصدرت على أساس المعلومات قدمها الخصم، وكان من واجبهم أن يتقربوا من الحرم حتّى يطّلعوا على الأمر، وكيف يحق للقاضي أن يصدر حكمه على أساس معلومات يقدمها أحد المتخاصمين، وبالتالي قتل من قتل وأخذ من أخذ، ثم قطعت رؤوس عدة من المقبوض عليهم وسجن النساء . وهناك سؤال يتبادر إلى الذهن وهو: لماذا التجأ هؤلاء إلى بيت اللّه الحرام؟ ولعله لما جاء في الروايات بأن المهدى حين يظهر في الحرم يأتي لقتاله جيش عرمرم يخسف اللّه به الأرض، وهذه الفكرة هي الّتي دفعت بالجماعة إلى الحرم . وهناك خطأ غير مغفور، وهو أن ما ورد فإنما هو في المهدى المنتظر، لا في من أسمى نفسه مهدياً . وبذلك انتهت هذه الحركة الّتي كانت استمراراً لحركة الإخوان، وكان الملك وأبناء العائلة فرحين مسرورين بذلك، ولم يبرح خالد يملك ولا يحكم إلى أن وافته المنية وأخترمه الأجل المحتوم عام ۱۴۰۲ هـ وأصدر الديوان المكي بياناً آخر جاء فيه: «لقد قام أفراد الأسرة وعلى رأسهم صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن عبدالعزيز بمبايعة ولي العهد الأمير فهد بن عبدالعزيز ملكاً على البلاد، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ترشيح صاحب السمو الملكي الأمير عبداللّه بن عبدالعزيز ولياً للعهد. وقد أجمع أفراد الأسرة على ذلك وقاموا بمبايعة سموه... وقد تقرر أن (۴۱۴)

يقوم المواطنون، بالبيعة لجلالة الملك فهد بن عبدالعزيز ولسمو ولي العهد الأمير عبداللّه بن عبدالعزيز في قصر الحكم بالرياض صباح غد» . جدير ذكره أن موت الملك لم يحدث فراغاً سياسياً، لما عرفت أنه كان يملك ولا يحكم . الملك فهد واستقدامه قوى الكفر(۱)

ويكفي في مساوىء «فهد» المتسلط على مقدرات الحرمين الشريفين، وعدم أهليته لهذا المنصب الخطير وهذه المسؤولية المقدسة، استقدامه لقوى الفكر والشرك إلى أرض مكة والمدينة، المحرمة على المشركين، واستعانته بهم بحجة الدفاع عن الحجاز، ولكن في الحقيقة للدفاع عن مطامع الأمريكان والصهاينة الطويلة في ثروات المسلمين، من دون التفات إلى حكم المذاهب الإسلامية بحرمة دخول الكفار والمشركين مكة والمدينة وما حولهما، بل وحكم القرآن قبل ذلك بحرمة الركون إلى الكفار وتوليهم . فقد قال القرآن: (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)(۲) . وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوا قَوماً غَضِبَ اللّه عَلَيْهِمْ)(۳) وقال: (وَلاَ

تَتَوَلَّوا مُجْرِمينَ)(۴). وقال تعالى: (إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللّه عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهرُوا عَلَى إخْراجِكَم أنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(۵) . وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَصارى أَوْلِيَاء)(۶) .

---

۱ . كان تقديم الملازم الأخيرة من هذا الجزء، مقارناً لهذه الحادثة المؤلمة فأثبتناها فى هذا المقام لتبقى فى ذاكرة التاريخ غير الناسى، وإن كان الإنسان ذهولا .

۲ . سورة هود: الآية ۱۱۳ .

۳ . سورة الممتحنة: الآية ۱۳ .

۴ . سورة هود: الآية ۵۲ .

۵ . سورة الممتحنة: الآية ۹ .

۶ . سورة المائدة: الآية ۵۱ . (۴۱۵)

وقال سبحانه: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُون المُؤمِنين أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً)(۱). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِياءَ)(۲) . وقال سبحانه: (إنَّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسجِدَ الحَرَامَ)(۳) . وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَولياءُ بَعْض)(۴) . وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى حديث متواتر: «أخرجوا اليهود من جزيرة العرب. لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب» وأمر بمضايقتهم فى الطرقات حتّى يضطروا إلى أضيقها(۵) . وأما الفقهاء، فقال الإمام النووى فى كتاب المنهاج: «ويُمنع كل كافر من استيطان الحجاز، وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها...» راجع كتاب الجزية منه . فكيف يجوز لفهد، وهو يدّعى خدمة الحرمين الشريفين أن يقوم بمثل هذه الخيانة العظمى للحرمين وأهلهما، وليستقدم جيوش الغزو الغربى الصليبى الصهيونى إلى بلاد الوحى والرسالة، ويتكفل مؤونتهم، ويحمّل المسلمين مليارات لاستضافتهم، كما صرح المسؤولون السعوديون الوهابيون أنفسهم بذلك، وصرّح به قادة الغزو الغربى، كل ذلك بحجة الدفاع.. الدفاع عن ماذا؟ عن الحكم الوهابى الرجعى الأسود، وليس عن الشعب الحجازى المضطهد المظلوم، وليس عن الحرمين الشريفين، اللَّذين يفديهما المسلمون متى ـــــــــــــــ

۱ . سورة النساء: الآية: ۱۳۹ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۵۷ .

۳ . سورة التوبة: الآية ۲۸ .

۴ . سورة الأنفال: الآية ۷۳ .

۵ . راجع صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ومسند أحمد والموطأ والدارمى . (۴۱۶)

لزم الأمر بأرواحهم، وأنفسهم، وبأعز ماليديهم من الأهل والولد . كل هذا بغض النظر عما يجلبه هؤلاء الكفار من فسق وفجور، بل وأمراض وعاهات خلقية إلى شعب هذه البلاد المقدسة. هذه صورة إجمالية عن حياة العائلة السعودية بسلاطينها وأمرائها وملوكها، وقد وضعناها أمام القارىء ليقف على حقيقة المذهب، وعلى نزعات حماته وجناياتهم طيلة استيلائهم على الحكم والعرش، وأما تفصيل حياة الملك الأخير الّذى يحكم على البلاد حالياً فنتركه إلى جهد القراء لكى يقفوا على حياته وأعماله وتحالفه مع الكفار عن كثب، واللّه يعلم إلى متى يبقى هذا ويبقى عرشه . إنّ إدارة الحرمين الشريفين رهن كفاءات ومؤهلات للقائمين بها، وقد قال سبحانه: (وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُم اللّه وَهُمْ يَصُدّونَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرام وَمَا كَانُوا أَولياءَهُ إنْ أَوْلِياؤُهُ إلاَّ المُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ)(۱) وهل للعائلة السعودية، التقوى اللازمة لإدراة الحرمين الشريفين؟ وهل هم متّقون حتّى يتسنموا هذه المنصة؟ لا أدرى، ولكن القراء يدرون .

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَب يَنْقَلِبُونَ) .

تمّ الجزء الرابع من هذه الموسوعة، ویلیه الجزء الخامس فی تبیین عقیدة الخوارج، ومبدأ تکونهم، و حیاة مشایخهم بإذنه ومنّه سبحانه . والحمد للّه رب العالمین جعفر السبحانی ۸ جمادی الآخرة ۱۴۱۱ هـ ـــــــــــــــ

۱ . سورة الانفال: الآیة ۳۴ .

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ ُبنُ موسَی الرِّضا – علَـیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابِذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأَدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسیّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨۵ الهجريّة الشمسيّة (=١۴٢٧ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويّة الوطنيّة: ١٠٨۶٠١۵٢٠٢۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢۵-٢٣۵٧٠٢٣- (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣۵٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهرانَ ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التِّجاريّة و المَبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠۴۵(٠٣١١)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّی بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فی هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفيق.


مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩